عون الرحمن

في تفسير القرآن

وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام

تأليف

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ في قسم القرآن وعلومه

بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة القصيم

المجلد الحادي عشر

تفسير سورة يونس وهود ويوسف

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

عون الرحمن في تفسير القرآن

(١١)

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام./ سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم .- الدمام، ١٤٤١هـ
٥٠٤ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٨ ـ ٩٥ ـ ٨٢٧٤ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ تفسير ٢ ـ علوم القرآن ٣ ـ القرآن ـ أحكام
أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٥٤٤٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣
فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

تَفْسِيرُ سُورَةِ يُونُسَ

المقدمــة

أ- اســم الســورة:

سميت سورة يونس بهذا الاسم تكريمًا ليونس- عليه السلام- ولمن آمن به من قومه؛ لأنها انفردت بذكر خصوصية لقوم يونس: أنهم آمنوا بعد أن توعدهم رسولهم بنزول العذاب، فعفا الله عنهم لما آمنوا؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

ب- مكان نزولها:

نزلت سورة يونس بمكة في قول جمهور أهل العلم، وهو الصحيح.

ج- موضوعاتها:

١- إثبات إعجاز القرآن، وإثبات رسالة النبي ﷺ؛ لإنذار الناس عامة، وبشارة المؤمنين خاصة، وإثبات عظمة الله تعالى، ووحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، واستوائه على عرشه، ودلائل قدرته في خلق السموات والأرض، والشمس والقمر والليل والنهار، وتذكير العباد بتمام نعمته.

٢- إثبات البعث والجزاء، ومرجع الخلائق إليه عز وجل، والوعد للمؤمنين، والوعيد للكافرين، وإنه لا يعاجلهم، بل يمهلهم ولا يهملهم.

٣- بيان أن من طبيعة الإنسان والناس عامة اللجوء إلى الله ودعائه في الضراء، والغفلة والنسيان في السراء، بل والمكر والكفر وعدم الشكر إلا من رحم الله.

٤- التذكير بهلاك المكذبين من الأمم الماضية بسبب إجرامهم؛ لتحذير من جعلهم الله خلفًا لهم من مسلكهم.

٥- ذم المشركين في مكابرتهم وعنادهم للنبي ﷺ، ولما جاء به من الآيات، وبيان شدة ظلمهم في افترائهم على الله كذبا، وتكذيبهم بآياته، وعبادتهم ما لا ينفعهم ولا يضرهم. وتهديدهم ووعيدهم، وتنزيه الله عن شركهم.

٦- الامتنان على الناس بتسييرهم في البر والبحر. وذكر إخلاصهم في الدعاء

ووعدهم بالشكر عند إحاطة الموج بهم في البحر، وعودتهم إلى البغي في الأرض بعد إنجائهم.

٧- بيان حقارة الدنيا وسرعة زوالها، والترغيب بدار السلام، والدعوة إلى سلوك الطريق المستقيم الموصل إليها.

٨- وعد الذين أحسنوا بالمثوبة الحسنى بالجنة، ورؤية الرب جل وعلا، والوعيد للمسيئين بالنار، هم فيها خالدون، والفصل بينهم وبين شركائهم، وتبرأ كل منهم من الآخر، ومجازاة كل بما عمل.

٩- التذكير بنعمة الله على الناس بالخلق والرزق، وإثبات تفرده بملك السمع والإبصار، والحياة والموت، وتدبير الأمر، وإقرارهم بذلك- ومع ذلك يعبدون غيره، ويعدلون عن الحق إلى الضلال، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

١٠- تفنيد وإبطال ما هم عليه من الشرك، وما يزعمون من الشركاء، وإثبات أن القرآن حق من عند الله، وتحديهم أن يأتوا بسورة مثله، وذمهم بإتباع الظن وتكذيبهم وظلمهم وإفسادهم، وعدم تعقلهم، وعماهم وعدم إبصارهم وتشكيكهم بالوعيد.

١١- إثبات كمال عدل الله عز وجل، وإثبات خسارتهم يوم حشرهم يوم القيامة

١٢- تسليته ﷺ بأن الله قد يريه بعض الذي يعدهم أو يتوفاه، ومردهم إليه عز وجل وهو شهيد عليهم بأعمالهم يحاسبهم ويجازيهم ويفصل بينهم.

١٣- بيان استعجالهم العذاب والحساب، وأنه ﷺ لا يملك ذلك، وتخويفهم من حلوله بهم، فلكل أمة أجل، وبيان أن وعد الله حق، فإذا حل بهم العذاب لم ينفعهم إيمانهم ولا يقبل منهم فدية وجوزوا بما كانوا يكسبون ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

١٤- تذكير الناس بنعمة الله عليهم وفضله بإنزال القرآن؛ موعظة وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، ومنته عليهم بما أنزل لهم من الرزق.

والتنديد بالمشركين في تحريمهم وتحليلهم من دون الله افتراء على الله، وتهديدهم ووعيدهم.

١٥- إثبات شهادته عز وجل على جميع الخلق، وإطلاعه عليهم وعلى جميع أحوالهم، وأنه لا يعزب عنه من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وكل ذلك في كتاب مبين.

١٦- الوعد لأولياء الله بالأمن وعدم الخوف؛ لإيمانهم وتقواهم، والبشارة لهم في الدنيا والآخرة وعدًا حقًا من الله لا يبدل، وذلك الفوز العظيم.

١٧- تسليته ﷺ بأن لا يحزنه قول المشركين المكذبين له، فالله متوليه وناصره، ومحيط بهم، له ما في السموات والأرض، وبيان أنهم ليسوا على شيء، ما يتبعون فيما هم عليه من عبادة غير الله إلا الظن ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

١٨- الامتنان على العباد بجعل؛ الليل ليسكنوا فيه، والنهار مبصرا؛ ليعملوا فيه، وفي ذلك آيات لقوم يسمعون.

١٩- إبطال نسبتهم الولد لله تعالى، وإثبات غناه عز وجل عن جميع خلقه، فله ملك السموات والأرض، وذمهم بقولهم على الله بلا علم، وافترائهم وكذبهم وكفرهم. وتهديدهم ووعيدهم.

٢٠- تذكيرهم بقصة نوح وقومه ودعوته لهم وتكذيبهم له، وإنجائه ومن معه في الفلك، وإهلاكهم بالغرق؛ ليأخذوا العبرة مما أحله الله بالمكذبين قبلهم.

٢١- تذكيرهم بمن بعثه الله من الرسل بعد نوح بالبينات إلى أقوامهم، وتكذيبهم لهم، والطبع على قلوبهم لاعتدائهم.

٢٢- تذكيرهم ببعث موسى وهارون إلى فرعون وقومه ودعوته لهم، واستكبارهم وإجرامهم، واتهامهم إياهما بالسحر، وجمع فرعون السحرة؛ لمقارعة ما جاء به موسى من الآيات، وإبطال الله سحرهم، وإحقاق الحق، ومن ثم إنجاء موسى ومن معه من بني إسرائيل، وإغراق فرعون وقومه.

٢٣- تثبيت النبي ﷺ، وأن ما أنزله الله تعالى هو الحق، وبيان أن من حقت عليهم كلمة الله فلا سبيل لهم إلى الإيمان، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم.

٢٤- ثناء الله عز وجل على قوم يونس بتوبتهم وإيمانهم، ومن ثم كشف العذاب عنهم وتمتيعهم بقية أعمارهم.

٢٥- إثبات أن لله المشيئة النافذة في إيمان من آمن وكفر من كفر، فلو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعا، وتسليته ﷺ فلا يحزن على كفر من كفر، فليس أمر الإيمان إليه.

٢٦- التوجيه إلى التأمل والنظر في آيات الله في السموات والأرض، وما فيها من النذر، لكنها لا تغني عن قوم لا يؤمنون.

٢٧- تهديد المكذبين له ﷺ بأنهم ما ينتظرون إلا ما حل بالمكذبين قبلهم من أنواع العقوبات.

٢٨- وعده عز وجل بإنجائه ﷺ والذين آمنوا، كما هي سنته في إنجاء الرسل وأتباعهم المؤمنين.

٢٩- أمره عز وجل له ﷺ بمفاصلة المشركين الذين يعبدون غير الله، وأنه لا يعبد إلا الله مقيما وجهه للدين حنيفا، لا يشرك بالله غيره ولا يدع من دونه سواه مما لا ينفع ولا يضر كما يفعل الظالمون.

٣٠- تفرده عز وجل بتقدير الضر، وأنه لا كاشف له إلا هو، وبجلب الخير، فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده، وهو الغفور الرحيم.

٣١- أمره عز وجل له ﷺ بالإعذار من بالناس بما جاءهم من الحق من ربهم في القرآن وعلى لسانه ﷺ، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها، وأنه ﷺ ليس عليهم بوكيل، فالهداية والإضلال بيد الله والحساب عليه.

٣٢- أمره عز وجل له بإتباع ما يوحيه إليه والصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين. وفي هذا تسلية له ﷺ وتقويه لقلبه ووعد له بالعقبى الحسنة.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾.

قوله: ﴿الٓر﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في مطلع سورة البقرة.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الإشارة للقرآن الكريم، أي: تلك آيات القرآن، و«ال» في «الكتاب» للعهد، أي: الكتاب المعهود المعلوم القرآن الكريم الذي إذا أطلق اسم الكتاب انصرف إليه دون غيره؛ لأنه أعظم الكتب وأشرفها وأكملها؛ ولهذا أشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا وتشريفًا له.

وسمي القرآن «الكتاب»؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ [عبس: ١٣- ١٦]. ومكتوب أيضًا بأيدي المؤمنين في المصاحف.

﴿الْحَكِيمِ﴾ مأخوذ من «حكيم» بمعنى: «مُحْكَم»؛ لأن الله تعالى أحكمه وأتقنه وبينه، وجعله مشتملًا على الحكمة والأحكام والمواعظ والأخبار، وكل ما يحتاج إليه طالب الحق والهدى.

وهو أيضًا: من «حكيم» بمعنى: «حاكم»؛ لأنه الحاكم على الكتب قبله، المصدق لها، المهيمن عليها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء:١٠٥].

قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾.

امتدح عز وجل كتابه القرآن الكريم، ثم أنكر على من عجب من الناس من إيحائه عز وجل إلى رجل منهم بهذا الكتاب العظيم؛ للإنذار لهم والبشارة للذين آمنوا. وتكذيب الكفار له، وزعمهم أنه ساحر.

قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ الاستفهام: للإنكار، والتعجيب من تعجب المشركين تعجب إحالة وتكذيب أن يكون الرسول بشرًا.

و «أن» والفعل «أوحينا» في تأويل مصدر في محل رفع اسم (كان) مؤخر.

أي: أكان إيحاؤنا إلى رجل منهم؛ يعني: إلى محمد ﷺ، كما قال كل من هود وصالح لقومه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣، ٦٩] وقال تعالى عن الكفار من القرون الماضية: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، وقال تعالى مخبرًا عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥].

﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ «أن»: تفسيرية، فالجملة تفسير وبيان لقوله: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾، أي: أن أوحينا إلى محمد ﷺ أن أنذر الناس، أي: حذرهم وخوفهم عذاب الله

وعقابه، وحذف المنذر به للتهويل.

ويجوز أن تكون «أن»: مصدرية، وهي والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بباء محذوفة، أي: أوحينا إلى رجل منهم بإنذار الناس.

وأظهر ولم يقل: «أن أنذرهم»؛ لأن الناس هنا غير الأول، بل أعم منه؛ لأن الإنذار عام لجميع البشر.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ معطوف على «أنذر» فالإنذار لعامة الناس، والبشارة للمؤمنين منهم خاصة، والبشارة: الأخبار بما يسر، أي: أخبر الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم وعملوا الصالحات بجوارحهم.

﴿أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ﴾، أي: بأن لهم قدم صدق. وقوله: ﴿قَدَمَ صِدۡقٍ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: قدم صادق، والقدم: اسم لما تقدم وسلف، والمراد به في الآية: قدم خير، وهو ما قدموه من الإيمان والعمل الصالح بتوفيق الله تعالى لهم، وسبق السعادة لهم عنده عز وجل في الذكر الأول.

عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ﴾ يقول: «سبقت لهم السعادة في الذكر الأول»(١).

فقدم الصدق: ما سبق لهم من تقدير السعادة عند الله عز وجل، وما سبق منهم من إيمان وعمل صالح بتوفيق الله عز وجل لهم؛ قال حسان رضي الله عنه(٢):

لنا القَدَم الأولى إليك وخَلْفُنا لأولنا في طاعة الله تابعُ

وقدم الخبر وهو قوله: ﴿لَهُمۡ﴾ للتأكيد والتخصيص، أي: لهم خاصة.

﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أضاف عز وجل ما لهم من قدم صدق إلى نفسه؛ لتعظيمه، أي: عند ربهم المربي لهم بربوبيته الخاصة، سيجازيهم عليه، بالثواب العظيم والنعيم المقيم بجواره في جنات النعيم، كما قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ٣﴾ [الكهف: ٢، ٣].

---

(١) أخرجه الطبري في "جامع البيان" ١٢/ ١١٠.

(٢) ديوانه/ ص٢٤١.

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المكذبون بآيات الله الجاحدون لها.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر: «لَسِحْرٌ»، أي: قال الكافرون: إن هذا القرآن لسحر مبين، أي: سحر بيّن ظاهر، لا يخفى بزعمهم على أحد.

وقرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي: ﴿لَسَٰحِرٌ﴾، أي: قال الكافرون: إن هذا الرسول لساحر مبين، أي: بيّن أمره أنه ساحر.

وهذا من سفههم وجهلهم وعنادهم؛ وكما قيل:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم(١)

وقال الآخر:

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرًّا به الماء الزلال(٢)

وقال الآخر:

وكيف يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل(٣)

وقال المتنبي:

وهبني قلت هذا الصبح ليل ... أيعمى العالمون عن الضياء(٤)

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ الخطاب لجميع الناس، وأكد هذا الخبر بـ«إن»، لأن أكثر الناس كفار مشركون؛ ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

والمراد بالربوبية هنا الربوبية العامة لجميع الخلق: ربوبية الخلق والملك والتدبير.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: أوجدهما بعد العدم وما فيهما وما بينهما من

---

(١) البيت للبوصيري. انظر: «ديوانه» (ص٢٤٧).

(٢) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (ص١٨٣).

(٣) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (ص٢٢٠).

(٤) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (ص٢).

العوالم على غير مثال سبق.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الدنيا المعلومة؛ لأن الله خاطب الناس بما يعرفون، وهذا أدل على عظيم قدرة الله تعالى.

وقيل: من أيام الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

وهو سبحانه وتعالى قادر على خلقها في لحظة واحدة، ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية، وهو سبحانه رفيق يحب الرفق؛ كما قال ﷺ: «**إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله**»(١).

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾، أي: ثم بعد خلق السموات والأرض استوى على العرش، استواءً يليق بجلاله وعظمته؛ كما قال الإمام مالك: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»(٢).

والعرش أعظم المخلوقات وسقفها.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ الأمر: اسم جنس يعم جميع الأمور، أي: يصرف جميع شؤون الخلق وأحوال العالم، والكون كله، علويه وسفليه، من الإحياء والإماتة، وإنزال الأرزاق، ومداولة الأيام بين الناس، يعز قومًا، ويذل آخرين ويرفع قومًا ويضع آخرين، يخفض القسط ويقبضه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ «ما»: نافية، و«من» لتأكيد النفي، أي: ما من أي شفيع

---

(١) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين ٦٩٢٧، ومسلم في السلام ٢١٦٥، والترمذي في الاستئذان ٢٧٠١، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر «الأسماء والصفات» للبيهقي ص٥١٦، مجموع الفتاوي ١٧/ ٣٧٣، وانظر: الكلام على هذه الآية بأوسع من هذا في سورة الحديد.

إلا من بعد إذنه، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]. وفي الآية تعريض بالرد على المشركين في عبادتهم ما لا يخلق، ولا يملك من الأمر شيئًا، بل هم مخلوقون، وزعمهم أنهم يشفعون لهم عند الله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

﴿ذَٰلِكُمُ﴾، أي: ذلكم الموصوف بهذه الصفات العظيمة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ حقًّا؛ كما قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [يونس: ٣٢]، أي: ذلكم الله ربكم الحق ذو الربوبية التامة الجامعة لصفات الأفعال، وذو الألوهية الجامعة لصفات الكمال.

﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾، أي: أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتقريع، أي: أفلا تذكرون أيها المشركون، وتتأملون في أدلة وحدانية الله تعالى في ربوبيته الموجبة توحيده في ألوهيته، فتخلصون له الإلوهية كما أقررتم له بالربوبية، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧].

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

لما بين عز وجل تفرده بالربوبية، ووجوب إفراده بالعبودية؛ أتبع ذلك بإثبات المعاد ورجوع الخلائق إليه وحسابهم ومجازاتهم بأعمالهم.

قوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، أي: إليه- عز وجل- وحده رجوعكم وإيابكم أيها الناس يوم القيامة، وعليه حسابكم؛ كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

﴿جَمِيعًا﴾ حال، أي: كلكم. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾، أي: وعد الله في رجوع الخلائق إليه ﴿حَقًّا﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: محقق الوقوع وكائن لا محالة؛ كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ قرأ أبو جعفر بفتح الهمزة: (أنه)، وقرأ الباقون بكسرها ﴿إِنَّهُۥ﴾، أي: إنه سبحانه لعظيم في قدرته ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ فيخلق الشيء على غير مثال سبق، بتقديره أولًا، ثم برئه وتنفيذه وإيجاده.

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، أي: ثم بعد فناء ذلك الخلق يعيده كما كان، وهذا دليل عقلي ونقلي على المعاد، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ اللام: للتعليل؛ أي؛ ثم يعيد الله الخلائق ويبعثهم؛ لأجل أن يجازيهم بأعمالهم.

أي: ليثيب الذين آمنوا بقلوبهم وألسنتهم، وعملوا الأعمال الصالحات من الواجبات والمستحبات بجوارحهم، الذين جمعوا بين إيمان الباطن والظاهر، وجمعوا بين الإخلاص لله تعالى والمتابعة للرسول ﷺ، فكان عملهم صالحًا.

وحذف الموصوف في قوله ﴿ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ وهو الأعمال؛ لأن الأهم في العمل أن يكون صالحًا، وقدم جزاء الذين آمنوا عناية بهم وتشريفًا لهم وتكريمًا.

﴿بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: بالعدل والجزاء الأوفى، ويزيدهم من فضله؛ كما قال تعالى ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء:

١٧٣] وقال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٨]، وقال تعالى ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [فاطر: ٣٠].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ الواو: استئنافية، أي: والذين كفروا بآيات الله وكذبوا رسله لهم في جهنم ﴿شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ من ماء بالغ غاية الحرارة؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٧، ٥٨].

﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب.

قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٢-٩٤]، وقال تعالى: ﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٢].

﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: بسبب كفرهم وجحودهم؛ كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام: ٧٠].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

لما قرر عز وجل ربوبيته وألوهيته ورجوع الخلائق إليه يوم القيامة ذكر في هذه الآية والتي بعدها الأدلة الأفقية على ذلك، وعلى تمام قدرته، وكماله في أسمائه وصفاته من جعل الشمس والقمر، والليل والنهار، والسموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات.

قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾، أي: صيرها، أو خلقها ضياء بالنهار.

﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾، أي: وجعل القمر نورًا، أي: صيره، أو خلقه نورًا بالليل.

وقدم ذكر الشمس؛ لأن منافعها أكثر، وضياؤها أقوى من نور القمر.

والضياء أقوى من النور، والنور أعم يصدق على كل نور وإن قل.

﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾، أي: وقدر القمر منازل، و﴿مَنَازِلَ﴾ جمع منزل، وهو مكان النزول، والمراد هنا المواقع التي يظهر القمر في جهتها كل ليلة من الشهر، وهي ثمان وعشرون منزلة على عدد ليالي الشهر القمري.

أي: وقدر القمر وصيره منازل يسير ويتدرج فيها، ولا يجاوزها، ولا يقصر دونها، فأول ما يبدأ صغيرًا، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يتم ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حاله الأولى في تمام الشهر؛ كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس:٣٩، ٤٠]، وقال تعالى ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وهذه أسماؤها مرتبة على حسب تقسيمها على فصول السنة الشمسية، وهي: العواء، السِّماك، الأعزل، الغفر، الزبانى، الإكليل، القلب، الشولة، النعائم، البلدة، سعد الذابح، سعد بلع، سعد السعود، سعد الأخبية، الفرع الأول، الفرع الأسفل، الحوت، الشَّرطان، البطين، الثريا، الدبران، الهقعة، الهنعة، ذراع الأسد، النَّشرة، الطرف، الجبهة، الزبرة، الصَّرفة.

﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾، أي: لأجل أن تعلموا عدد السنين والحساب، وفي ذلك نعمة من الله تعالى، ومنة على خلقه؛ لضبط تواريخهم ومعاملاتهم وأمورهم وأسفارهم.

أي: وقدر القمر منازل؛ لأجل أن تعلموا، أي: تعرفوا أيها الناس عدد السنين بحصول كل سنة باجتماع اثني عشر شهرًا.

﴿وَٱلْحِسَابَ﴾ معطوف على «عدد»، أي: وتعلموا الحساب ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾، مصدر حسب بمعنى عد، وتعريفه للعهد، أي: الحساب المعروف، والمراد به حساب سير القمر الذي به معرفة الليالي، والتي بها تعرف الشهور، وبالشهور تعرف الأعوام. قال ابن كثير(١): «بالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام».

---

(١) في «تفسيره» ٤/ ١٨٥.

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الإشارة إلى جعل الشمس ضياءً والقمر نورًا، وتقديره منازل، أو له ولما تقدم من ذكر خلق السموات والأرض، فأشار إلى ذلك بإشارة البعيد؛ تعظيمًا لخلقه عز وجل.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، والباء للملابسة والمصاحبة؛ أي: إلا خلقًا ملابسًا ومصاحبًا للحق. والحق: الأمر الثابت، والمعنى: أن الله عز وجل ما خلق هذا الخلق عبثًا، بل خلقه لحكمة عظيمة، وهي الدلالة على وحدانيته، ووجوب عبادته وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحفص بالياء ﴿يُفَصِّلُ﴾، وقرأ الباقون بالنون: «نفصل».

أي: يفصل الآيات والأدلة والحجج الشرعية، ببيان ما فيها من الهداية والحكم والأحكام والمواعظ والعبر، الدالة على أنه من عنده عز وجل، وعلى وجوب إفراده بالربوبية والإلوهية؛ كما قال تعالى ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

كما يفصل عز وجل الآيات الكونية الدالة على كمال قدرته واستحقاقه العبادة وحده؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ

أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٩، ٤٠].

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: يعلمون العلم الذي ينفعهم، وهو معرفة الله عز وجل، والإيمان به وطاعته، العلم الذي يسعدهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، لا العلم الدنيوي فقط الذي ذم الله تعالى أهله فقال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، أي: في تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيء؛ كما قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وأيضا اختلافهما طولًا وقصرًا، فإذا طال هذا قصُر هذا، وإذا قصُر هذا طال هذا، وهكذا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ [لقمان: ٢٩].

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الواو: عاطفة، و«ما» اسم موصول معطوف على «اختلاف» من عطف العام على الخاص، أي: إن في اختلاف الليل والنهار، والذي خلق الله في السموات والأرض من جميع المخلوقات.

﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لدلائل كونية على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته في ربوبيته وألوهيته.

﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾، أي: لقوم يتقون الله عز وجل، ويتقون عذابه، فيتأملون في الآيات ويستدلون بها، على وجوب عبادته وطاعته، وامتثال أمره واجتناب نهيه.

وإنما خصهم؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالآيات؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

أما من عداهم فلا ينتفعون بالآيات، ولا تغني عنهم شيئا؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٩].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾

ذكر عز وجل في الآيات السابقة دلائل وحدانيته في ربوبيته وألوهيته، ثم أتبع ذلك بذكر انقسام الناس إلى عدم مستفيد من الآيات، وإلى مستفيد منها، وعاقبة كل منهما، في هاتين الآيتين وما بعدهما.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، أي: لا يطمعون في لقائنا يوم القيامة، ولا يؤمنون به، يعني الكفار المنكرين للبعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال، ولقاء الله عز وجل.

﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: رضوا بها، واعتاضوا بها عن الآخرة.

﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾، أي: ركنوا إليها، واطمأنت بها قلوبهم، وسكنت إليها نفوسهم، وجعلوها غاية همهم، ومبلغ علمهم، وصرفوا لها حياتهم، وأكبوا على لذاتها وشهواتها، كأنهم خلقوا للخلود والبقاء فيها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ فلا ينظرون ولا يتفكرون في الآيات الكونية، ولا يتدبرون الآيات الشرعية ولا يعملون بها.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾، أي: منقلبهم ومصيرهم يوم معادهم النار، وبئس القرار، وأشار إليهم بإشارة البعيد ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ تحقيرًا لهم.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: بسبب كسبهم، أو بسبب الذي كانوا يكسبونه، أي: يعملونه من الكفر والشرك وإنكار المعاد ولقاء الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِي

مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

لما أخبر عزَّ وجلَّ عن حال الأشقياء المكذبين بلقاء الله، والذين رضوا بالحياة الدنيا وآثروها، وسكنوا إليها، وغفلوا عن آيات الله، وتوعدهم بالنار بسبب كفرهم؛ أتبع ذلك بالإخبار عن حال السعداء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وما لهم عنده من الثواب في جنات النعيم؛ جمعًا بين الترهيب والترغيب.

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، أي: جمعوا بين التصديق بالباطن، وعمل الأعمال الصالحة بالظاهر، وأخلصوا العمل لله تعالى، واتبعوا شرعه.

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾، أي: يدلهم ربهم ويرشدهم ويوفقهم في الدنيا إلى معرفة الحق والعمل به؛ كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩] أي: بالعلم النافع والعمل الصالح اللذين هما رأس مال الإنسان في هذه الحياة.

ويدلهم ويوفقهم في الآخرة إلى الطريق الموصل إلى جنات النعيم؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢].

وقوله: ﴿رَبُّهُم ﴾، أي: مربيهم بربوبيته الخاصة بأوليائه.

﴿بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾، أي: بسبب إيمانهم وعملهم الصالح، الذي هو من مقتضى الإيمان.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾، أي: تجري على الدوام من تحت منازلهم وقصورهم وغرفهم وبين أيديهم الأنهار، أنهار من ماء غير آسن، ومن لبن لم يتغير طعمه، ومن خمر لذة للشاربين، ومن عسل مصفى.

﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ التام؛ نعيم القلب الذي هو أعظم النعيم بالفرح والسرور والبهجة والحبور، ونعيم البدن بالتلذذ بأنواع المآكل والمشارب، والمناكح، وغير ذلك، وأعظم ذلك وأجله التنعم برؤية ربهم وسماع كلامه عزَّ وجلَّ.

﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾، أي: دعاؤهم في الجنة، قولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ تنزيهًا لله تعالى عن النقائص والعيوب، أي: نسبحك وننزهك، ﴿ٱللَّهُمَّ ﴾، أي: يا الله.

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، أي: وتحيتهم في الجنة سلام من ربهم؛ كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

وسلام عليهم من الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وسلام من بعضهم على بعض؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦)﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾، أي: وخاتمة دعائهم قولهم: ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وذلك لما يرون من تضاعف نعم الله تعالى عليهم، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]

وقد ثبت في الحديث «أن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس»(١).

الفوائد والأحكام:

١- الإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم في ألفاظه ومعانيه وأحكامه، والتحدي به؛ لقوله تعالى ﴿الر﴾.

٢- تعظيم القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾.

٣- دلالة القرآن الكريم على وحدانية الله تعالى وعظمته وكمال ربوبيته وألوهيته واستحقاقه العبادة دون سواه، وعلى صدق الرسول ﷺ؛ لأن الله عزَّ وجلَّ سماه ﴿آيات﴾ فقال تعالى: ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾.

٤- أن الكتاب إذا أطلق فالمراد به القرآن الكريم، أفضل الكتب وأعظمها وأكملها؛ لقوله تعالى: ﴿الْكِتَابِ﴾.

٥- إحكام القرآن الكريم؛ لاشتماله على الحكم والأحكام والمواعظ والأخبار، وما يصلح الناس في دينهم ودنياهم وأخراهم، وجعله حاكمًا على الكتب قبله، مصدقًا لها

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٣٥، وأحمد ٣/ ٣٤٩، ٣٥٤، من حديث جابر رضي الله عنه.

ومهيمنًا عليها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾.

٦- الإنكار على المشركين في تعجبهم من الوحي إلى النبي ﷺ؛ لأنه رجل منهم وبشر مثلهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾.

٧- أن الرسل والأنبياء كلهم من البشر ليس فيهم أحد من الملائكة، وكلهم من الرجال الذكور ليس فيهم أنثى؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩].

٨- أن مهمة الرسول ﷺ الإنذار لمن كفر وعصى أمر الله، والبشارة لمن آمن وأطاع الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾.

٩- البشارة للمؤمنين بما لهم عند الله بما قدموه من الإيمان والعمل الصالح من الأجر العظيم والثواب الجزيل، وإثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لهم؛ وتكريمهم وتشريفهم بإضافة اسمه عز وجل إلى ضميرهم في قوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾.

١٠- تكذيب الكافرين للنبي ﷺ، ولما جاء به من الوحي، وزعمهم أنه ساحر، وما جاء به سحر مبين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، وأدلتها الدالة على عظمته وتفرده بالملك والخلق والتدبير، مما يوجب إفراده بالعبودية، والتذكر والاتعاظ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

١٢- أن الله عزَّ وجلَّ خلق السموات والأرض في ستة أيام، وله الحكمة في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ولو شاء لخلقها في لحظة واحدة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

١٣- إثبات استواء الله تعالى على عرشه استواء يليق بجلاله وعظمته، وإثبات وجود العرش، وهو سقف المخلوقات وأكبرها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

١٤- أن بيد الله عزَّ وجلَّ وحده تدبير أمر الكون والخلق كله، لا يشاركه في ذلك أحد؛ لقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾.

١٥- أنه لا أحد يشفع عند الله تعالى إلا بإذنه، لقوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾.

١٦- إثبات الشفاعة لمن أذن الله له بها؛ لمفهوم قوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]

١٧- وجوب عبادة الله تعالى وحده، وأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾.

١٨- الإنكار على المشركين في عبادتهم الأصنام مع إقرارهم بتوحيد الربوبية لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

١٩- إثبات البعث والمعاد ورجوع الخلائق إلى الله عزَّ وجلَّ ولقائه، وحسابه لهم ومجازاتهم على أعمالهم وعدًا عليه حقًّا؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الآية.

٢٠- قدرة الله تعالى التامة على البعث؛ لأنه الذي يبدأ الخلق ثم يعيده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

٢١- أن الحكمة في إعادة الخلق؛ لمجازاة الناس بأعمالهم بالعدل؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾.

٢٢- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب والعمل بالجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وفي هذا رد على المرجئة الذي يقولون: يكفي مجرد الإيمان.

٢٣- أن العمل لا يقبل إلا إذا كان صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٢٤- مجازاة المؤمنين بالعدل؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ الآية مع ما وعدهم الله به من الفضل؛ كما قال تعالى: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٣].

٢٥- الوعيد للذين كفروا بالنار وما فيها من شراب الحميم والعذاب الأليم بسبب كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾.

٢٦- إثبات العلة والحكمة في أفعال الله تعالى لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾، وقوله: ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾.

٢٧- تأكيد عظمته عزَّ وجلَّ، وتمام قدرته، وكمال ربوبيته وألوهيته بذكر الأدلة الأفقية على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾.

٢٨- الامتنان على العباد بجعل الشمس ضياء بالنهار؛ لما فيها من المنافع العظيمة للخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾.

٢٩- الامتنان بجعل القمر نورًا في الليل، وما في ذلك من المنافع، وتقديره منازل لمعرفة عدد السنين والحساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾.

٣٠- حكمة الله تعالى العظيمة في خلق السموات والأرض، وجعل الشمس ضياءً والقمر نورًا، وتقديره منازل لمعرفة السنين والحساب، وما في ذلك من الدلالة على عظمته عزَّ وجلَّ ووحدانيته، ووجوب عبادته وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

٣١- إقامة الحجة على العباد بتفصيل الآيات وبيانها؛ لقوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

٣٢- أنه إنما يستفيد من تفصيل الآيات ذوو العلم بالله وما يجب له؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

٣٣- النعي على الذين لا يؤمنون بلقاء الله، وركنوا إلى الدنيا، وغفلوا عن آيات الله، وذمهم وتوعدهم بالنار بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾.

٣٤- وجوب الاستعداد للقاء الله تعالى، والحذر من الركون إلى الدنيا والرضا بها والاطمئنان إليها، والغفلة عن آيات الله تعالى.

٣٥- إثبات وجود النار، وأن الله أعدها للمكذبين والكفار.

٣٦- الثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ووعدهم بهداية ربهم وتوفيقه لهم في الدنيا للطريق المستقيم، وفي الآخرة إلى الطريق الموصل إلى الجنة وما فيها من ألوان النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

٣٧- إثبات الجنة، وأن الله أعدها لعباده المؤمنين.

٣٨- أن الإيمان سبب للهداية في الدنيا والآخرة، والطاعة سبب للطاعة بعدها؛ لقوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾، أي: بسبب إيمانهم.

٣٩- طيب كلام أهل الجنة، فدعاؤهم فيها سبحانك اللهم، وتحيتهم فيها سلام، وختام دعائهم أن الحمد لله رب العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

٤٠- أن الجزاء من جنس العمل، وعلى وفقه، وكل يجازى بما كسب وعمل، فمن كفر فمأواه النار، ومن آمن وعمل صالحًا فمآله إلى الجنة دار الأبرار.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾.

قرأ ابن عامر ويعقوب بفتح القاف وقلب الياء ألفًا: «لقَضَى» ونصب «أجلَهم» وقرأ الباقون بضم القاف وكسر الضاد وفتح الياء: ﴿لقُضِيَ﴾ ورفع ﴿أجلُهم﴾.

أي: ولو يعجل الله للناس الشر ويبادرهم بالعقوبة به إذا ارتكبوا موجباته من الذنوب، أو دعوا به في حال ضجرهم وغضبهم على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

وقال ﷺ: «**لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا ساعة من الله فيها إجابة، فيستجيب لكم**»(١).

﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾، أي: كاستعجالهم في طلب الخير.

﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لمحقتهم العقوبة وهلكوا؛ ولكنه تعالى يمهلهم ولا يهملهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ﴾ [النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥]، ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨]

(١) أخرجه مسلم في الزهد ٣٠١٤، وأبو داود في الوتر- النهي أن يدعو الإنسان على نفسه وماله ١٥٣٢- من حديث جابر رضي الله عنه.

وهذا من لطفه عزَّ وجلَّ ورحمته بعباده وحلمه، قال ابن القيم[(١)]:

وهو الحليم فلا يعاجل عبده ... بعقوبة ليتوب من عصيان

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾، أي: فندع الذين لا يرجون لقاءنا، أي: الذين لا يطمعون في لقاء الله، ولا يؤمنون بالآخرة، ولا يرجون ثواب الله، ولا يخافون عقابه.

﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾، أي: في تجاوزهم الحق والحد في الباطل، وعتوهم وتمردهم وضلالهم.

﴿يَعۡمَهُونَ﴾ العمه: عدم البصر، والمراد به هنا عدم البصيرة، أي: يترددون متحيرين، لا يهتدون إلى السبيل، ولا يوفقون إلى الحق؛ بسبب كفرهم بلقاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾، أي: وإذا أصاب الإنسان الضر، أي: الشدة والكرب، من مرض، أو فقر، أو تسلط عدو، أو غير ذلك.

﴿دَعَانَا﴾، أي: سألنا وتضرع إلينا لكشفه ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾ اللام في قوله ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ بمعنى: (على)، أي: على جنبه، أي: مضطجعًا.

والمعنى: دعانا على أي حال كان، حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، وأكثر الدعاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ [فصلت: ٥١] أي: كثير.

﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ﴾، أي: فلما أزلنا عنه ضره الذي أصابه.

﴿مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ﴾، أي: استمر على كفره وطريقته الأولى قبل أن يمسه الضر، كأنه لم يدعنا إلى كشف ضر مسه، فنسي- أو تناسى- ما أصابه من الضر، ونسي- أو تناسى- دعاءه لكشفه، ولم يشكر ربه الذي كشف ضره، وعاد إلى الشرك به والكفر؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ [فصلت: ٥١].

---

(١) في «النونية» ص١٤٨.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الكاف: للتشبيه، والإشارة لحال الإنسان المذكورة، وهي إعراضه بعد كشف الضر عنه، أي: مثل ما زين لهذا الإنسان استمراره على الكفر بعد كشف الضر عنه. ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: زُيّن للمسرفين تزيينًا كونيًا قدريًا، أو زَينَّ لهم ذلك الشيطان، والأنفس الأمارة بالسوء، واتباع الهوى.

والإسراف: تجاوز الحد، والمراد بالمسرفين هنا: المتجاوزين الحق والحد في الباطل والكفر والطغيان.

﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (ما): موصولة، أو مصدرية، أي: الذي كانوا يعملونه، أو عملهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ الواو: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر، و﴿قد﴾ حرف تحقيق ﴿أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، أي: أهلكنا واستأصلنا الأمم المكذبة وأهلكناهم ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ الخطاب لكفار قريش.

﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ (لما): ظرف بمعنى (حين) أي: حين ظلموا، أي: بسبب ظلمهم بالشرك والكفر وتكذيب الرسل.

﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي: بالآيات البينات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم.

﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ اللام: للجحود، أي: وما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به رسلهم من البينات ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾، أي: مثل ما صددنا أولئك القرون وصرفناهم عن الإيمان بسبب ظلمهم وأهلكناهم، كذلك نجزي القوم المجرمين بصرفهم عن الإيمان وإهلاكهم بسبب إجرامهم بالشرك والكفر.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ﴾ الخطاب لهذه الأمة، أي: ثم صيرناكم

خلائف في الأرض من بعد تلك القرون التي أهلكناها، أي: استخلفناكم في الأرض من بعدهم.

﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن ننظر كيف تعملون، هل تؤمنون وتطيعون الله، فتستحقون الثواب، أم تظلمون بالشرك والكفر كما ظلموا، فتستحقون العقاب مثلهم؟

الفوائد والأحكام:

١- حلم الله عزَّ وجلَّ ولطفه بعباده ورحمته بهم، وعدم معاجلته لهم بالشر ولو أتوا بأسبابه، بل ولو دعوا به على أنفسهم وأولادهم وأموالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ الآية.

٢- التحذير من موجبات العقوبة بالشر، من الذنوب والمعاصي، أو استعجاله، أو الدعاء به على النفس أو الولد أو المال؛ لأن ذلك سبب للعقوبة والهلاك.

٣- أن الإنسان طبع على استعجال الخير؛ كما أنه خلق عجولًا في جميع أموره؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

٤- الوعيد للمستعجلين للشر، الذين لا يرجون لقاء الله بالحيرة، وعمى البصائر؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

٥- ضعف الإنسان وهلعه واستكانته إلى ربه وتضرعه إليه حال الضر في جميع أحواله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾.

٦- حجود الإنسان وطغيانه وكفره وعدم شكره إذا كشف الله ضره، وأزال كربته، وأنعم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾.

كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧].

ولا يسلم من هذين الوصفين إلا المؤمن الموفق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩: ٢٢].

وقال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛**

إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»(١).

٧- لا منجى ولا ملجأ من الله إلا إليه، فيجب شكره عند السراء، والصبر والتضرع إليه في الضراء؛ ولهذا كان المشركون وهم يعبدون مع الله غيره إذا مسهم الضر لجؤوا إلى الله وحده؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

٨- أن الجحود وكفران النعم وعدم شكرها والإعراض؛ من عمل المسرفين؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٩- أن ما يعمله المسرفون من الإسراف والطغيان هو مما زُين لهم كونًا وقدرًا، ومما زَينه لهم الشيطان، والأنفس الأمارة بالسوء، واتباع الهوى؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

١٠- إهلاك القرون والأمم الماضية بسبب ظلمهم بالشرك والكفر، وتكذيب الرسل، بعد إقامة الحجة عليهم بما جاءتهم به رسلهم من البينات، وعتوهم وإجرامهم، وعدم إيمانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

١١- أن من كتب عليهم الكفر والضلال فلن يؤمنوا، ولن تنجع فيهم الرسالات والبينات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾.

١٢- التحذير لهذه الأمة من الظلم بالكفر والشرك، وتكذيب الرسول؛ فيحل بهم ما حل بالظالمين قبلهم من الهلاك، والسعيد من وعظ بغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ الآية.

١٣- أن الإجرام بالكفر والشرك وتكذيب الرسل سبب للحيلولة دون الإيمان؛

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد، المسلم أمره كله خير ٢٩٩٩، وأحمد ٤/ ٣٣٢، ٣٣٣، ٦/ ١٥، من حديث صهيب رضي الله عنه.

كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام ١١٠].

١٤- استخلاف هذه الأمة بعد الأمم السابقة؛ ليظهر كيف يعملون؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

١٥- أن الله عز وجل إنما يحاسب العباد على ما يعملونه ويظهر منهم، لا على ما سبق في علمه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٧) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ (٢٠)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)﴾.

قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾، أي: وإذا تُقرأ على المشركين المكذبين للرسول ﷺ المعاندين له آيات الله بينات واضحات بقراءته ﷺ لها عليهم.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، أي: قال المكذبون للقاء الله تعالى المنكرون للبعث والمعاد، تكذيبًا لآيات الله، ومكابرة، وعنادًا.

﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾، أي: بقرآن غير هذا القرآن الذي تتلوه علينا، أي: ائت بقرآن من نمط وشكل آخر غير هذا ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾، أي: غيِّره إلى وضع آخر.

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾، أي: قل لهؤلاء المكذبين: ليس لي ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ (أن) والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل ﴿يكون﴾، أي: ما ينبغي لي تبديله من قبل نفسي؛ إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلغ عن الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩]؛ ولهذا قال:

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ الجملة في موضع التعليل لما قبلها، و﴿إِنْ﴾ نافية، و﴿إِلَّا﴾ أداة حصر؛ و﴿مَا﴾ موصولة، أي: ما أتبع فيما أتلوه عليكم إلا الذي يوحى إليَّ، أي: إلا الذي يوحيه الله تعالى إليَّ، إتباعًا لأمر الله تعالى لي بقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأحزاب: ٢].

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ الجملة تعليل آخر، أي: إني أخاف إن عصيت ربي بمخالفة أمره، أو التقول عليه، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، أي: عذاب يوم القيامة، ونكر ﴿يَوْمٍ﴾ ووصفه بقوله ﴿عَظِيمٍ﴾؛ لعظم هوله وشدة عذابه.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، أي: قل لهؤلاء المكذبين للقاء الله القائلين: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ لو شاء الله وأراد كونًا، ﴿مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، أي: ما تلوت هذا القرآن، ولا قرأته عليكم.

﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾، أي: ولا أَعْلَمكم به، لكن الله شاء أن أتلوه عليكم، وأرسلني به إليكم فما جئتكم به بإذنه ومشيئته وإرادته.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾، أي: فقد لبثت فيكم وعشت بينكم، ﴿عُمُرًا﴾، أي: وقتا طويلًا، ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾، أي: من قبل أن آتيكم به وأتلوه عليكم، أي: من قبل نزوله عليّ، فلو كان الأمر إلي في الإتيان به أو تبديله لأتيتكم به قبل ذلك، وكيف تقولون: تقوَّله وأنتم تعرفون صدقي وأمانتي منذ نشأت فيكم إلى أن بعثني الله به، وأنني أميّ لا أقرأ، ولا أكتب، ولا أدرس ولم أتعلم من أحد؟! كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] فكيف يمكن لمثلي أن يأتيكم بهذا الكتاب الذي أعجز الفصحاء، وأعيا البلغاء؟! وصدق الله العظيم: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

قال ابن كثير[(١)]: «ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي ﷺ قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا. وقد كان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفر، وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق، والفضل ما شهدت به الأعداء، فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله.

وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: «بعث الله فينا رسولًا نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة».

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتعجيب، أي: أفليس لكم عقول تعقلون بها، وتعرفون بها الحق من الباطل، وأنه ليس بمقدوري الإتيان بهذا الكتاب، أو الإتيان بغيره، أو تبديله؟

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: لا أحد أظلم، أي: لا أحد أشد ظلمًا، وأكبر جرمًا، وأعظم ذنبًا ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، أي: من الذي اختلق على الله كذبًا، وتقول على الله، وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

عن عبد الله بن سلام- رضي الله عنه- قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته علمت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «**يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»[(٢)].

﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ معطوف على ما قبله، أي: ولا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله

---

(١) في «تفسيره» ٤/ ١٩٠.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٤٥١.

الكونية أو الشرعية التي أرسل بها رسله، الدالة على وجوب عبادته وحده لا شريك له.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الجملة استئنافية، أي: لا يفوزون بمطلوب، ولا ينجون من المرهوب بسبب ظلمهم وإجرامهم بالكفر والشرك، وتكذيب الرسل والآيات، وافتراء الكذب على الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: ويعبد هؤلاء المشركون الجاحدون لآيات الله المكذبون لرسوله ﷺ، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: غير الله.

﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾، ﴿ما﴾ موصولة أو نكرة موصوفة، أي: الذي لا يضرهم ولا ينفعهم، أو شيئًا لا يضرهم ولا ينفعهم، أي: لا يستطيع جلب الضر لهم، ولا دفعه عنهم، ولا يستطيع جلب النفع لهم؛ لأنه جماد لا يستطيع فعل شيء من ذلك لنفسه، فكيف يفعله لغيره، وقدم نفي الضر على نفي النفع- والله أعلم- لأن سدنة الأصنام يخوفون بها؛ كما قال المشركون للنبي ﷺ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤].

﴿وَيَقُولُونَ﴾، أي: ويقولون كذبًا وزعمًا واعتقادًا باطلًا.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: الآلهة الذين نعبدهم مع الله، وأشاروا إليهم بإشارة العاقل ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ حسب زعمهم أن هذه الآلهة تضر وتنفع.

﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: يشفعون لنا عند الله، أي: هم وسائط بيننا وبين الله، كقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: قل لهم: أتخبرون الله في عبادتكم هذه الآلهة من دونه، وزعمكم أنها تشفع لكم عند الله.

﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (ما) كالتي قبلها، أي: بالذي لا يعلمه، أو بشيء لا يعلمه في السموات ولا في الأرض.

وأعاد حرف النفي ﴿لا﴾؛ لتوكيد النفي، أي: أأنتم أعلم أم الله؟ هذا لا يمكن أن

يكون، فلا معبود مع الله، ولا يشفع هؤلاء عند الله، ثم نزه تعالى نفسه عن ذلك، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾، أي: تنزه وتقدس وتعاظم.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالخطاب: (تشركون).

وقرأ الباقون بالغيب: ﴿يُشْرِكُونَ﴾.

و(ما) في قوله (عما): موصولة، أو مصدرية، أي: عن الشركاء الذين يشركونهم معه، أو عن إشراكهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: وما كان الناس إلا أمة واحدة مجتمعة على الدين الحق، وهو التوحيد وفطرة الإسلام التي فطر الله الناس عليها.

﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾، أي: فحدث بينهم الاختلاف والتفرق باتباع الهوى وعبادة الأصنام، قال تعالى في الحديث القدسي «**إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام»(٢).

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بحكم حكم به، وقضاء قضاه وقدره بتأجيل الخلق إلى أجل مسمى؛ كما قال تعالى في سورة الشورى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [الآية: ١٤]، وأنه سبحانه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل.

والخطاب في قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح خطابه.

﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ، اللام واقعة في جواب «لولا»، أي: لفصل

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٦٥، من حديث عياض المجاشعي رضي الله عنه.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٤/ ١٩٣.

بينهم بإنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين المكذبين، فيظهر من هو على الحق ومن هو على الباطل.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾، أي: ويقول هؤلاء المكذبون المعاندون: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أي: هلا أنزل على محمد آية من ربه، أي: من الآيات التي يقترحونها، كما سألت ثمود آية فأُعطوا الناقة، وسأل الحواريون المائدة فأنزلها الله تعالى عليهم، وكما اقترح هؤلاء المشركون في قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧، ٨].

وقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣].

وكما اقترحوا أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارًا.

﴿فَقُلْ﴾، أي: فقل لهم إذا طلبوا منك آية: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾، أي: هو سبحانه المختص بعلم الغيب المستأثر به وحده، الذي له الأمر كله، ويعلم عواقب الأمور، وهو وحده القادر على إنزال ما شاء من الآيات، ومنع ذلك لعلمه الواسع وحكمته البالغة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

فأخبر أن سببَ عدم إنزال الآيات المقترحة: تكذيبُ الأولين بما اقترحوه من الآيات لما جاءتهم؛ مما كان سببًا في إهلاكهم، كما هي سنة الله تعالى فيمن سألوا الآيات ثم كذبوا بها؛ ولهذا أرشد عزَّ وجلَّ نبيه ﷺ أن يجيبهم بقوله: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾، أي: له الغيب والأمر كله، وله الحكمة فيما يفعل: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ لمن تكون العاقبة، أهي لي أو لكم؟ ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لذلك، أي: كل ينتظر بصاحبه ما هو أهل له، وحكم الله فيه.

وفي هذا ما يشبه البشارة له ﷺ بأن العاقبة له، وتثبيته وتقوية قلبه، وتحدي المكذبين المعاندين له، وأن عاقبتهم الخسران؛ لأنهم إنما يسألون عنادًا ومكابرة، لا استرشادًا، وقد علم الله أنهم لا يؤمنون؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام: ٧].

الفوائد والأحكام:

١- شدة عتو المشركين المكذبين للرسول ﷺ ولما جاء به من الآيات، وللقاء الله عزَّ وجلَّ، وسؤالهم له ﷺ مكابرة وعنادًا الإتيان بقرآن غير ما أنزله تعالى عليه، أو تبديله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾.

٢- إثبات الحجة على الخلق بإنزال الآيات وبيانها بيانًا يقطع العذر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾.

٣- إثبات لقاء الله تعالى، والبعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله

تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾.

٤- إرشاد الله عزَّ وجلَّ لنبيه ﷺ بما يرد به عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓ﴾ الآية، وقوله: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآية، وقوله: ﴿فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ الآية.

٥- أن النبي ﷺ ليس بيده أن يأتي بقرآن غير ما أنزله الله تعالى إليه، ولا أن يبدله، وليس ذلك بمقدوره، ولا بمقدور أحد من البشر.

٦- أن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ عن الله تعالى، يتبع ويتلو ما أوحاه الله تعالى إليه، لم يأت بالقرآن من عند نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

٧- خوفه ﷺ من شؤم المعصية كغيره من البشر؛ لقوله ﷺ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالنبي ﷺ؛ لقوله: ﴿رَبِّي﴾ وقوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ وقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

٩- عظم هول يوم القيامة وشدة عذابه؛ لقوله: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾

١٠- أن مجيء الرسول ﷺ بالقرآن هو بإذن الله، وأن الله لو شاء ما أرسله بالقرآن، ولا أدرى قومه به؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ﴾.

١١- دلالة العقل والواقع والحال على صدقه ﷺ فيما جاء به من الوحي من عند الله عزَّ وجلَّ، وهو أنه ﷺ عاش بينهم يعرفون سيرته وصدقه، وأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولا تعلَّم على يد أحد؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، فكيف يتصور أن يأتيهم بهذا الكتاب المعجز، أو يستطيع الإتيان بمثله، أو تبديله؛ ولهذا أنكر عليهم بقوله: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

١٢- أن هؤلاء المشركين المكذبين للنبي ﷺ ولما جاء به من الآيات، المقترحين

عليه الإتيان بغير القرآن أو تبديله؛ لا يعقلون العقل الذي هو مناط المدح الذي يدلهم إلى معرفة الحق وما ينفعهم في دينهم وآخرتهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

١٣- أنه لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا، فتقوّل على الله ما لم يقله، أو كذب بآياته وجحدها؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾.

١٤- أن افتراء الكذب على الله، والتكذيب بآياته من أعظم الإجرام والظلم الذي لا يفلح أهله أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾، وقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الآية: ٢١].

١٥- ذم المشركين، والنعي عليهم في عبادتهم الآلهة التي لا تضر ولا تنفع؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾.

١٦- ضلال المشركين وزعمهم الكاذب أن هذه الآلهة تشفع لهم عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾.

١٧- الإنكار على المشركين في عبادتهم هذه الآلهة من دون الله، وزعمهم الكاذب أنها تشفع لهم عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

١٨- سعة علم الله عزَّ وجلَّ وعمومه بكل ما في السموات والأرض، وكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾.

١٩- تنزيه الله تعالى لنفسه وتعظيمها عن إشراك المشركين وشركائهم؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

٢٠- أن الناس كانوا في أول الأمر أمة واحدة على دين الإسلام وفطرة التوحيد، ثم اختلفوا بسبب الشيطان، واتباع الهوى، فظهر فيهم الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾.

٢١- أن الله عزَّ وجلَّ جعل لكل أجل كتابًا، وأجّل الخلق إلى أجل مسمى، ولولا ذلك لقضى بين الناس منذ وقع بينهم الاختلاف والتفرق في الدين؛ ليتبين المحق من المبطل، وله الحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

٢٢- ذم الاختلاف والتفرق في الدين، ووجوب الاجتماع على الحق، والحذر من التفرق والاختلاف، فذلك شر مستطير، وبلاء كبير.

٢٣- اقتراح المشركين المكذبين للنبي ﷺ لولا أُنزل عليه آية من ربه، أي: معجزة وخارق من خوارق العادات مكابرة منهم وعنادًا، إذ لم يؤمنوا بأعظم ما أنزل الله تعالى من الآيات، وهو القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

٢٤- سوء أدب المشركين مع الله؛ لقولهم ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وكأن له ربًّا غير ربهم.

٢٥- تهديد المشركين، وأمرهم بالانتظار لمن تكون العاقبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ وفي طي هذا الإشارة إلى أنهم هم الخاسرون، والبشارة للنبي ﷺ والمؤمنين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ من خصب ورخاء وأمن وصحة، ونحو ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٥٠] أي: آثار المطر الذي هو رحمة من رحمة الله تعالى الفعلية، وهي من آثار رحمته التي هي صفة من صفاته الذاتية الثابتة له عزَّ وجلَّ.

﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ الضراء: الضر، أي: من بعد ضراء أصابتهم من جدب وشدة وخوف ومرض، ونحو ذلك.

أي: وإذا أذقنا الناس نعمة بعد الضر، كالمطر بعد القحط، والأمن بعد الخوف، والصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، ونحو ذلك.

﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾، ﴿إِذَا﴾ للمفاجأة، أي: إذا لهم كيد واستهزاء في آياتنا وتكذيب بها، وسعي لإبطال الحق ناسين- أو متناسين- ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على أن بدلها بالسراء، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ

يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢]

وعن زيد بن خالد الجهني قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح على إثر سماء كانت من الليل، ثم قال «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»(١).

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾، أي: أسرع مكرا من مكركم، وأشد استدراجًا لكم، ثم يأخذكم على غرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤، الأنفال: ٣٠].

﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ قرأ روح عن يعقوب بالغيب: (يمكرون).

وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿تَمۡكُرُونَ﴾.

وهذا تهديد وإنذار بالعذاب، أي: إن رسلنا من الملائكة الحفظة الكرام الكاتبين الموكلين بأعمال العباد ﴿يَكۡتُبُونَ﴾، أي: يُدونون ويحصون ويسجلون ﴿مَا تَمۡكُرُونَ﴾، ﴿ما﴾ موصولة، أي: الذي تمكرونه.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢﴾.

ذكر عزَّ وجلَّ في الآية السابقة الحالة العامة للناس عند حصول الرحمة لهم بعد الضراء، وهي نسيان ما حصل لهم من الضراء وعدم الشكر والعودة إلى الكفر، ثم ذكر في هذه الآية أنموذجا لذلك، وهي حالهم في البحر عند اشتداده والخوف من الغرق، وعند إنجائهم من ذلك.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر بفتح الياء ونون ساكنة بعدها شين معجمة مضمومة: (يَنْشُركم) من النّشر.

وقرأ الباقون بضم الياء وسين مهملة مفتوحة بعدها ياء مكسورة ﴿يُسَيِّرُكُمۡ﴾ من

---

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء، قول الله تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ ١٠٣٨، ومسلم في الإيمان- كفر من قال: «مطرنا بنوء كذا» ٧١، وأبو داود في الطب ٣٩٠٦.

التسيير.

والمعنى: هو الذي يسيركم في البر والبحر بما يَسَّر لكم من الأسباب، ففي البر على الظهر والأقدام، وفي البحر على الفلك.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، أي: في السفن على ظهر البحر.

﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ الجري: السير السريع في البر أو البحر، قال تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا﴾ [هود: ٤١] أي: وجرت الفلك والسفن ﴿بِهِم﴾، أي: بمن فيهن من الركبان، ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾، أي: لينة رفيقة وموافقة للمرغوب.

﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾، أي: وفرحوا بهذه الريح الطيبة، واطمأنوا إليها؛ لملاءمتها لهم، وبينما هم كذلك ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، أي: جاء هذه الفلك فجأة ريح شديدة الهبوب.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾، أي: من كل جهة من جهات الفلك

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾، أي: وتيقنوا أن الهلاك قد أحاط بهم وأحدق، أو أنهم هلكوا وأخذوا، قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢] أي: أهلك ثمره.

﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، أي: دعوا الله تعالى وحده مخلصين له الدين دون شركائهم، فانقطع حينئذ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله تعالى وحده رب العالمين.

﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن أنجيتنا، أي: خلصتنا من هذه الحال والشدة التي نحن فيها.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، وقد أكدوا وعدهم هذا بثلاث مؤكدات: القسم، ونون التوكيد، والتعبير بصيغة ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

أي: لنكونن من الشاكرين لك بدعائك وعبادتك وحدك لا شريك لك؛ كما قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الآية: ٦٧].

﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ ﴾، أي: خلصهم عزَّ وجلَّ من تلك الكربة أخلفوا وعدهم، ونكثوا أيمانهم؛ لقوله: ﴿إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ﴿إذا﴾ للمفاجأة ﴿يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: يعتدون ويفسدون في الأرض بالشرك وارتكاب الموبقات ولا يشكرون؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] والشرك أشد البغي؛ لأنه اعتداء على حق الخالق عزَّ وجلَّ؛ ولهذا كان الشرك أظلم الظلم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

ونسوا تلك الشدة ونعمة الله عليهم في إنجائهم منها، ونسوا ما التزموه، وأقسموا عليه من الشكر على ذلك، فعادوا إلى الشرك بالله؛ كما قال تعالى: ﴿مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢].

﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ متعلق بـ ﴿يَبۡغُونَ﴾ وفيه بيان أن البغي إنما يكون بغير حق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، أي: إنما وبال بغيكم وضرره وعاقبته على أنفسكم خاصة لا على غيركم؛ كما قال ﷺ: «**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم**»(١).

﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ قرأ حفص بنصب العين: ﴿مَّتَٰعَ﴾ على الحال، وقرأ الباقون برفعها: «متاعُ» خبر لـ ﴿بَغۡيُكُمۡ﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو متاع.

والمتاع ما ينتفع به انتفاعًا غير دائم، أي: إنما نمهلكم مع بغيكم متاع هذه الحياة الدنيا الحقيرة الفانية، والذي هو غاية ما تؤملونه.

﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾ قدم الجار والمجرور؛ لإفادة الاختصاص، أي: ثم إلينا وحدنا مصيركم ومآلكم ومآبكم يوم القيامة.

﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، أي: فنخبركم بعملكم، أو بالذي كنتم تعملونه، ونحاسبكم ونجازيكم عليه، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، النهي عن البغي ٤٩٠٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١١، وابن ماجه في الزهد- باب البغي ٤٢١١- من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

وفي هذا غاية الوعيد والتحذير لهم من الاستمرار على بغيهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

ذكر عزَّ وجلَّ في الآية السابقة أن من بغى فإنما بغيه على نفسه متاع الحياة الدنيا، ثم أتبع ذلك بذكر أحسن مثل للحياة الدنيا وزينتها في سرعة فنائها وزوالها، بالمطر ينزل على الأرض فتخضر وتزدهي، ثم يأتيها من أمر الله ما يأتيها.

قوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، أي: ما شبه الحياة الدنيا في سرعة فنائها وزوالها إلا ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا مثل وشبه ماء أنزلناه من السماء، وهو المطر.

﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ الفاء: للسببية، أو للمصاحبة، أي: فنبت بذلك المطر أنواع النبات مختلطًا بعضه ببعض من كل صنف وزوج بهيج؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾، ﴿ما﴾ موصولة، أي: من الذي يأكله الناس كالحبوب والثمار والخضراوات والبقول.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾، أي: ومن الذي تأكله الأنعام، من أنواع العشب والكلأ المختلف الأصناف والألوان والأشكال.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾، أي: ظهر حسنها وبهاؤها وبهجتها ونضارتها.

﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾، أي: وتزينت فصارت آية للمستبصرين، وبهجة للناظرين، ونزهة للمتفرجين، ما بين أخضر وأصفر وأبيض وغيره.

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾، أي: وظن أهل هذه الأرض واعتقدوا ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾، أي: أنهم مالكون لها قادرون على الانتفاع بها وتحصيل ثمراتها،

وجذاذها وحصادها، فبينما هم كذلك ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾، أي: جاء هذه الأرض ﴿أَمۡرُنَا﴾، أي: قضاؤنا بهلاكها بصاعقة، أو ريح باردة، أو غرق، ونحو ذلك؛ بسبب ذنوب أهلها وبغيهم؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا﴾ الحصيد: هو الزرع المقطوع من منابته، أي: جعلنا ما عليها من النبات بعد الخضرة والنضارة يابسًا هشيمًا.

﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾، أي: كأن لم تكن قائمة بالأمس زاهية، وكأنها ما كانت، وهذه حال الدنيا والواثق بها سواء بسواء؛ ولهذا قال ﷺ: «**يؤتى يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا فيصبغ في النار، ثم يقال له: هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا فيغمس في النعيم غمسة، ثم يقال له: هل رأيت بؤسًا قط؟ فيقول: لا**»(١).

والأمس: اليوم الذي قبل يومك، قال زهير(٢):

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ... ولكنني عن علم ما في غد عمِ

والمراد به في الآية: ما مضى من الزمن.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، أي: كذلك نبين ونظهر الآيات والحجج والدلائل والبراهين بضرب الأمثال؛ لتقريب المعاني إلى الأذهان.

﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: لقوم يعملون أفكارهم وعقولهم، ويتأملون في الآيات ويتدبرونها، ويعتبرون في الأمثال، فيأخدون من هذا المثل سرعة زوال الدنيا ومتاعها فلا يغترون بها، كما هو حال كثير من الغافلين عن آيات الله.

وقد ضرب الله مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض في آيات عدة من القرآن الكريم،

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨٠٧، وابن ماجه في الزهد- صفة النار ٤٣٢١- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوانه» (ص١١١).

فقال تعالى في سورة الكهف: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾ [الآية: ٤٥].

وقال تعالى في سورة الزمر: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٢١].

وقال تعالى في سورة الحديد: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ﴾.

لما بين حالة الدنيا وسرعة زوال نعيمها شوّق إلى الدار الباقية دار السلام، ودعا إليها؛ ترغيبًا في العمل لها.

قوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾، أي: يدعو عباده بتوحيده إلى داره دار السلام، الجنة، دار السلامة من الآفات والنقائص والمنغصات والنكبات، دار كمال النعيم وتمامه وبقائه وخلوده.

﴿ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾، أي: ويوفق الذي يشاء من عباده ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾، أي: إلى طريق عدل مستقيم، وهو صراطه عزَّ وجلَّ بمعرفة الحق والعمل به، فعمّ عزَّ وجلَّ جميع عباده بالدعوة إلى دار السلام، عدلًا منه، ثم خص بالهداية والتوفيق من شاء منهم فضلًا منه، والله يختص برحمته من يشاء.

الفوائد والأحكام:

١- كفر كثير من الناس بنعم الله تعالى وعدم شكرها، ومقابلتها بالمكر في آيات الله، تكذيبًا لها، واستهزاءًا بها؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَا ﴾.

٢- أن الواجب من الشكر على من مسته ضراء فأبدلها الله تعالى بالنعماء أعظم من الواجب على من لم تمسه الضراء، وإنما منحه الله النعماء.

٣- أن الله عزَّ وجلَّ أسرع مكرًا من مكر الذين يمكرون بآياته وأشد استدراجًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًا﴾.

٤- أن الله عزَّ وجلَّ إنما يوصف بالمكر على سبيل المقابلة والمجازاة للماكرين، ولا يوصف بذلك على سبيل الإطلاق.

٥- الوعيد للذين يمكرون بآيات الله تكذيبًا لها واستهزاء بها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾.

٦- إثبات وجود الملائكة الكاتبين لأعمال بني آدم، وإثبات كتابة الأعمال والحساب والجزاء عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾.

٧- الامتنان على الخلق بتسييرهم في البر والبحر؛ بتهيئة أسباب ذلك لهم وحفظهم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾

٨- تسخير الفلك للناس لحملهم، وتسخير الريح الطيبة لتسيير الفلك، ولمصالحهم، نعمة منه عزَّ وجلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾.

٩- فرح المسافرين على ظهر الفلك بالريح الطيبة المعتدلة التي تسيّر الفلك بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾.

١٠- أن الريح كما تكون نعمة ورحمة، تكون عذابًا ونقمة؛ لقوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾.

١١- خطورة البحر وأمواجه المتلاطمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾، أي: هلكوا.

١٢- إخلاص المشركين الدعاء لله تعالى في حال الشدة والكرب؛ لقوله تعالى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

١٣- التزام المشركين بأن يكونوا من الشاكرين إذا الله أنجاهم من الغرق، بإقسامهم على ذلك وتوكيده؛ لقوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

١٤- معرفة المشركين أن آلهتهم لا تستطيع جلب النفع لهم، ولا دفع الضر عنهم، وأنه لا ينجيهم في الشدائد إلا الله تعالى، وإقرارهم بذلك.

١٥- خُلْف المشركين لوعدهم، ونقضهم لعهدهم، ونكثهم لأيمانهم؛ ببغيهم في الأرض، وعدم شكرهم بعد إذ أنجاهم الله من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾.

١٦- عموم رسالة النبي ﷺ وخطاب القرآن لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾.

١٧- أن من بغى فإنما يبغي على نفسه؛ لأن ضرر ذلك وعاقبته تعود إليه؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾.

١٨- أن من بغى وطغى فإنما له فقط ما يحصل عليه من متاع الحياة الدنيا الحقيرة والفانية، مع خسرانه دينه ودنياه وأخراه؛ لقوله تعالى: ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾.

١٩- الإشارة إلى حقارة الحياة الدنيا وزوالها.

٢٠- إثبات البعث والمعاد، ورجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى، وحسابهم ومجازاتهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

٢١- الوعيد والتهديد للذين يبغون في الأرض بغير الحق بمجازاتهم ببغيهم وتعذيبهم.

٢٢- بيان أنما مثل الدنيا في سرعة زوالها وفنائها كالمطر ينزل على الأرض، فتنبت وتزهو، ثم يأتيها من أمر الله ما يأتيها فتصبح حصيدًا وهشيمًا تذروه الرياح، كأنها لم تزهُ بالأمس؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية.

٢٣- إثبات الأسباب، وأن الله جعل لكل شيء سببًا، فبسبب نزول المطر تنبت الأرض.

٢٤- أن الرزق كله ينزل من السماء بتقدير الله تعالى ونزول المطر؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢].

٢٥- ينبغي الحذر من الاغترار بالدنيا، والتفكر في سرعة فنائها وزوالها، والاستعداد للآخرة.

٢٦- ينبغي الحذر من فجاءة نقمة الله تعالى وأخذه، وعدم الاغترار بإمهاله ونعمه، والثقة بالله تعالى وحده لا بما في اليد؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾.

٢٧- بلوغ القرآن الغاية في التفصيل والبيان وتقريب المعاني بضرب الأمثال؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

٢٨- أنه إنما يستفيد من تفصيل الآيات وبيانها أهل التفكر والتأمل في الآيات دون أهل الغفلة؛ لقوله تعالى: ﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، مما يوجب إعمال الفكر والتأمل في آيات الله تعالى.

٢٩- أن الله عزَّ وجلَّ يدعو الناس جميعًا عدلًا منه لتوحيده؛ ليحلهم داره دار السلام الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

٣٠- شرف الجنة وعظم نعيمها؛ لأن الله سماها دار السلام، فشرفها بإضافتها إليه، ووصفها بأنها دار السلامة من الآفات.

٣١- تخصيص الله تعالى بهداية التوفيق إلى الصراط المستقيم من شاء من عباده فضلًا منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

٣٢- امتداح الله تعالى لصراطه المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ بتنكيره ووصفه بالاستقامة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

لما دعا عزَّ وجلَّ إلى داره دار السلام الجنة ذكر لمن تكون، وأنها للذين أحسنوا، فلهم الحسنى وزيادة؛ إغراءً وترغيبًا فيها، وحثًّا على العمل لها.

قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾، أي: أحسنوا في عبادة الله تعالى في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح، والإخلاص لله تعالى، والمتابعة لرسوله ﷺ.

وأحسنوا إلى عباد الله بأداء حقوقهم، وبما يقدرون عليه من وجوه الإحسان، قولًا وفعلًا وبذلًا، وهم الذين هداهم إلى صراط مستقيم، فالصراط المستقيم هو العمل الحسن.

﴿الْحُسْنَىٰ﴾ الجنة دار السلام الكاملة في حسنها، والمثوبة الحسنة في الآخرة؛ لأن الجزاء من جنس العمل؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] وهي دار السلام؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ﴾ [الأنعام: ١٢٥ - ١٢٧].

﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وهي النظر إلى وجه الله الكريم، وهي أعلى وأعظم من جميع ما أعطوه في الجنة من النعيم، فعن صهيب الرومي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟** قال: **فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا**

أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل. ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾»(١)، وهكذا فسر الصحابة رضي الله عنهم والتابعون الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم(٢).

قال ابن القيم: «فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم، كذلك فسرها رسول الله ﷺ الذي أنزل عليه القرآن، فالصحابة من بعده، كما روى مسلم في صحيحه» ثم ساق حديث صهيب رضي الله عنه(٣).

وهذا لا ينافي أن تفسَّر الزيادة بمضاعفة ثوابهم، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٨].

وقال عزَّ وجلَّ في الحديث القدسي: «**كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به**»(٤).

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ لما بيَّن عظم ما أعد لهم من الحسنى وهي الجنة، وما فيها من النعيم، ورؤية وجه الله الكريم؛ أتبع ذلك ببيان اندفاع المحذور عنهم، فلا ينالهم مكروه بوجه من الوجوه ينغص عليهم ذلك النعيم؛ لأن كمال النعيم وتمامه لا يكون إلا بحصول المطلوب وزوال المرهوب.

والمعنى: ولا يغشى وجوههم غبار ولا قتام وسواد في عرصات القيامة.

﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾، أي: ولا يرهق وجوههم ذل وهوان في الباطن يظهر أثره على وجوههم، بل وجوههم كما قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]، وقال تعالى:

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم سبحانه وتعالى ١٨١، والترمذي في تفسير القرآن ٣١٠٥، وابن ماجه في المقدمة ١٨٧.

(٢) انظر «جامع البيان» ١٢/ ١٥٦- ١٦٢، «تفسير ابن كثير» ٤/ ١٩٨.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٣٩٨.

(٤) أخرجه مسلم في الصيام ١١٥١، والنسائي في الصيام ٢٢١٥، والترمذي في الصوم ٧٦٤، وابن ماجه ١٦٣٨- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] أي: نضرة في وجوههم، وسرورًا في قلوبهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين أحسنوا ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ ملازموها وساكنوها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، أي: مقيمون فيها إقامة أبدية، لا يتحولون عنها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

لما ذكر ما أعد من الثواب للمحسنين أتبعه بذكر ما أعده من العذاب للمسيئين؛ جمعًا بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، أي: والذين عملوا الأعمال السيئة، التي تسوء صاحبها في الحال والمآل من الكفر والشرك والتكذيب والمعاصي.

﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾، أي: يجازون السيئة بمثلها، جزاء يسوؤهم بقدر ما عملوا من سوء، عدلًا منه تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦] أي: موافقًا لأعمالهم.

﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾، أي: وتغشاهم وتعلوهم ذلة، أي: ذل وهوان في قلوبهم من شدة قلقهم وخوفهم من عذاب الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾، أي: ما لهم من الله من مانع ولا واق يقيهم عذاب الله تعالى وعقابه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ [الطور: ٧، ٨].

و﴿من﴾ في قوله ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ لتأكيد عموم النفي، أي: ما لهم من أيِّ عاصم.

﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ قرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب:

(قِطْعًا) بإسكان الطاء، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿قِطَعًا﴾.

أي: كأنما كسيت وغطيت وجوههم من شدة سوادها قطعًا من ظلمة الليل؛ من عظم ما هم فيه من الزهق والخوف والفزع والقلق.

وشتان ما بين الفريقين؛ كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)﴾ [عبس: ٣٨- ٤٢].

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، أي: أهلها وملازموها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ خلودًا أبديًّا.

لأن النار على الصحيح من أقوال أهل العلم لا تفنى، ولا يفنى عذابها، ولا أهلها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩)﴾

قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ (يوم) منصوب بفعل مقدر، أي: اذكر يوم نحشرهم ﴿جَمِيعًا﴾ حال، أو توكيد، أي: ويوم نجمع الخلائق كلهم جميعًا، والمشركين وشركاءهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠)﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)﴾ [مريم: ٩٣- ٩٥].

وقال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣)﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا

خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩].

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾، أي: اثبتوا، أو الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم؛ ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وضمير الفصل ﴿أَنتُمْ﴾ تأكيد للضمير المتصل في الفعل المقدر.

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾، أي: فميزنا وفرقنا بينهم، أي: بين المشركين وشركائهم بالبعد البدني والقلبي، فانقلب ما بينهم من الموالاة إلى عداوة؛ كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ متبرئين منهم: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، أي: لم تكونوا تعبدوننا، فأنكروا عبادتهم، وتبرؤوا منهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، أي: كفى الله شهيدًا بيننا وبينكم أننا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضيناها منكم، وإنما دعاكم الشيطان إلى عبادته فعبدتموه.

كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

﴿إِن كُنَّا﴾، ﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير محذوف، أي: إننا كنا ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ لنا ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: ما كنا نشعر بعبادتكم لنا، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ

كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

وفي هذا من التبكيت للمشركين والتنديم لهم ما لا يخفى؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩].

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾، أي: في ذلك اليوم، وفي موقف الحساب وعرصات القيامة ﴿تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: (تتلوا) بتائين من التلاوة، وقرأ الباقون بتاء وباء ﴿تَبْلُوا۟﴾ من البلوى، أي: تجد، وتعاين، وتتفقد، وتتبع ﴿مَّآ أَسْلَفَتْ﴾، أي: الذي أسلفته، أي: قدمته من الكسب والعمل، من خير أو شر، وتحاسب عليه، وتجازى به؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩]، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى:﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: وردوا جميعًا إلى الله تعالى وحده، ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾، أي: وليهم الحق ولاية عامة، الحكم العدل، ففصل بينهم، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، أي: وغاب عن المشركين وزال عنهم، ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، ﴿ما﴾ موصولة، أي: ما كانوا يكذبون على الله من الشركاء، فلم ينفعوهم ولم يدفعوا عنهم، ويجوز كونها مصدرية، أي: وضل عنهم الافتراء الذي كانوا يفترونه من زعمهم أن لله شركاء، وأنهم ينفعونهم ويشفعون لهم، ويدفعون عنهم العذاب.

الفوائد والأحكام:

١- عظم ما أعد الله للذين أحسنوا من الثواب، فلهم الحسنى، وهي الجنة وما فيها من ألوان النعيم ومضاعفة الأجور، ولهم ما هو أعلى من ذلك وأجل، وهي الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

٢- الترغيب في الإحسان بإخلاص العبادة لله تعالى وحده، واتباع شرعه؛ لعظم ما أعد الله للمحسنين.

٣- أن الجزاء من جنس العمل، وما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

٤- إثبات الجنة، وأنها جمعت أنواع الحسن كلها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

٥- إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وقد فسر عامة السلف والخلف ذلك بالنظر إلى وجه الله الكريم، بل جاء ذلك مرفوعًا إلى النبي ﷺ، كما دلت نصوص الكتاب والسنة على إثبات رؤيتهم له عزَّ وجلَّ، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

وقال ﷺ: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته**»(١).

٦- سلامة أهل الجنة من جميع المنغصات والمكدرات الباطنة والظاهرة، فلا يرهق وجوههم قتر في الظاهر، ولا ذلة وهوان في الباطن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾، بل هي كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

٧- أن التمتع والتلذذ بالنعيم لا يتم إلا بحصول المطلوب، واندفاع المرهوب.

٨- أن المحسنين هم أهل الجنة وملازموها الخالدون فيها أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وفي هذا وعد لهم وتنويه بشأنهم.

٩- أن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها ولا أهلها.

١٠- الوعيد للذين كسبوا السيئات بمجازاتهم بمثلها، وبيان سوء حالهم، وغشيان الذلة لهم، واسوداد وجوههم من شدة الخوف والقلق، وملازمتهم النار، وخلودهم فيها

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد ٦٣٣، وأبو داود في السنة ٤٧٢٩، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥١، وابن ماجه في المقدمة ١٧٧ - من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

١١- عدل الله عزَّ وجلَّ في مجازاة الذين كسبوا السيئات السيئة مثلها دون زيادة؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾.

١٢- أنه ليس لأصحاب السيئات من الله من عاصم يدفع عنهم عذاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ فلا عاصم من أمر الله إلا من رحم.

١٣- التحذير من اكتساب السيئات، وأن السيئة تجزى بمثلها، والجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾

١٤- أن النار لا تفنى ولا يفنى عذابها ولا أهلها، وهو الصحيح من أقوال أهل العلم؛ لقوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

١٥- جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب بذكر المحسنين وثوابهم، وذكر المسيئين وعذابهم؛ ليجمع العبد في طريقه إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء.

١٦- إثبات جمع الخلائق كلهم، والمشركين وشركائهم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾.

١٧- الفصل بين المشركين وشركائهم يوم القيامة، والتفريق بينهم، وانقلاب ما بينهم من محبة وولاية إلى بغض وعداوة، وإنكار الشركاء عبادة المشركين لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ وفي هذا ما لا يخفى من التبكيت والتنديم للمشركين.

١٨- كفى بالله تعالى شهيدًا بين خلقه، وحسيبًا عليهم، لقوله تعالى: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية.

١٩- غفلة الشركاء عن عبادة المشركين لهم، وعدم شعورهم بها، أو علمهم؛ لقولهم: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾.

٢٠- معاينة كل نفس ما أسلفت ومجازاتها به؛ لقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾.

٢١- رد الخلائق كلهم، وإرجاعهم إلى الله تعالى من المشركين وغيرهم للحساب والجزاء على أعمالهم والفصل بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٢٢- أن المولى الحق لجميع الخلق هو الله تعالى، فهو وليهم جميعًا ولاية عامة، لا مولى لهم سواه، ولا شريك له في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾.

٢٣- غياب وذهاب ما كان يفتريه المشركون من الشركاء يوم القيامة أحوج ما كانوا إليهم، واضمحلال ما كانوا يزعمون فيهم من النفع ودفع الضر والشفاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)﴾.

ذكر الله عزَّ وجلَّ حشر الخلق وردهم إليه للحساب والجزاء الذي ينكره المشركون، ثم أتبع ذلك بذكر دلائل ربوبيته التي لا ينكرونها، والدالة على قدرته على البعث وعلى استحقاقه العبادة وحده دون سواه.

قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا؛ محتجا عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الإلوهية: ﴿مَن يَرْزُقُكُم﴾؟ أي: من الذي يجلب لكم الرزق والعطاء؟ كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: ٢١].

﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بإنزال المطر، وتقدير أرزاقكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

﴿وَالْأَرْضِ﴾، أي: ومن الذي يرزقكم من الأرض بإخراج نباتها، وما فيها من المعادن والكنوز، وغير ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾ [ق: ٩- ١١]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ

شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢].

﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ (أم): هي المنقطعة التي بمعنى (بل) التي هي للاضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أَمَنْ يملك السمع والأبصار.

و﴿ٱلسَّمْعَ﴾ مصدر دال على الجنس، أي: من الذي خلق السمع والأبصار، وهو مالكهما وواهبهما لكم ولو شاء لسلبهما منكم، وخصهما بالذكر لشرفهما، وكونهما الوسيلتين الخاصتين لإيصال العلم والمعرفة إلى القلب، قال تعالى ممتنا على العباد بهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣]، وقال تعالى مخوفًا العباد من سلبهما: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ﴾ [الأنعام: ٤٦].

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كإخراج النسمة من النطفة، والطائر من البيضة، والنبات من الحب والنوى وأنواع البذور، وإخراج المؤمن من الكافر.

﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ عكس ما قبله؛ كإخراج البيضة من الدجاجة، والكافر من المؤمن.

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ﴾ في الكون والعالم كله- علويه وسفليه- وهذا من عطف العام على الخاص، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾، أي: الله الذي يرزقنا من السماء والأرض، ويملك السمع والأبصار، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويدبر الأمر؛ لأنهم يقرون بتوحيد الربوبية، وأن الله لا شريك له في ربوبيته.

﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: فقل إلزامًا لهم بالحجة: أفلا تتقون الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، وإخلاص العبادة له وحده، والإقرار بأنه المعبود وحده لا شريك له في ألوهيته؛ كما أقررتم بأنه لا شريك له في ربوبيته؛ لأن من

لازم الإقرار بتوحيد الربوبية الإقرار بتوحيد الألوهية.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الإشارة إلى المفهوم من قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية، أي: فذلكم الله الذي أقررتم بأنه هو الذي يرزقكم من السماء والأرض، ويملك السمع والأبصار ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويدبر الأمر هو ﴿رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾، أي: هو ربكم وإلهكم الحق، الذي يستحق أن يفرد بالعبادة وحده دون سواه، فهو عزَّ وجلَّ الحق في ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته، شرعه حق، ولقاؤه حق، ووعده حق، ووعيده حق.

﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ الفاء: عاطفة، و«ماذا»: اسم استفهام فيه معنى النفي، أو «ما»: اسم استفهام فيه معنى النفي، و«ذا» اسم موصول، «إلا»: أداة حصر، أي: ما بعد الحق إلا الضلال، أي: فإذا كان عزَّ وجلَّ هو الرب والإله الحق فكل معبود سواه باطل، ومن عبد الله فقد عبد الرب والإله الحق، ومن عبد غير الله فما عبد إلا الضلال.

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتقريع والتوبيخ، أي: فكيف تصرفون عن الحق وهو التوحيد إلى الضلال الذي هو الشرك وأنتم تعلمون أنه عزَّ وجلَّ هو ربكم الحق الذي خلق كل شيء المتصرف في كل شيء؟!

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر بالجمع: ﴿كلمات﴾ وقرأ الباقون بالإفراد: ﴿كلمة﴾.

أي: كذلك وجبت وثبتت كلمة ربك الكونية على هؤلاء المشركين؛ بسبب شركهم بالله في الألوهية وفسقهم: أنهم لا يؤمنون، بل يستمرون على كفرهم وشركهم؛ كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥)﴾

قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ﴾ أيها المشركون الذين تعبدونهم من دون الله.

﴿مَن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، ﴿مَن﴾ اسم موصول، أي: الذي يبدأ الخلق أول مرة فيوجده من العدم ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ خلقا آخر بعد الفناء والعدم؛ كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

والاستفهام بمعنى الإنكار والنفي، أي: لا أحد من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده، بل هم أضعف من ذلك وأعجز؛ لأنهم مخلوقون؛ كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢٠، ٢١]

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ وحده ﴿يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لا شريك له في ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتقريع والتوبيخ، أي: فكيف تصرفون عن عبادة المتفرد بالابتداء والإعادة إلى عبادة من هم مخلوقون أمثالكم؟!

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ الاستفهام كالذي قبله، أي: لا أحد من شركائكم من يهدي الضُّلال إلى الدين الحق، ويبصر من الغي إلى الرشد.

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، أي: قل الله وحده ﴿يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾، أي: يرشد الخلق إلى الحق بالآيات والأدلة والبراهين، ويوفق من شاء منهم لسلوكه بفضله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧].

﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ وهو الله تبارك وتعالى ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾، أي: أحق وأوجب أن يعبد ويطاع، والاستفهام تقريري، والجواب: نعم هو عزَّ وجلَّ أحق أن يتبع ويطاع ويعبد.

﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وورش عن نافع بفتح الياء والهاء وتشديد الدال: (يَهَدِّي) وقرأ أبو جعفر كذلك إلا أنه أسكن الهاء: (يَهْدّي) وقرأ حمزة والكسائي

وخلف بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال: (يَهْدِي) وقرأ يعقوب وحفص بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال: ﴿يَهِدِّي﴾ وروى أبو بكر عن عاصم كذلك، إلا أنه بكسر الياء والهاء: (يِهِدِّي).

أي: أمّن لا يهتدي بنفسه إلى شيء ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ لعماه وبكمه وعدم علمه، وهم شركاؤهم وآلهتهم، التي لا تهدي ولا تهتدي إلا أن تهدى، كما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]، وقال عليه السلام لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ «ما» استفهامية، والاستفهام هنا: للإنكار والتوبيخ والتعجيب، أي: أي شيء حصل لكم؟ وأين عقولكم؟ ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم الجائر، تسوون بين الله وبين خلقه، تتركون عبادة الله الذي يهدي إلى الحق، وتعبدون من لا يهتدي إلى الحق إلا أن يهدى، هذا هو الضلال المبين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾، أي: وما يتبع أكثر المشركين في تأليههم الأصنام، وعبادتها من دون الله.

﴿إِلَّا ظَنًّا﴾، ﴿إلا﴾ أداة حصر، أي: إلا حدسًا وتخمينًا واعتقادًا باطلًا، ونُكِّر للتحقير؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ وهو الحدس والتخمين والشك والاعتقاد الباطل ﴿لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾، أي: لا يغني ولا ينفع من الحق الثابت بدليل العقل والنقل شيئا، أي: لا يقوم الظن مقام الحق واليقين أبدًا في أي شيء من الأشياء؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، أي: إن الله عليم بالذي يفعله هؤلاء المشركون المتبعون

للظن، أو عليم بفعلهم، وسيحاسبهم ويجازيهم عليه، وفي هذا تهديد لهم ووعيد شديد على اتباعهم الظن وإعراضهم عن الحق الثابت.

الفوائد والأحكام:

١ - تقرير المشركين والاحتجاج عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية على ما أنكروه من توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ وقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ الآية؛ وكما قال تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

٢- أن الأرزاق كلها من الله عزَّ وجلَّ وبيده؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآية؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

٣- أن الرزق منه ما ينزل من السماء وهو المطر، وتقدير الأرزاق كلها، ومنه ما يخرج من الأرض، كالنبات والمعادن، ونحو ذلك.

٤- ملكه عزَّ وجلَّ للسمع والأبصار، وامتنانه عزَّ وجلَّ على العباد بخلقهما؛ لأنهما منفذ العلم والهدى إلى القلب؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾.

٥- قدرة الله التامة على إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾.

٦- انفراد الله عزَّ وجلَّ وحده دون شريك بتدبير أمر الكون والخلق كله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ﴾.

٧- إقرار المشركين واعترافهم بتوحيد الربوبية؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ لكن ذلك لم ينفعهم لما لم يقروا بتوحيد الألوهية.

٨- الإنكار على المشركين وتوبيخهم لعدم تقواهم بفعل أوامر الله واجتناب نواهيه؛ ولإشراكهم معه غيره في الألوهية مع إقرارهم له وحده بالربوبية؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾.

٩- أن الله عزَّ وجلَّ هو الرب الحق، والإله الحق، لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ ﴾.

١٠- أنه لا شيء بعد الحق إلا الضلال، فالله هو المعبود الحق، وما عبد من دونه فهو ضلال وباطل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾.

١١- أن من كتب الله عليه الشقاء وعدم الإيمان فلا سبيل إلى إيمانه؛ لقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

١٣- إثبات القدر، وأن الله تعالى قدر الكفر والإيمان ومقادير كل شيء.

١٤- أن الفسق والخروج عن طاعة الله، ومقابلة الحق بالتكذيب سبب للحيلولة دون الإيمان.

١٥- الإنكار على المشركين في إشراكهم مع الله من لا يستحقون العبادة، بل هم في غاية الضعف والعجز، مخلوقون لله كغيرهم من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، أي: لا أحد منهم يستطيع ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

١٧- إثبات المعاد وبعث الأجساد، وقدرة الله تعالى التامة على ذلك، وتفرده تعالى بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

١٨- توبيخ المشركين وتقريعهم كيف يُصرفون عن عبادة الله تعالى الذي يبدأ الخلق ثم يعيده إلى عبادة مخلوقين ضعاف أمثالهم، لا يستطيعون شيئًا من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾.

١٩- الإنكار على المشركين في عبادتهم آلهة من دون الله ليس فيهم من يهدي إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ ﴾، أي: ليس فيهم من يهدي إلى الحق.

٢٠- أن الذي بيده الهداية للدين الحق هو الله عزَّ وجلَّ وحده؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّ﴾.

٢١- أن الأولى بالاتباع والعبادة والطاعة هو الله عزَّ وجلَّ الذي بيده الهداية، لا

الشركاء الذين لا يهدون ولا يهتدون؛ لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾.

٢٢- الإنكار على المشركين في تسويتهم بين الله عزَّ وجلَّ الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، والذي يهدي إلى الحق، وبين شركائهم الذين لا يستطيعون شيئًا من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

٢٣- ذم المشركين والنعي عليهم فيما يتبعون، وبيان أن أكثرهم ما يتبعون إلا ظنًّا، أي: ما يتبعون فيما يعبدون من دون الله إلا ظنًّا وحدسًا وتخمينًا واعتقادًا باطلًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾.

٢٤- أن الظن لا يغني ولا ينفع من الحق شيئًا، ولا يقوم مقام الحق الثابت واليقين أبدًا في شيء من الأشياء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

٢٥- علم الله التام بما يفعله هؤلاء وغيرهم، وفي هذا وعيد وتهديد لهم، وأن الله عزَّ وجلَّ عليم بأفعالهم، وسيحاسبهم ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

بعدما بين ضلال المشركين وبطلان ما هم عليه من الشرك في العبادة من غير دليل ولا برهان ولا حجة ولا سلطان، أتبع ذلك ببيان أن القرآن الذي يدعوهم إلى توحيد الله حق، ولا يمكن أن يفترى من دون الله؛ كما في زعمهم أن الرسول ﷺ قد افتراه، وتحديهم أن يأتوا بسورة مثله.

قوله: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب خبر (كان) أي: ما كان هذا القرآن، ولا يتصور ﴿أَن يُفْتَرَىٰ﴾، أي: يختلق ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: أنه لا يكون إلا من عند الله، ولا يمكن أن يفترى على الله؛ لأن كلام الله عزَّ وجلَّ لا يشبه كلام البشر؛ لعظمته وإعجازه في ألفاظه ومعانية وأحكامه ومواعظه وأخباره؛ كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الواو عاطفة، و(لكن) حرف استدراك، ﴿تَصْدِيقَ﴾ معطوف على خبر (كان) أو مفعول لأجله، أي: ولكن أنزله تصديق الذي بين يديه، أي:

لتصديق الذي بين يديه، أي: الذي سبقه من الكتب السماوية؛ كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

فهو مصدق لها، شاهد بصحتها، وهو مصداق ما أخبرت به، وهو مصدق لها بموافقته لها على الدعوة إلى أصول الأديان من توحيد الله تعالى، ونفي الشرك، والدعوة إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات، ونحو ذلك، والنهي عن ضد ذلك. وهو مهيمن وحاكم عليها، مبين لما وقع فيها من تحريف وتبديل.

﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: وبيان الأحكام والحلال والحرام والمواعظ والأخبار، بيانا شافيًا كافيًا حقًّا.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، أي: لا شك ولا مرية فيه بوجه من الوجوه ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خالقهم ومالكهم ومدبرهم ومربيهم بربوبيته العامة لهم جميعًا؛ أي من وحيه وكلامه.

قوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، ﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة التي بمعنى (بل) التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أيقول المكذبون لك يا محمد: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ ؟ أي: افترى القرآن على الله، أي: اختلقه وتقوله من عند نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ [السجدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [الأحقاف: ٨].

﴿قُلْ﴾، أي: قل لهم يا محمد: إن كنتم تزعمون أن القرآن مفترى من دون الله، وأنه ليس من عند الله، وأنني افتريته وتقوَّلته من عند نفسي.

﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾، أي: فأنا بشر مثلكم، وقد زعمتم أنني أتيت بهذا القرآن من عند نفسي، فأتوا أنتم بسورة مثله، أي: مثل القرآن، أي: من جنسه.

﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: وادعوا كل من استطعتم دعوته من دون الله من إنس وجن وغيرهم ليعينوكم على ذلك.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم: إن محمدًا افتراه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة ٢٣، ٢٤].

وهذا هو المقام الثالث في التحدي للمكذبين من مشركي قريش، وهم أرباب الفصاحة وأساطين البلاغة، ولغيرهم من الإنس والجن؛ حيث تحداهم أن يأتوا بمثله، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤].

ثم تقاصر معهم إلى عشر سور مثله، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

ثم تنازل إلى سورة واحدة، فقال تعالى في هذه السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وقال في سورة البقرة: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

ولهذا قال ﷺ: **«ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»**(١).

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)﴾.

قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾، ﴿بَلْ﴾ للإضراب الانتقالي، و«ما»: موصولة، أي: بل كذب هؤلاء المشركون بالذي لم يحيطوا بعلمه، أي: بادروا بالتكذيب في القرآن ولم يحيطوا به علمًا، أي: قبل أن يفهموه، ودون أن ينظروا في أدلة صحته، وأنه لا يكون إلا من كلام الله، ولا يشبه كلام البشر، وذلك مكابرة منهم وعنادًا، وهذا

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٤٩٨١، ومسلم في الإيمان- وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ ونسخ الملل بملته ١٥٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كقوله في سورة النمل: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الآية: ٨٤] والحكم على الشيء فرع عن تصوره.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾، أي: ولم يأتهم حقيقة ما توعدوا به من العذاب، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: كما كذب هؤلاء المشركون بالقرآن قبل أن يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله؛ كذلك كذب الذين من قبلهم من الأمم بوعيد الله إياهم على كفرهم، وبآياته قبل أن يتدبروا فيها.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾، أي: فتأمل كيف كانت نهاية الظالمين الهلاك بسبب ظلمهم بتكذيبهم رسل الله وآياته، وكفرهم وعنادهم، والخطاب للنبي ﷺ أو له ولكل من يصلح له، وفي الآية تسلية للنبي ﷺ، وتحذير للمكذبين من قومه أن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ﴾، أي: وممن بعثت فيهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويصدق به، فيتبعك وينتفع بما أرسلت به، وهم الأقلون عددًا، وقدَّمهم في الذكر تشريفًا وتكريمًا لهم.

﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ﴾، أي: لا يؤمن بهذا القرآن، ولا يصدق به، بل يكذبه ويستمر على ذلك، يموت على ذلك ويبعث عليه، وهم الأكثرون.

كما أن من هؤلاء المكذبين من يؤمن بالقرآن؛ أي يصدق به في نفسه، لكنه يكذبه مكابرة وعنادًا ومجاراة وتقليدًا لغيره من المشركين من الآباء وغيرهم.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾، أي: وربك يا محمد أعلم بالمفسدين، فيحول بينهم وبين

الإيمان بعدله، ويجازيهم على فسادهم بأشد العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، أي: وإن أصروا على تكذيبك فقد أعذرت ﴿فَقُل﴾ لهم: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، أي: لكل منا عمله، وعليه حسابه، وله جزاؤه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ١- ٦].

وقال تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]، وقال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥]، وقال تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢].

﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، أي: بريئون من عملي الذي أعمل من الإيمان والتوحيد في الحال والاستقبال، وأنا بريء من عملكم الذي تعملونه من الكفر والشرك في الحال والاستقبال؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦]، وقال إبراهيم عليه السلام وأتباعه لقومه المشركين: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِنْهُم﴾ ومن هؤلاء المكذبين المشركين ﴿مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، أي: الذين يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وفي دعوتك، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب وتطلب العثرات؛ ولهذا لم ينفعهم هذا الاستماع، وحرموا فائدته، بل كانوا أشبه بالصم؛ ولهذا قال:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام: للنفي، أي: أنت لا تسمع الصم

ولو كانوا لا يعقلون، أي: لا تستطيع إسماع الصم مهما جهرت، ولا إفهام من لا يعقل.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

لما ذكر عدم استفادتهم مما يسمعون منه ﷺ من تلاوة القرآن والدعوة إلى الله تعالى؛ أتبع ذلك بذكر عدم انتفاعهم بالنظر إليه ﷺ وإلى هديه وأخلاقه.

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾، أي: ينظر إليك، ويشاهد أحوالك وأعمالك، وهديك وأخلاقك، وما أنت عليه من الصفات الحميدة والخلق العظيم، مما فيه الدلالة الظاهرة على نبوتك عند أولي البصائر والنهى، لكن هؤلاء لا ينتفعون بذلك؛ لأنهم ينظرون إليه ﷺ بعين السخرية والاستهزاء والاحتقار؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١].

﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ الاستفهام كسابقه، أي: أنت لا تهدي العمي الذين لا يبصرون، فهؤلاء تعطلت عندهم الوسائل الموصلة إلى الحق ومعرفته، فلا هم يسمعون ولا يبصرون ما ينفعهم ولا يعقلون، وهذا غاية الخسران والخذلان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

لما بين صممهم عن الحق، وعماهم عن الهدى؛ بيّن أنهم اختاروا ذلك، وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي، أي: إن الله لا يظلم الناس أيَّ شيء من الأشياء مهما قل أو صغر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وقال عزَّ وجلَّ في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرَّمت الظُّلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّمًا فلا تظالموا**»(١).

---

(١) أخرجه مسلم في البر، تحريم الظلم ٢٥٧٧، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

فهو عزَّ وجلَّ يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، ولا يعذب أحدًا إلا بذنبه، ولا ينقص من حسناتهم، ولا يزيد في سيئاتهم، بل يزيد في حسنات من آمن منهم فضلًا منه وكرمًا.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بتخفيف: «لكن» ورفع: «الناسُ» وقرأ الباقون بتشديدها ونصب: ﴿الناسَ﴾، أي: ولكن الناس يظلمون أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي.

وقدّم المفعول ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ لحصر ظلمهم على أنفسهم وضررهم عليها «وعلى نفسها جنت براقش».

الفوائد والأحكام:

١- أن القرآن الكريم لا يمكن أن يفترى من دون الله، ولا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه كلام البشر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

٢- تصديق القرآن الكريم لما سبقه من كتب الله تعالى، وتفضيله عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾.

٣- تفصيل القرآن الكريم وبيانه للأحكام، والحلال والحرام، وما يحتاجه الناس في أمر دينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾.

٤- أن القرآن حق وصدق لا شك فيه بوجه من الوجوه من رب العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

٦- الإنكار على المشركين في زعمهم أنه ﷺ افترى القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾.

٧- تحديهم أن يأتوا بسورة مثله، إذا كانوا يزعمون أنه من كلام البشر، وأن الرسول ﷺ افتراه، ويستعينوا على ذلك بكل من استطاعوا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

٨- مبادرة المشركين بتكذيب القرآن دون أن يحيطوا بعلمه ويفهموه ويتأملوا في

أدلة صدقه، وقبل أن يأتيهم ما توعدوا به من العذاب إن هم كذبوه وكفروا به؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾.

٩- أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فلا ينبغي أن يحكم على الشيء بقبول أو رد، أو حكم ما، قبل الإحاطة به وفهمه.

١٠- مشابهة المشركين في مبادرتهم بتكذيب القرآن دون إحاطة بعلمه وقبل أن يأتيهم تأويله، للمكذبين قبلهم في سرعة تكذيبهم لرسلهم وما جاؤوا به من الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

١١- ينبغي النظر والتأمل كيف كانت نهاية الظالمين، وما حل بهم من العقوبات والمثلات؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وفي هذا تسلية له ﷺ وتحذير للمكذبين الظالمين من قومه.

١٢- أن من هذه الأمة من يؤمن بالقرآن، وينقاد له ويتبعه، وهم الأقل، وقدمهم تشريفًا وتكريمًا لهم، ومنهم من لا يؤمن به، بل يكذبه ويكفر به، وهم الأكثرون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾.

كما أن من المشركين من يصدق بالقرآن ولكنه يكذبه مكابرة وعنادًا، ومجاراة لغيره، وتعصبًا لدين الآباء.

١٣- علم الله تعالى التام بالمفسدين، فيحول بينهم وبين الإيمان بعدله، ويحاسبهم ويجازيهم على فسادهم وتكذيبهم وكفرهم.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾.

١٥- عناية الله تعالى بنبيه ﷺ، وتعليمه ما يقوله للمكذبين له؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ الآية.

١٦- أن لكل عمله وعليه حسابه وله جزاؤه؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾.

١٧- براءته ﷺ من عمل المشركين والمكذبين، كما أنهم بريئون من عمله؛ لقوله تعالى ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولا أحد يؤخذ بجريرة غيره.

١٨- أن من هؤلاء المكذبين من يستمع إلى الرسول ﷺ عند قراءته ودعوته إلى الله، لكنهم كالصم البكم الذين لا يسمعون ولا يعقلون؛ لقوله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

١٩- أن من هؤلاء المكذبين من ينظر إلى الرسول ﷺ ويشاهد أحواله وأعماله وهديه وأخلاقه لكنهم لا ينتفعون بذلك، فكأنهم عمي لا يبصرون، لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

٢٠- أن الرسول ﷺ لا يستطيع أن يسمع الصم الذين لا يعقلون ولا هداية العمي الذين لا يبصرون.

٢١- أن من لم ينتفع بسمعه وبصره بمعرفة الحق والعمل به فهو كالأصم الذي لا يسمع ولا يعقل، وكالأعمى الذي لا يبصر؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٢٢- أن النظر إلى النبي ﷺ وهديه وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به.

٢٣- كمال عدل الله عز وجل وأنه لا يظلم الناس أي شيء مهما قل أو صغر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾.

٢٤- ظلم الناس لأنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي، وتعريضها لعذاب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

٢٥- أن من كذب بآيات الله وكفر بها فإنه لا يظلم إلا نفسه التي هي وديعة عنده، والله سبحانه غني عن العالمين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ قرأ حفص عن عاصم بياء الغيبة ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾.

وقرأ الباقون بالنون (نحشرهم) و(يوم) منصوب بفعل مقدر، أي: اذكر يوم يحشرهم، أي: يوم يحشر الله عز وجل الخلائق، أي: يجمعهم في عرصات القيامة للحساب بعد بعثهم من قبورهم.

﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾، أي: كأن لم يلبث هؤلاء المشركون، أي: كأن لم يقيموا في الدنيا.

﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ (إلا): أداة حصر، و(مِّنَ): تبعيضية، أي: كأنهم لم يقيموا في الدنيا إلا زمنًا قليلًا ووقتًا قصيرًا من ليل أو نهار؛ كما في قوله ﷺ: (**أحلت لي ساعة من نهار**)(١) أي: أنهم يستصغرون الدنيا بالنسبة للآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم٥٥: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه١٠٢: ١٠٤]، وقال

(١) أخرجه البخاري ١٣٤٩، ومسلم في الحج ١٣٥٣ - من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

تعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [المؤمنون ١١٢: ١١٤].

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ كحالهم في الدنيا يعرف بعضهم بعضًا، فيعرف الأولاد والآباء والقرابات، وغيرهم بعضهم بعضًا، كما كانوا في الدنيا، لكن كل مشغول بنفسه؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ١٤ كَلَّآۖ﴾، [المعارج: ١٠- ١٥]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾ [عبس٣٤: ٣٧].

﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ (قَدْ): حرف تحقيق، أي: قد تحقق خسران الذين كذبوا بلقاء الله والبعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال؛ حيث أوقعوا أنفسهم في الضلال وعرضوها للعذاب، فخسروا دينهم ودنياهم وأخراهم، خسروا أنفسهم وأهليهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾، أي: وما كانوا مهتدين للصواب والحق فيما اختاروه لأنفسهم من التكذيب بلقاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾.

قوله: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ الواو: عاطفة، و(إما): مكونة من (إن) الشرطية و(ما) المؤكدة، والخطاب للنبي ﷺ، أي: فإما ننتقم من هؤلاء المشركين من قومك في حياتك فنريك ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ من عذاب الدنيا فتقر به عينك؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧] أي: دون عذاب الآخرة.

وقد أراه الله عز وجل فيهم ما أقر عينه ﷺ في بدر الكبرى وغيرها من الغزوات.

﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل الانتقام منهم وعقابهم.

﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾، أي: فإلينا مصيرهم ومآبهم، وعلينا حسابهم، ولن يفلتوا من عذابنا في الآخرة.

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ ثم الله مطلع على فعلهم، وعلى الذي يفعلونه، لا يخفى عليه منه شيء، وسينبئهم به ويحاسبهم ويجازيهم بالذي يستحقونه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

وفي هذا تسلية له ﷺ، ووعيد شديد للمكذبين من قومه، أي: لا تحزن عليهم، ولا تستعجل لهم؛ فإنهم لا بد أن يصيبهم الذي نعدهم من العذاب، إما في الدنيا في حياتك فتراه فتقر به عينك، وإما في الآخرة؛ فإن مرجعهم إلى الله، وسيجازيهم بما كانوا يفعلون، فلا مناص لهم من العذاب عاجلًا أو آجلًا.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾، أي: لكل أمة من الأمم الماضية رسول يدعوهم إلى توحيد الله تعالى ودينه فضلًا منه، فإذا جاء رسولهم بالآيات صدقه بعضهم وكذبه آخرون؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦] فيقضي الله بينهم بالعدل بنجاة المؤمنين وهلاك الكافرين.

﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ الجملة حالية، وهي توكيد لما قبلها، أي: قضي بينهم بالعدل وهم لا يظلمون، بأن يعذبوا قبل إرسال الرسل إليهم وإقامة الحجة عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وأيضاً: لكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه وتدعى به، فإذا جاء

رسولهم الموقف شهد عليهم بأعمالهم من كفر أو إيمان، فيقضي بينهم ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾، ويصير المؤمنون إلى الجنة، والكفار إلى النار.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بأن يعذبوا بغير جرم، أو ينقص من حسناتهم، أو يزاد في سيئاتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر: ٦٩].

وأول من يقضى لهم هذه الأمة المحمدية؛ لشرف نبيها صلوات الله وسلامه عليه وشرفها، قال ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق**»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: ٤٩].

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: ويقول هؤلاء المشركون المكذبون إنكارًا للمعاد، واستعجالًا بالعذاب ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بالبعث والمعاد والحساب.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنت ومن اتبعك فيما تعدوننا به من ذلك؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ﴾ [الشورى: ١٨].

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين يستعجلونك وعد الله بالبعث ووعيده لهم بالعذاب.

﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، أي: لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضرًّا، ولا أجلب لها نفعًا ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ﴾ أن أملكه وأقدرني عليه، فكيف ما هو أعظم من ذلك، وهو تعجيل العذاب لكم؟

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ

(١) أخرجه مسلم في الجمعة- هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ٨٥٦، والنسائي في الجمعة ١٣٦٨- من حديث حذيفة رضي الله عنه.

﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: ١٨٨].

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾ هذه الجملة في موقع التعليل لما قبلها، أي: لأن لكل أمة أجل، أي: لكل أمة من الأمم مدة من العمر مقدرة.

﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾، أي: إذا حضر أجلهم وانقضت مدتهم، وجاء وقت عذابهم.

﴿فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾ [المنافقون: ١١].

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ٥١﴾ [يونس: ٥١].

هذا جواب ثان على استعجالهم بالعذاب بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ فيه تخويفهم أن يأتيهم العذاب بغتة، وبيان أنه لا ينفع الإيمان بعد وقوعه.

قوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا﴾، أي: قل لهؤلاء المكذبين المستعجلين لوعد الله وعذابه- تشكيكًا وتكذيبًا به- أخبروني إن جاءكم عذاب الله بغتة.

﴿بَيَٰتًا﴾ وقت نومكم بالليل ﴿أَوۡ نَهَارٗا﴾، أي: جهرة بالنهار؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٧﴾ [الأنعام: ٤٧].

﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ (ماذا): اسم استفهام، أو (ما): استفهامية، و(إذا): اسم موصول، والاستفهام: للإنكار والتعجب.

﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ بالشرك وإنكار البعث والتشكيك في عذاب الله.

أي: أخبروني إن أتاكم عذاب الله أيّ شيء تستعجلون منه، أو ما الذي تستعجلون منه، وليس شيء من العذاب يستعجل به لمرارته، بل يسأل الله السلامة منه.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ﴾ الاستفهام: للإنكار، و(إذا): ظرفية شرطية، و(ما): زائدة إعرابًا مؤكدة من حيث المعنى، أي: أثم إذا ما وقع العذاب عليكم تؤمنون وتصدقون؟ هيهات، فذلك حين لا ينفعكم الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥].

وكما في قولهم: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢].

﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، (الآن): ظرف، أي: الآن تؤمنون بالعذاب بعد وقوعه ﴿وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ تكذيبًا به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

أي: فلا ينفعكم الإيمان الآن بعد وقوع العذاب؛ كما قال تعالى عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩٠، ٩١].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يونس: ٥٢].

قوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالكفر والشرك بالله والتكذيب بوعده، تبكيتًا لهم وتقريعًا:

﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾، أي: تجرعوا وقاسوا عذاب الخلد، أي: عذاب الخلود في النار، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور١٣: ١٦].

﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، أي: لا تجزون إلا بالذي كنتم تكسبون، أي: تعملون من الكفر والشرك والتكذيب والمعاصي.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات الحشر ولقاء الله عز وجل، ورجوع الخلائق إليه، وحسابه ومجازاته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾.

٢- استقصار المشركين حياتهم الدنيا؛ لأنهم لم يعملوا فيها خيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ ونسيانهم أن الله أمهلهم فيها، لكنهم لم ينتفعوا بذلك.

٣- معرفة الناس في القيامة بعضهم بعضًا؛ الأقارب والجيران والأصدقاء وغيرهم، لقوله تعالى: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: يعرف بعضهم بعضًا، لكن ذلك لا ينفعهم، وكل منشغل بنفسه.

٤- تحقق خسران المكذبين بلقاء الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾، أي: خسروا دينهم ودنياهم وآخرتهم وأنفسهم وأهليهم.

٥- ضلال المكذبين بلقاء الله، وعدم اهتدائهم للحق والصواب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾.

٦- تسلية النبي ﷺ، ووعد الله عز وجل له إما أن يريه بعض الذي يعد به المكذبين من العذاب، أو يتوفاه قبل ذلك، ويأخذهم بذلك عند رجوعهم إليه يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾.

وقد أراه الله عز وجل فيهم في بدر ما قرت به عينه ﷺ، وشفا صدره وصدور المؤمنين، وإليه عز وجل مرجعهم يوم القيامة وعليه حسابهم وجزاؤهم.

٧- أن لله عز وجل الحكمة في تعجيل الانتقام من الظالمين، أو تأجيله، فلا ينبغي القلق بسبب تأخير عذابهم، فإنهم لن يفلتوا من عذاب الله، ولن يعجزوا الله هربًا.

٨- شهادة الله تعالى على أعمال العباد وإحصائه لها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾.

٩- أن لكل أمة رسولًا، فإذا جاءهم آمن به من آمن وكفر به من كفر، فيقضى بينهم بالعدل، بإنجاء المؤمنين وإهلاك المكذبين، كما أن لكل أمة رسولًا تدعى باسمه يوم القيامة، فإذا جاء رسولهم الموقف شهد عليهم بأعمالهم، فقضي بينهم بالعدل، ففريق في الجنة وفريق في السعير؛ لقوله تعالى ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وفي هذا تحذير للمكذبين من هذه الأمة.

١٠- كمال فضل الله تعالى وعدله في قضائه بين العباد؛ حيث جعل لكل أمة

رسولًا، إقامة للحجة على الخلق ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، ويُشهد رسلهم عليهم يوم القيامة، ويقضي بينهم بحكمه العدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

١١- استعجال المشركين المكذبين للنبي ﷺ بما وعدوا به من البعث، وما توعدوا به من العذاب؛ تكذيبًا منهم لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

١٢- أنه ﷺ كغيره من البشر لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، إلا ما قدره الله تعالى له؛ لقوله تعالى ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

١٣- أن لكل أمة أجلًا محددًا لفنائهم وعذابهم، لا يتأخرون عنه ولا يتقدمون؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

١٤- الإنكار والتعجيب من المكذبين والمجرمين استعجالهم بعذاب الله، وأنه آتيهم لا محالة، وتخويفهم من إتيانه لهم بغتة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

١٥- أن الإيمان بوعد الله ووعيده بالعذاب بعد وقوعه لا يجدي ولا ينفع؛ لقوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

١٦- تبكيت الذين ظلموا بالكفر والشرك والتكذيب، بتجرعهم عذاب النار وخلودهم فيها؛ لقوله تعالى ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

١٧- كمال عدل الله عز وجل في مجازة الخلائق، وأن الإنسان لا يجازى إلا بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾، أي: ويستخبرك يا محمد المكذبون، ويطلبون منك أن تنبئهم وتخبرهم ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾، أي: أثابت وواقع البعث من القبور والمعاد والحساب وما تُوعدنا به من العذاب؟ وهذا منهم على سبيل التكذيب والإنكار والتعنت والعناد، لا على وجه الاسترشاد.

﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾: أي قل لهم: ﴿إِى وَرَبِّىٓ﴾.

﴿إِى﴾ بكسر الهمزة، حرف جواب لتحقيق المسؤول عنه، وهو مرادف لـ(نعم) ﴿وَرَبِّىٓ﴾: الواو للقسم، أي: وأقسم بربي.

﴿إِنَّهُۥ﴾، أي: البعث والحساب وما يوعدون به من العذاب، ﴿لَحَقٌّ﴾ اللام للتوكيد، أي: إنه لحق ثابت لا شك فيه، وأمر واقع وآت لا محالة؛ كما قال تعالى ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٤].

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لله أن يبعثكم بعد أن تكونوا ترابًا، فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم؛ كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف ٢٩: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥].

وقد أمر الله عز وجل النبي ﷺ أن يقسم به على من أنكر المعاد في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم: هذا الموضع في سورة يونس، والثاني: قوله تعالى في سورة سبأ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ ﴾ [سبأ: ٣]، والثالث: قوله تعالى في سورة التغابن: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ [الآية: ٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾.

قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾ (لو): شرطية غير عاملة، و(ما): موصولة تفيد العموم، والافتداء: تقديم الفدية، وهي: مال أو عرض يقدم نظير ومقابل الخلاص.

والمعنى: ولو أن لكل نفس ظلمت بالكفر والشرك والمعاصي جميع الذي في الأرض من ذهب وفضة وغير ذلك؛ لقدمته يوم القيامة فدية لها مقابل ونظير خلاصها من العذاب؛ لما ترى من شدة الهول والعذاب.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾، أي: وأسر الظالمون الندامة، أي: أخفوا الندامة الشديدة في قلوبهم، وهي الأسف على ما فاتهم، وعلى تفريطهم في جنب الله، وما ارتكبوه من الظلم.

﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾، أي: حين رأوا العذاب وشاهدوه وتحققوه.

﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾، أي: وحكم وفصل بينهم بالعدل التام؛ فجوزي كل منهم بما عمل.

﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ بالنقص من حسناتهم، أو الزيادة في سيئاتهم؛ كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾.

(أَلَآ): حرف تنبيه في الموضوعين، وقدم خبر(إِنَّ) على اسمها؛ لإفادة التخصيص والقصر، واللام: للملك، أي: ألا إن لله خاصة جميع الذي في السموات والأرض،

خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾، أي: ألا إن وعد الله بالبعث والميعاد والحساب والجزاء على الأعمال وتعذيب المشركين ﴿حَقٌّ﴾، أي: ثابت كائن لا محالة.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أي: أكثر المشركين- بل أكثر الخلق- لا يعلمون العلم الذي ينفعهم في معادهم وآخرتهم، وإنما هم كما قال الله تعالى: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

قوله تعالى: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [٥٦].

لما بين عظمة ملكه وسعته وصدق وعده؛ بيّن تمام قدرته على الإحياء والإماتة، ورجوع الخلائق إليه.

قوله: ﴿هُوَ﴾، أي: هو وحده ﴿يُحۡيِۦ﴾ بالإيجاد من العدم، ونفخ الروح والحياة في الحيوان والنبات ﴿وَيُمِيتُ﴾ بسلب الروح والحياة من الحيوان والنبات.

وخص الإحياء والإماتة؛ لأنه إذا قدر على الإحياء والإماتة- وهما من أعظم دلائل قدرته- فقدرته على ما دونهما من باب أولى.

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، أي: وإليه وحده تردون للحساب والجزاء؛ ببعث الحياة فيكم مرة أخرى؛ كما قال تعالى ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية، ٢٥، ٢٦].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، أي: موعظة عظيمة؛ ولهذا نكّرها، وأضافها عز وجل إليه فقال: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ تعظيمًا لها، والمراد بها القرآن الكريم أعظم واعظ؛ كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

والموعظة: ذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب؛ أي ذكر الأوامر والنواهي مع البشارة لمن آمن وامتثل أمر الله، واجتنب نهيه بالسعادة في الدنيا والآخرة ودخول الجنة، وتحذير من كفر وخالف أمر الله وارتكب نهيه من الشقاء في الدنيا والآخرة

والمصير إلى النار.

وهذا الجانب- وهو التربية بالقرآن بإبراز ما فيه من المواعظ والدروس التربوية- يحتاج إلى عناية أكبر ممن يتولون تعليم القرآن وتدريسه، أو التأليف فيه.

والملاحظ أن هذا الجانب أقل نصيبًا من الجوانب التفسيرية الأخرى، مع أنه هو ثمرة ذلك كله، وهو المقصد الأسمى من إنزال القرآن الكريم.

وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تذكير لهم بنعمة ربوبيته لهم ربوبية عامة؛ ليؤمنوا به ويشكروه.

﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ من أمراض القلوب كلها من الشرك والشكوك والشبه والنفاق، والجهل والكبر والحسد والحقد، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وإذا شفيت الصدور والقلوب من الأمراض شفيت الأبدان كلها؛ كما قال ﷺ: **«ألا إنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه، ألا وهي القلب»**(١).

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ خاصة؛ لأن هم الذين يتعظون وينتفعون به دون غيرهم، فهو موعظة للناس عامة، وهدى ورحمة للمؤمنين خاصة.

والهدى هو العلم بالحق والعمل به؛ كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩] أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

والرحمة: ما يحصل من الخير والإحسان والثواب العاجل والآجل لمن اهتدى، فالهدى أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، وبحصولهما تتم السعادة والفلاح والفرح والسرور.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾، أي: قل: ما جاءكم من القرآن الذي هو موعظة وشفاء لما في الصدور، وهدي ورحمة للمؤمنين، ومن توفيق للإيمان هو ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾، أي: بتفضله عز وجل عليكم وزيادته وبرحمته لكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿فَبِذَٰلِكَ﴾، أي: فبهذا الذي جاءهم من القرآن والهدى والإيمان، وفضل الله ورحمته، وأشار إلى ذلك بإشارة البعيد؛ تعظيمًا له.

﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾ روى رويس عن يعقوب: «فلتفرحوا» بالخطاب، وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾، أي: فليُسَرُّوا ويستبشروا، فإن هذا أولى ما يفرح به؛ لأنه أعظم نعمة أنعم الله بها على العباد.

والفرح: شدة السرور، وهو لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب والسلامة من المرهوب، وهو أعلى نعيم القلب ولذته وبهجته، وهو أعلى من درجة الرضا.

وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته؛ لأن ذلك يوجب انبساط النفس ونشاطها، وشكرها لله تعالى، وقوتها وشدة الرغبة فيما عند الله، والإقبال على طاعته؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦].

وهذا فرح محمود، بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها، أو الفرح بالباطل فإن هذا مذموم؛ كما قال الله تعالى عن قوم قارون أنهم قالوا له: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣] بالباطل المناقض للحق.

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر ورويس عن يعقوب بالخطاب:

«تجمعون» وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿يَجْمَعُونَ﴾، أي: هو خير خيرية مطلقة من جميع الوجوه في الحال والمآل.

﴿مِّمَّا﴾ (ما): موصولة تفيد العموم؛ أي: من الذي يجمعونه، أو مصدرية، أي: من جمعهم، من المال وحطام الدنيا، وزينتها الفانية، وعرضها الزائل.

الفوائد والأحكام:

١- إحاطة الله عز وجل علمًا بما يقابل به المشركون النبي ﷺ، وعنايته به، ودفاعه عنه، وإرشاده إلى ما يجيبهم به؛ لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ﴾.

٢- سؤال المشركين المكذبين النبي ﷺ عن البعث وما تُوعّدوا به من العذاب: أهو حق؟ تعنتًا منم وتكذيبًا بذلك، لا استرشادًا.

٣- تحقيق وتأكيد جواب سؤال المشركين بحرف الجواب وبالقسم؛ لأنهم منكرون؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ﴾.

٤- إثبات أن البعث والحساب والجزاء على الأعمال وتعذيب المكذبين حق لا مرية فيه.

٥- قدرة الله تعالى التامة على بعث الخلق وحسابهم ومجازاتهم بأعمالهم، وتعذيب المكذبين، وأنه سبحانه لا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

٦- شدة وعظم هول يوم القيامة وعذابها، واستعداد كل نفس ظالمة لو كان لها ما في الأرض أن تفتدي به من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾.

٧- شدة ندامة الظالمين عند معاينتهم العذاب على ما فرطوا في جنب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ فندامتهم في ذلك لا تخطر على الأوهام؛ لتعذيبهم معنويًّا من داخل نفوسهم.

٨- قضاء الله عز وجل بين الظالمين وبين الخلق أجمعين بالعدل، ومجازاة كل بعمله من غير ظلم؛ لقوله تعالى ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

٩- سعة ملك الله عز وجل، واختصاصه بملك السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

١٠- ثبوت وعد الله تعالى بإثابة المؤمنين، وتعذيب الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

١١- أن أكثر الخلق لا يعلمون العلم الذي يهتدون به إلى معرفة الحق؛ لقوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا ينبغي عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فهم كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٣].

١٢- الامتنان على الناس جميعًا بإنزال القرآن الكريم موعظة للقلوب، وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

١٣- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾.

١٤- عموم رسالة النبي ﷺ لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾.

١٥- أن القرآن الكريم أعظم موعظة، ذكر الله عز وجل فيه الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨] أي: نعم العظة يعظكم بها.

١٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

١٧- شفاء القرآن الكريم لأمراض القلوب كلها؛ المعنوية والنفسية والحسية؛ لقوله تعالى: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

١٨- أن القرآن الكريم هدى ورحمة للمؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يتعظون به؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

١٩- أن مجيء القرآن الكريم موعظة وشفاء لما في الصدور، وهداية ورحمة للمؤمنين هو بفضل الله تعالى وبرحمته؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾.

٢٠- أن ما أنعم الله تعالى به على الناس من إنزال القرآن موعظة وشفاء لما في

الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين بفضله ورحمته؛ أولى ما ينبغي الفرح والاستبشار به؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾.

٢١- أن ما أنعم الله به من هذه النعمة العظيمة من إنزال القرآن الكريم بفضله ورحمته؛ خير من كل ما يجمعه الخلق من حطام الدنيا الفاني الزهيد؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

٢٢- أن الفرح منه ما هو محمود، وهو الفرح بالنعم على سبيل الشكر والاعتراف لله تعالى بها، ومنه ما هو مذموم، وهو الفرح على سبيل البطر وكفر النعم، وبالباطل؛ كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [غافر: ٧٥].

* * *

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾.

قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ ﴾ الاستفهام في قوله: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ وفي قوله: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ للتقرير والإنكار، والخطاب للمشركين الذين ابتدعوا تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم، و(ما) موصولة، أي: أخبروني عن الذي أنزل الله لكم من رزق. والرزق: العطاء.

﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾، أي: فجعلتم من هذا الرزق الذي رزقكم الله إياه حلالًا وحرامًا من تلقاء أنفسكم، مما لم ينزل الله به من سلطان؛ كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، وقال تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٣].

﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ ﴿قُلْ﴾: تأكيد للأول، أي: قل: آلله أذن لكم شرعًا فيما

حرمتم وأحللتم؟ والاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: إن الله لم يأذن لكم بذلك.

﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ﴿أَمْ﴾ متصلة عاطفة، والتقدير: أخبروني آلله أذن لكم في التحريم والتحليل، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه، أم تكذبون على الله في نسبة ذلك إليه؟ وقيل: الهمزة للإنكار و(أو) منقطعة بمعني (بل) أي: بل أعلى الله تفترون، أي: تكذبون.

وأظهر مقام الإضمار، فلم يقل: (أم عليَّ تفترون)؛ لتهويل الافتراء عليه وتشنيعه والتهديد لهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [٦٠].

قوله: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (ما): للاستفهام، والمراد به هنا التهديد والوعيد لهم والتعجيب من حالهم.

وحُذف مفعولا ﴿ظَنُّ﴾ للتهويل؛ ليذهب العقل في تصوره كل مذهب.

والمعني: وأي شيء يظن الذين يختلقون على الله الكذب في التحريم والتحليل أن يفعل بهم من العذاب والنكال عند رجوعهم إلى الله يوم القيامة؟ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ﴿إِنَّ﴾ للتوكيد، ونُكّر ﴿فَضْلٍ﴾ للتعظيم، أي: لذو فضل عظيم، وإحسان جزيل على الناس بإباحته لهم جميع الطيبات، وعدم تحريمه عليهم إلا ما فيه ضرر لهم في دينهم ودنياهم، وعدم معاجلة من افترى عليه بالعقوبة في الدنيا.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، أي: لا يشكرون الله تعالى على ما تفضل به عليهم من الرزق والنعم، بالقيام بطاعته وترك معصيته، فمنهم من يحرم منها ما لم يحرمه الله، أو يحل ما حرم الله، كما وقع من المشركين فيما شرعوا لأنفسهم، ومن أهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم.

ومنهم من ينسبها إلى غير الله، ومنهم من يستعين بها على معصية الله.

وقليل منهم الشكور الذي يعترف بالنعمة، ويثني بها على الله تعالى، ويستعين بها على طاعته؛ كما قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿فِي شَأْنٍ﴾، أي: في أمر من أمورك و«شأن» نكرة في سياق النفي فتعم، أي: وما تكون في أي شأن، وفي أي أمر من أمورك ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ معطوف على قوله ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ من عطف الخاص على العام، أي: ﴿وَمَا تَتْلُواْ﴾ من التنزيل، أو من الكتاب الذي أنزل إليك ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ «من» للتنصيص في العموم، أي: وما تعملون من أي عمل، أي: ولا تعملون أنت وأمتك والخلق أجمع من أي عمل كان، صغيرًا كان أو كبيرًا.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾، أي: شاهدين مطلعين على جميع أعمالكم ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، أي: حين تشرعون فيه وتعملونه، كما قال ﷺ حين سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ قرأ الكسائي بكسر الزاي والباقون بضمها، أي: وما يغيب عن ربك وعلمه وبصره، وما يخفى عليه.

﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ «من» للتنصيص في العموم، أي: من زنة مثقال ذرة، أي: مثقال نملة صغيرة في الأرض ولا في السماء.

﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾ قرأ يعقوب وحمزة وخلف برفع الراء «أصغرُ» و«أكبرُ» وقرأ الباقون بنصبها، أي: ولا أصغر من مثقال ذرة، ولا أكبر منه.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا هو مكتوب في كتاب مبين، أي: في

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان- سؤال جبريل عليه السلام عن الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ما هو ٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كتاب بين واضح، مُبين عما فيه، وهو اللوح المحفوظ، أي: إلا قد أحاط به علم الله عز وجل، وجرى به قلمه.

وهاتان المرتبتان من مراتب القضاء والقدر كثيرًا ما يقرن الله بينهما، وهما العلم المحيط بكل شيء، وكتابته المحيطة بجميع الأشياء؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠)﴾ [الحج: ٧٠].

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)﴾.

قوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ «ألا»: أداة تنبيه و«إن»: حرف توكيد و«أولياء الله»: هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، الذين يتولون الله بالإيمان به وطاعته وتقواه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾ [المائدة: ٥٦].

والذين يتولاهم الله بحفظهم وتوفيقه لهم؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلون مما أمامهم من المخاوف والأهوال يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا، وما فاتهم من الدنيا؛ لأنهم استثمروا أيامها فيما ينفعهم في أخراهم، فلم يأسوا على ما سوى ذلك منها. وإذا انتفى عنهم الخوف والحزن ثبت لهم الأمن والفرح والسرور والسعادة.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ هذا تفسير وبيان لقوله ﴿أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾، أي: أولياؤه بالإيمان والتقوى، فكل من آمن بالله وبما أوجب الله الإيمان به من أركان الإيمان الستة وغيرها، واتقى الله ظاهرًا وباطنًا، بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه؛ فهو من أولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

لما ذكر انتفاء المرهوب عنهم من الخوف والحزن؛ أتبعه بذكر حصول البشارة لهم والمطلوب.

قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: لهم خاصة البشارة في الحياة الدنيا بالسعادة والحياة الطيبة، وتيسير أمورهم، وعون الله وتوفيقه لهم في أمور دينهم ودنياهم، وثناء إخوانهم المؤمنين عليهم، وذلك عاجل بشرى المؤمن، كما قال ﷺ لما سئل عن الرجل يعمل العمل فيحمده الناس عليه، فقال ﷺ: «**ذلك عاجل بشرى المؤمن**»(١).

ومن ذلك ما يرونه من الرؤيا الصالحة أو يرى لهم، كما فسر «البشرى» بذلك أكثر السلف، بل رُويَ ذلك مرفوعًا إلى النبي ﷺ من حديث عبادة بن الصامت(٢) وأبي هريرة(٣) وأبي الدرداء(٤) رضي الله عنهم وغيرهم.

وكذا بشارتهم بما أعد الله لهم في الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة: ٢١].

﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: ولهم البشارة في الآخرة، أول ذلك البشارة لهم عند قبض أرواحهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]

وقال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وفي حديث البراء رضي الله عنه في احتضار العبد المؤمن قوله ﷺ: «**ثم يجئ ملك الموت فيجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله**

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٦٤٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٢٥ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٣١٥، والطبري في «جامع البيان» ١٢/ ٢١٥- ٢١؛ من حديث عبادة.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٢/ ٢١٨، وانظر «تفسير ابن كثير» ٤/ ٢١٦.

(٤) أخرجه أحمد ٦/ ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، والطبري في «جامع البيان» ١٢/ ٢١٤- ٢٢٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٦/ ١٩٦٥.

ورضوان»(١).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قوله ﷺ: «**فيقولون- يعني ملائكة الرحمة-: اخرجي راضية مرضيًّا عنك إلى روح وريحان، ورب غير غضبان**»(٢).

ثم البشرى لهم في قبورهم كما جاء في حديث البراء السابق، عندما يصور للمؤمن عمله الصالح بصورة رجل حسن الهيئة حسن الثياب، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه الذي يجئ بالخير؟ فيقول: «**أنا عملك الصالح**»(٣).

ثم البشرى الكبرى لهم يوم القيامة بدخول الجنة والنجاة من النار؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الحديد: ١٢].

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾، أي: لا تبديل، ولا تغيير لكلمات الله الكونية ووعده؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران: ٩، الرعد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: ٦].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الإشارة تعود إلى ما وعد الله به أولياءه المتقين من نفي الخوف والحزن عنهم، والبشرى لهم في الدنيا والآخرة.

«الفوز» الفلاح وحصول المطلوب والنجاة من المرهوب.

«العظيم» من جميع الوجوه كمية وكيفية وغير ذلك، والذي لا يقدر قدر عظمته إلا العظيم سبحانه- وتعالى- الذي وصفه بذلك.

وأكد فوزهم، وحصر الفوز فيهم بكون الجملة اسمية، وبضمير الفصل؛ لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين، وتوبيخهم في جعلهم مما رزقهم الله حرامًا وحلالًا من غير إذن من الله تعالى؛ افتراء عليه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٧- ٢٨٨، ٢٩٦.

(٢) أخرجه النسائي في الجنائز ١٨٣٣.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٢٨٧- ٢٨٨.

فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

٢- أن الله تعالى هو الرزاق للخلائق كلهم، والأرزاق كلها بيده.

٣- أن أمر التحريم والتحليل كله إلى الله عز وجل، وأن الأصل في الأشياء الحل إلا ما ورد الشرع بتحريمه؛ لأن الله أنكر على من حرم الرزق الذي أنزله لعباده.

٤- إثبات الإذن لله تعالى وهو قسمان: إذن شرعي، وهو المذكور في الآية، وإذن كوني؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

٥- التهديد والوعيد للذين يفترون على الله الكذب بما سيحل بهم يوم القيامة من العذاب والنكال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦٠﴾﴾.

٦- إثبات القيامة، والحساب والجزاء على الأعمال، وتعذيب المكذبين.

٧- فضل الله تعالى العظيم على الناس بإباحة الطيبات لهم، وقصر التحريم على ما فيه ضرر عليهم، وعدم معاجلتهم بالعقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

٨- كفر أكثر الناس بنعم الله تعالى، وجحودهم فضل الله عليهم، وعدم شكرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

٩- يجب عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم غير شاكرين، وليسوا على الحق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦].

١٠- اطلاع الله تعالى وشهادته على جميع تصرفات الخلق وتقلباتهم وما يعملون من أعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾.

١١- علم الله تعالى الواسع لجميع المخلوقات في السموات والأرض، صغيرها وكبيرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿عَن رَّبِّكَ﴾.

١٣- إثبات اللوح المحفوظ، وأن الله كتب فيه كل شيء، كما قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

١٤- عظم ما أعد الله لأوليائه المؤمنين المتقين من السلامة والكرامة، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ولهم البشارة التامة في الدارين؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾.

١٥- أن ولاية الله إنما تُنال بالإيمان به وتقواه، وأولياؤه هم المؤمنين المتقون دون من عداهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

١٦- إثبات الدار الآخرة والجزاء فيها؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

١٧- إثبات القدر، وأن ما حكم الله به كونًا ووعد به أولياءه حاصل وواقع لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

١٨- أنه لا فوز أعظم مما فاز به أولياء الله المؤمنون المتقون؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) ﴾.

قوله: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ؛ تشجيعًا له وتسلية، وتقوية لقلبه، أي: ولا يحزنك قول المكذبين فيك من اتهامهم لك باختلاق القرآن، ورميك وما جئت به بالسحر والشعر والكهانة والجنون، والاستهزاء فيك وفي دينك، وتوعدهم لك، ونحو ذلك، فلا تباهم.

﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ «إن»: للتوكيد، وفيها معنى التعليل، واللام في قوله: «لله»: للملك والاختصاص، و«جميعًا»: حال مؤكدة، أي: لأن العزة جميعها لله تعالى خاصة: عزة القهر والغلبة، وعزة القوة، وعزة الامتناع؛ كما قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا (١٠) ﴾ [فاطر: ١٠].

أي: فإن العزة لله جميعًا، فاستعن بالله، وتوكل عليه، وثق بنصره لك وللمؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ (٨)﴾ [المنافقون: ٨].

﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ هذه الجملة من جملة التعليل، أو تعليل آخر، و«السميع» و«العليم» من أسماء الله عز وجل، فهو عز وجل السميع لجميع أقوال الخلق، العليم بأفعالهم، وفي هذا وعد له ﷺ بالعزة والنصر، ووعد للمكذبين بالذل والهوان؛ لأنه عز وجل السميع لأقوال المكذبين فيه ﷺ، العليم بأفعالهم ومكائدهم له ﷺ، السميع لدعائه ﷺ، العليم بأحواله.

قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

قوله: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ «ألا» أداة تنبيه، وقدم الخبر «لله» للدلالة على الاختصاص، أي: ألا إن لله وحده جميع من في السموات ومن في الأرض، خلقًا وملكًا وتدبيرًا، لا شريك له في شيء من ذلك بوجه من الوجوه؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ ﴾ معطوف على الجملة السابقة، وهو كالنتيجة لها، أي: وما يتبع الذين يعبدون من دون الله شركاء له في الحقيقة؛ لأن له عز وجل كل من في السموات ومن في الأرض، لا يشاركه في ذلك أحد، وإنما يعبد هؤلاء المشركون أصنامًا وآلهة باطلة لا تملك من الأمر شيئًا، لا نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، بل هي مملوكة لله عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ٣].

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ «إن»: نافية، و«إلا»: أداة حصر في الموضعين، أي: ما يتبعون في دعائهم من دون الله شركاء إلا الظن الكاذب، الذي لا يغني من الحق شيئًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ ﴿٣٦﴾﴾ [يونس: ٣٦].

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، أي: وما هم إلا يخرصون، أي: إلا يخمنون ويكذبون.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ ﴾، أي: هو الذي جعل لكم الليل وقتًا مناسبًا للسكون والنوم والراحة؛ بسبب الظلمة التي تغشى وجه الأرض.

﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾، اللام للتعليل؛ أي: لأجل أن تسكنوا فيه بالنوم والراحة بعد النصب والعمل

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ ﴾، أي: وجعل النهار مبصرًا، أي: مضيئًا يبصر به الخلق فينصرفون في معايشهم ومصالحهم وأسفارهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: في جعل الليل وقتًا للسكن والنهار مبصرًا ﴿لَآيَاتٍ﴾، أي: علامات ودلالات على عظمة الخالق، وكمال قدرته، وتمام نعمته على عباده، واستحقاقه العبادة وحده دون سواه.

﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، أي: لقوم يسمعون عن الله عز وجل كلامه ووحيه، سَمْع فهم وقبول واسترشاد، لا سَمْع تعنت وعناد؛ فيستدلون بما يسمعون من آيات الله تعالى على عظمته ووحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

بيَّن في الآية السابقة أن المشركين في دعائهم من دون الله ما يتبعون شركاء له في الحقيقة، وإنما يتبعون الظن الكاذب، والتخمين الخاطئ، ثم بين أن من ظنهم الكاذب وخرصهم الخاطئ نسبة الولد إلى الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم: ٢٧- ٢٨].

قوله: ﴿ قَالُوا ﴾، أي: قال هؤلاء الذين يدعون من دون الله آلهة يزعمون أنهم شركاء لله ظنًّا منهم وتخرصًا: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾، أي: جعل الله له ولدًا، أي: ادعوا أن لله ولدًا، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا، فقالوا: الملائكة بنات الله؛ كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل: ٥٧].

﴿سُبْحَانَهُ﴾، أي: تنزه وتقدس وتعالى وتعاظم عن قولهم، وعن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين؛ كما قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠١].

﴿هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

نزه عز وجل نفسه عن نسبتهم الولد إليه، ثم برهن على ذلك بغناه عن ذلك وسعة ملكه.

أي: هو الغني الغنى التام من كل وجه، عن الولد، وعن الخلق أجمعين، والولد إنما يكون للحاجة، والله الغني عن كل ما سواه، وكل الخلق محتاجون إليه.

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تقرير لكمال غناه، أي: له وحده كل ما في السموات وما في الأرض من العوالم والمخلوقات، فكيف يكون له ولد مما خلق، والكل عبيد له؛ كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٧١]،، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [البقرة: ١١٦].

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ ﴿إِنْ﴾ نافية، بمعنى «ما»، أي: ما عندكم من سلطان، أي: ما عندكم حجة ولا دليل ولا برهان بهذا، أو هل عندكم من سلطان وحجة بهذا القول؟ و«من» للتأكيد والاستغراق في النفي، أي: ما عندكم أي سلطان ولا برهان على هذا، لا عقلًا ولا شرعًا.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: أتقولون على الله الذي لا تعلمونه، أو شيئًا لا تعلمونه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨- ٩٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

ذكر عز وجل المفترين عليه باتخاذ الشركاء، ونسبة الولد إليه، ثم توعدهم بنفي الفلاح عنهم، والعذاب الشديد يوم القيامة؛ بسبب كفرهم وشركهم وافترائهم على الله تعالى.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾، أي: إن الذين يختلقون على الله الكذب بنسبة الشريك له والصاحبة والولد ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾، أي: لا يفوزون أبدًا، لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل هم الأخسرون في الدارين، لا يحصلون على المطلوب، ولا ينجون من المرهوب.

قوله: ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

هذا تفسير لعدم فلاحهم، وبيان لغاية ما يحصلون عليه.

قوله: ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾، أي: غاية ما يحصل لهم متاع في الحياة الدنيا، والمتاع المنفعة القليلة قيمة وزمنًا؛ ولهذا نكره إيذانا بتقليله، وأكد ذلك بقوله: ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾، أي: في الدنيا الحقيرة الزائلة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٣٦،الأعراف: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [النحل: ١١٧]، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾، أي: ثم إلينا معادهم يوم القيامة للحساب والجزاء

﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ المؤلم الموجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب؛ كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ١٩٧].

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ الباء: للسببية و«ما»: مصدرية، أي: بسبب كفرهم وكذبهم وافترائهم على الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥- ٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- دفاع الله تعالى عن نبيه ﷺ، وتسليته، وتقوية قلبه تجاه ما يلقاه من قومه من الأذى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

٢- تشريف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له.

٣- أن النبي ﷺ بشر يعتريه ما يعتري غيره من البشر؛ من الحزن، ونحو ذلك، وفي

الحديث قوله ﷺ: «وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون»[١].

٤- أن العزة لله جميعًا، هو المالك لها وحده، يعز من يشاء وينصره بفضله، ويذل من يشاء ويخذله بعدله، له سبحانه: عزة القهر والغلبة، وعزة القوة، وعزة الامتناع.

٥- إثبات اسم الله «السميع»، وصفة السمع له عز وجل الذي وسع جميع الأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾.

٦- إثبات اسم الله «العليم» وصفة العلم الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٨].

٧- في اجتماع كمال السمع وكمال العلم في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

٨- التنبيه والتأكيد على سعة ملك الله عز وجل، وأن له عز وجل- وحده- من في السموات ومن في الأرض؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٩- التعليل والتدليل على قدرة الله تعالى التامة في الدفاع عن رسوله ﷺ وحفظه ونصره؛ لأن له عز وجل العزة جميعًا، وله كمال السمع والعلم، وله الملك كله.

١٠- بطلان ما يدعوه المشركون من دون الله من شركاء ليس لهم من الأمر شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾.

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [سبأ: ٢٧].

١١- بيان مدى ضلال المشركين في دعائهم من دون الله ما لا ينفع ولا يضر، وأنهم إنما يتبعون الظن والتخمين بلا حجة ولا برهان؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

١٢- الامتنان على العباد بجعل الليل وقتًا لسكنهم فيه، والنهار مبصرًا ليعملوا

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٠٣ – من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

فيه؛ لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا ﴾.

١٣- أن جعل الليل وقتًا للسكون، والنهار مبصرًا ووقتًا للعمل من آيات الله تعالى الدالة على كمال قدرته وعظمته واستحقاقه العبادة وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾.

١٤- أنه إنما يستفيد من الآيات الذين يسمعون عن الله عز وجل كلامه سمع فهم وقبول، وينتفعون بسمعهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾ بخلاف الذين لا ينتفعون بسمعهم، فكأنهم لا يسمعون.

١٥- زعم المشركين وقولهم كذبًا﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾.

١٦- تنزيه الله تعالى نفسه عما نسبه إليه المشركون من الولد؛ لقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ ﴾.

١٧- غنى الله التام عن الولد، وعن الخلق أجمعين، وأن كل ما في السموات والأرض ملك له، ومحتاجون إليه، فكيف يكون له ولد من خلقه؟ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

١٨- أنه لا حجة ولا سلطان، ولا دليل ولا برهان، لا شرعًا ولا عقلًا على ما زعمه المشركون من اتخاذ الله ولدًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآ ﴾، أي: ما عندكم من سلطان بهذا.

١٩- الإنكار على المشركين وتوبيخهم في نسبتهم الولد إلى الله تعالى بلا علم؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

٢٠- أن المفترين على الله الكذب لا يفلحون أبدًا، بل هم الخاسرون؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

٢١- أن غاية ما يحصل عليه المفترون على الله الكذب بالشرك ونسبة الولد إليه متاع قليل حقير في الدنيا، كمتاع البهائم؛ لقوله تعالى ﴿ مَتَٰعٞ فِى ٱلدُّنۡيَا ﴾.

٢٢- حقارة الدنيا ودنوها وقصر عمرها؛ لقوله تعالى: ﴿ مَتَٰعٞ فِى ٱلدُّنۡيَا ﴾.

٢٣- التهديد والوعيد الأكيد للمفترين بأن مرجعهم إليه عز وجل، ثم يذيقهم العذاب الشديد بسبب كفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

٢٤- إثبات البعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٧٤﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾.

قوله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: واقرأ واقصص على المكذبين من قومك من كفار مكة وغيرهم.

﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ النبأ: الخبر العظيم، أي: خبر نوح- عليه السلام- مع قومه لما كذبوه، وكيف أهلكهم الله؛ ليحذر هؤلاء أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم نوح، والسعيد من وعظ بغيره.

﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ﴾، أي: حين قال لقومه ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾، أي: إن كان ثقل وعظم وشق عليكم، واستطلتم مقامي فيكم وبين أظهركم؛ حيث لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

﴿وَتَذۡكِيرِي﴾ معطوف على ﴿مَّقَامِي﴾، أي: وكبر عليكم تذكيري إياكم، ووعظي وتخويفي لكم.

﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: بحججه وبراهينه ودلائل قدرته وعظمته، الدالة على وجوب إخلاص العبادة له تعالى وحده لا شريك له.

والمعنى: إن كان ثقل وعظم واستطال مقامي فيكم، وتذكيري إياكم بآيات الله، فأردتم قتلي أو طردي من بين أظهركم والتخلص مني.

﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾، أي: فعلى الله اعتمدت في دفع كل شر تريدونه بي أو

بدعوتي، وهو حسبي ونعم الوكيل، وسأمضي في طريق دعوتي ولا أبالي فيكم.

﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ وهذا تحدٍّ صارخ لهم، أي: اعزموا أمركم واستعدوا.

﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ قرأ يعقوب برفع الهمزة: «وشركاؤكم» عطفًا على ضمير ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾ وسوغه الفصل بالمفعول، أي: وليجمع شركاؤكم أمرهم.

ويحتمل أن يكون مبتدأ خبره محذوف للدلالة عليه، أي: وشركاؤكم فليجمعوا.

وقرأ الباقون بالنصب: ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾، أي: وأجمعوا شركاءكم، أو ادعوا شركاءكم، الذين تستنصرون بهم.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾، أي: ثم بعد أن تجمعوا أمركم وشركاءكم وتعزموا لا يكن أمركم عليكم غمة، أي: ملتبسًا مشتبهًا مبهمًا، وليكن واضحًا ظاهرًا.

﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾، أي: ثم نفذوا ما أجمعتم عليه في شأني، وافعلوا ما قدرتم عليه.

﴿لَا تُنظِرُونِ﴾، أي: ولا تؤخرون، ولا تمهلون، فإني لا أباليكم، ولا أخاف منكم؛ لأنكم لستم على شيء، كما قال هود عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤- ٥٦].

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾، أي: أعرضتم عما دعوتكم إليه من الحق من الإقرار بتوحيد الله، وإخلاص العبادة له وحده، وكذبتم ما جئتكم به.

﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، أي: فما طلبتكم من أجر على دعوتي لكم، فتدعون أن توليكم بسبب ذلك الغرم، و«من» في قوله: ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ لتأكيد الاستغراق في النفي، أي: فما سألتكم أيَّ أجر مهما قل.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى «ما»، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، أي: ما أجري إلا على الله وحده، لا عليكم، ولا على غيركم، ولا أريد الأجر إلا من الله، لا منكم ولا من غيركم

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، أي: وأمرني ربي بكوني من المسلمين، أي:

المستسلمين لله بالتوحيد المنقادين له بالطاعة، المخلصين له العبادة من الشرك. والإسلام بهذا المعنى هو دين الأنبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام.

وفي هذا تيئيس للمكذبين له، وأن إجماعهم على التولي عنه لا يفل حده، ولا يفت في عضده، ولا يحمله على التنازل عن دينه.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: فكذبوه بعد أن دعاهم إلى الله تعالى ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهرًا، ونوع لهم في أساليب الدعوة، ووعدهم بمغفرة الله لهم، وتأخيره إياهم إلى أجل مسمى، وإرسال السماء عليهم مدرارًا، وإمدادهم بالأموال والبنين والجنات والأنهار، إلى غير ذلك، لكن لم ينجع فيهم ذلك كله، مع لبثه فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾، أي: فخلصناه من الغرق ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾، أي: ونجينا وخلصنا الذين معه ممن أمره الله بحملهم معه، من كل زوجين اثنين وأهله إلا ابنه، ومن آمن به، وهم قليل.

﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾، أي: في السفينة التي أمرناه بصنعها بأعيننا، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ١٣- ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: ١٥].

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ في الأرض يخلفون المكذبين، ويخلف بعضهم بعضًا ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بتكذيبهم نوح عليه السلام وما جاءهم به من الآيات؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ [الفرقان: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح: ٢٥].

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: فتأمل كيف كانت نهاية المنذرين، وهي إنجاء الرسل وأتباعهم المؤمنين، وإهلاك المكذبين،

سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلًا، ولن تجد لسنة الله تحويلا.

وفي هذا تسلية له ﷺ، وتحذير للمكذبين من قومه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، أي: من بعد نوح عليه السلام، وفي هذا إشارة إلى أنه أول رسل الله تعالى.

﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾، أي: رسلًا كثيرين إلى قومهم، منهم: هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام، وغيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ﴾ [النساء: ١٦٤].

﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: فجاؤوا أقوامهم بالآيات البينات، والحجج الواضحات، والبراهين الظاهرات، على صدق ما جاؤوا به، فبادر أقوامهم بالتكذيب بها.

﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ اللام: للتوكيد والمبالغة في انتفاء الإيمان عنهم.

﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ﴾ (ما): موصولة، أي: بالذي كذبوا به.

﴿مِن قَبْلُ ۚ﴾، أي: من أول مجيء رسلهم إليهم، أي: فما كان أولئك الأقوام ليؤمنوا بما جاءتهم به رسلهم من تكرار الدعوة والبينات؛ بسبب مبادرتهم بتكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤].

﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾، أي: كما طبعنا وختمنا على قلوب أولئك الأقوام، فما كانوا ليؤمنوا بسبب تكذيبهم أول مجيء الرسل إليهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: مثل ذلك ﴿نَطْبَعُ﴾، أي: نختم.

﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ الذين شابهوهم بالتكذيب والكفر؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف: ١٠١].

وفي هذا تحذير من التشبه بأولئك الأقوام، وإنذار للمكذبين للنبي ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧].

الفوائد والأحكام:

١- إعلام المكذبين للرسول ﷺ من مشركي مكة وغيرهم خبر نوح عليه السلام مع قومه لما كذبوه، وكيف أهلكهم الله؛ ليحذروا أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم نوح؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ الآية.

٢- عناية الله تعالى بالنبي ﷺ، ودفاعه عنه، وتسليته له، وتهديد المكذبين له، وتحذيرهم.

٣- استطالة قوم نوح عليه السلام لبثه فيهم، واستثقالهم مقامه داعيًا إلى الله تعالى بين أظهرهم ومذكرًا لهم بآيات الله تعالى؛ لقوله عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وهكذا أهل الباطل والضلال يضيقون ذرعًا بمن يدعوهم إلى الحق ويذكرهم بالله.

٤- إعلان نوح عليه السلام لقومه كمال توكله على الله عز وجل، وعظم ثقته بحفظه له ونصره عليهم؛ لقوله عليه السلام: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾.

٥- تحديه عليه السلام لقومه لما كذبوه بأنهم وشركاءهم لن يستطيعوا النيل منه ثقة بالله وبحفظه له؛ لقوله عليه السلام: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾.

٦- فضل التوكل على الله تعالى حقًّا، وعظم أثره في طمأنينة النفس وقوتها، ومن توكل على الله كفاه.

٧- إبانة نوح عليه السلام لقومه أنهم إن تولوا فذلك من قبل أنفسهم لا من قبله هو، فإنه لم يطلب منهم أجرًا مقابل دعوته لهم؛ فيتعللوا ويتذرعوا بذلك؛ لقوله عليه السلام: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾.

٨- تكفل الله عز وجل بأجر نوح عليه السلام وغيره من رسله عز وجل، وكل من سلك طريقهم بالإيمان والدعوة إلى الله تعالى؛ لقوله عليه السلام: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى

ﷲِ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ٣٠]

٩- إعلان نوح عليه السلام تمسكه بما أُرسل به، وما يدعو إليه وهو الإسلام، وعدم التنازل عنه؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

١٠- ينبغي أن يكون للمسلم انتماء وتمسك بدينه، وثوابته، واعتزاز بذلك، وعدم التنازل عن شيء من ثوابت دينه أمام التحديات وعواصف الفتن والأهواء.

١١- استمرار قوم نوح عليه السلام على تكذيبه مع طول لبثه فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾.

١٢- إنجاء الله تعالى لنوح عليه السلام ومن معه في السفينة من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ وهم من آمن به، وهم قليل، وأهله إلا ابنه، ومن حمل معه من كل زوجين اثنين بأمر الله تعالى له.

١٣- استخلاف الله تعالى لنوح عليه السلام ومن آمن معه بدلًا من المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾.

١٤- إغراق الذين كذبوا بآيات الله وكذبوا نوحًا عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

١٥- ينبغي النظر والتأمل في نهاية المنذرين وما حل بالمكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾.

١٦- أن العاقبة للمتقين، والخيبة والخسران للمكذبين الظالمين.

١٧- أن نوحًا عليه السلام هو أول الرسل، ثم تتابع بعده الرسل إلى أقوامهم، وجاؤوهم بالآيات البينات إقامة للحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

١٨- أن أولئك الأقوام بادروا إلى تكذيب رسلهم مما حال بينهم وبين الإيمان بهم بعد ذلك عقوبة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾.

١٩- أن التكذيب بالحق في أول الحال سبب للتكذيب به في ثاني الحال، والمعصية سبب للمعصية بعدها.

٢٠- أنه مثل ما طبع الله وختم على قلوب أولئك الأقوام، فلم يكونوا ليؤمنوا بسبب تكذيبهم رسلهم أول مرة، كذلك يطبع ويختم على قلوب من جاء بعدهم من المعتدين المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

٢١- من يضلل الله فلا هادي له؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

ذكر الله عز وجل قصة موسى عليه السلام مع فرعون في مواضع كثيرة من كتابه العزيز؛ لأنها من أعجب القصص، وفيها ما لا يحصى من الآيات والعبر، فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر، فسخره القدر أن رباه في بيته وعلى فراشه ولم ينفعه الحذر، ثم رزقه الله النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إليه؛ ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده وحده، ويرجع عما هو عليه من الاستكبار والطغيان والأشر، وادعاء الربوبية والألوهية، واستعباد البشر، وبخاصة بنو إسرائيل، وإرسالهم مع موسى عليه السلام، وتخليصهم من عذابه وما يلقونه منه من الضرر، لكن فرعون استمر هو وملؤه على ما هم عليه من التكذيب والعناد، والاستكبار وأذية العباد، وذهب يجمع سحرة مملكته؛ ليبطل ما جاء به موسى عليه السلام من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، التي أيده بها رب العباد، فخيَّب الله مسعاه، وفضحه بين كل من حشرهم ولبَّوا نداه بإبطال سحر السحرة، وإيمانهم بالله، وكفرهم بفرعون ودعواه، إلى أن أحل الله به نقمته فأغرقه وجنوده، ونجى نبيه موسى عليه السلام وبني إسرائيل، وأراحهم من فرعون وأذاه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾، أي: من بعد الرسل الذين بعثناهم من بعد نوح

﴿مُوسَىٰ﴾، أي: موسى بن عمران عليه السلام، وخص موسى عليه السلام ورسالته بالذكر من بين الرسل المشار إليهم، بل وأطنبت الآيات في تفصيلها؛ لأن شريعة موسى عليه السلام أعظم الشرائع التي سبقتها، وكتابه «التوراة» أفضل الكتب السماوية بعد القرآن الكريم، وهو عليه السلام ثالث أولي العزم بعد نبينا محمد ﷺ وإبراهيم عليه السلام.

﴿وَهَٰرُونَ﴾ هو أخو موسى عليه السلام، أرسله الله مؤازرًا ومعينًا لموسى استجابة لقول موسى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٥].

فقال عز وجل: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [طه: ٣٦ ـ ٤٣].

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، أي: وإلى ملئه؛ وهم خاصته، وأشراف قومه، وسادتهم ورؤساؤهم، وخص الملأ؛ لأن عامة الناس تبع لهم.

فموسى عليه السلام بعث إلى بني إسرائيل، وبعث إلى فرعون وملئه؛ ليطلق بني إسرائيل؛ كما قال تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء: ١٦ ـ ١٧].

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، أي: بآياتنا التسع، وحججنا وبراهيننا الدالة على صدقه، وأن ما جاء به حق، من الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده دون سواه.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ السين والتاء للمبالغة، أي: فاستكبروا عن اتباع الحق والانقياد له، وتصديق ما جاءهم به موسى من الآيات، مع استيقانهم بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤].

وأنفوا عن تلقي الدعوة من موسى عليه السلام احتقارًا له ولهارون، وإحالة أن يكونا رسولين من الله وهما من قوم يُستعبدون، أي: يستعبدهم فرعون وقومه؛ كما قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون: ٤٧].

﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾، أي: مرتكبين لأعظم الجرائم، من ادعاء الإلوهية والربوبية، واستعباد بني إسرائيل، وإذلالهم بالقتل، والعمل على استئصال ذكورهم واستحياء نسائهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ على يد موسى عليه السلام بالآيات والمعجزات التي أيدناه بها، الدالة على الحق، وهو صدق موسى فيما جاء به من الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له.

﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا﴾، أي: هذا الذي جاء به موسى من الآيات ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، اللام: للتوكيد؛ أي: لسحر بيِّن ظاهر في نفسه، ومبين أن من جاء به ساحر؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف: ٤٩].

وهذه حجة العاجز، التي قالها جميع المكذبين لرسلهم؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢].

قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: أتقولون للحق حين جاءكم من عند الله تعالى: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾، لقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ والاستفهام كسابقه للإنكار والتوبيخ.

﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾، أي: لا يفوزون أبدًا، ولا يحصلون على مطلوبهم، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا ينجون من مرهوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ٨١].

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨﴾.

قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا﴾ الاستفهام: للإنكار ﴿لِتَلۡفِتَنَا﴾، أي: لتصرفنا وتصدنا، والخطاب لموسى عليه السلام.

﴿عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾، أي: عن الذي وجدنا عليه أباءنا من الدين، وهو الشرك بالله تعالى.

﴿وَتَكُونَ لَكُمَا﴾ قرأ أبو بكر في رواية عن عاصم بالياء: «يكون».

وقرأ الباقون بالتاء: ﴿وَتَكُونَ﴾.

أي: وتكون لك ولهارون: ﴿ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: العظمة والملك والرياسة والسلطان في الأرض، وهذه حجة واهية كسابقتها، أرادوا بها التمويه والترويج على عامة الناس وجهالهم؛ لمعاداة موسى وعدم الإيمان به.

﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: وما نحن لكما بمصدقين بما جئتما به، ولا متبعين لكما، والتعبير بالجملة الاسمية لإفادة الدوام والثبات على ما هم عليه، وانتفاء إيمانهم بهما مطلقًا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ٧٩ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٨٠ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨٢﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ لملئه وجنوده في تحدٍّ وعناد لموسى عليه السلام، وتعاظم واستكبار: ﴿ٱئۡتُونِي﴾ لأعارض وأنقض ما جاء به موسى من السحر، ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾؛ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «سحّار» بتشديد الحاء وألف بعدها.

وقرأ الباقون: «ساحر» على وزن «فاعل» والألف قبل الحاء، أي: ائتوني بكل ساحر عليم بالسحر، ماهر به، متقن ومجيد له؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ١١٢﴾ [الأعراف: ١١١-١١٢].

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ﴾ لمغالبة موسى من مدائن مصر كلها.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾، وفي سورة طه: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه: ٦٥- ٦٦].

فأراد موسى عليه السلام أن تكون البداءة منهم؛ ليُظهر مدى ثقته بظهور ما معه من الحق على سحرهم، وليرى الناس ما صنعوا من السحر، فيأتي بعده الحق فيدمغ باطلهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٦٧- ٦٩].

و ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ موصولة تفيد العموم، أي: ألقوا الذي أنتم ملقونه، أو أيّ شيء أردتم إلقاءه، وفي هذا إشارة لعدم اكتراثه بمبلغ سحرهم، وثقته بأن الله سيبطله

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ ما لديهم من السحر، من حبالهم وعصيهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه: ٦٦]، وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ [الشعراء: ٤٤].

﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ﴾ قرأ أبو عمرو وأبو جعفر: «آلسحر» على وجه الاستفهام من موسى، وقرأ الباقون: ﴿السِّحْرُ﴾ على وجه الخبر من موسى.

والمعنى: قال موسى الذي جئتم به هو عين السحر وحقيقته، لا ما جئت به من عند الله من الآيات والمعجزات.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾، أي: سيبطله بإظهار أنه تخييل وليس بحقيقة، ويبطل تأثيره على الناس بفضح سره.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ تعليل لما قبله، أي: إن الله سيبطله؛ لأن الله لا يصلح عمل المفسدين الذين يريدون نصرة الباطل على الحق ويفسدون في الأرض.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، أي: ويثبت الله الحق ويظهره ويعلي شأنه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الكونية والشرعية؛ ولهذا كان أول من تبين لهم الحق السحرة أنفسهم، فخروا لله ساجدين.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، أي: ولو كره المجرمون إبطال ما جاء به السحرة من السحر والباطل، وإحقاق الحق وتثبيته.

والمجرمون: أهل الإجرام بالكفر والشرك والسحر وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾، أي: فما صدق موسى واستجاب لدعوته مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الظاهرات، والحجج القاطعات.

﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، أي: إلا شباب قليلون، آمنوا وصبروا وثبتوا على الحق.

﴿مِّن قَوْمِهِۦ﴾، أي: من قوم موسى؛ لأنه أقرب مذكور، أي: إلا ذرية من قوم موسى، وهم بنو إسرائيل.

وقال بعضهم: إلا من قوم فرعون؛ لأن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤].

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾، أي: على خوف ووجل من فرعون، وعلى خوف من ملئهم أن يردوهم عن دينهم إلى ما كانوا عليه من الكفر قبل إيمانهم.

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ هذا تعليل لخوفهم، أي: أنهم محقون في خوفهم؛ لأن فرعون عال في الأرض ومن المسرفين، واللام في قوله ﴿لَعَالٍ﴾ لام التوكيد، أي: له الغلبة والقهر والاستبداد في الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ اللام: للتوكيد كسابقتها، أي: لمن المتجاوزين الحد في البطش والبغي والعدوان والظلم، تخاف منه رعيته خوفًا شديدًا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾، أي: فعليه اعتمدوا والتجئوا إليه، واستنصروه وفوضوا أمركم إليه، وثقوا بوعده ونصره، فمن توكل عليه كفاه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وفي قوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ إغراء وحث لهم على كمال التوكل على الله، وأن من شرط الإيمان والإسلام التوكل على الله وحده والثقة به.

﴿فَقَالُوا۟﴾ استجابة لأمر موسى عليه السلام: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾، أي: على الله اعتمدنا وفوضنا أمورنا إليه، ووثقنا بوعده ونصره.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: يا ربنا لا تجعلنا ابتلاء وامتحانًا ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالكفر والشرك، أي: لا تنصرهم علينا؛ فيظنوا أنهم على الحق ونحن على الباطل، فيفتنوا عن الدين، أو لا تسلطهم علينا فيفتنوننا عن ديننا.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: خلصنا برحمتك منهم، فتعلقوا برحمة الله تعالى، أرحم الراحمين ولم يدلوا على الله بإيمانهم؛ لأن المنة لله تعالى عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧].

وقال ﷺ: «**لن يدخل أحدكم عمله الجنة**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(١).

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى وهارون عليهما السلام وبعثهما إلى فرعون وملئه بالآيات البينات، والمعجزات الباهرات، والحجج الظاهرات، والبراهين القاطعات؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾.

٢- استكبار فرعون وقومه عن طاعة موسى والانقياد له، وتكذيبهم بما جاءهم به

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

من الآيات، وتماديهم بالإجرام؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

٣- أن الاستكبار قد يحمل صاحبه على رد الحق بعد معرفته؛ كما قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وفي الحديث: «**الكبر بطر الحق**»(١).

٤- وصف فرعون وملئه لما جاءهم من عند الله من الحق على لسان موسى بأنه سحر مبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

٥- تعظيم الله عز وجل لما جاء به موسى عليه السلام من الآيات والحق؛ لإضافة كل منهما إليه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وقوله: ﴿ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾.

٦- إنكار موسى عليه السلام على فرعون وملئه وصفهم ما جاءهم به من الحق بالسحر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾.

٧- بيان أنه لا يفلح الساحرون أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ فهم مخذولون على الدوام خاسرون في كل حال.

٨- اتهام فرعون وملئه لموسى عليه السلام في قصده بما جاءهم به، وأنه إنما جاءهم بما جاءهم به؛ لصرفهم عن دين آبائهم، ولتكون له ولهارون الزعامة والكبرياء في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

٩- تصميم فرعون وملئه على عدم الإيمان بموسى وهارون، وما جاءا به من الحق؛ لقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

١٠- شدة عتو فرعون وعناده واستكباره، وتحديه لموسى، ومحاولته إبطال ما جاء به من الآيات والحق، ولكن هيهات، وأنى له ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾.

١١- حكمة موسى عليه السلام، وتوفيق الله تعالى له حيث أمر السحرة بأن يلقوا قبله ما هم ملقون؛ لِيُظهر للناس ما هم عليه من السحر والتمويه، وليلقي بعدهم ما

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٩١، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٩ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

معه من الآيات والمعجزات والحق، فيدمغ سحرهم وباطلهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٨٠﴾

١٢- مكاشفة موسى عليه السلام للسحرة بأن الذي جاؤوا به هو السحر بعينه وحقيقته، لا ما جاء به من عند الله من الآيات والمعجزات كما يزعمون؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾.

١٣- ثقة موسى عليه السلام بأن الله سيبطل سحر السحرة وعملهم الفاسد؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١﴾

١٤- أن السحر من عمل المفسدين الذي نهايته البطلان والبوار، والضياع والخسار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١﴾.

عن ليث بن أبي سليم قال: «بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى تقرأ في إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور، الآية التي في سورة يونس: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨٢﴾ والآية الأخرى ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١١٨﴾ [الأعراف: ١١٨] إلى أربع آيات، وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾ [طه: ٦٩]»(١).

١٥- يقين موسى عليه السلام بإحقاق الله تعالى الحق وتثبيته، ونصره بكلماته الكونية والشرعية، وأن الغلبة له على فرعون وملئه، ولو كره المجرمون ذلك؛ لقوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨٢﴾.

١٦- كراهية فرعون وملئه وغيرهم من المجرمين من أهل الكفر والشرك والعناد والاستكبار ظهور الحق.

١٧- أنه لم يؤمن لموسى عليه السلام في أول الأمر إلا ذرية، أي: شباب من قومه مع خوفهم الشديد من فرعون ومن ملئهم أن يفتنهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا

---
(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٦/ ١٩٧٤.

ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴿٨٣﴾﴾.

١٨- أن الشباب أسرع من غيرهم لقبول الحق، والانقياد له، والتأثر به؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ وذلك لأنهم أطهر قلوبًا، وأزكى نفوسًا، وأسلم صدورًا لم تتمكن منهم أمراض القلوب من الحقد والحسد والعداوة والبغضاء، وحب الدنيا؛ لأنهم لم يخوضوا بعد غمار الحياة الاجتماعية، ولم يتوغلوا في معتركها، فقلوبهم أقرب إلى الصفاء، وهم أبعد عن الإعراض والجفاء، وأقبل للحق، وأسرع انقيادًا له، وكما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا(١)

ولقد لمست هذا- والله يشهد- في أبنائنا الطلاب في مراحل التعليم كلها، الجامعي وما قبله، فهم- والله- أرض خصبة لبذر الخير فيهم ولتقبل الحق، لكنهم بحاجة إلى التعامل معهم بالأسلوب التربوي الذي يبني ولا يهدم، فإن كثيرًا ممن يتولون التدريس لا يجيدون هذا الأسلوب- وحسن النية إن وجد لا يكفي- فالأجيال في أمس الحاجة إلى من يأخذ بأيديهم إلى أسباب النجاح والرقي في دينهم ودنياهم، وكيف يخوضون معترك الحياة ويسهمون في رقي الأمة وتقدمها، ولن يتأتى ذلك إلا بالتركيز على الجانب التربوي العملي أكثر من الجانب التعليمي، فما أكثر العلماء، وما أقل العاملين؛ لذا يتوجب إذا سرنا في التعليم خطوة أن نسير في التربية خطوات، حينئذ تؤتي التربية والتعليم ثمارهما، ينبغي الغوص إلى أعماق قلوب الطلاب، واحترامهم وتشجيعهم، وتربيتهم على الثقة بالله تعالى، ثم بأنفسهم، ورفع معنوياتهم، وتبشيرهم وبث روح التفاؤل في نفوسهم، كما قالت خديجة رضي الله عنها لما جاء إليها النبي ﷺ أول نزول جبريل بالوحي عليه فزعًا خائفًا، وقال لها: «**لقد خشيت على نفسي**»، قالت رضي الله عنها بلسان الواثقة بالله: «كلا والله ما يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم...» الحديث(٢).

وكما هو لسان الشاعر في قوله:

---

(١) هذا البيت نسبه أكثرهم لزيد بن الطثرية، وبعضهم لمجنون ليلى، وبعضهم لعمر بن أبي ربيعة. انظر: «البيان والتبيين» ٢/ ٢٩، «الحيوان» ١/ ١١١، «عيون الأخبار» ٣/ ١٣، «محاضرات الأدباء» ٢/ ٥٥، «حماسة القرشي» ص٣١٣.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٤ من حديث عائشة رضي الله عنها.

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء
النور في جنبي وبين جوانحي فعلام أخشى السير في الظلماء[(١)]

فالشباب هم عدة الأمة بعد الله عز وجل، إذا أُحسن توجيههم والتعامل معهم، وسلموا من عثرات الشباب، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقبيصة بن جابر: «إن الشاب يكون عنده تسعة أخلاق حسنة، وخلق واحد سيئ يفسد تلك التسعة؛ فإياك وعثرات الشباب»[(٢)].

وهذا يوجب العناية والاهتمام بالشباب وتوجيههم وتجنيبهم العثرات.

١٩- أن فرعون قد علا في الأرض واستبد فيها، وأسرف في البغي والظلم والعدوان، وأرعب وأرهب أهل مملكته، وبخاصة بنو إسرائيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣)﴾.

٢٠- دعوة موسى عليه السلام قومه إلى ما يقوي قلوبهم، ويحقق إيمانهم وإسلامهم، وهو التوكل والاعتماد على الله، وتفويض أمورهم إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤)﴾.

٢١- لا بد من الجمع بين الإيمان والإسلام وبين التوكل، أي: بين العبادة والتوكل؛ ولهذا كثيرًا ما يقرن القرآن بينهما؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)﴾ [المزمل: ٩]، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥].

٢٢- مبادرة قوم موسى عليه السلام لامتثال أمره لهم بالتوكل على الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

٢٣- لجوء قوم موسى عليه السلام إلى ربهم، ودعاؤهم إياه ألا يجعلهم فتنة للقوم

(١) البيتان لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» ص١١.
(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١١/ ٢٥.

الظالمين، وأن ينجيهم برحمته من القوم الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

٢٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾.

٢٥- وجوب التوكل على الله والاعتماد عليه تعالى وحده، وسؤاله السلامة من الفتن، والنجاة من الشرور، فلا واقي من الفتن سواه، ولا منجي من الشرور إلا هو برحمته، وهو أرحم الراحمين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ هارون عليه السلام. ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾، أي: اتخذا لقومكم بني إسرائيل بمصر بيوتًا يسكنون فيها.

﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، أي: وصيروا بيوتكم مساجد تصلون فيها عند الخوف، أو صيروها مفتوحة إلى القبلة.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، أي: أدوا الصلاة كما شرعها الله تعالى؛ لأن الصلاة من أعظم ما يستعان به في الشدة؛ كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

وكان نبينا ﷺ «إذا حزبه أمر صلى»(١)، وكان يقول: «**قم يا بلال فأرحنا بالصلاة**»(٢).

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: أخبرهم بما يسرهم، وبقرب الفرج من الله لهم، وكشف كربتهم وإزالة شدتهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٣١٩)، من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٨٦)، وأحمد ٥/ ٣٧١، عن عبدالله بن محمد ابن الحنفية، عن صهر لهم من الأنصار، وأخرجه أحمد أيضًا ٥/ ٣٦٤ عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم.

رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قولـــه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ﴾، أي: يـــا ربنـــا ﴿إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾، أي: أعطيتهم.

﴿زينة﴾ الزينة كل ما يتزين به الناس من النساء والبنين والذهب والفضة والأنعام والحرث، وغير ذلك من متاع الدنيا وأثاثها وشهواتها.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤].

﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ معطوف على «زينة»، من عطف الخاص على العام؛ لأن الأموال من أهم الزينة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: في هذه الحياة الدنيا.

﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا، وأعاد النداء؛ لتأكيد التذلل والتعرض للإجابة، ولإظهار التبرؤ من قصد الاعتراض على تقدير الله.

﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ بضم الياء، أي: ليطغوا ويتمادوا في إضلال الناس عن سبيلك، وليفتتن بما أعطيتهم غيرهم، فيظنوا أنك إنما أعطيتهم لحبك لهم ورضاك عنهم.

وقرأ الباقون: «لِيَضلوا» بفتح الياء، أي: ليضلوا هم ويطغوا ويتجبروا؛ اغترارًا منهم بما أعطيتهم، وظنًّا منهم أنهم على شيء.

والقراءتان بمثابة آيتين، فجمعوا بين الضلال والإضلال.

واللام في قوله ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ لام العاقبة، أي: لتكون العاقبة أن يضلوا عن سبيلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] أي: لتكون العاقبة أن يكون لهم عدوا وحزنا.

ويحتمل أن تكون اللام للتعليل، أي: لأجل أن يضلوا عن سبيلك، أي: أعطيتهم

ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم؛ لأجل استدراجهم في الضلال؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦- ١٧].

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أعاد النداء ثالثة لزيادة تأكيد التوجه والتضرع والإلحاح على الله، أي: يا ربنا اتلف أموالهم وأهلكها، فلا تبق لها أثرًا.

﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: ادخل شدة القسوة عليها، واطبع واختم عليها؛ حتى لا تؤمن.

﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ الفاء: للسببية، أي: فيتسبب عن الشد على قلوبهم ألا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، و«لا»: نافية.

والمعنى: فلا يؤمنوا بك يا رب وبما أرسلتني به من الحق والآيات الدالة عليه، ويستسلموا إلى غاية أن يشاهدوا ﴿ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، أي: العقاب المؤلم المهلك لهم في الدنيا، فيؤمنوا إيمان اضطرار لا اختيار، وذلك حين لا ينفعهم الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٥﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥].

وإنما دعا عليهم موسى عليه السلام غضبا لله تعالى لما رأى من جرأتهم على الله تعالى بادعاء فرعون الربوبية والإلوهية، وإفساده وجنوده في الأرض، وصدهم عن سبيل الله.

ولعلمه عليه السلام بأن ما هم عليه من التكذيب والكفر والطغيان من أسباب الحيلولة بينهم وبين الإيمان، كما هي سنة الله عز وجل في المكذبين؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١٠﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله عز وجل ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ «قد» حرف تحقيق، والضمير يعود إلى موسى وأخيه هارون، وأعيد إليهما معًا مع أن الداعي هو موسى وحده؛ لأن هارون أمن على دعاء موسى، فصار بحكم الداعي، أي: قد أجبت دعوتكما بالطمس على أموال فرعون وملئه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣٠﴾ [الأعراف: ١٣٠]، وقال تعالى:

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

وبالشد على قلوبهم، والطبع عليها، والحيلولة بينهم وبين الإيمان إلى أن يشاهدوا العذاب الأليم، فيؤمنوا حين لا ينفعهم الإيمان.

﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾، أي: فاستقيما على دينكما، وامضيا على أمري، واستمرا على دعوتكما شكرًا لله على إجابة دعوتكما.

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قرأ ابن ذكوان عن ابن عامر: «ولا تتبعانِ» بنون خفيفة مكسورة، وقرأ الباقون بتشديد النون مكسورة.

أي: ولا تتبعان طريق الذين لا يعلمون في الاستعجال بطلب حصول وعدي لكما بالطمس على أموالهم والشد والطبع على قلوبهم والحيلولة بينهم وبين الإيمان، كل ذلك كائن لا محالة فلا تستعجلا.

أو لا تتبعان طريق الذين لا يعلمون، وهم فرعون وقومه الجهال الضلال؛ كقوله تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾، أي: قطعنا بهم البحر، حتى جاوزه، والمراد: بحر القلزم، «البحر الأحمر»، بعد أن أمر الله عز وجل موسى عليه السلام بضرب البحر وانفلاقه؛ كما قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: ٧٧].

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾، أي: فلحق بهم فرعون وجنوده.

﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ منصوبان على المفعول لأجله، أي: لأجل البغي، أي: الظلم، والعدوان على بني إسرائيل، بقصد إرجاعهم ومنعهم من الخروج من مصر وردهم إلى الاستعباد.

واقترب منهم حتى أخاف أصحاب موسى عليه السلام؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: ٦١]، فقال موسى عليه السلام واثقًا بربه ونصره: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦٢].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾، أي: حتى أذا أحاط به الغرق، وأيقن بالهلكة.

﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «إنه» بكسر الهمزة، وقرأ الباقون بفتحها.

أي: حتى إذا أدركه الغرق قال يرجو النجاة: ﴿ءَامَنتُ﴾، أي: صدقت أنه لا معبود ﴿إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا الإله والمعبود الذي آمنت به بنو إسرائيل، وصدقت به، وانقادت له، وهو الله عز وجل.

﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الواو: عاطفة، أي: وأنا من المستسلمين المنقادين لدين الله ولما جاء به موسى.

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ هذا جواب لسؤال حذف لدلالة المقام عليه، تقديره: قال الله. وهو جواب لقول فرعون: ﴿ءَامَنتُ﴾؛ لأنه قصد بذلك الإنجاء من الغرق.

والهمزة في قوله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ للإنكار والتوبيخ، و«الآن»: ظرف للزمان الحاضر، أي: آلآن تؤمن، أي: هذا الوقت حين أدركك الغرق تؤمن، حين فات أوان الإيمان، فلا ينفعك الإيمان الآن؛ لأنه وقت اضطرار لا اختيار، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٤- ٨٥].

﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنك قد عصيت قبل، أي: بارزت بالعصيان والكفر والتكذيب قبل الغرق.

﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض بادعائك الربوبية والألوهية، واستعباد الناس، وصدهم عن سبيل الله، وإضلالهم، وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١].

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾؛ قرأ يعقوب: «نُنْجِيك» بإسكان النون الثانية وتخفيف الجيم، وقرأ الباقون بفتح النون الثانية وتشديد الجيم: ﴿نُنَجِّيكَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الناس شَكُّوا في موت فرعون، فأمر الله البحر أن يلقيه بجسده بلا روح وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض- وهو المكان المرتفع- ليتحققوا موته وهلاكه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾، أي: نرفعك على نشز من الأرض ببدنك»(١).

فمعنى ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ نخرجك بجسمك وجسدك من البحر، ونجعلك على نشز من الأرض بلا روح.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، أي: لأجل أن تكون ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، أي: لمن بعدك عظة وعبرة بأخذ الله للظالمين، ودلالة لبني إسرائيل على موتك وهلاكك، وذلك لأنه قد أرعبهم وأرهبهم من شدة بطشه وظلمه لهم، فكأنهم لن يصدقوا بغرقه وموته، ولا يطمئنون إلا برؤية جثته هامدة، فأمر الله البحر أن يلقيه على نجوة مرتفعة ببدنه بلا روح؛ ليكون لهم عبرة وآية.

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ اللام في قوله ﴿لَغَٰفِلُونَ﴾ للتوكيد، أي: وإن كثيرًا من الناس عن آياتنا الكونية والشرعية ﴿لَغَٰفِلُونَ﴾ لا يتأملون فيها، ولا يتعظون بها، ولا يعتبرون؛ ولهذا لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة يونس ٤٧٣٧، ومسلم في الصيام ١١٣٠، وأبو داود في الصوم ٣٤٤٤، وابن ماجه ١٧٣٤- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقالوا هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبي ﷺ: «**أنتم أولى بموسى منهم فصامه وأمر بصيامه**»(١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ الواو: استئنافية، واللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، ﴿بَوَّأْنَا﴾: أنزلنا ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾، أي: منزل صدق.

أي: منزلًا صالحًا بمصر والشام، فأورثهم عز وجل مساكن آل فرعون بمصر، وأورثهم أرضهم وديارهم، وفتح عليهم بلاد الشام فلسطين وما حولها من الأرض المباركة.

كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: ٥٧- ٥٩].

وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٨].

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، أي: وأعطيناهم من الطيبات؛ أي الحلال النافع المستلذ المستطاب طبعًا وشرعًا من المطاعم والمشارب مما ينزل من السماء ومن خيرات الأرض المباركة.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾، أي: فما اختلفوا وتفرقوا في شيء من أمر دينهم، وما جاءهم من الحق، وفي بعثة محمد ﷺ ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾، أي: إلا من بعد ما جاءهم

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٩٧)، ومسلم في الصيام (١١٣٠)، وأبو داود في الصوم (٢٤٤٤)، وابن ماجه في الصيام (١٧٣٤).

العلم، وهو ما بين أيديهم من الوحي الذي يتلونه الموجب لاتفاقهم لا اختلافهم، ولاجتماعهم لا افتراقهم، ولم يكن لهم أن يختلفوا وقد بين الله لهم الحق وأزال عنهم اللبس، ولكن بغى بعضهم على بعض، وفرقتهم الأهواء والأغراض المخالفة للحق، فدب بينهم الاختلاف والتفرق، وهذا هو مسلك الشيطان- إن استطاع- مع أهل العلم والدين، فإنه إذا لم يستطع حملهم على ترك الواجبات أو ارتكاب المحرمات الظاهرة سعى في زرع الاختلاف بينهم، ومن ثم إلقاء العداوة والبغضاء بينهم، ثم تفرقهم شيعًا وأحزابًا، ثم تفرقت عامة الناس تبعًا لهم، فباؤوا بإثمهم وإثم غيرهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية: ١٦- ١٧]

وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾ [البينة: ٤].

قال ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة**»، فقيل: من هم يا رسول الله ؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»(١).

وانظر حال المسلمين اليوم وما هم عليه من الاختلاف والتفرق مما يثلج صدور أعدائهم، ويندى له جبين كل مؤمن غيور على دينه، وتتفطر كبده، ويبكي دمًا لا دمعًا، وما كان ذلك ليكون لولا تفرقهم شيعًا وأحزابًا وجماعات، يكيد بعضها لبعض على حساب الإسلام، فأوصي كل مسلم غيور على دينه بالخروج من عنق الزجاجة الذي وصلت به الأمة إلى هذه الحال، إلى رحابة الإسلام، والعمل على جمع كلمة الأمة، والتركيز على الإيجابيات وجوانب الخير، وما أكثرها، استجابة لأمر الله تعالى لنا بقوله:

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة شرح السنة ٤٥٩٦، والترمذي في الإيمان- افتراق هذه الأمة ٢٦٤٠، وابن ماجه في الفتن- افتراق الأمة ٣٩٩١- ٣٩٩٣، وأحمد ٢/ ٣٣٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أحمد أيضًا ٣/ ١٢٠، ١٤٥- من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح له.

﴿يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بحكمه العدل؛ لعلمه الواسع بهم وبأحوالهم وبكل شيء، وقدرته التامة النافذة فيهم، وفي جميع خلقه.

﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ «ما»: موصولة، تفيد العموم، أي: في جميع الذي يختلفون فيه من أمر نبوته ﷺ، وغير ذلك، فيميز المحق منهم من المبطل، فينجي المؤمنين ويدخلهم جنته، ويهلك المكذبين ويدخلهم النار وبئس القرار.

الفوائد والأحكام:

١- إيحاء الله- عز وجل- لموسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بمصر بيوتًا يسكنون فيها؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾.

٢- أمر الله- عز وجل- لهما بجعل بيوتهما مساجد يصلون فيها عند الخوف، أو جعلها مفتوحة إلى القبلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾

٣- مشروعية الصلاة في شريعة موسى عليه السلام، وأنها من أعظم ما يستعان به وقت الشدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٤- البشارة للمؤمنين بما يسرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

٥- إجماع الرسالات على التبشير، وعلى هذا ربى الرسل عليهم السلام أتباعهم؛ ولهذا قال نبينا ﷺ حين بعث معاذًا وأبا موسى رضي الله عنهما إلى اليمن قال لهما: «**يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا**»(١).

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأنبيائه وأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ﴾ وقوله: ﴿رَبَّكَ﴾.

٧- دعاء موسى عليه السلام الله- عز وجل- بوصف الربوبية، كما كان أكبر دعاء

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٣٨، ومسلم في الأشربة ١٧٣٣-من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

الأنبياء والصالحين بذلك؛ لأن معنى «الرب» الخالق المالك المتصرف، فكأن الداعي بذلك يقول: يا من له الخلق والملك والتدبر أجب دعائي.

٨- عظم ما أعطاه الله تعالى لفرعون وملئه من الزينة والأموال في الحياة الدنيا، لكنهم كفروا ولم يشكروا؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمۡوَٰلًا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

٩- أن الله- عز وجل- يعطي الدنيا أعداءه كما يعطيها أولياءه.

١٠- أن الدنيا وزينتها وأموالها قد تكون سببًا للأشر والبطر والضلال والإضلال؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾.

١١- أن إعطاء الزينة والأموال في الحياة الدنيا قد يكون استدراجًا.

١٢- دعاء موسى عليه السلام على فرعون وملئه غضبًا لله تعالى بسبب طغيانهم وصدهم عن سبيل الله؛ بالطمس على أموالهم والشد على قلوبهم، والحيلولة بينهم وبين الإيمان؛ حتى يروا العذاب الأليم؛ لقوله عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾.

١٣- أن الكفر والتكذيب والطغيان سبب للحيلولة دون الإيمان.

١٤- أن الإيمان لا ينفع بعد معاينة العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]، وذلك؛ لأنه إيمان اضطرار لا اختيار، بغية النجاة فقط من العذاب، ولو رفع عنهم العذاب لعادوا لما نهوا عنه؛ كما قال تعالى، عن أهل النار: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨].

١٥- جواز الدعاء على أهل الضلال الذين يصدون عن سبيل الله بهلاك أموالهم، وانهيار اقتصادهم؛ لينشغلوا بذلك عن الكيد للإسلام والمسلمين؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ وقد كان نبينا ﷺ يقول في دعائه على المشركين: **«اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»**(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨٠٤، ومسلم في المساجد ٦٧٥، وأبو داود في الصلاة ١٤٤٢، والنسائي في التطبيق ١٠٧٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٦- استجابة الله تعالى لدعوة موسى وأخيه على فرعون وملئه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾.

١٧- أمره- عز وجل- لموسى وهارون بالاستقامة على دينهما، والمضي في دعوتهما؛ تقوية لعزمهما، وتأييدًا لهما، وليقوما بواجب الشكر لله تعالى على إجابة دعوتهما؛ لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾.

١٨- نهيه- عز وجل- لهما عن اتباع سبيل أهل الجهل بالاستعجال في طلب حصول ما وعدهما تعالى به من الطمس على أموال فرعون وملئه، والشد على قلوبهم، وإيقاع العذاب عليهم؛ لقول تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقد يحمل ذلك على نهيهما عن اتباع سبيل فرعون وملئه؛ لأنهم أجهل الجاهلين، ولا إشكال في هذا، فقد نهى الله- عز وجل- نبينا ﷺ وهو أفضل الرسل وسيدهم عن طاعة الكافرين والمنافقين فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

١٩- الامتنان على بني إسرائيل بقطع البحر بهم حتى جاوزوه، وإنجائهم من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾.

٢٠- خروج فرعون وجنوده على إثر بني إسرائيل؛ لثنيهم ومنعهم من الخروج من مصر، وردهم إلى الاستعباد، ظلمًا وعدونًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾.

٢١- إعلان فرعون لما أدركه الغرق وأحاط به الإيمان؛ بأنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل واستسلامه، لقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وأنى له ذلك؟

٢٢- لا بد من الجمع بين إيمان الباطن واستسلام الظاهر بالانقياد بالجوارح الظاهرة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

٢٣- أن إيمان فرعون لا ينفعه؛ لأنه لم يؤمن إلا حين أدركه الغرق وأيقن بالهلاك، وهذا وقت اضطرار لا اختيار، فلا ينفع فيه الإيمان ولا التوبة؛ لقول تعالى: ﴿آلْآنَ وَقَدْ

﴿ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآ ﴾ [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠].

٢٤- تبكيت فرعون، وتأنيبه بما كان منه من العصيان قبل، والفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

٢٥- إخراج فرعون من البحر بجسده بلا روح؛ ليكون لمن خلفه آية، فيتأكد بنو إسرائيل من موته، ويطمئنوا بسلامتهم من شره، ويكون أيضًا عبرة للمعتبرين بأخذ الله للظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾.

٢٦- غفلة كثير من الناس عن التأمل في آيات الله الكونية والشرعية، والاعتبار والاتعاظ بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾.

فلا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فهم كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٣] وقال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٦].

٢٧- امتنان الله- عز وجل- على بني إسرائيل بإنزالهم منزل صدق، ورزقه إياهم من الطيبات الحلال المستلذات من المطاعم والمشارب، مما ينزل من السماء، ومما يخرج من الأرض المباركة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

٢٨- أن ما يتمتع به الخلق من المساكن والأرزاق كله من الله عز وجل.

٢٩- أن بني إسرائيل لم يختلفوا فيما هم عليه من الحق، وفى بعثة نبينا محمد ﷺ حتى جاءهم العلم بإنزال كتابه عز وجل عليهم.

٣٠- قضاء الله تعالى، وفصله يوم القيامة بين بني إسرائيل وغيرهم من الأمم فيما كانوا فيه يختلفون؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

٣١- إثبات القيامة، وأنها دار القضاء والفصل بين العباد ومجازاتهم بأعمالهم، ففريق في الجنة، وفريق في السعير.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿فِي شَكٍّ﴾، أي: في ريب ﴿مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي: من الذي أنزلنا إليك من الوحي.

﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ قرأ ابن كثير والكسائي بفتح السين دون همزة الوصل وبحذف الهمزة التي بعد السين مخفف سأل: «فَسَلِ».

وقرأ الباقون بهمزة وصل وسكون السين وهمزة بعد السين: ﴿فَسْـَٔلِ﴾.

والفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فاسأل الذين يقرؤون التوراة والإنجيل من قبلك، أي: فاسأل المنصفين من علماء أهل الكتاب، فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به، وموافقته لما معهم.

قال ابن القيم: «وليس في الآية ما يدل على وقوع الشك ولا السؤال أصلًا؛ لأن الشرط لا يدل على وقوع المشروط، بل ولا على إمكانه؛ كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ

سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥] ونظائره، فرسول الله ﷺ لم يشك ولم يسأل».

وقال أيضًا بعدما رد قول من قال: الخطاب في الآية له ﷺ والمراد غيره، وبين أن سياق الكلام يأباه قال بعد ذلك: «وكل هذا فرار من توهم ما ليس بموهوم وهو وقوع الشك منه والسؤال، وقد بينا أنه لا يلزم إمكان ذلك فضلًا عن وقوعه، فإن قيل: فإذا لم يكن واقعًا ولا ممكنا فما مقصود الخطاب والمراد به؟ قيل: المقصود به إقامة الحجة على منكري النبوات والتوحيد، وأنهم مقرون بذلك، لا يجحدونه ولا ينكرونه، وأن الله سبحانه أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه بذلك، وأرسل ملائكته إلى أنبيائه بوحيه وكلامه، فمن شك في ذلك فليسأل أهل الكتاب، فأخرج هذا المعنى في أوجز عبارة وأدلها على المقصود؛ بأن جعل الخطاب لرسوله ﷺ الذي لم يشك قط، ولم يسأل قط، ولا عرض له ما يقتضي ذلك، وأنت إذا تأملت هذا الخطاب بدا لك على صفحاته: مَن شكَّ فليسأل، فرسولي لم يشك ولم يسأل»(١).

عن ابن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ قال: «التوراة والإنجيل، الذين أدركوا محمدًا ﷺ من أهل الكتاب فآمنوا به يقول: سلهم إن كنت في شك بأنك مكتوب عندهم»(٢).

وقيل: فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك من قصص موسى وفرعون وبني إسرائيل ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: التوراة والإنجيل من قبلك فإن عندهم على نحو ما أوحي إليك.

والأظهر أن قوله ﴿مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ عام في كل ما أنزل؛ لأن «ما»: موصولة تفيد العموم، أي: من الذي أنزلنا إليك، والمعنى على هذا كما وجهه ابن القيم، وكما روي عن سعيد بن جبير والحسن قالا: «لم يشك رسول الله ﷺ ولم يسأل»(٣).

---

(١) انظر بدائع التفسير، ٢/ ٤١٠- ٤١٤.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٢/ ٢٨٦.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان»١٢/ ٢٨٧- ٢٨٨.

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد جاءك الحق من ربك، أي: الحق الثابت الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فلا تكونن من الشاكين في أنه منزل من ربك؛ كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢].

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هذا والذي قبله لا يدل على وقوع ذلك منه، فلم يكن ﷺ من الممترين، ولا من المكذبين، ولم يضق صدرًا بما أنزل إليه، وإنما هذا كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، أي: الذين خسروا دنياهم وأخراهم، والفاء للسببية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص وابن كثير وأبو عمر ويعقوب بالإفراد: ﴿كَلِمَتُ﴾ وقرأ الباقون بالجمع: «كلمات».

أي: إن الذين وجبت وثبتت عليهم كلمة ربك بالكفر والغواية والضلال والشقاء، والمصير إلى النار؛ كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾ [غافر: ٦].

﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾، أي: لا يؤمنون بما أوجب الله الإيمان به وتصديقه، بل لا بد أن يصيروا إلى ما قدر الله وقضاه؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يونس: ٣٣].

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ الواو: حالية، أي: ولو جاءتهم كل آية كونية أو شرعية، بل لا تزيدهم الآيات إلا نفورًا وطغيانًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟

﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٦].

﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، أي: إلى غاية أن يشاهدوا العذاب ﴿الْأَلِيمَ﴾، أي: المؤلم الموجع حسيًّا ومعنويًّا الذي توعدوا به، فيؤمنوا حين لا ينفعهم الإيمان.

كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٥].

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة ما يدل على أن الإيمان حين رؤية العذاب لا ينفع صاحبه، كما هي سنته عز وجل في المكذبين، ثم استثنى عز وجل قوم يونس عليه السلام من هذا العموم، فقد آمنوا لما رأوا العذاب، ونفعهم إيمانهم؛ لحكمة يعلمها الله عز وجل، ولعل منها أن الله علم صدق إيمانهم وثباتهم عليه.

قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ الفاء: عاطفة، و«لولا»: للتوبيخ والتنديم، أي: فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السابقة الذين بعثنا فيهم الرسل، أي: فما كانت قرية آمنت عند معاينتها العذاب من الأمم التي كذبت رسلها فنفعها إيمانها، كما لم ينفع فرعون إيمانه حين أدركه الغرق.

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ «إلا»: أداة استثناء، و«قوم» منصوب على الاستثناء.

و﴿قَوْمَ يُونُسَ﴾ هم أهل قرية نينوى من بلاد العراق، و«يونس» هو يونس بن متى عليه السلام.

﴿لَمَّآ ءَامَنُوا﴾، أي: حين آمنوا كلهم جميعًا؛ خوفًا من وصول العذاب الذي أنذرهم به يونس عليه السلام، بعد معاينتهم أسبابه، وخروج يونس عليه السلام من بين أظهرهم، فجأروا إلى الله تعالى، واستغاثوا به، وتضرعوا إليه، واستكانوا بإيمان وصدق علمه الله تعالى منهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٤٧-١٤٨].

﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾، أي: رفعنا، وأزلنا عنهم ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: عذاب الذل والهوان في الحياة الدنيا بعدما كاد يصل إليهم، وذلك مؤذن أيضًا بكشف عذاب الآخرة عنهم بسبب إيمانهم.

﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي: وأمهلناهم وأجّلناهم إلى وقت انتهاء آجالهم، ولم نعاجلهم بالعقوبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾، أي: ولو أراد ربك كونا لآمن الذين في الأرض كلهم جميعًا، وصدقوك بما جئتهم به، وأقروا بتوحيد الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

ولكن حكمة الله تعالى اقتضت أن يكون منهم مؤمن وكافر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٨].

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: أنت لست تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، أي: حتى يؤمنوا، ولا تستطيع إكراههم على الإيمان، وإلزامهم إياه، وإلجاءهم إليه، فلا تجهد نفسك فيما لا تستطيعه.

وفي هذا دلالة على حرصه ﷺ على إيمانهم، وإعذار له على عدم استجابتهم، وتسلية له؛ كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١- ٢٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ في هذا تأكيد لقوله ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ الآية، أي: وما كان لأي نفس ﴿أَن تُؤْمِنَ﴾ و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم (كان) مؤخر، أي: وما كان لنفس الإيمان ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا بإذن الله الكوني.

و«إذن الله»: أمره وحكمه وقضاؤه، وهو قسمان: إذن كوني وهو المراد هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وإذن شرعي كما في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: ٣٩].

﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قرأ أبو بكر بالنون: «ونجعل»، وقرأ الباقون بالياء: ﴿وَيَجْعَلُ﴾.

والمراد بالرجس هنا الرجس المعنوي، وهو الشرك والكفر والضلال؛ لمقابلته بالإيمان، كالمقابلة في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، أي: على الذين لا ينتفعون بعقولهم ولا يهتدون بها إلى معرفة الحق والعمل به؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، والمراد بالجعل في الآية: الجعل الكوني.

فهو عز وجل يهدي ويوفق للإيمان من شاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

قوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الأمر للنبي ﷺ ﴿مَاذَا﴾ اسم استفهام، أو «ما»: استفهامية، و«ذا»: اسم موصول.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين انظروا وتفكروا وتأملوا واعتبروا ما الذي في

السموات والأرض من الآيات الكونية من الكواكب النيرات الثوابت والسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار، وما أنزل الله تعالى من السماء من الأمطار فأحيا به الأرض بأنواع الزروع والنباتات والثمار، وما أودع فيها من أنواع المعادن والخيرات، وما فيها من الجبال والبحار والسهول والقفار والعمران والخراب، وما ذرأ فيها من الدواب مختلفة الإشكال والألوان والمنافع، وغير ذلك ودلالة ذلك كله على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته ووجوب إخلاص العبادة له وحده لا شريك له.

﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ «ما»: نافية، أي: ولا تغني الآيات والنذر، أو استفهامية، أي: وأي شيء تغني الآيات والنذر؟

والمعنى: وما تنفع الآيات كونية أو شرعية والنذر وما تجدي.

كما قال تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر: ٥].

(النذر) جمع نذير، وهو يشمل النذر من البشر، كالرسل، ومن سلك طريقهم في الإنذار والتحذير من عذاب الله تعالى، كما يشمل أيضًا: النذر القدرية الكونية مما يقع من مصائب وكوارث.

﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: عن قوم سبق لهم في قدر الله تعالى أنهم لا يؤمنون؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧].

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝١٠٢﴾.

قوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ «هل» استفهامية بمعنى النفي، أي: ما ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد.

﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا مثل ما حل من الوقائع والعقوبات والهلاك بالذين مضوا من قبلهم من المكذبين لرسلهم؛ لأن سنة الله تعالى جارية في الأولين والآخرين؛ كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ

أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: ١٦٥].

﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ ما يحل بكم من العقوبة مثل ما حل بمن قبلكم من المكذبين، وأن العاقبة الحسنة لنا؛ لقوله تعالى بعده: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قرأ يعقوب بإسكان النون الثانية، وتخفيف الجيم: «نُنْجِي»، وقرأ الباقون بفتح الثانية وتشديد الجيم: ﴿نُنَجِّى﴾.

أي: ثم نخلص رسلنا والذين آمنوا من العقوبات والهلاك في الحياة الدنيا، ونهلك المكذبين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾، أي: مثل ما أنجينا رسلنا والذين آمنوا بهم من الأمم السابقة ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾، أي: واجبًا علينا ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ الكسائي وحفص عن عاصم: ﴿نُنجِ﴾ بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم، وقرأ الباقون بفتح الثانية وتشديد الجيم ﴿نُنَجِّ﴾، أي: نخلصهم من الهلاك والعذاب؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وهذا حق أوجبه الله تعالى على نفسه؛ تفضلًا منه وكرمًا وإحسانًا؛ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال ﷺ في حديث معاذ رضي الله عنه: «**أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟ حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا**»(١).

وقال ﷺ: «**إن الله كتب كتابًا فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي**»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- تأكيد نزول القرآن من عند الله عز وجل على النبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ والرسول ﷺ لم يشك، ولم يسأل، والشرط لا يدل على وقوع المشروط ولا على إمكانه، ونهيه صلى الله عليه وسلام عن أن يكون من الممترين، أو من الذين كذبوا بآيات الله لا يدل على حصول ذلك منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١، ٤٨].

٢- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له.

٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه، لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

٤- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله، وكلامه، وأنه الحق من عند الله، والرد على القائلين بخلق القرآن.

٥- شهادة التوراة والإنجيل وبشارتها بمبعثه ﷺ وصدقه، وصدق وصحة ما أنزل عليه، وأنه الحق من ربه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبِّكَ﴾.

٧- أن من كذب بآيات الله الكونية أو الشرعية فهو من الخاسرين؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٥٦، ومسلم في الإيمان ٣٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٤٣،وابن ماجه في الزهد ٤٢٩٦- من حديث معاذ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه في البخاري في التوحيد ٧٥٥٣، ومسلم في التوبة- سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه ٢٧٥١، وابن ماجه في المقدمة ١٨٩- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

٨- في قوله عز وجل له ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾، رد على الذين يغلون به ﷺ، ويرفعونه إلى مقام الربوبية والألوهية.

٩- أن من كتب الله وقدر عليهم الكفر والشقاء والمصير إلى النار وعدم الإيمان؛ لا يمكن أن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية؛ حتى يعاينوا العذاب، فيؤمنوا حين لا ينفعهم الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

١٠- إثبات تقدير الله تعالى وخلقه أفعال العباد خيرها وشرها، وأن ما قدره من خير أو شرٍّ كائن لا محالة، والرد على القدرية الذين يقولون: إن العباد يخلقون أفعالهم.

١١- أنه إنما يستفيد من الآيات ويهتدي بها من كتب الله لهم الإيمان والسعادة والفوز بالجنة؛ لمفهوم قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية.

١٢- أن الإيمان عند معاينة العذاب لا ينفع صاحبه؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

١٣- أنه لم تكن قرية من القرى المكذبة للرسل آمنت بعد معاينتها العذاب فنفعها إيمانها بقبوله منها، وكشف العذاب عنها؛ إلا قوم يونس عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

١٤- إثبات رسالة يونس عليه السلام؛ بقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ الآية.

١٥- أن الإيمان بالله تعالى وطاعة رسله من أسباب كشف العذاب والتأجيل إلى حين؛ لقوله تعالى: ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

١٦- إثبات المشيئة لله عز وجل، وهي الإرادة الكونية، وأن الله عز وجل لو شاء وأراد كونا لآمن من في الأرض كلهم جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾.

١٧- أن الله عز وجل شاء وأراد كونا أن يكون من الناس مؤمن وكافر؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

١٨- أنه ﷺ ليس عليه إكراه الناس على الإيمان، ولا يستطيع ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

١٩- أنه لا يمكن لأي نفس أيا كانت أن تؤمن إلا بإذن الله الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٢٠- جعل الله عز وجل الرجس- أي: الشرك والكفر والضلال- جعلًا كونيًّا على الذين لا ينتفعون بعقولهم، ولا يهتدون بها إلى الحق؛ لقوله تعالى ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

٢١- وجوب النظر والتأمل والتفكر بما في السموات والأرض من الآيات الكونية الدالة على كمال قدرة الله تعالى ووجوب توحيده؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢٢- أن الآيات والنذر لا تغني ولا تنفع من سبق في علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

٢٣- التحذير للمكذبين للنبي ﷺ، وأنهم ما ينتظرون إلا مثل ما حل من العقوبات بالمكذبين قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

٢٤- إنذار المكذبين وتهديدهم بالعذاب والهلاك؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

٢٥- إنجاء الله تعالى رسله والمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

٢٦- إيجاب الله تعالى على نفسه إنجاء المؤمنين؛ تفضلًا منه وكرمًا وإحسانًا؛ لقوله

تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

٢٧- الحث على اتباع الرسول ﷺ، والإيمان به وبما جاء به من عند الله تعالى، والترغيب في ذلك؛ لأن بذلك النجاة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥)﴾.

قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾، أي: إن كنتم في شك وريب في صحة وصدق ما جئتكم به من الدين، وكونه حقًّا من عند الله تعالى، وأضاف الدين إليه ﷺ؛ لأنه هو الذي جاء به من عند الله عز وجل.

﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾، أي: فأنا على يقين من بطلان دينكم، وصحة وصدق ما أنا عليه ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوثان والأصنام والشركاء؛ لبطلانه، ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ﴾، أي: ولكن أعبد الله وحده لا شريك له ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾، أي: الذي يقبض أرواحكم، وإليه مرجعكم، كما أحياكم وأوجدكم من العدم، فهو الذي يستحق العبادة وحده.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: وأمرني ربي أن أكون من المؤمنين به، وبما جئتكم به من عنده من الدين.

قوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: وأمرت أن أقم، و(أن) والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، والتقدير: وأمرت بأن أقم وجهك للدين حنيفاً، أي: أخلص العبادة لله تعالى وحده، وأسلم نفسك له، وتوجه بكليتك لدين الإسلام.

﴿حَنِيفًا﴾ منصوب على الحال، أي: مستقيمًا على التوحيد، مائلًا عن الشرك؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تأكيداً للأمر قبله، وبياناً لمعنى ﴿حَنِيفًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ تأكيد بعد تأكيد، وتحذير بعد تحذير، وبيان لعلة النهي عن الشرك.

أي: ولا تدعُ وتعبد غير الله ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ (ما): موصولة، أي: الذي لا ينفعك ولا يضرك من سائر المخلوقات، أي: معبودًا، لا يستطيع لك نفعًا ولا ضرًّا.

﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾، أي: دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك، وحاشاه ﷺ من ذلك، وإنما هذا تنبيه وتحذير وتعليم للأمة.

﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأن الشرك أظلم الظلم؛ لما فيه من صرف حق الله تعالى لغيره، كما قال لقمان فيما حكى الله تعالى عنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

لما بين أن سائر المعبودات من دون لا تملك ضرًّا ولا نفعًا؛ بيّن أن الذي يملك ذلك كله هو الله عز وجل وحده، وهذا من أعظم الأدلة على أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ من مرض أو فقر، ونحو ذلك، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾، أي: فلا رافع لهذا الضر إلا هو عز وجل وحده، ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ بنعمة من رخاء وعافية وسرور، ونحو ذلك، ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾، أي: فلا أحد يستطيع رد فضله عز وجل عن عباده؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، أي: يختص به من يشاء، وفي حديث ابن عباس رضي الله

عنهما: «واعلم أن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك لم يضرُّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»(١).

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ «الغفور» و«الرحيم» اسمان من أسماء الله عز وجل، أي: وهو عز وجل ذو المغفرة لذنوب من تاب وأناب إليه من عباده من أيِّ ذنب كان؛ الشرك وما دونه.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده، ومن رحمته عز وجل مغفرته لذنوب التائبين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ كرر النداء للناس؛ تأكيدًا لما سبق، واهتمامًا بما بعده ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ «قد»: حرف تحقيق، أي: قد جاءكم الدين الحق الثابت الذي لا شك ولا مريه فيه ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ بالوحي الذي أنزله من عنده عز وجل، على نبيه ﷺ.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾، أي: فمن اهتدى إلى هذا الحق واتبعه وعمل به ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ «إنما»: أداة حصر، أي: فإنما نفعُ اهتدائه وفائدته تعود على نفسه لا على غيره، والله غني عن عباده.

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، أي: ومن ضل عن هذا الحق وجانبه، وترك العلم والعمل به ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، أي: فإنما ضلاله على نفسه، وضرر ذلك ووباله عائد عليه لا على غيره، ولا يضر الله شيئًا.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ أُلزمكم الاهتداء والإيمان، وأحفظ أعمالكم، وأحاسبكم عليها؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنعام: ٦٦].

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٦، وأحمد ١/٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧ ـ وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وإنما مهمتي بالنسبة لكم البلاغ والإنذار، وهداية القلوب بيد علام الغيوب.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾.

في هذا تأكيد لما سبق في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٤ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٥﴾.

قوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾، أي: واتبع الذي يوحى إليك من ربك من الكتاب والسنة علمًا وعملًا به، ودعوة إليه.

﴿وَٱصۡبِرۡ﴾، أي: واصبر على طاعة الله تعالى بالعمل بما يوحي إليك والدعوة إليه، واصبر على ما يصيبك في ذات الله من الأذى؛ لقوله تعالى بعده: ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾، أي: حتى يفتح الله بينك وبين المكذبين الضالين، بنصرك وإظهارك عليهم، وهكذا فتح الله تعالى بينه ﷺ وبينهم يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان في بدر الكبرى، وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى، وكلمة الله عز وجل هي العليا.

﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾، أي: وهو خير الحاكمين وأعدلهم وأحكمهم، بأحكامه الكونية، وأحكامه الشرعية؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

٢- عموم رسالته ﷺ لجميع الناس.

٣- شك المشركين وتكذيبهم لما جاء به الرسول ﷺ من الدين الحق؛ لقوله ﷺ: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾.

٤- براءته ﷺ من عبادة ما يعبده المشركون من دون الله؛ لقوله ﷺ: ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٥- يقينه ﷺ أنه على دين الحق،وأن ما جاء به هو الحق، وأن ما عليه المشركون من عبادة آلهة من دون الله باطل؛ لقوله ﷺ: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ﴾.

٦- ثباته ﷺ على عبادة الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾.

٧- أن الله عز وجل هو الذي يتوفى الأنفس ويقبضها بالموت، ومرجعها إليه، وبيده عز وجل وحده الموت والحياة، وإليه وحده المآب، وعليه الحساب، المستحق للعبادة دون سواه؛ لقوله تعالى ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾.

٨- أنه ﷺ- كغيره- مأمور بالاستسلام والانقياد لما أنزل الله تعالى عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٩- أمر الله عز وجل له ﷺ بالاستقامة على ما أنزل الله تعالى عليه من الدين، والتوجه إليه بكلتيه، وإخلاص العبادة لله تعالى، وتحذيره من المشركين ومن آلهتهم التي لا تنفع ولا تضر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.

١٠- في أمره ﷺ بالاستسلام والاستقامة على الدين وتوحيد الله تعالى وتحذيره من المشركين، ومن دعاء آلهتهم؛ أمر وتحذير لأمته ﷺ.

١١- ذم الشرك وأهله ومعبوداتهم مما لا ينفع ولا يضر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.

١٢- أن الشرك أعظم الظلم، وأن المشركين هم الظالمون؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٣- أن ما يحصل من ضر ومن مصائب وكوارث كل ذلك بتقدير الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾.

١٤- أن الكاشف للضر والدافع للشر هو الله تعالى وحده دون ما يعبد من دونه من الآلهة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾.

١٥- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى وهي المشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

١٦- أن الجالب للخير هو الله عز وجل؛ إفضالا منه على عباده؛ لقوله تعالى

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾.

١٧- لا أحد يستطيع رد فضل الله تعالى ومنعه عن عباده؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾.

١٨- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

١٩- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل، وهما: «الغفور» و«الرحيم»، وصفة المغفرة والرحمة الواسعتين له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٢٠- عموم رسالته ﷺ لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٢١- أن ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي، وما يدعو إليه من الدين هو الحق من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٢٣- أن من اهتدى فنفع اهتدائه وفائدته لنفسه، ومن ضل فضلاله على نفسه، والله عز وجل غني عن خلقه، لا تنفعه هداية من اهتدى، ولا يضره ضلال من ضل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾.

٢٤- إثبات الاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ الآية، وفي هذا رد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبور لا اختيار له.

٢٥- كمال عدل الله تعالى حيث يجازي كلًّا بما عمل، ولا يؤاخذ أحدًا بغير عمله؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ الآية.

٢٦- أنه ﷺ ليس بوكيل على الناس يلزمهم الإيمان ويرقب ويحفظ أعمالهم، وإنما هو مبلغ فقط؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

٢٧- تثبيت الله عز وجل له ﷺ بأمره له باتباع ما يوحى إليه، والصبر حتى يحكم الله بينه وبين المكذبين له، وينصره ويظهره عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ

﴿وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾.

٢٨- أن في اتباع الحق الذي أوحاه تعالى إلى نبيه ﷺ والصبر في سبيل ذلك؛ حصول الفتح ونجح الآمال في الدنيا والآخرة.

٢٩- أن الله عز وجل خير الحاكمين وأحكمهم وأعدلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ هُودٍ

المقدمـــة

أ- اسم السورة:

سُمِّيت هذه السورة: «سورة هود» لبسط قصة هود عليه السلام وقومه عاد فيها أكثر من غيرها، وقد تكرر اسمه فيها خمس مرات، ووصف فيها "عادًا" بأنهم قوم هود، في قوله تعالى فيها: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شِبتَ. قال: «**شيّبتني: هودٌ، والواقعة، والمرسلات، وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كوِّرت**»(١).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**شيبتني هود وأخواتها: الواقعة، والحاقة، وإذا الشمس كورت**»(٢).

ب- مكان نزولها:

نزلت سورة هود بمكة.

ج- موضوعاتها:

١- ابتدأ عز وجل «سورة هود» بتعظيم كتابه، بإحكام آياته وتفصيلها، وتعظيم نفسه بكمال حكمه وحكمته، وواسع علمه وخبرته.

٢- ثم أمْره له ﷺ بدعوة الناس ألايعبدوا إلا الله، والبشارة للمؤمنين، والنذارة للمكذبين، وأمرهم بالاستغفار والتوبة، ووعدهم بالمتاع الحسن إلى نهاية آجالهم، وإعطاء كل ذي فضل فضله.

٣- تحذيرهم وتخويفهم عذاب يوم القيامة، فمردهم إليه عز وجل وهو على كل شيء قدير.

٤- إثبات علمه عز وجل بالسر والعلانية، وما تكنه الصدور، وتنطوي عليه القلوب، وتكفله عز وجل برزق جميع الدواب، وعلمه مستقرها ومستودعها؛ كل في كتاب مبين.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الواقعة، ٣٣٥١، وقال: «حديثٌ حسنٌ غريب».

(٢) أخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره»- ٤/ ٢٣٦.

٥- إثبات كمال عظمته عز وجل وقدرته حيث خلق السموات والأرض في ستة أيام، وكان عرشه على الماء، وبيان حكمة الخلق، وهي ابتلاء العباد أيهم أحسن عملا.

٦- تكذيب المشركين بالبعث واستعجالهم العذاب؛ تكذيبًا به، وتهديدهم بأنه آتيهم لا محالة، ومحيط بهم بسبب استهزائهم به.

٧- بيان أن من طبيعة الإنسان اليأس والقنوط عند حصول الشدة، والفرح والبطر عند حصول النعمة، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١١﴾.

٨- تقوية قلب النبي ﷺ، فلا يترك بعض ما يوحى إليه أو يضيق به صدره، بسبب مكابرة وعناد المكذبين له، وقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾، وبيان أن مهمته بالنسبة لهم: الإنذار، والله وكيل عليهم وعلى كل شيء.

٩- زعم المشركين المكذبين أنه ﷺ افترى القرآن، وتحديهم أن يأتوا بعشر سور مثله، وهيهات لهم ذلك، وإثبات أن القرآن إنما أنزل بعلمه عز وجل، لا إله إلا هو، والحض على اتباعه والدخول في الإسلام.

١٠- أن من أراد الدنيا وزينتها أعطي عمله فيها وافيًا بلا نقص، وليس لهم في الآخرة إلا النار، وحبط وبطل ما كانوا يعملون.

١١- شتان بين من آمن بالله وكان على بينة وهدى من ربه بالقرآن وما أنزل الله في كتبه وعلى ألسنة رسله، وبين مَن كفر وكذب بذلك وتوعدهم بالنار.

١٢- بيان أنه لا أظلم ممن افترى على الله كذبًا، والوعيد والتهديد لهم بقيام الأشهاد عليهم، ولعنهم بسبب ظلمهم وصدهم عن سبيل الله، وكفرهم بالآخرة، وأنهم لن يعجزوا الله، وليس لهم من دونه أولياء، يضاعف لهم العذاب؛ لعدم سماعهم وإبصارهم الحق، وخسارتهم أنفسهم، وذهاب ما كانوا يفترونه، وتحقق أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

١٣- وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات وخضعوا لربهم بالجنة والخلود فيها، وفي هذا والذي قبله جمع بين الترغيب والترهيب؛ ولهذا مثّل الفريقين الكافرين والمؤمنين، بالأعمى والأصم، والبصير والسميع، وشتان بين الفريقين.

١٤- التذكير برسالة نوح عليه السلام، ودعوته قومه إلى عبادة الله وحده، وتخويفهم يوم القيامة، وما جرى بينه وبين الملأ الذين كفروا من قومه من المجادلات، واستعجالهم العذاب، وإغراقهم بالطوفان الذي عم السهل والجبل، والبر والبحر، وأغرق جميع أهل الأرض من الكافرين، بما فيهم ابنه؛ لأنه كان كافرًا، وإنجاء نوح ومن معه في السفينة من المؤمنين، وفي ذلك أعظم الدلائل على كمال قدرة الله تعالى، وأعظم العبر والمواعظ.

١٥- بيان أن ما ذكره تعالى له ﷺ في هذه القصة العظيمة- قصة نوح وقومه- هي من أنباء الغيب الدالة على إحاطته عز وجل بالغيب، وعلى صدقه ﷺ، وصحة ما جاء به، وأنه من عندالله؛ لأنه ﷺ ما كان له ولا لقومه من علم بذلك.

١٦- ثم أتبع ذلك بالتذكير بقصة عاد ونبيهم هود عليه السلام، ودعوته لهم إلى عبادة الله دون غيره، وما جرى بينه وبينهم، وتكذيبهم إياه وكفرهم، واتباعهم أمر كل جبار عنيد، وإنجائه والذين آمنوا معه برحمة من الله، وأخذ المكذبين بالعذاب الغليظ؛ بإهلاكهم بالريح وإتباعهم باللعنة في الدنيا، وإبعادهم في الآخرة.

١٧- ثم أتبع ذلك بالتذكير بثمود ونبيهم صالح عليه السلام ودعوته إياهم لعبادة الله وحده لاشريك له، وتذكيرهم بنعم الله، وتكذيبهم له، وإيتائهم الناقة آية مبصرة، وعقرهم لها، وتهديده إياهم بالعذاب ثلاثة أيام، وإنجاء صالح عليه السلام والذين آمنوا معه برحمة من الله، من خزي ذلك اليوم، وأخذ الذين ظلموا من قومه بالصيحة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأن لم يستمتعوا بالنعم في تلك الديار.

١٨- ثم ذكر عز وجل قصة إبراهيم عليه السلام وضيوفه من الملائكة، ومجيئهم له بالبشرى، ومسارعته إلى ضيافتهم، وتخوفه منهم لما لم يأكلوا، وطمأنتهم له، وإخباره أنهم أرسلوا إلى قوم لوط، وبشارتهم لامرأته بإسحاق ومن بعده يعقوب، وتعجبها من ذلك، ومجادلة إبراهيم لهم في قوم لوط، وما جرى في قصة لوط وأضيافه وقومه، وأمر الملائكة له أن يسري بأهله بقطع من الليل، وإنجاء لوط عليه السلام وأهله إلا امرأته، وقلب ديار قومه عليهم بجعل عاليها سافلها وإمطارهم بالحجارة.

١٩- ثم أتبع ذلك بذكر قصة شعيب عليه السلام وقومه مدين، ودعوته إياهم لعبادة الله وحده، ونهيهم عن نقص المكيال والميزان، وأمرهم بإيفاء الكيل والميزان

بالقسط، وعدم بخس الناس أشياءهم ونهيهم عن الفساد في الأرض، وما جرى بينه وبينهم، وتكذيبهم له، وتوعده إياهم بالعذاب، ومن ثم إنجاء شعيب عليه السلام والذين آمنوا معه برحمة من الله، وأخذ المكذبين بالصيحة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأن لم يتمتعوا بتلك الربوع.

٢٠- ثم أشارت السورة باختصار إلى قصة إرسال موسى بالآيات وسلطان مبين إلى فرعون وملئه، واتباعهم أمر فرعون، وتوعدهم يوم القيامة بالنار، واللعنة في هذه الدار، ويوم القيامة بئس الرفد المرفود.

٢١- ثم ختم أخبار هذه الأمم المكذبة للرسل، بأن هذه الأنباء من أنباء القرى نقصها عليك منها قائم وحصيد، وأن ما وقع بهم من العذاب لا بظلم من الله تعالى، ولكنهم ظلموا أنفسهم بعبادتهم آلهة من دون الله، لم ينفعوهم، وما زادوهم غير تخسير، والوعيد بأن هذا أخذه عز وجل إذا أخذ القرى وهي ظالمة؛ إن أخذه أليم شديد، وبيان أن في ذلك عظة وعبرة لمن خاف عذاب الآخرة، وتوعدهم بشدة ذلك اليوم وأهواله.

٢٢- بيان انقسام الناس في ذلك اليوم إلى شقي وسعيد؛ شقي خالد في النار، وسعيد خالد في الجنة.

٢٣- ذم المشركين وما هم عليه من عبادة غير الله مما كان عليه آباؤهم مما لا مرية في بطلانه، وتوعدهم بإيفائهم نصيبهم من العذاب غير منقوص.

٢٤- التذكير بإيتاء موسى الكتاب، واختلاف أهل الكتاب وتشكيكهم فيه وتوعدهم بتوفيتهم أعمالهم؛ لتمام خبرته عز وجل بها، وفي هذا والذي قبله تسلية له ﷺ.

٢٥- أمره ﷺ بالاستقامة كما أمره الله والذين آمنوا معه وتحذيرهم من الطغيان، وأنه مطلع عليهم بصير بأعمالهم، وتحذيرهم من الركون إلى الذين ظلموا، فتصيبهم النار، وما لهم من دون الله من أولياء ثم لاينصرون.

٢٦- أمره ﷺ بإقام الصلاة طرفي النهار وزلفًا من الليل؛ فرضها ونفلها، ذكرى للذاكرين، وأمره بالصبر، وأن ذلك كله من الإحسان، وهو عز وجل لا يضيع أجر المحسنين.

٢٧- قلة الناهين عن الفساد، واتباع أكثر الخلق- بظلمهم وجرمهم- ما أترفوا فيه.

٢٨- بيان عدل الله تعالى، وأنه ما كان ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون.

٢٩- إثبات القدر، وأن الله لو شاء لجعل الناس أمة واحدة على الحق والإيمان، لكنهم لا يزالون مختلفين، إلا من رحم الله؛ لأن الله خلقهم- كونًا- لهذا الاختلاف؛ منهم كافر، ومنهم مؤمن.

٣٠- ثم ختمت السورة بالتنبيه على أن ما قصه الله على رسوله ﷺ في هذه السورة أو في غيرها، من أنباء الرسل وأممهم وما جرى لهم وما انتهى إليه أمرهم؛ هو لتثبيت فؤاده؛ لقوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٣١- التهديد والوعيد للذين لا يؤمنون بالعمل على مكانتهم والانتظار: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

٣٢- بيان اختصاصه عز وجل وحده بعلم الغيب، ومرجع الأمر كله إليه، والامر بالجمع بين عبادته والتوكل عليه ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

قوله: ﴿الر﴾؛ سبق الكلام على الحروف المُقطّعة في أوائل السور في مطلع سورة البقرة.

﴿كِتَابٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا كتاب، والمراد به: القرآن لكريم، ونُكِّر ﴿كِتَابٌ﴾ للتعظيم، أي: كتاب عظيم.

وسُمِّي «كتابًا»؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب في المصاحف بأيدي المؤمنين، ولأن ما فيه من أحكام مكتوب ومفروض العمل بها.

﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ صفة لـ ﴿كِتَابٌ﴾.

والإحكام: إتقان الصنع، فمعنى ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾: أُتقنت وبُيِّنت، وسلمت من الخلل في ألفاظها ومعانيها، وأحكامها، وأخبارها، كما قال تعالى في سورة فُصِّلت: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)﴾ [فصلت: ٤٢].

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾: ميزت وبُيِّن ما فيها من الأحكام، من الحلال والحرام، والأمر والنهي، وغير ذلك.

﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، أي: من عند حكيم خبير، وهو الله- عز وجل- ذو الحكم التام، والحكمة البالغة في أمره ونهيه، وشرعه وقدره، وذو الخبرة التامة والواسعة بجميع الأمور والأشياء؛ دقائقها وجلائلها، بواطنها وظواهرها، خفيّاتها وجليّاتها، عواقبها ومآلاتها.

ولكمال حكمه وحكمته، وواسع علمه وخبرته؛ أحكم وفصّل آياته وبيّنها، فجاءت في أعلى مقامات الإحكام والتفصيل، والإيضاح والبيان.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾؛ «أن» تفسيرية؛ فالجملة تفسير وبيان لما أُحكم وفُصِّل من الآيات؛ لأن النهي عن عبادة غير الله، وإيجاب عبادته وحده؛ هو أصل الدين، وكل ما جاء في هذه السورة أو في القرآن كله متفرع عن هذا الأصل، أي: أنزل هذا القرآن المُحكم المفصّل لعبادة الله تعالى وحده؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وجملة ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بألّا تعبدوا ﴿إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا الله وحده لا شريك له، والخطاب في هذه الآية وما بعدها للناس كافة.

﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ هذه الجملة معترضة بين جملة ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾، وجملة ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ الآية؛ للتحذير من عبادة غير الله، والتبشير لمن عبد الله ووحّده.

أي: إنني لكم- أيها الناس- من الله ﴿نَذِيرٌ﴾، أي: مُنذر ومُحَذِّرٌ لمن عَبَد غير الله، وخالف أمره، وتجرأ على المعاصي؛ بعقاب الدنيا، وعذاب الآخرة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال: «يا معشر قريش، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا تصبحكم، ألستم مُصدِّقيّ؟ فقالوا: نعم؛ ما جربنا عليك كذبًا. قال: فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد»(١).

﴿وَبَشِيرٌ﴾، أي: ومبشر لمن آمن وعبد الله وحده، وأطاعه بثواب الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة المسد ٤٩٧١، ومسلم في الإيمان؛ قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، ٢٠٨.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦﴾ [الإسراء: ١٠٥، الفرقان: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ ﴾ [الأنعام: ٤٨، الكهف: ٥٦].

قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾.

قوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾، أي: بألّا تعبدوا إلا الله، وأن استغفروا ربكم، أي: اطلبوا منه المغفرة؛ بستر ما سلف منكم من الشرك بالله والذنوب والمعاصي، والتجاوز عن ذلك، وعدم المؤاخذة به.

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، أي: ثم أنيبوا وارجعوا إليه فيما تستقبلون من أعماركم؛ بالإقلاع عما كنتم عليه من الشرك والذنوب، والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة إليها، والتقرب إلى الله تعالى بالعمل الصالح، والاستمرار على ذلك.

﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ المتاع: كل ما يتمتع به، أي: ينتفع به، أي: يُمهلكم، ويعطيكم من الرزق ما تتمتعون به، وتنتفعون، ويحييكم حياة طيبة.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، أي: إلى وقت محدد معين، وهو وقت وفاتكم وانتهاء آجالكم.

﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾، أي: ويعطي كل صاحب فضل منكم؛ من عمل صالح وبرٍّ وإحسان ﴿فَضۡلَهُۥۖ﴾؛ الضمير يعود إلى فاعل «يؤت»، وهو الله عز وجل، أي: ويؤت الله ﴿فَضۡلَهُۥ﴾، أي: ثوابه المُضاعف، كل صاحب فضل في عمله، والجزاء من جنس العمل؛ كما قال تعالى: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾ [النحل: ٩٧].

وقال ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله تعالى؛ إلا أُجرت عليها، حتى ما تجعل في فِي امرأتك»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان- ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ٥٦، ومسلم في الوصية- الوصية بالثلث ١٦٢٨- من حديث سعد رضي الله عنه.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ «تولوا»: أصلها «تتولوا» فحُذفت إحدى التاءين تخفيفًا، أي: فإن تتولوا وتعرضوا عما دعوتكم إليه من عبادة الله تعالى وحده، واستغفار ربكم والتوبة إليه.

﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إن توليتم: ﴿عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾، أي: عذاب يوم القيامة، ونكّر «يوم»؛ للتهويل، ووصف بالكبر؛ لزيادة التهويل، أي: يوم عظيم شديد شاق ثقيل؛ لشدة ما يقع فيه من العذاب والأهوال. وفي هذا تهديد شديد لمن تولى عن عبادة الله تعالى، وخالف أمره، وكذّب رسله؛ بأن العذاب الشديد سيناله يوم القيامة لا محالة.

قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

الآية في موضع التعليل لما قبلها؛ وذلك أنه لما خوّفهم وحذّرهم عن التولِّي بعذاب يوم كبير، أتبع ذلك ببيان أن مرجعهم إلى الله وهو على كل شيءٍ قدير، فلا مفر ولا مهرب لهم منه، فإليه إيابهم، وعليه حسابهم.

قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾، أي: إلى الله مردكم ومعادكم يوم القيامة؛ فيحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ من بعث الخلائق، وردهم إليه، ومحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم، وغير ذلك، لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥- ٢٦].

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾.

عن محمد بن جعفر، قال: قرأ ابن عباس: «ألا إنهم تَثْنَوْنِي صُدورُهم ليستخفوا منه»، قال: قلت: يا أبا العباس، ما تثنوني صدورهم؟ قال: كان الرجل يجامع زوجته فيستحيي، أو يتخلى فيستحيي؛ فنزلت: «ألا إنهم تَثْنَوْنِي صُدورُهم»(١).

وفي رواية قال ابن عباس: «أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود- ٤٦٨١- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم»[١].

وهذا السبب- وإن كان صحيح الإسناد- فإن معناه لا يتوافق مع ظاهر معنى الآية وسياقها، فظاهر معناها الذم لمن هذه صفته، وسياقها إنما هو في المشركين، والمذكورون في الحديث ليسوا أهلًا للذم، بل هم أهل للثناء والمدح. والله أعلم.

قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾، «ألا»: للتنبيه والاهتمام في الموضعين.

﴿إِنَّهُمۡ﴾، أي: المشركون والمكذبون.

﴿يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾، أي: يُكنون ويضمرون في قلوبهم الكفر، ويحرفون، ويميلون صدورهم؛ إذا قالوا شيئًا مما يخالف أمر الله، أو فعلوه.

﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يستتروا من الله؛ ظنًّا منهم أنه تخفى عليه أعمالهم إذا أسروها.

ويجوز عود الضمير في قوله: ﴿مِنۡهُۚ﴾ على الرسول ﷺ، وأن المكذبين له ﷺ من شدة إعراضهم إذا رأوه ثنوا صدورهم واحدودبوا؛ لئلا يراهم ويسمعهم كلام الله ويعظهم، والأول أصح.

﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾، أي: ألا حين يغطون رؤوسهم وأبدانهم بثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل.

﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ «ما»: موصولة، أي: يعلم الذي يخفون والذي يظهرون من الأقوال والأعمال، وفي هذا إعلام من الله تعالى لهم أنه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم وأقوالهم وأحوالهم؛ حتى في حال استغشائهم لثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل، يعلم الذي يضمرون ويخفون، ويعلم الذي يظهرون، فكيف يثنون صدورهم ليستخفوا منه؟ ولهذا قال:

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾، أي: إنه عز وجل ذو علم تام بذات الصدور، أي: بصاحبة الصدور، وهي القلوب وما تنطوي عليه من النيات والمكنونات والسرائر

---

(١) أخرجها البخاري في الموضع السابق ٤٦٨٢.

والمضمرات. قال زهير[1]:

فــلا تكــتمن الله مــا في نفوســكم ليخفــي فمهــما يُكــتم الله يعلــم
يــؤخر فيوضــع في كِــتاب فيــدخر ليــوم حســاب أو يعجــل فيــنقم

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن: بألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره، لقوله تعالى: ﴿الٓر﴾؛ لأن الحكمة في ذكر الحروف المقطعة أوائل بعض السور- على الصحيح من أقوال المفسرين- هي التحدي بالقرآن.

٢- إحكام آيات القرآن وإتقانها غاية الإحكام والإتقان؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾.

٣- تفصيل آيات القرآن وإيضاحها وبيانها غاية التفصيل والإيضاح والبيان؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾.

٤- إثبات أن القرآن نزل من عند الله تعالى، وكلامه؛ لقوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾؛ ولهذا جاء في غاية الإحكام والإتقان، والتفصيل والبيان.

٥- إثبات أنه عز وجل ذو الحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ﴾.

٦- أنه عز وجل ذو الخبرة التامة والعلم الواسع؛ لقوله تعالى: ﴿خَبِيرٍ﴾.

٧- النهي عن عبادة غير الله، ووجوب عبادته وحده؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾.

٨- أن التحذير من الشرك، والأمر بعبادة الله وحده هو أصل الدين الذي به أحكمت آيات القرآن ثم فصلت، وكل ما جاء في هذه السورة أو في القرآن كله فهو متفرع عن هذا الأصل.

٩- أن مهمة الرسول ﷺ بالنسبة للناس- كغيره من الرسل قبله- هي الإنذار لمن

(١) انظر: «ديوانه» (ص١٨).

كفر وأشرك بالله وخالف أمره، والتبشير لمن آمن بالله وأطاع الله وامتثل أمره؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾، ومن لازم ذلك الدعوة، وبيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال؛ كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

١٠- الأمر بالاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله تعالى والإغراء في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ الآية.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّكُمْ﴾.

١٢- عظم ما أعد الله تعالى للمستغفرين التائبين من ثواب الدنيا والآخرة؛ فبالاستغفار والتوبة يحصل الإمهال، والمتاع الحسن، والحياة الطيبة الكريمة في الدنيا، والفضل العظيم، والثواب الجزيل في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾.

١٣- التحذير من التولي والإعراض عن عبادة الله تعالى وتوحيده واستغفاره، والتوبة إليه، وأن ذلك سبب لعذاب يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾.

١٤- إثبات يوم القيامة، وشدة عذابه وخطره وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾.

١٥- إثبات البعث ورجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾.

١٦- إثبات وتأكيد قدرة الله تعالى على كل شيء؛ من بعث الخلائق، وردهم إليه، ومجازاتهم بأعمالهم، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

١٧- فضح الكفار والمشركين وتوبيخهم في ثنيهم صدورهم؛ ليخفوا عن الله ما تنطوي عليه قلوبهم من الكفر، وما يرتكبونه من قبيح الأقوال والفعال؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾.

١٨- إثبات علم الله تعالى بجميع أحوالهم؛ ما يسترون منها، وما يسرون ويضمرون،

وما يعلنون منها ويظهرون؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

١٩- علم الله تعالى التام بما في الصدور والقلوب؛ من النيات والمكنونات والمضمرات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾.

٢٠- وجوب مراقبة الله تعالى في السر والعلن؛ لعلمه الواسع المحيط بما يُخفَى ويُستر، وبما يُسر ويُعلن، وبما تُكنه الصدور وتنطوي عليه القلوب، كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

بعدما بيّن عز وجل علمه بما يُسَر ويُعلن وبذات الصدور، وعلمه بما سوى ذلك من باب أولى؛ أتبع ببيان تكفله عز وجل بأرزاق جميع الدواب، وعلمه بمستقرها ومستودعها.

قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾؛ «الدابة»: كل ما يدب على وجه الأرض؛ من إنسان وحيوان، في البر أو البحر. و«دابة» أصلها «داب»، والهاء فيها للمبالغة.

﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: على الله تعالى وحده رزقها، لا على غيره، وقد أكد هذا الخبر بمؤكدين: أداة الحصر «إلا»، وتقديم الخبر.

و﴿رزقها﴾: طعامها، وشرابها، وما تحتاجه، وما به عيشها، فكل ذلك قد تكفل به عز وجل؛ تفضلًا منه وكرمًا وإحسانًا.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾، أي: ويعلم المكان الذي تستقر فيه وتأوي إليه، ليلًا أو نهارًا في حياتها.

﴿وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ﴾، أي: ويعلم مستودعها، أي: موضعها حيث تموت وإذا ماتت.

وقيل: مستودعها الرحم، وقيل: مستقرها الرحم، ومستودعها الصلب، كما قال كثير من المفسرين في معنى قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌۗ﴾ [الآية: ٩٨].

﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، أي: كل دابة، ورزقها، ومستقرها ومستودعها، وغير ذلك؛ في ﴿كتاب مبين﴾، والتنوين في ﴿كل﴾ عوض عن المضاف إليه.

﴿في كتاب﴾، أي: مكتوب في اللوح المحفوظ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿مبين﴾ من «أبان» بمعنى: أظهر، أي: كتاب مبين عما كتب فيه، أي: مظهر له.

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

بعدما ذكر تكفله عز وجل بأرزاق جميع الدواب، وعلمه بجميع أحوالها؛ أتبع ذلك ببيان ما هو أجل وأعظم، وهو خلق السموات والأرض. وفي ذلك كله أعظم الدلالة على البعث بعد الموت؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾، أي: أوجدهما وأنشأهما على غير مثال سبق، وما فيهما وما بينهما من المخلوقات والعوالم.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ من أيام الدنيا المعلومة.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾، أي: وكان عرشه على الماء قبل خلق السموات والأرض.

عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقبلوا البشرى يا بني تميم. قالوا: بشرتنا فأعطنا. قال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن. قالوا: قد قبلنا، فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء. قال: فأتاني آت، فقال: يا عمران، انحلت

ناقتك من عقالها. قال: فخرجت في إثرها؛ فلا أدري ما كان بعدي»(١).

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله عز وجل: أنفق أُنفِق عليك، وقال: يدي ملأى، لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار. وقال: أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع**»(٣).

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾؛ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يبلوكم، أي: يختبركم ويمتحنكم بالأمر والنهي؟

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: أيكم أخلص وأصوب عملًا؛ كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال الفضيل بن عياض: «أخلصه وأصوبه»(٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، أي: أخلص العمل لله ﴿وهو محسن﴾، أي: متبع لرسول الله ﷺ.

ولم يقل: ﴿أيكم أكثر عملًا﴾؛ لأن العبرة بكون العمل حسنًا صالحًا، خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه، لا بكثرته، فالعبرة بالكيف لا بالكم.

فالمعنى: هو الذي خلق السموات والأرض؛ لأجل أن يختبركم بالأمر والنهي؛ ليتبين المؤمن الشاكر من الجاحد الكافر، ويتبين الصابر من غيره؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧]،

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣١٩٠، وفي التوحيد ٧٤١٨، وأحمد ٤/ ٤٣١- ٤٣٢.

(٢) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٥٣.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٨٤، ومسلم في الزكاة ٩٩٣.

(٤) انظر: «حلية الأولياء (٨/ ٩٥)، «الإخلاص والنية» لابن أبي الدنيا (ص٥٠).

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

أي: أنه عز وجل خلق السموات والأرض والخلق كله لأجل عبادته وتوحيده، وابتلائهم أيهم أحسن عملًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

فالأمر خطير جد خطير، والمسؤولية عظيمة، والعقبة كؤود، وكما قيل:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل(١)

وقال الآخر:

الأمر جدٌّ وهو غير مزاح ... فاعمل لنفسك صالحًا يا صاح(٢)

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾: اللام هنا وفي المواضع الثلاثة بعدها: موطئة للقسم، والخطاب للنبي ﷺ، أي: والله لئن قلت للناس: ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ من بعد موتكم للحساب والجزاء على أعمالكم.

﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن الذين جحدوا آيات الله وأنكروها وكذبوك بما جئتهم به.

﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ «إن»: نافية بمعنى «ما»، أي: ما هذا الذي جئت به، والذي تقوله من أننا سنبعث بعد الموت.

﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «ساحر» بالألف، وقرأ الباقون: ﴿سِحْرٌ﴾.

«إلا» أداة حصر. ﴿مُّبِينٌ﴾، أي: بيّن ظاهر في نفسه أنه سحر، مبين أن من جاء به ساحر.

---

(١) البيت للطغرائي. انظر: «شرح لامية العجم» ص١٢٤.

(٢) البيت لنشوان الحميري. انظر: «ملوك حمير وأقيال اليمن» ص١.

والمعنى: أنهم مع إقرارهم بأن الله هو الذي خلقهم وخلق السموات والأرض، مما يدل على تمام قدرته؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]؛ هم مع ذلك ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، والذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨)﴾ [لقمان: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

ذكر في الآية السابقة تكذيب الذين كفروا بالبعث، وزعمهم أن القول به سحر مبين، ثم أتبعه بذكر استعجالهم بالعذاب؛ تهكمًا وتكذيبًا به، واستبعادًا وإنكارًا لوقوعه.

قوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ﴾؛ الواو: عاطفة، أي: ولئن أجلنا عن هؤلاء الكفار العذاب، أي: عذاب الدنيا أو الآخرة.

﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ﴾، أي: إلى مدة؛ كقوله تعالى: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ (٤٥)﴾ [يوسف: ٤٥]، أي: بعد مدة(١).

﴿مَّعْدُودَةٍ﴾، أي: مقدرة محسوبة.

أي: ولئن أجلنا عنهم العذاب إلى مدة مقدرة محصورة، وأجل محدد معلوم، وأمهلناهم.

---

(١) كما تستعمل «أمة» بمعنى «مدة» تستعمل أيضًا بمعنى «قدوة» كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)﴾ [النحل: ١٢٠]، وتستعمل بمعنى «ملة»؛ كما قال المشركون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف: ٢٣]، وتستعمل بمعنى «جماعة» كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ... (٢٣)﴾ [القصص: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)﴾ [الأعراف: ١٥٩]، أي: جماعة.

وفي قوله: ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعۡدُودَةٍ﴾ إشارة إلى قلتها؛ لأن الشيء القليل هو الذي يمكن ضبطه بالعدد.

﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن تهكمًا، واستعجالًا، وتكذيبًا به، واستبعادًا وإنكارًا له.

﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾؛ «ما»: استفهامية، أي: ما الذي يمنعه ويؤخره عنا.

﴿أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾؛ «ألا»: للتنبيه والاهتمام والتخويف والتهديد لهم، أي: ألا حين يأتيهم العذاب الذي يكذبون به ويستعجلونه.

﴿لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾، أي: لا يصرف عنهم، أي: لا يصرفه صارف، ولا يدفعه دافع، بل هو واقع بهم- لا محالة- ومهلكهم.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، أي: أحاط بهم من كل جانب ونزل بهم.

﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ «ما» موصولة، أي: العذاب الذي كانوا به يستهزئون، أي: إنه نازل بهم لا محالة، وحال بهم حلولًا لا مخلص لهم منه.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾.

قوله: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً﴾؛ «أل» في الإنسان للجنس، أي: جنس الإنسان، فيعم جميع الناس.

والمراد بالرحمة في قوله: ﴿مِنَّا رَحۡمَةً﴾: كل خير يعطيه الله الإنسان، أي: ولئن أذقنا الإنسان، أي: أعطيناه ﴿مِنَّا رَحۡمَةً﴾؛ من صحة، وأمن، ورخاء، وسعة في الرزق والعيش والمال والأهل والولد، وغير ذلك.

﴿ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ﴾، أي: ثم سلبنا هذه الرحمة منه، فتبدلت صحته بالمرض، وأمنه بالخوف، ورخاؤه بالشدة، ونحو ذلك.

﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ﴾؛ اللام للتوكيد، أي: إنه- لجهله وظلمه- لشديد اليأس والقنوط من رحمة الله، ومن كل خير في المستقبل؛ فلا يؤمل فرجًا، ولا يرجو ثوابًا.

﴿كَفُورٞ﴾، أي: جحود لما مضى من رحمة الله تعالى له، ونعمته عليه، كأنه لم ير خيرًا قط.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠)﴾.

قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ﴾، أي: نعمة؛ من صحة، وأمن، وغنى، ورخاء، ونحو ذلك.

﴿بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾، أي: بعد ضراء أصابته؛ من مرض، وخوف، وفقر، ونحو ذلك.

﴿لَيَقُولَنَّ﴾، اللام واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن- لجهله وظلمه-: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾، أي: ما بقي ينالني بعد هذا سوء ولا مكروه.

﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: لفرح بما أذاقه الله من النعماء، وما ذهب عنه من السيئات، فرح بطر وأشر، مغترًا بذلك؛ كحال قارون، قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص: ٧٦].

﴿فَخُورٌ﴾: على عباد الله بنعم الله، متعالٍ متعاظم عليهم، محتقر لهم، غير شاكر لربه؛ كما قال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨)﴾ [الشورى: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)﴾.

لما ذكر طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه عند سلب النعمة منه يؤوس قنوط، كفور بنعم الله السابقة عليه، وعند النعمة فرح فرح بطر وأشر، فخور على الناس متعاظم عليهم؛ استثنى من هذا الوصف المذموم الذين صبروا وعملوا الصالحات.

قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ «إلا»: أداة استثناء، والمستثنى منه قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾، أي: إلا الذين صبروا إيمانًا بالله تعالى

واستسلامًا لقضائه، واكتفى بوصفهم بالصبر دون الإيمان؛ لأن الصبر دليل الإيمان، ومن أعظم منازله، بل هو «نصف الإيمان»(١).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بان الجسد، ثم رفع صوته، فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبر له»(٢).

أي: إلا الذين صبروا على الابتلاء بالنقم والشدائد، وعلى الابتلاء بالنعم والرخاء؛ فلم ييأسوا عند سلب النعمة عنهم، ولم يجحدوا ما كان منها قبل ذلك، ولم يغتروا بها عند حصولها، ويطمعوا بدوامها، ويفرحوا بها فرح بطر واختيال وفخر على الناس.

والابتلاء كما يكون بالنقم يكون بالنعم، والشكر عند النعم أشد من الصبر عند النقم؛ ولهذا قال الصحابة رضي الله عنهم: «ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر»(٣).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «الفقر والغنى مطيتان، ما أبالي أيهما ركبت: إن كان الفقر فإن فيه الصبر، وإن كان الغنى فإن فيه البذل»(٤).

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «أصبحت والسراء والضراء مطيتان على بابي، لا أبالي على أيهما ركبت»(٥).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الفقر والغنى مطيتان، لا أبالي أيهما أمتطي».

والمراد بالذين صبروا: أهل الإيمان؛ لأن الإيمان هو الذي يُروِّض صاحبه على الصبر عند الضراء؛ انتظارًا للفرج من الله، ورجاءً في ثوابه، وعلى الصبر على طاعة الله تعالى، وعن معصيته؛ رجاءً في ثوابه؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ٣]، وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ

---

(١) انظر «تيسير العزيز الحميد» (ص٥١٢).

(٢) المرجع السابق.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٤١٩.

(٤) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٢١٢)، «قوت القلوب في معاملة المحبوب» (٢/ ٦٦).

(٥) انظر: «الأسباب المفيدة في اكتساب الأخلاق الحميدة» (ص٤٦)، «سوء الخلق» (ص١٣٧).

ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩- ٢٢].

وقال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن اصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»(١).

وقال ﷺ: «**ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا غم، حتى الشوكة يشاكها؛ إلا كفر الله بها من خطاياه**»(٢).

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات، في الشدة والرخاء؛ شكرًا لله تعالى على آلائه السابقة واللاحقة.

وحذف الموصوف من قوله ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهي الأعمال؛ لأن المهم في العمل كونه صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى موافقًا لشرعه.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾؛ أشار إليهم بإشارة البعيد؛ تنويهًا بهم، ورفعةً لشأنهم.

وفي الجملة قصر، أي: أولئك لهم- خاصةً- مغفرة لذنوبهم.

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة عليه.

﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، أي: وثواب كبير عظيم لا يقدر قدر كبره إلا من وصفه بأنه كبير، وهو الكبير المتعال، والمراد به: الجنة وما فيها من ألوان النعيم، الذي أكبره وأعلاه رؤية الرب الكريم.

الفوائد والأحكام:

١- تكفل الله عز وجل برزق جميع الدواب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

٢- علم الله عز وجل بمستقر كل دابة؛ ليلها ونهارها، وبمستودعها وموضعها حيث تموت وإذا ماتت، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾.

٣- وجوب طلب الرزق من الله تعالى، والتوكل عليه في ذلك، مع بذل الأسباب؛ لأن الأرزاق كلها بيده.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد، المؤمن أمره كله لله، ٢٩٩٩، من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى، وأحمد ٣/ ٤؛ من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

٤- وجوب مراقبة الله تعالى في جميع الأحوال؛ لأنه عز وجل يعلم أحوال العباد، ولا تخفى عليه منهم خافية.

٥- إثبات تقدير الله مقادير كل شيء، وعلمه بها، وكتابته لها في اللوح المحفوظ؛ من دواب الأرض كلها، ومستقرها ومستودعها، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

٦- إثبات تمام قدرة الله تعالى وعظمته؛ حيث خلق وأوجد السموات والأرض على غير مثال سبق في ستة أيام؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

٧- حكمة الله تعالى في جعله خلق السموات والأرض في ستة أيام، مع قدرته عز وجل على خلقها بقوله: ﴿كُن﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠].

٨- إثبات عرشه عز وجل، وأنه كان على الماء قبل خلق السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

٩- أن الله عز وجل خلق السموات والأرض والخلق كله؛ لأجل عبادته، وابتلاء العباد بالأمر والنهي أيهم أحسن عملًا؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

١٠- الترغيب في المنافسة في حسن العمل، والمسابقة في ذلك.

١١- إنكار الذين كفروا للبعث بعد الموت، وزعمهم أن القول به سحر مبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

١٢- استعجالهم بالعذاب؛ استبعادًا له، وتكذيبًا به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾.

١٣- حكمة الله عز وجل في تأجيل العذاب عن المكذبين؛ استدراجًا لهم.

١٤- تخويف المكذبين بالعذاب، وتهديدهم به، وأنه واقع بهم لا محالة في الدنيا والآخرة، لا يصرف عنهم، ومحيط بهم ما كانوا به يستهزئون؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ

يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

١٥- أن من أسباب وقوع العذاب وإحاطته بالمكذبين استهزاؤهم به؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

١٦- أن من طبيعة الإنسان من حيث هو؛ اليأس والقنوط عند سلب النعمة منه، وجحود ما مضى من نعم الله عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾.

١٧- اغترار الإنسان بحصول النعماء له بعد الضراء، وظنه دوام ذهاب السوء والمكروه عنه، وفرحه بذلك فرح بطر وأشر، وفخره وتعاظمه على غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾.

١٨- استثناء المؤمنين الذين صبروا وعملوا الصالحات مما ذكر؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فلا ييأسون عند سلب النعمة وحصول الضراء، ولا يجحدون نعمة سابقة، ولا يغترون بنعمة لاحقة، ولا يفرحون بها فرح بطر وأشر وافتخار.

١٩- لابد من الجمع بين الصبر بأنواعه الثلاثة والعمل الصالح، بل لا يمكن القيام بالعمل الصالح إلا بالصبر.

٢٠- أن المهم في العمل أن يكون صالحًا، أي: خالصًا لوجه الله تعالى، تبعًا لسنة رسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

٢١- عظم ما أعدَّ الله للمؤمنين الصابرين؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾، أي: فلهم مغفرة لذنوبهم، وستر لها، وتجاوز عنها، ولهم أجر كبير لا يقدر قدر كبره إلا الله عز وجل.

٢٢- الترغيب في الصبر والعمل الصالح؛ لأن الله وعد الذين صبروا وعملوا الصالحات بالمغفرة والأجر الكبير.

٢٣- أن التخلية قبل التحلية، وأن زوال المرهوب مقدم على حصول المطلوب؛ ولهذا قدم المغفرة على الأجر الكبير.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، و«ما»: موصولة، أي: فلعلك تارك بعض الذي يوحى إليك.

﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾؛ الباء: للسببية، والضمير في ﴿به﴾ عائد إلى قوله: ﴿بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾، أي: وضائق بسبب بعض الذي يوحى إليك صدرك، أي: بسبب تلاوته على هؤلاء المكذبين وتبليغه إياهم.

و«ضائق» اسم فاعل، وعدل عن «ضَيِّق»- والله أعلم- لمراعاة النظير مع قوله: ﴿تَارِكُۢ﴾، وذلك أفصح، وفيه إيماء إلى أنه ضيق قليل قد يعرض له، بخلاف ما لو قال: «ضيِّق»، فهذا أبلغ في الضيق؛ لأن الصفة المشبهة تدل على تمكن الوصف من الموصوف.

﴿أَن يَقُولُواْ﴾؛ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لأجله على حذف مضاف، أي: خشية أن يقولوا، أو في محل جر بلام التعليل المقدرة، أي: لئلا يقولوا، أي: لأجل قولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾.

كما في قولهم: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ

مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان: ٧، ٨].

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾: «لولا» للتحضيض، أي: هلا أنزل عليه كنز.

و«الكنز» المال الكثير المكنوز، أي: المخبوء.

﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ يشهد برسالته.

والمعنى: لا ينبغي أن تترك بعض الذي يوحى إليك، فلا تبلغ به هؤلاء المكذبين، ويضيق صدرك بتلاوته عليهم وتبليغه إياهم؛ لأجل ما يقترحونه من الآيات تعنتًا منهم وعنادًا؛ من قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾، متجاهلين ما أيدك الله به من الآيات البينات، فلا يليق أن يؤثر فيك هذا ويصدك.

وهذا من باب التسلية له ﷺ، وتقوية قلبه، وتحذيره من أن يفت ذلك في عضده، أي: فلا تبالِ بقولهم هذا، وامض في سبيل دعوتك.

وفيه أيضًا: تأييس للمكذبين من تركه بعض ما يوحى إليه؛ من ذكر البعث، والإنذار من عذاب الله، وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾، أي: مما يقترحونه ﴿قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ [الأعراف: ٢٠٣]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٧- ٩٩].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾: «إنما»: أداة حصر، أي: ما أنت إلا نذير، أي: منذر ومحذر من عذاب الله تعالى لمن كذب بما جئت به من الحق وخالف أمر الله تعالى، وليس إليك أمر الإتيان بما يقترحونه من الآيات، ولك أسوة بالرسل قبلك؛ فقد كُذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله عز وجل.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾: فهو الوكيل عليهم وعلى غيرهم، وبيده هدايتهم، وعليه حفظ أعمالهم، وحسابهم وجزاؤهم، وليس إليك من ذلك شيء.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ

ﭐسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾.

سبق الكلام على مثيلة هذه الآية في سورة يونس، إلا أنه قال في سورة يونس: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ ﴿٣٨﴾﴾، بينما قال هنا: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾، أي: مختلقات كما تزعمون.

قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾؛ السين والتاء للتأكيد، أي: فإن لم يجيبوا لكم في الإتيان بعشر سور مثله يفترونها- كما يزعمون أنه مفترى-؛ لعدم استطاعتهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٤].

﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فاعلموا وتيقنوا أن القرآن إنما أنزل بعلم الله وحده، أي: بما لا يعلمه غيره؛ لإعجازه بألفاظه، ومعانيه، وأحكامه، وأخباره، واستحالة معارضة الخلق له، بإتيانهم بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة مثله.

﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ معطوف على ما قبله، أي: واعلموا أن لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى، فهو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه.

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فهل أنتم مستسلمون لله تعالى بتوحيده وعبادته، منقادون لطاعته، متخلصون من الشرك. والاستفهام بمعنى الأمر، أي: فأسلموا لله تعالى ووحدوه وأطيعوه؛ كما قال تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١]، أي: انتهوا.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾؛ «من»: شرطية، و«كان»: فعل الشرط، أي: من كان من الناس.

﴿يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾، أي: يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها فقط، وهم الكفار، بدليل قوله بعد هذا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وزينة الحياة الدنيا: كل ما يتمتع به فيها من النساء، والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث، كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤].

﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾، أي: نعطيهم جزاء أعمالهم في الحياة الدنيا وافيًا بحسب ما كتب لهم، وليس معنى ذلك أنه يحصل لهم مرادهم.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾، أي: وهم في هذه الحياة الدنيا لا ينقصون شيئًا من جزاء أعمالهم الدنيوية حسب ما قدر لهم، ويجوز عود الضمير في ﴿فِيهَا﴾ إلى أعمالهم، والمعنى متقارب.

وهذا منتهى نعيمهم، فيا خيبتهم ويا عظم خسارتهم؛ ولهذا لما ذكر عمر للنبي ﷺ حال فارس والروم، وما هم فيه من المتعة؛ قال له النبي ﷺ: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»(١)، وفي رواية: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»(٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾؛ الإشارة للذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها فقط، وأشار بإشارة الجمع؛ مراعاةً لمعنى «من»، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تحقيرًا لهم، أي: أولئك الذين يريدون بأعمالهم مجرد الحياة الدنيا وزينتها فقط، ليس لهم في الدار الآخرة إلا النار خالدين فيها، لا يفتر عنهم العذاب، وقد حرموا الثواب؛ كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠].

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٦٨، ومسلم في الطلاق ١٤٧٩، والترمذي في التفسير ٣٣١٨- من حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

(٢) أخرجها البخاري في التفسير ٤٩١٣، ومسلم في الطلاق ١٤٧٩ - عنهما- رضي الله عنهما.

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ [البقرة: ٢٠٠].

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾، أي: وحبط الذي صنعوا، أو: وحبط صنعهم في هذه الحياة الدنيا، أي: ذهب وزال نفع عملهم، فلم ينتفعوا به، بل كان زادًا لهم إلى النار، قال لبيد(١):

ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، أي: وباطل الذي كانوا يعملونه، أي: ضائع عملهم؛ سواء كان مما يكيدون به للحق وأهله، أو مما قد يثاب عليه أهل الإيمان من أعمال البر والإحسان، وإكرام الضيف وإطعام الطعام ونحو ذلك؛ بسبب كفرهم؛ لأنه لا يقبل مع الكفر أيّ عمل.

وفي الآية إشارة إلى أن سبب مكابرة المشركين وتكذيبهم القرآن هو إرادتهم الحياة الدنيا وزينتها لا غير.

كما أن فيها تنبيهًا للمسلمين بألّا يغتروا بظاهر حسن حال الكفار في الدنيا، أو يستبطئوا تعجيل عذابهم؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الهمزة: للاستفهام التقريري، والفاء: عاطفة، و«من»: اسم موصول مبني في محل رفع مبتدأ، خبره محذوف، تقديره: كغيره، أو: كمن ليس كذلك.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٢٥٦).

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم (١٤)﴾ [محمد: ١٤].

﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، أي: على دليل وبرهان ويقين من ربه، بما أوحاه الله تعالى إليه في القرآن الكريم، والضمير في «به» يعود إلى نبينا محمد ﷺ، ومن اتبعه من المؤمنين بالأخذ بما جاء به من الحق من عند ربه عز وجل، والدعوة إليه، فهم أحق بهذا الوصف.

والمراد بالربوبية في قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾: ربوبية الله الخاصة بأنبيائه وأتباعهم المؤمنين.

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، أي: وجاءه شاهد من ربه مما أوحاه الله تعالى إلى الأنبياء من الكتب المبشرة به ﷺ، والشاهدة بصدقه وصدق ما جاء به من الوحي؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف: ١٠].

وشاهد من الفطرة الصحيحة التي فطر الله الناس عليها، والعقل الصحيح الموافق للنقل الصحيح؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو يمجسانه، أو ينصرانه»(١).

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا»(٢).

ويجوز أن يكون المراد بقوله: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، أي: شاهد من الله عز وجل؛ يعني: جبريل عليه السلام الذي بلغه النبي ﷺ، أو: النبي ﷺ الذي بلغه الأمة، وكل منهما شاهد بصحة القرآن الكريم.

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٨٥، ومسلم في القدر ٢٦٥٨، وأبو داود في السنة ٤٧١٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٦٥- من حديث عياض المجاشعي رضي الله عنه.

ويجوز أن يعود الضمير في قوله ﴿مِّنْهُ﴾ إلى القرآن نفسه، أي: ويتلو هذه البينة والبرهان- وهو القرآن- شاهد من القرآن نفسه على صدقه وأنه حق من عند الله، وهو: إعجازه بألفاظه، ومعانيه، وأحكامه، وأخباره.

وكل هذه الأمور الأربعة شواهد على صدق القرآن الكريم؛ فالكتب السابقة شاهدة بصدقه، والفطرة السليمة شاهدة بصدقه، وجبريل عليه السلام ومحمد ﷺ كل منهما شاهد بصدقه، وهو أيضًا شاهد بالصدق على نفسه؛ لما احتواه من الإعجاز الذي أعيا البلغاء والفصحاء، وأعجز الإنس والجن عن الإتيان ولو بسورة مثله.

وقيل المراد بقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: النصارى الذين عرفوا حقيقة الإسلام؛ كورقة بن نوفل، ودحية الكلبي، وغيرهما؛ فهم على بينة من ربهم بما جاءهم من الحق على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام في الإنجيل، ويتلوه ويتبعه شاهد من الله عز وجل، وهو القرآن الكريم الذي أنزله تعالى على محمد ﷺ.

والأول أعم وأولى، وهو يشمل من آمن بالرسول ﷺ من النصارى وغيرهم.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، أي: ومن قبل القرآن الكريم ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾: التوراة، مبشرًا بالقرآن، وشاهدًا بصدقه وصحته، وموافقًا لما جاء به من الحق.

﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ حالان من ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾، فيهما ثناء على التوراة، الذي هو أفضل كتب الله بعد القرآن الكريم، أي: قدوة للناس يقتدون به؛ لما فيه من تفصيل الشريعة، ويهتدون به إلى الإيمان بالقرآن؛ لتبشيره به، ورحمة لهم في الدنيا؛ لما فيه من إقامة العدل بينهم، وفي الآخرة بجزاء الاستقامة عليه، وذلك قبل نزول القرآن الذي نسخ الله به جميع الكتب السابقة، وجعله مهيمنًا عليها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ خبر المبتدأ «مَن» في قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

والإشارة إلى من كان على بينة من ربه، وأشار إليه بإشارة الجمع مرة؛ لمعنى «من»، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تنويهًا بهم ورفعة لشأنهم، أي: أولئك الذين كانوا على بينة من ربهم.

﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، أي: بالقرآن، وهو معلوم من المقام، وتقدم ضميره في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [هود: ١٣]، وقوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ

بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٤].

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾، أي: ومن يكفر بالقرآن ويكذب به ﴿مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾، أي: من سائر طوائف أهل الأرض؛ من مشركي أهل الكتاب، ومشركي العرب، وغيرهم من أهل الملل والنحل الباطلة؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ﴿١٣﴾﴾ [ص: ١٢، ١٣].

﴿فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾، أي: لابد من وروده إليها، وخلوده فيها، وهذا وعيد لكل من بلغه القرآن وكذَّب به؛ كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: ٦٨].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة؛ يهودي، ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به؛ إلا كان من أصحاب النار»(١).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ﴾، أي: فلا تكن في أدنى شك.

﴿مِّنۡهُۚ﴾، أي: من القرآن الكريم، وقيل: من الموعد، والأول أصح.

﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ تعليل لما قبلها، أي: إنه الحق الثابت من ربك، تكلم به عز وجل وأنزله عليك؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [السجدة: ١، ٢].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ «لكن»: حرف استدراك، أي: ولكن، ومع كون القرآن هو الحق من عند الله عز وجل؛ فإن أكثر الناس لا يؤمنون بالقرآن، ولا بما

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ إلى جميع الناس ١٥٣- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أوجب الله الإيمان به من أركان الإيمان وغيرها؛ إما جهلًا منهم وضلالًا، وإما ظلمًا وعنادًا وبغيًا، ولله في ذلك حكمة؛ كما قال تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر: ٥].

فلا ينبغي أن يغتر بما عليه أكثر الناس؛ فهم كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۝٢٤﴾ [ص: ٢٤].

الفوائد والأحكام:

١- تقوية قلب النبي ﷺ، وتسليته وتحذيره من ترك تبليغ بعض ما يوحى إليه، ومن أن يضيق صدره؛ لأجل اقتراح المكذبين الآيات، من قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾.

٢- أن الرسول ﷺ لا يمكن أن يترك بعض ما يوحى إليه أو يضيق صدره بتبليغه؛ لأنه معصوم من الخطأ أو التقصير في مقام التبليغ؛ ولهذا- والله أعلم- لم تأت الآية بصيغة النهي.

٣- أن الرسول ﷺ عرضة لضيق الصدر كغيره من البشر، يعتريه ما يعتريهم من الخواطر.

٤- اقتراح المشركين المكذبين للآيات تعنتًا منهم وعنادًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾.

٥- لا ينبغي للداعي إلى الله أن يصده عن دعوته اعتراض المعترضين، وقدح القادحين بالباطل، ولا يضيق صدره بذلك، فطريق الدعوة يحتاج إلى الصبر والمجاهدة، وليس مفروشًا بالورود والرياحين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة: ٢٤].

٦- بيان أن مهمته ﷺ بالنسبة للمكذبين هي إنذارهم وتحذيرهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾، وهو بشير لمن آمن منهم ومن غيرهم.

٧- أن الله على كل شيء وكيل، بيده عز وجل الهداية والإضلال، وعليه حفظ أعمال العباد، وحسابهم، وجزاؤهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾.

٨- زعم المكذبين أنه ﷺ افترى القرآن من عند نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾.

٩- تحديهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، ويدعوا لذلك من استطاعوا ويستعينوا بهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

١٠- إفحام المكذبين، وإظهار كذبهم، وإسقاط زعمهم بهذا التحدي، وأنهم هم المفترون الكاذبون.

١١- أن القرآن الكريم إنما أنزل بعلم الله تعالى وحده؛ لاستحالة معارضته؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾.

١٢- إثبات وحدانية الله تعالى في إلهيته، فلا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٣- ينبغي العلم اليقيني بأن القرآن الكريم كلام الله تعالى أنزل بعلمه، وأنه لا معبود بحق سواه.

١٤- وجوب الاستسلام لله تعالى بالتوحيد، وعبادته وحده، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

١٥- أن من كانت إرادته في عمله مجرد الحياة الدنيا وزينتها فقط أعطي جزاء عمله الدنيوي في الدنيا، ولم ينقص شيئًا مما قدر له؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾.

١٦- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان، وأنه ليس مجبورًا على فعله كما تقول الجبرية.

١٧- أن من كانت الدنيا غاية مرادهم- وهم الكفار- فليس لهم في الآخرة إلا النار، ونهاية الخسران والبوار؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾.

١٨- إثبات الدار الآخرة، وإثبات وجود النار؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾.

١٩- بطلان صنع وعمل من كانت الدنيا غاية مرادهم، حتى ولو كانت مما يثاب عليه أهل الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٢٠- أن الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى.

٢١- التحذير من إرادة الدنيا وحدها، والتنبيه إلى حقارتها، وإلى عدم الاغترار بحسن ظاهر حال أهلها مع كفرهم بالله.

٢٢- الثناء على النبي ﷺ والمؤمنين بما هم عليه من الحق البين من ربهم، بالوحي الذي أوحاه الله تعالى إليه ﷺ في القرآن الكريم، وما فيه من دلائل الإعجاز، وموافقة الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وشهادة الكتب السابقة بصدقه؛ لقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾، وشتان بين هذا وبين من كان على ضلال مبين.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنبيه ﷺ والمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾، ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

٢٣- شهادة القرآن الكريم بما فيه من الإعجاز بصدق النبي ﷺ، وصدق ما جاء به من الحق، وشهادة الفطرة المستقيمة بذلك، وشهادة التوراة والكتب السابقة بذلك.

٢٤- أن من كانوا على بينة من ربهم ويقين وبرهان يؤمنون بالقرآن وبما جاء به من الحق؛ من الدلالة على وحدانية الله تعالى، وإثبات البعث، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

٢٥- الوعيد والتهديد لمن كفر بالقرآن الكريم- أيًّا كان- بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾.

٢٦- تحذيره ﷺ من أن يكون في شك من القرآن، وهو تحذير له ولأمته، وتأكيد أنه الحق من ربه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

٢٧- أن أكثر الناس لا يؤمنون بالقرآن، ولا بما جاء به من الحق، ولا بما أوجب

الله الإيمان به؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٢٨- يجب الحذر من الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم على الكفر والضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦].

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨)﴾.

لما أبطل زعمهم أنه ﷺ افترى القرآن بتعجيزهم عن الإتيان بعشر سور مثله، بين أنهم هم المفترون بتكذيبهم أن يكون القرآن من عند الله تعالى، وشركهم بالله، وقولهم على الله الكذب، وتوعدهم.

قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؛ الاستفهام: للنفي والإنكار، أي: لا أحد أشد ظلمًا من الذي اختلق على الله كذبًا بنسبة الشريك والولد له عز وجل، أو وصفه بما لا يليق بجلاله، أو ادعاء النبوة، أو الإخبار عنه بما لم يقل، أو تشريع ما لم يشرعه ونسبة ذلك إليه من التحليل والتحريم، والإيجاب ونفيه، ونحو ذلك.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الإشارة للذين افتروا على الله كذبًا، أي: أولئك المفترون على الله كذبًا.

﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة؛ للحساب والعقاب والفضيحة على رؤوس الخلائق.

﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ من الملائكة والرسل والإنس والجن والجوارح، الذين شهدوا عليهم بظلمهم وافترائهم وكذبهم.

﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ في الإشارة إليهم بقولهم: «هؤلاء» تشهير بهم، وفضح لهم، أي: هؤلاء الذين افتروا الكذب على ربهم.

﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا من بقية كلام الأشهاد، ويؤيد هذا قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف: ٤٤].

«ألا»: أداة تنبيه، وفيه تأكيد للتشهير بهم، وهذا إخبار بأن لعنة الله حقت ووجبت على الظالمين، بطردهم وإبعادهم عن رحمته وجنته؛ كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في المناجاة قال ﷺ: «وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين»(١).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ «الذين» وصف للظالمين، أي: الذين يصدون وينصرفون بأنفسهم عن دين الله وصراطه المستقيم، ويصدون غيرهم ويصرفونهم عنه؛ فجمعوا بين الضلال والإضلال، وصاروا أئمة يدعون إلى النار.

﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾؛ الضمير في «يبغونها» يعود إلى «سبيل الله»، أي: يبغون لها العوج، أي: يريدون أن تكون سبيل الله عوجاءَ، موافقةً لأهوائهم؛ زيغًا منهم وميلًا عن الحق والاستقامة، وقد قال الله تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر: ٢٨].

فجمع هؤلاء المكذبون للقرآن المعارضون للحق بين الكذب على الله تعالى، والصد عن سبيل الله، وبغيها عوجًا.

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، أي: مكذبون بها، جاحدون لوقوعها، منكرون للبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، و﴿هم﴾ الثانية توكيد للأولى.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ الإشارة للذين يفترون على الله كذبًا، ويصدون عن سبيله، ويبغونها عوجًا، ويكفرون بالآخرة.

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود ٤٦٨٥، ومسلم في التوبة- قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ٢٧٦٨، وأحمد ٢/ ٧٤، ١٠٥.

﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: لم يكونوا معجزين الله هربًا في الأرض، ولا فائتين ومفلتين من عذابه وانتقامه، بل هم في قبضته وتحت قهره وسلطانه؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأنعام: ١٣٤].

وقال ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته. ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]»(١).

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ «من» في قوله: ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ مؤكدة لعموم النفي، أي: وما كان لهم غير الله أيُّ أولياء ينصرونهم، ويدفعون عنهم عذاب الله، أو يجلبون لهم ما ينفعهم.

فتقطعت بهم الأسباب، فلا مفر ولا مهرب لهم من عذاب الله، ولا أولياء ينصرونهم من دون الله، ولم ينفعهم ما اتخذوا من دونه من الأصنام والآلهة.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، أي: يغلظ ويزاد لهم العذاب؛ لأنهم ضلوا بأنفسهم، وأضلوا غيرهم؛ فيحملون أوزارهم وأوزار الذين أضلوهم بغير علم، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾، أي: ما كانوا يستطيعون سماع القرآن والتذكرة؛ لكراهتهم سماع القرآن، ونفورهم من الموعظة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر: ٤٩- ٥١].

وأيضًا ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا القرآن والدعوة إلى الحق سماعًا ينتفعون به؛ كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾ [الجاثية: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود ٤٦٨٦، ومسلم في البر- تحريم الظلم ٣١١٠، وابن ماجه في الفتن ٤٠١٨- من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ﱡﭐ ... ٱلسَّعِيرِ ١٠ﱠ [الملك: ١٠]، أي: لو كنا نسمع ونعقل ما نسمع وننتفع به.

﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ آيات الله تعالى، أي: ما كانوا ينظرون ويتفكرون في آيات الله تعالى الكونية والشرعية- الدالة علي عظمة الله عز وجل، ووحدانيته، واستحقاقه العبادة دون سواه؛ فهم صم عن سماع الحق، وعمي عن التأمل في الآيات وعن اتباع الحق؛ كما قال تعالي: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ١٨﴾ [البقرة: ١٨]، وقال تعالي: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالي: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٢٦﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال تعالي: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ ٧﴾ [البقرة: ٧].

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ٢١﴾.

قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تحقيرًا لهم، الخسارة والخسران: ضد الربح، أي: خسروا أنفسهم؛ لأنهم أقحموها في النار والعذاب، وفوتوها الجنة والثواب.

وإذا خسر الإنسان نفسه فماذا ربح؟! فخسرانه ما دون ذلك من باب أولى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ١٥﴾ [الزمر: ١٥].

وقد قيل: إذا كان رأس المال عمرك فاحترس عليه من الإنفاق في غير واجب.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾، أي: ذهب عنهم وزال واضمحل.

﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾، أي: الذي كانوا يفترونه كذبًا من الشركاء؛ من الأنداد والأصنام، وأنها تشفع لهم، وتدفع عنهم الضر عند الشدائد.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ٢٨﴾ [الأحقاف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ١٠١﴾ [هود:

١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٥﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۝٢٨ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ۝٢٩﴾ [يونس: ٢٨، ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ۝٦٤﴾ [القصص: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝١٦٦﴾ [البقرة: ١٦٦].

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٢٢﴾ تأكيد لما قبله، أي: حقًّا أنهم في الدار الآخرة هم الأخسرون، وضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ يفيد القصر، فكأنه لا خاسر غيرهم؛ لبلوغهم الغاية في الخسران؛ لاجتماع أسباب الشقاء والعذاب فيهم، وظنهم أنهم يحسنون صنعًا، وهم بخلاف ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٣﴾.

لما ذكر حال المفترين المكذبين الصادين عن سبيل الله الكافرين بالآخرة وتوعدهم بمضاعفة العذاب والخسران؛ ذكر حال المؤمنين العاملين الصالحات المخبتين، ووعدهم بالجنة والخلود فيها، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب، والوعد والوعيد.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: صدقوا بقلوبهم وألسنتهم.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم.

﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، أي: وخضعوا لربهم، وخشعوا وتذللوا له، واستكانوا لعظمته وسلطانه، وتضرعوا إليه؛ خوفًا من عقابه، ورجاءً في ثوابه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: أولئك هم أهل الجنة وساكنوها، وأشار إليهم بإشارة البعيد تنويهاً بهم ورفعة لشأنهم.

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، أي: هم فيها مقيمون إقامة أبدية، وضمير الفصل ﴿هُمْ﴾ للتوكيد.

قوله تعالى: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

لما ذكر فريق المكذبين الكافرين، وفريق المؤمنين المخبتين، وما أعد لكل منهما؛ ضرب مثلًا لبيان الفرق بينهما.

قوله: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾؛ المثل: الحالة والصفة؛ قال تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد: ٣٥].

﴿ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ فريق المكذبين الكافرين، وفريق المؤمنين المخبتين، أي: مثل وصفة حالهما في الضلال والهداية.

﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ﴾؛ هذا مثل فريق الكافرين، فشبههم في عدم النظر في الآيات، وعدم التفكر فيها، وفي عمى قلوبهم عن رؤية الحق؛ بالأعمى الذي لا يبصر الطريق، ويمشي على غير هدى.

وشبههم في عدم السماع للآيات، وعدم الانتفاع بها؛ بالأصم الذي لا يسمع ما يقال، ولا يدري ما حوله؛ فهو بمعزل عن الناس، أشبه بأصم الكلاب إذا رأى الكلاب تتثاءب أخذ ينبح؛ ظنًا منه أنها تنبح.

﴿وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾؛ الواو للتقسيم، وهذا مثل فريق المؤمنين، فشبههم في نظرهم في الآيات وتفكرهم فيها بالبصير الذي يشاهد ما حوله ويمشي على بينة من أمره.

وشبههم في سمعهم للآيات والمواعظ والانتفاع بها بالسميع الذي يسمع ما يقال له، ويسمع الأصوات من حوله؛ فينتفع بذلك ويشارك الناس.

وبين «الأعمى والأصم» و«السميع والبصير» مقابلة.

﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا﴾؛ الاستفهام: للإنكار والنفي، ﴿مَثَلًا﴾ تمييز، والمثل: الحال والصفة، أي: لا يستويان حالًا وصفةً، بل بينهما من الفرق الشاسع ما لا يأتي عليه الوصف، وشتان بين مشرق ومغرب:

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعًا فما الضدان يجتمعان(١)

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ قرأ حفص وحمزة والكسائي: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيف الذال، وقرأ الباقون: «**تذَّكرون**» بتشديد الذال، وأصله: «**تتذكرون**»، فقلبت التاء ذالًا؛ لقرب مخرجيها، ثم أدغمت إحداهما في الأخرى.

والاستفهام للإنكار، أي: لإنكار انتفاء تذكرهم واستمرارهم في ضلالهم، أي: لم لا تتذكرون؟ أي: أفلا تتعظون وتتدبرون الآيات، وتعتبرون في ضرب الأمثال، وتعرفون مدى الفرق بين هؤلاء وهؤلاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٢٢﴾ [فاطر ١٩: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾ [الحشر: ٢٠].

الفوائد والأحكام:

١- أنه لا أحد أشد ظلمًا ممن أفترى على الله كذبًا، بزعم الشريك له والولد، أو الإخبار عنه بما لم يقل، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ﴾.

٢- الوعيد الشديد للمفترين على الله الكذب؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨﴾.

٣- إثبات عرض الخلائق على الله للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ ۝١٨﴾.

٤- إثبات قيام الأشهاد على الناس بأعمالهم، من الرسل، والملائكة، ومن الناس

بعضهم على بعض، والجوارح، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

٦- لعنة الله تعالى للظالمين، وطردهم وإبعادهم من رحمته؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾.

٧- جمع هؤلاء الظالمين مع افترائهم الكذب على الله: الصد عن سبيله، وابتغاء العوج لها، والكفر بالآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

٨- أن سبيل الله في غاية العدل والاستقامة، لا عوج فيها؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٦].

٩- إثبات الدار الآخرة، وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾، ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

١٠- أن هؤلاء الظالمين لم يكونوا معجزين في الأرض، ولا مفلتين من عذاب الله وانتقامه، وليس لهم من دونه أولياء يجلبون لهم النفع، أو ينتصرون لهم ويدفعون عنهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴿٢٠﴾﴾.

١١- مضاعفة العذاب لهؤلاء الظالمين وتغليظه عليهم؛ لصدهم بأنفسهم عن سبيل الله، وصدهم لغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

١٢- عدم استطاعة هؤلاء الظالمين سماع القرآن والدعوة إلى الحق، وعدم انتفاعهم بما يسمعون، لقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾.

١٣- إعراض هؤلاء الظالمين عن النظر في آيات الله ودلائل وحدانيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾.

١٤- خسارتهم أنفسهم؛ حيث أقحموها في النار والعذاب، وحرموها الجنة والثواب؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾.

١٥- ذهاب وزوال ما يدعيه المفترون من الشركاء لله، وأنهم يشفعون لهم عند الله؛

لقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

١٦- أن هؤلاء المفترين حق وثبت أنهم هم الأخسرون ولا بد؛ لقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

١٧- الوعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات وخضعوا لربهم بالجنة والخلود فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

١٨- جمع القرآن بين الترهيب والترغيب، والوعد والوعيد.

١٩- لابد من الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، بين إيمان الباطن وعمل الجوارح الظاهرة؛ لقوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾.

٢٠- أن المهم في العمل أن يكون صالحًا؛ خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه؛ ولهذا حذف الموصوف واكتفى بالصفة في قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، أي: عملوا الأعمال الصالحات.

٢١- أن من لازم الإيمان والعمل الصالح: الإخبات والذل والخضوع لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

٢٣- إثبات الجنة ونعيمها، وخلود المؤمنين فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

٢٤- ضرب الأمثال في القرآن الكريم؛ لتقريب المعاني؛ لقوله تعالى: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ الآية؛ كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

٢٥- شتان بين فريق الكفار الذين عميت أبصارهم وبصائرهم عن رؤية الآيات وتدبرها، وصمت آذانهم عن سماع العظات وتأملها، فهم يتخبطون في دياجر الجهل

والكفر والضلال؛ وبين فريق المؤمنين الذين أبصروا الآيات وتدبروها، وسمعوا العظات ووعوها، فهم عل نور وهدى من ربهم، وعلى صراط مستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ (٢٤)﴾ كلا، فشتان بين الثرى الثريا، وبين الأرض والسماء، شتان بين من أوبقوا أنفسهم ودسوها وأهلكوها، وبين من أعتقوا أنفسهم وزكوها وأنقذوها. نسأل الله التوفيق.

٢٦- الحث على التذكر والتأمل في آيات الله ودلائل وحدانيته، والاعتبار ومعرفة البون الواسع بين الفريقين وسلوك طريق المؤمنين؛ لقوله تعالي: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠)﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قص الله تعالى في هذه الآيات وما بعدها أنباء عدد من الرسل مع أممهم، وما لقيه كثير منهم من الأذى والتكذيب من أممهم، ومن ثم إنجاء الله لرسله، وإهلاك المكذبين؛ تحذيرًا للمكذبين من قومه ﷺ، وتسليةً له، وتثبيتًا لفؤاده، وموعظةً وذكرى للمؤمنين؛ كما قال الله تعالى في آخر السورة: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾؛ اللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، أي: ولقد بعثنا نوحًا رسولًا منا إلى قومه؛ لما انحرفوا عن فطرة التوحيد التي فطر الله الناس عليها، وأشركوا بالله وعبدوا الأصنام، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.

﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة: ﴿إِنِّي﴾ بكسر الهمزة على الابتداء، وقرأ الباقون: ﴿أني﴾ بفتح الهمزة على تقدير حرف جر، وهو الباء؛

للملابسة.

والمعنى: فقال: إني لكم نذير مبين، أو قائلًا: إني لكم نذير مبين، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ [الحجر: ٨٩].

والنذير: المنذر المحذر، والمخوف من عذاب الله تعالى، كما قال ﷺ: «أنا النذير العريان»(١).

﴿مبين﴾، أي: بيِّن: ظاهر النذارة لكم إن أنتم عبدتم غير الله.

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ تفسير للإرسال والإنذار، أي: بألَّا تعبدوا إلا الله، و﴿إلا﴾ أداة حصر، أي: أخلصوا العبادة لله وحده، واتركوا كل ما يعبد من دون الله؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ [نوح: ٢- ٣].

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ تعليل للنهي، أي: لأني أخاف عليكم عذاب يوم أليم، أي: إن استمررتم على عبادة غير الله؛ ففي الدنيا عذاب الطوفان، وفي الآخرة عذاب النار.

و﴿أليم﴾ صفة لـ ﴿يوم﴾، ووصف ﴿يوم﴾ بأنه ﴿أليم﴾؛ لشدة العذاب الواقع فيه؛ كما قال تعالى في سورة نوح: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [نوح: ١].

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾، أي: السادة والكبراء الذين كفروا من قومه.

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾.

«ما» في الموضعين: نافية، و«إلا» في الموضعين: للحصر، أي: ما نعتبرك إلا بشرًا

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٨٢، ومسلم في الفضائل ٢٢٨٣- من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

مثلنا، لا مزية لك علينا، أي: لست بملك، فكيف أوحي إليك من دوننا؟ والحجة إنما قامت عليهم بكونه بشرًا؛ إذ لو كان ملكًا لما استطاعوا الأخذ عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٨- ٩].

﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾، أي: وما نشاهدك اتبعك إلا الذين هم الأقلون شرفًا وقدرًا منا، أي: إلا الأراذل والضعفاء من الناس، وما علموا أن أتباع الرسل هم الأكرمون، وأن مخالفيهم هم الأرذلون؛ إذ لا أذل ولا أحقر ممن خالف أمر الله، ولا أكرم ممن اتقى الله، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولا يضير الحق كون أتباعه هم الضعفاء، كما لا يضيره إعراض أهل الترف والأغنياء؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٤- ٣٥].

وكفى الضعفاء شرفًا وفخرًا أنهم أسرع وأقرب لقبول الحق، وهم أتباع الرسل؛ كما قال هرقل ملك الروم لما سأل أبا سفيان عن صفات النبي ﷺ قال له: «أأشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل»(١).

﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ قرأ أبو عمرو: «بادئ» بالهمز، مشتق من «البداء»، وهو أول الشيء.

وقرأ الباقون بغير همز: ﴿بَادِيَ﴾، مشتق من «بدا» المقصور، إذا ظهر، أي: ظاهر الرأي.

والمعنى، أي: الذين اتبعوك أول وهلة بمجرد ما دعوتهم، من غير رويَّة ولا تفكر، وبناءً على ظاهر الأمر، دون تأمل في باطنه وعواقبه، والمقصود: أنهم في اتباعهم لك ليسوا على بصيرة من أمرهم.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾؛ الفضل: الزيادة، أي: وما نرى لكم علينا من فضل وزيادة في شرف ولا مال ولا حال لما دخلتم دينكم هذا، أي: لستم أفضل منا في

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣) من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهم.

شيء فننقاد لكم ونتبعكم، وما نرى لكم علينا من فضل فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها.

نعم، هم لا يرون فضله عليه السلام وأتباعه عليهم؛ لعمى أبصارهم وبصائرهم، وصمم آذانهم عن رؤية الحق ومعرفته وسماعه؛ كما قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١].

وقد قيل:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم(١)

وقال الآخر:

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرًّا به الماء الزلالا(٢)

وقد عللوا اعتراضهم على نوح عليه السلام وأتباعه بما لا يستقيم أن يكون علة؛ من كونه بشرًا مثلهم، ومن كون أتباعه هم الضعفاء، وزعمهم أنه هو وأتباعه لا فضل لهم عليهم؛ ليخلصوا إلى قولهم:

﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾؛ «بل» للإبطال، أي: بل نعلم أنك كاذب في دعواك الرسالة، وهم كاذبون في تصديقهم واتباعهم لك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ﴾، أي: أخبروني، والاستفهام تقريري.

﴿إِن كُنتُ﴾ فيما أدعوكم إليه.

﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾، أي: على بصيرة ويقين وبرهان، وحجة ظاهرة، وأمر جلي، ونبوة صادقة.

﴿مِّن رَّبِّي﴾ أرسلني بها إليكم.

﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾، أي: وأعطاني رحمة من عنده، وهي النبوة والرسالة التي

---

(١) البيت للبوصيري. انظر: «ديوانه» (ص٢٤٧).

(٢) البيت للمتنبي. انظر: «ديوانه» (ص١٨٣).

هي رحمة لي ولكم، وبها هداني ووفقني للإيمان به وطاعته.

وفي قوله: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ دلالة على عظمة هذه الرحمة؛ لأنها من عند الله، أي: منه عز وجل، والاعتناء بها وبمن أوتيها، وهو نوح عليه السلام.

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ قرأ حفص عن عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿فَعُمِّيَتْ﴾، بضم العين وتشديد الميم، وقرأ الباقون: «فعَمِيت»، بفتح العين وتخفيف الميم.

والمعنى: فخفيت عليكم هذه البينة فلم تهتدوا إليها، بل بادرتم بتكذيبها وردها.

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾، أي: أنلزمكم إياها ونكرهكم على قبولها؟ والاستفهام: للإنكار والنفي، أي: لا نلزمكم إياها ولا نكرهكم على قبولها، وليس ذلك إلينا ولا بمقدورنا.

﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾، أي: والحال أنكم لها كارهون، أي: لها مبغضون، كما قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وفي الآية تعريض بأنهم لو تأملوا تأملًا بريئًا من الكراهية والعداوة لعلموا صدق دعوته، وترغيب لهم في إعادة التأمل في ذلك، وليس فيه معذرتهم، وتبرير ما هم عليه من المخالفة، ولا ترك تكرار دعوتهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

لما ذكر أنه لا يلزمهم ولا يكرههم على الإيمان بما جاءهم به؛ وجههم إلى النظر في أنه لم يسألهم مالًا في دعوته إياهم، فيستثقلون ذلك، أو يتهمونه بطلب النفع الدنيوي.

قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾؛ أعاد الخطاب لهم بقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ﴾؛ لاستمالة قلوبهم.

والمعنى: لا أسألكم على إبلاغكم رسالة ربي ونصحي لكم: ﴿مَالًا﴾، أي: أجرًا، فتستثقلون ذلك المغرم؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦].

﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ «إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما أجري إلا على الله وحده.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾، أي: ولست بطارد الذين آمنوا، ولا ينبغي لي ذلك، ولا يليق بي، وكأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين ويبعدهم عن مجلسه؛ ترفعًا وتعاظمًا منهم أن يجلسوا معهم، وتحقيرًا لهم، كما يوحي به قولهم قبل هذا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾، وقوله بعد ذلك: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ﴾ [هود: ٣١].

وهكذا طلب كبراء قريش من نبينا محمد ﷺ أن يطرد الضعفاء؛ حتى لا يجلسوا معهم، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام: ٥٢].

وكما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣].

﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ الجملة في موضع التعليل للنفي في قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾، أي: إنهم ملاقوا ربهم، فمحاسبهم ومثيبهم على إيمانهم، ومنتقم ممن يطردهم.

﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ في احتقاركم لهم، وطلبكم مني طردهم، وردكم الحق؛ بسبب كونهم أتباعه، مع أنهم أكرم منكم عند الله.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ﴾، أي: من يمنعني من الله وينجيني من عذابه إن طردت هؤلاء المؤمنين، أي: إن طردهم موجب لغضب الله تعالى وعذابه، والاستفهام للإنكار والنفي، أي: لا أحد ينصرني من الله إن طردتهم.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ قرأ حفص عن عاصم: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيف الذال وحذف إحدى التاءين، وقرأ الباقون: «تذّكرون» بالتشديد، وأصلها: «تتذكرون»، فأبدلت التاء ذالًا وأدغمت في الأخرى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ

لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾؛ الواو: عاطفة، أي: ولا أقول لكم أني أملك خزائن الله؛ فخزائنه عز وجل بيده، ليس عندي منها شيء.

و«خزائن»: جمع خِزانة بكسر الخاء، وهي في الأصل: الوعاء الذين يخزن فيه، أي: يجمع فيه المال، من بيت أو صندوق أو مشكاة أو غير ذلك؛ حفاظًا عليه من الضياع.

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾، أي: ولا أقول لكم إني أعلم الغيب؛ فعلم الغيب عند الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ من الملائكة، بل أنا بشر مثلكم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ [الكهف: ١١٠، فصلت: ٦].

وكما حكى الله تعالى عن رسله عليهم السلام قولهم: ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ [إبراهيم: ١١].

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾؛ الازدراء: الاحتقار والانتقاص، وهو عمل قلبي، أي: ولا أقول للذين تزدرونهم وتحتقرونهم، ممن اتبعوني من الضعفاء، بوصفكم لهم أنهم أراذلكم، وأنهم اتبعوني من غير روية، بناءً على ظاهر الرأي، دون تأمل في باطنه وعواقبه.

وأضاف الازدراء إلى الأعين؛ لأن الازدراء ينشأ غالبًا عن مشاهدة الصفات الحقيرة عند الناظر، ونظيره قوله تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ [الأعراف: ١١٦]، أي: خيلوا إلى أعين الناس وأبصارهم بسحرهم أن ما ألقوه من حبالهم وعصيهم حيّات حقيقية تسعى، الأمر الذي أثر على عقولهم وأخافهم؛ ولهذا قال: ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾.

﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾، أي: لن يعطيهم الله خيرًا كما تعتقدون في ازدرائكم لهم، وفي هذا إبطال لقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾، والذي يوحي بأنهم استدلوا بضعفهم وفقرهم الحاصل على ما عند الله لهم في المستقبل، ونظروا إلى الجانب الجسماني المادي فقط، ونسوا الجانب الأهم

والأعظم؛ وهو جانب الإيمان والتقوى، وزكاء النفوس وطهارتها.

والمقصود أن ضعفهم وفقرهم ليس بحائل بينهم وبين حصول الخير والفضل لهم من الله في الدنيا والآخرة، بل قد يكونوا هم الأجدرون بالخير من الله؛ لأن أكرم الخلق عند الله أتقاهم؛ ولهذا قال بعده:

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ هذا تعليل لنفي أن يقول: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾.

أي: الله أعلم بالذي في أنفسهم، من صدق الإيمان أو عدمه، فإن كانوا صادقين في إيمانهم فلهم الخير كل الخير من الله دونكم، وإن كانوا غير ذلك فأمرهم إلى الله، ولستم أنتم ولا أنا وكلاء عليهم، وفي هذا تيئيس منه لقومه أن يطرد الضعفاء أو يمقتهم، وتنبيه لهم على غلطهم في قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾.

﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾؛ تعليل لعدم قوله شيئًا مما ذكر، واللام: للتوكيد. ﴿إِذٗا﴾ حرف جزاء، أي: إني إذًا لمن الظالمين الذين بلغوا الغاية في الظلم إن قلت لكم شيئًا مما تقدم؛ من امتلاكي خزائن الله، أو علمي الغيب، أو أني ملك، أو نفيت خير الله عن هؤلاء الذين تزدرونهم.

وقد أكد هذا التعليل بثلاث مؤكدات: «إن»، ولام الابتداء، وحرف الجزاء.

وفيه تعريض بظلم قومه في وصفهم الذين آمنوا من الضعفاء بالأراذل، وسلب الفضل عنهم وازدرائهم.

والمقصود: إني لا أدعي رتبة فوق رتبتي، ولا منزلة فوق منزلتي التي أنزلني الله بها، ولا أدعي ما ليس بمقدوري، ولا أحكم على ما في نفوس الناس؛ فذلك إلى الله تعالى، وليس لي إلا الظاهر منهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٣٤﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢﴾.

لما لم يستطيعوا رد ما جاء به عليه السلام من الحق بأدنى شبهة؛ عدلوا إلى المكابرة والعناد باستعجال العذاب، مما ليس بمقدوره، فبين أن ذلك إلى الله تعالى الذي لا يعجزه شيء، وإرادته نافذة فيهم، وإليه رجوعهم.

قوله: ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾، أي: قد حاججتنا وأكثرت محاجتنا، وأطلت في ذلك ونوّعته.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، أي: عجل لنا الذي تعدنا به من العذاب؛ كما قال كفار قريش: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، وكما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ في دعوتك ووعيدك لنا.

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ ﴾؛ «إنما»: كافة ومكفوفة، أي: إنما يأتيكم بالعذاب الله وحده، إذا اقتضت مشيئته وحكمته أن ينزله بكم ويعجله لكم فعل ذلك.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ الله، ولا مفلتين من عذابه، فهو واقع بكم لا محالة.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ ﴾، أي: ولا ينفعكم نصحي لكم، وإبلاغي إياكم، وإخلاصي في دعوتكم.

﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ﴾؛ «أن» والفعل «أنصح» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أردت»، أي: إن أردت النصح لكم، كما هو الحاصل مني.

﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾، أي: إن كان الله يريد- قدرًا وكونا- إغواءكم.

والمعني: أيُّ شيء يجدي عليكم نصحي لكم وإبلاغي إياكم، مهما أردت أن أنصح لكم، إن كان الله يريد- قدرًا- إغواءكم؛ بسبب ردكم الحق، فإرادته عز وجل غالبة.

﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾: خالقكم ومالككم والمتصرف فيكم، يفعل بكم ما يشاء، ويحكم فيكم ما يريد.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾، أي: وإليه وحده تردون يوم القيامة، فيحاسبكم ويجازيكم بأعمالكم.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا

تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾؛ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل»، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أيقولون افتراه؟ أي: أيقول هؤلاء المكذبون لك يا نوح: ﴿افْتَرَاهُ﴾ ؟ أي: اختلق ما جاء به وما يدعو إليه من تلقاء نفسه، ونسبه كذبًا إلى الله.

﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾، أي: إن اختلقته فعليَّ ذنبي وإثمي، وقدّم الخبر «عليّ» للقصر، أي: إجرامي عليَّ لا عليكم، فلماذا تُكْثرون عليَّ في ذلك كأن تبعته عليكم؟

﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾، أي: من الذي تجرمون وتذنبون؛ من تكذيبكم ما جئتكم به من الحق، واتهامكم إياي بافترائه، وغير ذلك.

ويحتمل أن تكون الآية معترضة في قصة قوم نوح عليه السلام، فيها تأكيد وتقرير لشأنها، وهي تأكيد لقوله تعالى في أول السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ﴾ [هود: ١٣]، والضمائر فيها ترجع إلى نبينا محمد ﷺ وكفار مكة؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ [الأحقاف: ٨].

والأول أظهر من وجهين:

الأول: أن السياق كله في ذكر قصة نوح عليه السلام.

والثاني: أن التعبير بالإجرام فيه من الشدة ما يجعله أنسب لما عليه نوح عليه السلام من الشدة، وخاصة في الدعاء على الظالمين والكافرين من قومه؛ كما في قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾ [نوح: ٢٤]، وقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٢٦]، بخلاف حال نبينا ﷺ نبي الرحمة، الذي كان يقول: «رب اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون»(١). وهذا واضح من خلال التأمل في آية سورة هود هذه وآية سورة الأحقاف.

(١) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين ٦٩٢٩، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٥- من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة نوح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ الآيات.

٢- تسلية النبي ﷺ وتثبيت قلبه، وتحذير المكذبين من قومه، وموعظة المؤمنين وتذكيرهم بذكر قصص الأنبياء، وما حصل لهم من التكذيب والأذى من أقوامهم، ومن ثم إنجاء الله لأنبيائه وأتباعهم، وإهلاك المكذبين.

٣- أن الحكمة من إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام: الإنذار والنهي عن عبادة غير الله، والتحذير للمشركين من عذاب يوم القيامة، والدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، والبشارة للمؤمنين الموحدين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ ومفهوم هذا الإنذار والنهي والتحذير: الدعوة إلى عبادة الله وحده، والبشارة للمؤمنين.

٤- إثبات يوم القيامة وعذابه وأهواله؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

٥- رد الملأ الذين كفروا من قوم نوح عليه السلام لرسالته، وتكذيبهم له، واعتراضهم على دعوته من وجوه لا تصلح للاعتراض، بل تدل على سفههم، وهي: كونه بشرًا مثلهم، وكون أتباعه هم الضعفاء، وعدم فضله وأتباعه عليهم في المظاهر الدنيوية؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

٦- نعمة الله وتعالى السابغة على الناس: بجعل الرسل بشرًا مثلهم يأخذون عنهم ويفهمون منهم؛ إذ لو كانوا ملائكة ما استطاعوا الأخذ عنهم، مما يدل على حكمته عز وجل البالغة، وجهل أعداء الرسل المعترضين على كونهم بشرًا، وصدق الله العظيم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

٧- أن أتباع الرسل- غالبًا- هم الضعفاء والفقراء، وأعداءهم هم الكبراء والأغنياء بسبب ما هم عليه من الرياسات والمناصب والغنى؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦- ٧].

٨- احتقار المكذبين من قوم نوح لمن آمن به من الضعفاء والفقراء، وازدراؤهم لهم، ووصفهم بالأراذل، وتسفيههم لرأيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾، وما علموا أن هؤلاء الضعفاء بإيمانهم صاروا هم الأكرمين الأرشدين رأيًا، فصار ضعفهم وفقرهم سببًا للذل والخضوع لله تعالى والقرب منه، بينما صار غنى أولئك المكذبين ومناصبهم سببًا لطغيانهم وكفرهم وبعدهم عن الله تعالى.

٩- لا عيب على المرء إذا ظهر له الحق وتبين أن يبادر لقبوله والأخذ به واتباعه، بل هذا هو الواجب عليه، ولا أحق ولا أظهر ولا أبين مما جاءت به الرسل من عند الله عز وجل، قال ﷺ: «وما دعوت أحد إلى الإسلام إلا كانت له كبوة، غير أبي بكر؛ فإنه لم يتلعثم»[(١)]، أي: لم يتردد ولم يتروَّ؛ لأنه رأى أمرًا جليًّا واضحًا ظاهرًا، فبادر إليه وسارع؛ ولهذا سمي «الصديق» رضي الله عنه.

١٠- قصور نظر هؤلاء المكذبين؛ حيث ظنوا أن الضعف والفقر عيب ونقص يوجب احتقار من ابتليَ به، وأن الفضل بين الناس يقاس بالأمور الدنيوية، فاحتقروا المؤمنين؛ لأجل ضعفهم وفقرهم، ونفوا فضلهم عليهم معتدِّين بما هم عليه من حظوظ الدنيا الفانية؛ لقولهم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾، وقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾.

١١- أن نوحًا عليه السلام على بينة ووحي ويقين صادق من ربه، لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنوح عليه السلام ولرسله وأتباعهم على الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّي﴾.

١٣- أن إيتاء نوح الرسالة رحمة من عند الله تعالى له ولقومه، وبخاصة من آمن منهم به؛ لقوله عليه السلام اعترافًا بهذه النعمة العظيمة: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾.

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٤/ ٢٥٠.

١٤- رحمة الله تعالى للناس بإرسال الرسل؛ كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

١٥- أن الحق قد يخفى بسبب مقابلته بالتكذيب والرد والعناد، وإن كان بينًا جليًّا واضحًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

١٦- أن الرسل ليس إليهم ولا بمقدورهم إلزام أقوامهم قبول ما جاؤوهم به مع كراهتهم لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ﴾.

١٧- كراهية كثير من قوم نوح لما جاءهم به من الحق، وهذا حال كثير من الخلق، فلا يُغتر بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣].

١٨- أن الرسل عليهم السلام لا يسألون أقوامهم مالًا وأجرًا على إبلاغهم رسالات الله؛ لقول نوح عليه السلام: ﴿وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾.

١٩- أن أجر الرسل عليهم السلام وثوابهم ليس على أممهم، وإنما هو على الله عز وجل وحده؛ لقوله: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾.

٢٠- طلب المكذبين من نوح عليه السلام طرد المؤمنين؛ لمفهوم قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾.

٢١- إعلان نوح عليه السلام لقومه أنه لن يطرد الذين آمنوا، أي: لن يفعل ذلك، ولا يجوز له ولا يليق به؛ لأنهم ملاقو ربهم ومثيبهم على إيمانهم، ومحاسب ومجاز من يطردهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾.

٢٢- إثبات لقاء الله تعالى وحسابه للخلائق ومجازاتهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾.

٢٣- جهل المكذبين من قوم نوح عليه السلام في احتقارهم للذين آمنوا به، وطلبهم منه طردهم. وردهم الحق؛ بسبب اتباع هؤلاء المؤمنين له، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

٢٤- تأكيد نوح عليه السلام عدم طرده للمؤمنين، ببيان أنه لا ناصر له من الله يدفع عنه عذاب الله إن هو طردهم؛ لقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾.

٢٥- تحريم طرد المؤمنين من الضعفاء والفقراء من مجالس الذكر، وحرمانهم من الخير، ووجوب الإفساح لهم كغيرهم ممن يرغب في هذه المجالس، بل والعناية بهم.

٢٦- إنكار نوح عليه السلام على قومه وتوبيخه لهم عدم تذكرهم واتعاظهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وفيه حث لهم على التذكر، وهو واجب على كل عاقل.

٢٧- نفي نوح عليه السلام أن يدعي رتبة فوق رتبته، أو منزلة فوق منزلته؛ من دعوى امتلاك خزائن الله، أو علم الغيب، أو أنه ملك، أو نفي خير الله عن الذين يزدرونهم من المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾.

٢٨- اختصاص الله عز وجل وحده بملك خزائن السموات والأرض، وبعلم الغيب، وبإيتاء الخير لمن شاء من عباده، وبعلم ما في النفوس من صدق الإيمان وعدمه، وغير ذلك.

٢٩- أن النبي ﷺ وغيره من الرسل لا يعلمون الغيب؛ لأن علم الغيب مما اختص الله تعالى به، لا يعلمه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، إلا ما أطلعهم الله تعالى عليه، كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ [الجن: ٢٦- ٢٧].

٣٠- رد نوح عليه السلام على المكذبين له في احتقارهم أتباعه المؤمنين، وعدم معرفتهم فضلهم، وبراءته من نفي خير الله عنهم، والحكم على ما في أنفسهم من صدق الإيمان وعدمه؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾.

٣١- إقراره عليه السلام على نفسه أنه من الظالمين إن هو ادعى شيئًا مما ذكر؛ من

القول بامتلاكه خزائن الله، أو علم الغيب، أو أنه ملك، أو نفي خير الله عن مَن آمن من الضعفاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

٣٢- الرد على الذين يغلون بالرسل، ويزعمون أنهم يعلمون الغيب.

٣٣- سأم قوم نوح عليه السلام من محاجته ودعوته ونصحه لهم، وطلبهم منه تعجيل عذابهم؛ جهلًا منهم، واستبعادًا له، وتكذيبًا به؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. ولهذا دعا عليه السلام عليهم فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠].

٣٤- كثرة مجادلة نوح عليه السلام، ومحاجته لقومه، وتنويعه أساليب الدعوة؛ لعل الله يهديهم، واستمراره في ذلك مع طول لبثه فيهم؛ لقولهم: ﴿قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾، والحق ما شهدت به الأعداء.

٣٥- إخبار نوح عليه السلام لقومه أنه إنما يأتيهم بالعذاب الله عز وجل إن شاء إتيانهم به، وأنهم لا يعجزونه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

٣٦- إثبات المشيئة والإرادة الكونية لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ﴾، وقوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾.

٣٧- إخباره عليه السلام أن إبلاغه لهم ونصحه إياهم لن ينفعهم مهما بلغ، إذا كان الله يريد كونًا وقدرًا إغواءهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾.

٣٨- إثبات الإرادة للإنسان لقول نوح عليه السلام: ﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾، وفي هذا رد على الجبرية.

٣٩- أن من قدر الله تعالى- كونًا- غوايته وضلاله، فلا سبيل إلى رشده وهدايته.

٤٠- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾.

٤١- رجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ

تُرۡجَعُونَ ﴾.

٤٢- زعم قوم نوح عليه السلام أنه افترى ما جاءهم به وما يدعو إليه من تلقاء نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُ ﴾، ويحتمل أن المراد: كفار مكة قالوا للنبي صلى الله وسلم: إنه افترى القرآن من تلقاء نفسه.

٤٣- التنازل مع الخصم بقصد إفحامه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴾، أي: إن كنت افتريته فذنبي وإثمي عليَّ لا عليكم، فلم تُكثرون عليّ في ذلك؟

٤٤- أنه عليه السلام بريء من إجرام قومه؛ لأنه بلغهم رسالة ربه، ونصح لهم، وحذرهم وأنذرهم، وأقام الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

ذكر عز وجل أنه أرسل نوحًا إلى قومه، فأنذرهم ونهاهم عن عبادة غير الله، وخوفهم عذاب الله وتكذيبهم له، ومحاورته لهم، وإصرارهم على التكذيب، واستعجالهم العذاب، ثم أوحى إليه- تسليةً له، وتهديدًا لقومه- أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، وآذنه بقرب عذابهم.

قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾؛ الواو: استئنافية، وبني الفعل «أوحي» لما لم يسمَّ فاعله؛ لأن الموحي معلوم، وهو الله عز وجل، أي: وأوحينا إلى نوح، أي: أعلمناه بوحي منا.

﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾؛ «أن»: حرف توكيد ونصب، واسمها ضمير الشأن، و«إِلَّا»: أداة حصر، أي: أنه لن يؤمن من قومك إلا الذي قد آمن منهم، وهم القليل؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾، أي: فلا تحزن، ولا تبال بالذي كانوا يفعلونه من التكذيب والكفر والعناد، ولا تأس على ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

أعلم الله عز وجل نوحًا أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، ونهاه عن الابتئاس بفعلهم مع شدة إجرامهم، وذلك مؤذن بأن الله قد مقتهم، وسيحق عذابه عليهم؛

انتصارًا لنبيه نوح عليه السلام؛ ولهذا أعقب ذلك بأمره بصنع الفلك؛ تهيئةً لنجاته ونجاة من آمن به من الغرق.

قوله: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ معطوف على جملة: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾، أي: لا تبتئس واصنع السفينة.

﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾؛ الباء للملابسة، أي: بمرأى منا وبحفظنا.

﴿وَوَحۡيِنَا﴾، أي: وبوحينا إليك، وتعليمنا لك كيفية صنع الفلك.

﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، أي: ولا تكلمني في شأن الذين ظلموا، أي: لا تراجعني في إهلاكهم، ولا تسألني العفو أو التخفيف عنهم، وفي هذا إشارة لشدة سخطه عز وجل عليهم.

ولعله توطئة وتمهيد لنهيه عن مخاطبته بشأن ابنه الكافر قبل أن يخطر بباله سؤال نجاته؛ حتى يكون الرد عليه حين السؤال ألطف.

﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾؛ تعليل للنهي قبله، أي: إنهم محكوم عليهم بالغرق بالطوفان، قد حق عليهم القول، ونفذ فيهم القدر، فلا سبيل إلى رده، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: ٧٦].

قوله تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾، أي: السفينة؛ امتثالًا لأمر الله تعالى له بذلك.

﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾؛ «كلما»: ظرف زمان مضمن معنى الشرط، أي: وكلما مر عليه كبراء من قومه ورأوا ما يصنع.

﴿سَخِرُواْ مِنۡهُ﴾، أي: استهزؤوا به في عمله وصنعه هذه السفينة في البر.

﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾ في صنع السفينة، وفي دعوتكم إلى توحيد الله، وتحذيركم من العذاب، وتوعدكم بالغرق.

﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾، أي: فإنا نسخر منكم كما تسخرون منا؛ لسفه عقولكم، وجهلكم بالله وصفاته، وما يجب عليكم من إخلاص العبادة له، وردكم

الحق وتكذيبكم به، وإشراككم بالله، وتعريضكم أنفسكم للعذاب، واستبعادكم له، واستعجالكم به.

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ﴾؛ «سوف»: حرف استقبال، و«من»: اسم استفهام، أو اسم موصول، أي: فسوف تعلمون من الذي يأتيه في الدنيا.

﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، أي: يذله ويهينه، أنحن أم أنتم؟ وقد علموا ذلك حين حل بهم العذاب والغرق.

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾، أي: ويقع عليه في الآخرة.

﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، أي: عذاب دائم مستمر أبدًا، وهو عذاب النار؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤، المائدة: ٤١].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، أي: حتى إذا جاء أمرنا الكوني بنزول العذاب بهم، وإغراقهم بالطوفان.

﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾، أي: ونبع الماء بقوة من التنور، وهو مكان النار، أي: صارت الأرض عيونًا تفور بالماء، حتى فار الماء من التنانير، التي هي مكان النار وأبعد شيء عن الماء في العادة.

﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾، أي: قلنا لنوح عليه السلام: احمل في السفينة.

﴿مِن كُلٍّ﴾؛ قرأ حفص عن عاصم: ﴿كُلٍّ﴾ بالتنوين، وقرأ الباقون بغير تنوين على الإضافة.

والتنوين في ﴿كُلٍّ﴾ في قراءة حفص بدل من المضاف إليه، أي: من كل صنف من أصناف المخلوقات.

﴿زَوْجَيْنِ﴾ ذكر وأنثى؛ لتبقى مادة سائر الأجناس والأصناف.

﴿وَأَهْلَكَ﴾، أي: واحمل فيها أهلك، وهم أهل بيته وقرابته.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾؛ «إلا»: أداة حصر، و«مَنْ»: موصولة، أي: إلا الذي سبق عليه القول، أي: إلا الذي مضى عليه قول الله كونًا وقدرًا بالكفر والهلاك؛ ومنهم ابنه «يام» الذي انعزل وحده، وامرأة نوح؛ كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾، أي: واحمل فيها من آمن من قومك.

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾؛ الواو: حالية، أي: والحال أنه ما آمن معه إلا قليل، أي: إلا نفر قليل، ونزر يسير، مع طول لبثه فيهم، ومقامه بينهم، وتنويعه أساليب الدعوة لهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت: ١٤].

ولله في ذلك حكمة؛ كما قال تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وفي الحديث القدسي أن الله عز وجل يقول لآدم: «**أخرج بعث النار من ذريتك؛ من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين**».

فعلى المربين والمصلحين والدعاة إلى الله تعالى بذل الجهد في الدعوة والإصلاح والتربية والتوجيه، وليحذروا أن يفت في عضدهم، أو يثبط عزائمهم، أو يحط من معنوياتهم كثرة المعرضين، وصدود الكثيرين؛ فالعبرة بالكيف لا بالكم، وها هو نوح عليه السلام- أحد أولي العزم من الرسل لبث في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، وما آمن معه إلا قليل.

الفوائد والأحكام:

١- وحي الله تعالى إلى نوح عليه السلام، وإعلامه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾.

٢- إثبات علم الله تعالى الأزلي بالغيب وما يستقبل؛ مما سيكون، ومما لن يكون.

٣- تسلية نوح عليه السلام، وتثبيت قلبه، وتهديد قومه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾، أي: فلا تحزن ولا تبال بالذي كانوا يفعلون.

٤- أمر الله عز وجل لنوح عليه السلام بصنع السفينة؛ تهيئةً وسببًا حسيًّا لإنجائه ومن معه من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾.

٥- مشروعية فعل الأسباب؛ لأن الله أمر نوحًا عليه السلام بصنع السفينة سببًا حسيًا للنجاة، مع قدرته عز وجل على إنجائه بدون ذلك.

٦- عناية الله تعالى بنوح عليه السلام، حيث أمره عز وجل بصنع الفلك بمرأى وحفظ منه سبحانه، ووحي وتعليم له كيف يصنعها؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾.

٧- شدة سخط الله تعالى على الظالمين المكذبين من قوم نوح، ونهيه له عن المراجعة بشأنهم أو الشفاعة فيهم، أوفي تخفيف العذاب عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

٨- حكم الله تعالى الكوني والقدري- بإغراق قوم نوح؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾.

٩- عدم قبول الشفاعة- حتى من الرسل- في الظالمين المكذبين، ولا يستثني من هذا إلا شفاعة نبينا محمد ﷺ في عمه أبي طالب لتخفيف العذاب عنه؛ لذوده عن النبي ﷺ، ودفاعه المشركين عنه، حيث يجعل في ضحضاح من نار يغلي منه دماغه(١).

١٠- صنع نوح عليه السلام السفينة؛ امتثالًا لأمر الله تعالى له؛ لقوله تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٨٥، ومسلم في الإيمان ٢١٠- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾.

١١- سخرية قومه منه في صنعه السفينة في البر، وفي دعوته لهم لعبادة الله وحده، وتوعده لهم بالغرق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُ﴾.

١٢- سخرية نوح عليه السلام والمؤمنين معه من قومهم؛ مجازاةً لهم على سخريتهم منه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾.

١٣- جواز السخرية بالكافرين مقابل سخريتهم بالمؤمنين، والجزاء من جنس العمل.

١٤- توعد نوح عليه السلام المكذبين من قومه بالعذاب المخزي لهم في الدنيا؛ وهو الطوفان، وبالعذاب الدائم في الآخرة؛ وهو عذاب النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾.

١٥- أن عذاب النار لا ينقطع؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾.

١٦- حلول أمر الله الكوني القدري بإغراق قوم نوح بالطوفان النازل من السماء والنابع من الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾.

١٧- إثبات القدر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾، وقوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾.

١٨- أمر الله عز وجل لنوح عليه السلام أن يحمل في السفينة من كل صنف زوجين اثنين ذكرًا وأنثى، وأهله إلا من سبق في علم الله كفرهم وهلاكهم، ومن آمن؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَ﴾.

١٩- أن من سبق ومضى في علم الله وقدره كفره وهلاكه فلا سبيل إلى إيمانه ونجاته؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾.

٢٠- قلة المؤمنين مع نوح عليه السلام، مع طول لبثه في قومه، وتنويعه لهم أساليب الدعوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾، وفي هذا درس للمربين

والمصلحين والدعاة إلى الله تعالى.

٢١- ينبغي عدم الاغترار بالكثرة؛ فأكثر الخلق غير مؤمنين، بل هم على ضلال. وقد قال بعض السلف: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين، ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين»[١].

* * *

(١) سيأتي تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾، أي: وقال نوح عليه السلام لمن أمره الله أن يحملهم معه: ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾، أي: اركبوا في السفينة.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾؛ قرأ حفص عن عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿مَجْر۪ىٰهَا﴾ بفتح الميم، مع إمالة الراء، وقرأ الباقون بضم الميم: «مُجراها».

والباء في قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ للملابسة، أي: قائلين بسم الله ﴿مَجْر۪ىٰهَا﴾، أي: جريها على وجه الماء، ﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾: منتهى سيرها ورسوها على الشاطئ، يقال: رسا إذا ثبت، ومنه سميت الجبال الراسيات.

والمعنى: بسم الله يكون جريها وسيرها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها ورسوها، أي: بسم الله يكون إجراؤها وإرساؤها، أي: بقدرته وأمره وعونه وتوفيقه.

﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ الجملة مستأنفة؛ لبيان أن إنجاءهم بتسخير السفينة تجري بهم على وجه الماء هو بمغفرة الله تعالى لهم، ورحمته بهم، وفيها الإشارة إلى أن الله وعده

بنجاتهم، والاعتراف بنعمته وفضله عليهم؛ كما قال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون٢٩: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف١٤: ١٢].

وشرع أن يقول عند الركوب: «**الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل والمال، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في الأهل والولد**». وفي الرجوع من السفر يزيد: «**آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون**»(١).

فهو عز وجل غفور رحيم، وبمغفرته ورحمته ينجي المؤمنين، كما أنه عز وجل شديد العقاب للكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد: ٦].

قوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَهِىَ﴾، أي: السفينة، ﴿تَجْرِى بِهِمْ﴾، أي: بمن فيها، وهم نوح ومن حمل معه بأمر الله تعالى له.

﴿فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾؛ «الموج»: ما يرتفع من الماء على سطحه عند اضطرابه بسبب شدة الرياح، يقال: ماج البحر إذا اضطرب.

(١) أخرجه مسلم في الحج ١٣٤٢، وأبو داود في الجهاد ٢٥٩٩، والترمذي في الدعوات ٣٤٤٧- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أي: وهي، أي: السفينة تجري بمن فيها وسط أمواج الماء التي تشبه الجبال في ارتفاعها وعظمتها، بأمر الله تعالى وحفظه وعنايته ومنته؛ كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر١٦: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة١٢: ١١].

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ «يام»؛ ليركب معه، وهو الابن الرابع لنوح فيما ذكر.

﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ الجملة اعتراضية، أي: وكان ابنه في معزل، والمعزل: مكان الانعزال، أي: الانفراد، أي: وكان منعزلًا مبتعدًا عن أبيه وعن المؤمنين؛ لأنه لم يؤمن، بل كان كافرًا.

﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾، أي: قائلًا له، أو فقال له: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾، أي: في السفينة، أي: آمن واركب معنا في السفينة؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: الهالكين المغرقين.

وقوله ﴿يَٰبُنَىَّ﴾ بالتصغير؛ إظهارًا للشفقة عليه والرحمة له أن يموت على الكفر ويهلك مع من هلك، ولكن قدر الله غالب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، أي: قال الابن، معتقدًا بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، ومكذبًا لأبيه أنه لا ينجو إلا من ركب السفينة: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾، أي: سأقصد إلى جبل، فأصعد عليه وارتقي فوق قمته، ﴿يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، أي: يمنعني ويحفظني من الماء، فلا أغرق.

﴿قَالَ﴾ نوح عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: لا شيء يعصم اليوم اليوم ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: من قضائه وقدره وعذابه إذا نزل، لا جبل ولا غيره.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾؛ «إلا»: أداة استثناء، و«مَن»: موصولة، أي: إلا الذي رحمه الله

تعالى، فعصمه وحفظه برحمته، فلا عاصم إلا الله، ولا معصوم إلا من رحمه الله.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾، أي: بين نوح وابنه، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾، أي: فكان ابنه من المغرقين، أي: في عداد المغرقين.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

بعد ما التقى الماء على أمر قد قدر، وأنجى الله عز وجل نوحًا ومن معه في السفينة، وأغرق أهل الأرض كلهم، أمر الأرض بابتلاع مائها، والسماء بالإقلاع عن المطر بعد أن قضي الأمر؛ ليغيض الماء، وتعود الحياة إلى الأرض.

قوله: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾، أي: وقيل بعد ما أغرق الله تعالى أهل الأرض إلا أصحاب السفينة.

وبني الفعل لما لم يسم فاعله؛ لأن القائل معلوم، وهو الله عز وجل.

﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾، أي: ابلعي ماءك الذي نبع وخرج منك، والذي نزل عليك من السماء، أي: اشربيه بسرعة.

وأضيف الماء إليها؛ لأن منه ما نبع منها، ولأن كله صائر إليها وداخل فيها؛ ما نبع منها، وما نزل من السماء.

﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾، أي: أمسكي عن المطر.

﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾، أي: نقص ونضب الماء وشربته الأرض.

﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: وأُتم الأمر، أي: وأتم الله أمره الكوني بهلاك المكذبين وغرقهم، ونجاة نوح عليه السلام وأصحاب السفينة.

﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾، أي: واستوت السفينة، أي: رست واستقرت على الجودي، وهو جبل في العراق في أرض الموصل.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: وقيل لهؤلاء المكذبين المهلكين: ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: قال الله لهم وحكم عليهم- لبلوغهم غاية الظلم؛ بسبب تكذيبهم وكفرهم- بالبعد الملازم لهم ولجميع الظالمين، أي: البعد عن رحمة الله تعالى وعن كل

خير، ومن حكم عليه بالبعد فهو واقع في كل شر.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾، أي: دعا نوح ربه.

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ بيان للنداء، أي: يا رب ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾.

قال ابن كثير(١): «هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق».

أي: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾، وقد وعدتني بنجاة أهلي بقولك: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾.

ولعله لما حملته الشفقة ظن أن هذا الوعد لعموم أهله؛ من آمن ومن لم يؤمن، أو ظن أن ابنه لم يكن ممن سبق عليه القول بالكفر والغرق.

﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾، أي: الوعد الحق الثابت الذي لا يخلف؛ كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦].

﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، أي: وأنت أعدل الحاكمين حكمًا، وأبلغهم حكمة.

وفي هذا تفويض من نوح عليه السلام لحكم الله تعالى وتسليم له.

وفي اقتصاره عليه السلام- وهو في مقام الدعاء- بالتعريض بالمطلوب دون التصريح، مع الثناء على الله تعالى بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ دلالة على عظم أدبه مع ربه عز وجل، وتمام معرفته بعلم ربه بمطلوبه؛ كما قيل:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إن شيمتك الحياء

إذا أثنى عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرضه الثناء(٢)

---

(١) في «تفسيره» ٤/ ٢٥٨.

(٢) البيتان لأمية بن أبي الصلت. انظر: «ديوانه» (ص١٧).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَـٰلِحٍۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ﴾، أي: قال الله له: يا نوح.

﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾، أي: ليس من أهلك الذين وعدتك نجاتهم؛ لأني إنما وعدتك نجاة من آمن من أهلك، دون من سبق عليه القول بالكفر والهلاك بالغرق؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَـٰلِحٍ﴾ تعليل للنفي قبله.

قرأ الكسائي، ويعقوب: «عَمِلَ» بكسر الميم وفتح اللام، و«غيرَ» بنصب الراء، أي: إن ابنك عمل عملًا غير صالح، أي: كفر ولم يؤمن.

وقرأ الباقون: ﴿عَمَلٌ غَيۡرُ﴾، بفتح الميم ورفع اللام منونة ورفع الراء، أي: إن سؤالك ودعاءك إياي لنجاة ابنك وهو كافر عمل غير صالح، وغير لائق ولا مقبول؛ ولهذا قال:

﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾، قرأ أبو جعفر، ونافع، وابن كثير، وابن عامر: «تسألَنِّي» بفتح اللام وتشديد النون، وقرأ الباقون بإسكان اللام وتخفيف النون: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ﴾.

و«مَا» في قوله: ﴿مَا لَيۡسَ﴾ موصولة، أو نكرة موصوفة، أي: فلا تسألني الذي ليس لك به علم، أو شيئًا ليس لك به علم، أي: لا تعلم عاقبته ومآله، وهل يكون خيرًا أو غير ذلك.

﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ﴾ بنهيي لك عن سؤالي ما ليس لك به علم؛ ﴿أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَـٰهِلِينَ﴾، أي: كراهة أن تكون من الجاهلين، أو لئلا تكون من الجاهلين، والمراد بالجهل هنا ضد العلم؛ لمقابلته لقوله: ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

لما بيّن عز وجل لنوح عليه السلام أن سؤاله نجاة ابنه عمل غير صالح، ونهاه عن

سؤال ما ليس له به علم، ووعظه لئلا يكون من الجاهلين؛ ندم عليه السلام ندامة شديدة، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ﴾ الآية.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ﴾، أي: قال نوح: يا رب.

﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ﴾، أي: أستجير بك.

﴿أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ ﴿أَنْ﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر، في محل جر بحرف جر محذوف، أي: إني أعوذ بك من سؤالك ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾، و«ما» موصولة، أي: الذي ليس لي به علم، مما استأثرت بعلمه.

﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ الواو: عاطفة، و«إن»: حرف شرط جازم، و«لا»: نافية، والجملة معطوفة على جملة جواب النداء ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ﴾.

أي: وإلا تغفر لي ما فرط مني بستره والتجاوز عنه، وترحمني بتوفيقك لي لما تحب وترضى في المستقبل.

وقدم المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية قبل التحلية.

﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، أي: من جملة الخاسرين، فلا نجاة من الخسران لأحد من الخلق- بما فيهم الرسل والأنبياء- ولا ربح لأحد منهم إلا بمغفرة الله تعالى ورحمته، ولا غنى لأحد عن ذلك؛ ولهذا قال ﷺ: «**لن يدخل أحدكم عمله الجنة**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(١).

قال السعدي(٢) في كلامه على هذه الآية: «ودل هذا على أن نوحًا عليه السلام- لم يكن عنده علم بأن سؤاله لربه في نجاة ابنه محرَّم، داخل في قوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾، بل تعارض عنده الأمران، وظن دخوله في قوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ وبعد هذا تبين له أنه داخل في المنهي عن الدعاء لهم، والمراجعة فيهم».

قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٣/ ٤٢٨.

سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾؛ الهبوط: النزول، أي: قيل لنوح عليه السلام بعد أن استوت السفينة ورست على الجودي: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾؛ الباء: للمصاحبة، أي: انزل من السفينة مصحوبًا بسلام منا وأمن.

﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾، أي: وبركات منا عليك، أي: خيرات كثيرة نامية.

﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ﴾، أي: وبركات على أمم، أي: جماعات.

﴿مِّمَّن مَّعَكَ﴾؛ «من»: حرف جر، و«من»: الثانية موصولة، أي: من الذين معك من المؤمنين ومن آمن من ذرياتهم إلى يوم القيامة.

﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾؛ الواو: استئنافية، أي: وأمم كثيرة كفار غير مؤمنين، سنمتعهم في الدنيا متاع البهائم؛ كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة: ١٢٦].

﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: ثم يصيبهم منا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: مؤلم موجع؛ حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، في الدنيا والآخرة، وفي ذكر هذا في القرآن الكريم تعريض بالمشركين ووعيد لهم.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾؛ الإشارة تعود إلى ما ذكره الله تعالى في الآيات السابقة من قصة نوح وقومه، أو هي وغيرها من قصص القرآن الكريم؛ تسليةً للنبي ﷺ، وتحذيرًا وتهديدًا للمشركين من قومه. والخطاب للنبي ﷺ، أي: تلك الأنباء المذكورة في هذه القصة من أخبار الغيب الهامة السابقة التي لم تشهدها، والتي لا يعلمها إلا الله.

﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ نعلمك بها بوحينا إليك كأنك شاهدها.

﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾؛ «أنتَ» ضمير فصل للتوكيد، أي: ما كان عندك

علم بها. ﴿وَلَا قَوْمُكَ﴾، أي: ولا قومك يعلمونها فيقال: تعلمتها منهم.

﴿مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾، أي: من قبل أن نوحيها إليك ونعلمك بها بهذا القرآن، وفي هذا امتنان عليه بتعليمه ما لم يعلم.

﴿فَاصْبِرْ﴾، أي: فاصبر على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته، وعلى أذى المشركين والمكذبين من قومك، كما صبر نوح عليه السلام؛ كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ تعليل للأمر بالصبر، واللام: للاختصاص، أي: لأن العاقبة والنهاية الحسنة للمتقين وحدهم خاصة، وهم الرسل وأتباعهم؛ ففي الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالفوز العظيم في جنات النعيم.

وفي هذا موعظة وتسلية له ﷺ، أي: فاصبر فسينصرك الله، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك المتقين في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات١٧٣: ١٧١].

الفوائد والأحكام:

١- أمر نوح عليه السلام لمن أمره الله بحملهم معهم بركوب السفينة؛ استجابة لأمر الله له؛ لقوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾.

٢- استعانة نوح عليه السلام- وتبركه عند ركوبه السفينة باسم الله الذي بعونه وتقديره وتوفيقه جريها ورسوها؛ لقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾.

٣- مشروعية التسمية عند الركوب؛ تبركًا باسم الله تعالى، واستعانةً به وتيمنًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾.

وفي حديث جابر الطويل في قصة بعيره أن رسول الله ﷺ قال له: «اركب باسم الله»(١).

(١) أخرجه مسلم في المساقاة- بيع البعير واستثناء ركوبه ٧١٥.

وفي حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه أتي بدابة ليركبها، فلما وضع رجله في الركاب قال: «**باسم الله...**» الحديث، وفي آخره قال: «رأيت النبي ﷺ فعل كما فعلت»(١).

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأنبيائه ورسله؛ لقول نوح عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾، وقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ﴾.

٥- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَغَفُورٌ﴾.

٦- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله تعالى؛ رحمة ذاتية ثابتة له، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٌ﴾.

٧- اعتراف نوح عليه السلام بأن نجاته ومن معه، بتسخير السفينة تجري بهم في البحر، وتنقلهم إلى شاطئه وترسو بهم، إنما هو بعناية ربه عز وجل، ومغفرته لهم، ورحمته بهم؛ لقوله عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٨- قدرة الله تعالى التامة، ومنته العظيمة، في جعل السفينة تجري بنوح ومن معه فيها وسط موج كالجبال، فلا تتوقف ولا تغرق؛ لقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾.

٩- مناداة نوح علية السلام- شفقة منه- لابنه، وكان منعزلًا عنه وعن المؤمنين، آمرًا له بأن يؤمن ويركب معهم ولا يكون مع الكافرين المغرقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

١٠- ظن ابن نوح- جهلًا منه وتكذيبًا لأبيه- أن الجبل سيعصمه من الماء؛ لقوله: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ﴾.

١١- لا عاصم من أمر الله إلا من رحمه الله وعصمه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾.

١٢- حيلولة الموج بين نوح وابنه وغرقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد- ما يقول الرجل إذا ركب ٢٦٠٢، والترمذي في الدعوات ٣٤٤٦.

﴿مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾.

١٣- أمر الله عز وجل الأرض بابتلاع مائها، والسماء بالإقلاع عن المطر، وغيض الماء، وقضاء الأمر بهلاك المكذبين، واستواء السفينة على الجودي، ونجاة نوح ومن معه فيها، والحكم بإبعاد القوم الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾.

١٤- الحكم بالبعد والهلاك على قوم نوح؛ لبلوغهم غاية الظلم بتكذيبهم وكفرهم، وهو حكم عليهم وعلى غيرهم من الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٥- الحذر من الظلم بالتكذيب والكفر وغير ذلك؛ لأنه سبب للحرمان والإبعاد عن الرحمة وعن كل خير، والوقوع في المهالك والشرور.

١٦- نداء نوح عليه السلام ودعاؤه ربه؛ شفقةً منه بأن ابنه من أهله الذين أمر بحملهم في السفينة ووعد بنجاتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾.

١٧- أن وعد الله تعالى حق لا يتخلف؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾.

١٨- أن الله عز وجل أحكم الحاكمين، وأعدلهم حكمًا كونيًّا وشرعيًّا، وأبلغهم حكمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

١٩- تفويض نوح عليه السلام وتسليمه الحكم فيه وفي ابنه إلى الله عز وجل، لقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، أي: تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد، لا رادَّ لحكمك، ولا معقب لقضائك.

٢٠- أدب نوح عليه السلام مع ربه؛ حيث لم يصرح بمطلوبه، واكتفى بالتعريض مع الثناء على ربه عز وجل؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

٢١- وجوب التفويض والرضا بما حكم الله به كونًا، والقبول بما حكم به شرعًا، والتسليم والانقياد لذلك.

٢٢- ينبغي للداعي والسائل أن يقرن الدعاء والسؤال بالثناء على المدعو والمسؤول؛ فذلك أنجح لقبول الدعاء وإجابة السؤال.

٢٣- إجابة الله تعالى نداء نوح عليه السلام ببيانه عز وجل له: أن ابنه ليس من أهله، وأنه عمل غير صالح؛ لكفره وعدم إيمانه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾.

٢٤- أن الكفر يفرق بين المرء وبين أهله، ويقطع الصلة بين الأقارب؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ١].

٢٥- أن الكفر وعدم الصلاح سبب للهلاك، كما أن الإيمان والصلاح سبب للنجاة.

٢٦- أن الدعاء للكافرين وسؤال النجاة لهم أمر لا يجوز؛ كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣].

٢٧- نهي الله عز وجل نبيه نوحًا عليه السلام عن سؤاله ما ليس له به علم، وموعظته له؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

٢٨- أن سؤال الإنسان ما ليس له به علم من الجهل وعمل الجاهلين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

٢٩- ندم نوح عليه السلام على ما فرط منه، واستعاذته بالله أن يسأل ما ليس له به علم، وسؤاله الله مغفرته ورحمته؛ مخافة أن يكون من الخاسرين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

٣٠- ينبغي الاستعاذة بالله من الوقوع في المخالفة والعصيان، وسؤاله العصمة من ذلك، والمغفرة والرحمة، والإشفاق من الخسران.

٣١- أن الخسران كل الخسران في مخالفة أمر الله ومعصيته، كما أن الربح كل الربح في اتباع أمر الله وطاعته، وأن من لم يحفظه الله ويغفر له ويرحمه هالك لا محالة، وخاسر

الخسران المبين.

٣٢- امتنان الله تعالى بإنجائه نوحًا، وأمره له بالنزول من السفينة بسلام منه عز وجل وأمن وبركات عليه وعلى أمم ممن معه وممن بعده من المؤمنين إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾.

٣٣- كثرة الأمم الكافرة بعد نوح وإلى يوم القيامة، الذين يتمتعون في الحياة كالبهائم، ثم يصيرون إلى عذاب أليم في نار جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٣٤- ينبغي عدم الاغترار بما عليه أكثر الخلق؛ فأكثرهم كالبهائم، يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار مثوى لهم.

٣٥- الامتنان على نبينا محمد ﷺ وعلى أمته، بإعلامه بالوحي إليه في القرآن الكريم بما جرى لنوح وغيره من الأنبياء السابقين مع أممهم، مما فيه تسلية له ﷺ، وتثبيت لقلبه، وتحذير وإنذار للمكذبين من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾.

٣٦- أمر الله عز وجل له ﷺ بالصبر على تبليغ الرسالة، والقيام بأمر الله، وعلى أذى قومه، وبشارته بأن العاقبة له ولأتباعه المتقين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

٣٧- فضل الصبر والتقوى والترغيب فيهما؛ لأن العاقبة للمتقين الصابرين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، أي: ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا، أي: أخاهم في النسب؛ ليتمكنوا من الأخذ عنه، والعلم بصدقه.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، أي: اعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له، ما لكم من معبود سواه. و«مِن» في قوله ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ زائدة إعرابًا مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما لكم من أيِّ إله غيره.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾؛ «إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما أنتم إلا مفترون، والافتراء: الكذب، وأعظمه ادعاء شركاء مع الله، أي: ما أنتم إلا كاذبون باتخاذكم الشركاء مع الله وجعلهم شفعاء.

وفي هذا إنكار عليهم وتوبيخ لهم؛ كما قال لهم في سورة الأعراف: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف: ٦٥].

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا

تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

بنحو من هذا خاطب كثير من الرسل عليهم الصلاة والسلام أقوامهم؛ إقامةً للحجة، وإزاحةً للتهمة، ومحضًا للنصيحة، كما قال نوح، وهود أيضًا، وصالح، وشعيب عليهم السلام: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠].

وقال نوح أيضًا: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٧٢] وقال تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٩٠].

أي: لا أسألكم على إبلاغي لكم رسالة ربي ونصحي لكم أجرًا، أي: أجرة وغرامة من أموالكم، فتقولون: هذا يريد أن يأخذ أموالنا، وتستثقلون هذا الغرم؛ كما قال تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرًا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦]

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ﴾؛ «إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما أجري إلا على الذي فطرني، أي: على الذي خلقني، وهو الله ربي الذي يسوق رزقي، ويثيبني على تبليغكم رسالته في الدنيا والآخرة.

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: أفلا تنتفعون بعقولكم، وتهتدون بها إلي عبادة الله تعالى وحده، وترك ما تشركون من دونه، وتستجيبون لمن يدعوكم إلي ذلك بغير أجرة ولا غرم، بل لنفعكم ومصلحتكم؛ كما قال تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾﴾ [الفرقان: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾، أي: اطلبوا من ربكم مغفرة ما مضى منكم؛ من الشرك والكفر والمعاصي.

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، أي: ارجعوا وأنيبوا إليه بالإيمان والعمل الصالح، والبعد عن الشرك والمعاصي في المستقبل.

﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم﴾ جواب الأمر في قوله: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، أي: إنكم إن فعلتم ذلك يرسل ربكم السماء عليكم، أي: ينزل المطر عليكم؛ كما في حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: «خطبنا رسول الله ﷺ على إثر سماء كانت من الليل»، أي: على أثر مطر.

﴿مِّدۡرَارٗا﴾ حال، أي: غزيرًا متتابعًا كثيرًا؛ مما يكون سببًا للخصب وكثرة الخيرات والأرزاق.

﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً﴾؛ في الأبدان وصحتها، وكثرة العدد، وفي الرزق وغير ذلك؛ كما قال نوح عليه السلام: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠-١٢].

﴿إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾؛ حيث كانوا من أقوى الناس أجسامًا؛ ولهذا كانوا يقولون اغترارًا منهم: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾، أي: ولا تتولوا وتعرضوا عما دعوتكم إليه من استغفار ربكم والتوبة إليه.

﴿مُجۡرِمِينَ﴾ حال، أي: مجرمين بهذا التولي، أي: إن توليكم عما دعوتكم إليه إجرام، ومن عمل المجرمين.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾، أي: ما أتيتنا بحجة وبرهان على ما تدعيه وتدعو إليه؛ من وجوب عبادة الله تعالى وحده، وأن ما لنا من إله غيره، وأننا مفترون في عبادتنا غيره.

وهذا بهتان وكذب منهم، وإنكار لما جاءهم به من الآيات؛ كما قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ

عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٥٩].

وقد قال نبينا محمد ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر».

ولو لم يكن من الآيات إلا دعوته لهم إلي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه، الأمر الذي شهدت عليه جميع الدلائل الكونية في السموات والأرض، وفي الإنسان نفسه، وفي سائر المخلوقات، والذي هو أعظم الآيات عند أولي البصائر والعقول؛ لكفى وشفى.

ويجوز أن يكون مرادهم بقولهم ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ ما يقترحونه من الآيات على سبيل العناد والتعجيز، فهذا ليس بلازم.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾، أي: وما نحن بتاركي عبادة آلهتنا لأجل قولك، أو بمجرد قولك: اتركوا عبادتهم؛ كقولهم في سورة الأعراف: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف: ٧٠].

﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، أي: وما نحن لك بمصدقين فيما جئتنا به، وهذا تيئيس منهم لهود عليه السلام- أن يؤمنوا به.

قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾؛ «إن»: نافية بمعنى «ما»، و«إلا»: أداة حصر، أي: ما نقول فيك إلا أنه أصابك بعض آلهتنا ﴿بِسُوٓءٍ﴾؛ الباء: للملابسة، أي: بجنون وخبل في عقلك؛ بسبب نهيك عن عبادتها وسبك لها، فصرت تهذي بها لا تعقل.

وكانوا يهددون الناس بآلهتهم ويخوفونهم منها؛ ليعبدوها ويعظموها.

﴿قَالَ﴾ هود عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ على نفسي، ﴿وَٱشْهَدُوٓاْ﴾ أنتم ﴿أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ﴾؛ «ما»: مصدرية، أي: أني بريء من إشراككم آلهة غير الله، أو موصولة، أي: من الذي تشركون به غيره من الآلهة.

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾؛ الأمر للتعجيز؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾ [المرسلات: ٣٩]، أي: فدبروا لي من الكيد والمكر والأذى ما استطعتم جميعًا، أنتم وآلهتكم التي تعبدونها من دون الله.

﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، أي: ثم لا تمهلوني ولا تؤخروني طرفة عين، وفي هذا تأكيد لتعجيزهم، واحتقار لهم ولآلهتهم.

وفي هذا كله إبطال لقولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾، وإعلان منه عليه السلام بثقته بحفظ الله له تمام الوثوق، وأنهم لا يستطيعون هم وآلهتهم أن يصيبوه بأيِّ أذى مهما مكروا ودبروا، وتحدٍّ صارخ لهم؛ كما قال نوح عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس: ٧١].

قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ تعليل لمضمون قوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، أي: إني اعتمدت على الله، وفوضت أمري إليه، هو حافظي منكم ومن كل سوء.

﴿رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ خالقنا ومالكنا، والمتصرف فينا جميعًا.

﴿مَّا مِن دَابَّةٍ﴾؛ «ما»: نافية، و«من»: زائدة إعرابًا مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما من أيِّ دابة من كل ما يدب على الأرض من إنس وجن وحيوان.

﴿إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾؛ «إلا»: أداة حصر: إلا الله ربي وربكم آخذ بناصيتها.

أي: هو خالقها ومالكها، وهي تحت تدبيره وقهره وسلطانه.

وفي الحديث قوله ﷺ: «اللهم أني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيديك، ماضٍ في حكمك»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، أي: إن ربي على طريق عدل مستقيم؛ في خلقه وملكه وتدبيره، في أحكامه الكونية والشرعية والجزائية، وأقواله وأفعاله، وأوامره ونواهيه، وثوابه وعقابه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾ [الأحزاب: ٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه المتقدم: «عدل فيّ قضاؤك».

أي: فلا أخاف ظلمه؛ لأنه على صراط مستقيم، ولا أخاف من دونه؛ لأن نواصي الخلق كلها بيده، فاحذروه؛ فإن مصير العباد إليه، وطريقهم عليه، لا يفوتونه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر: ١٤].

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ۝٥٧﴾.

بعدما أعلن البراءة مما هم عليه من الشرك، وتحداهم وشركاءهم أن يكيدوه ولا ينظروه، وأعلن توكله على ربه وربهم الذي نواصي الخلق كلها بيده، يقضي فيهم بحكمه العدل؛ توعدهم وهددهم- إن تولوا- بإهلاكهم واستخلاف غيرهم.

قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾؛ «تولوا»: أصلها «تتولوا»، حذفت إحدى التاءين اختصارًا، أي: فإن تتولوا بأبدانكم وجوارحكم، وتعرضوا بقلوبكم عن الإيمان بالله تعالى وعبادته وحده لا شريك له.

﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡ﴾ جواب الشرط «إن»، أي: فقد أبلغتكم الذي أرسلت به إليكم، أي: أوصلت إليكم رسالة ربي التي بعثني بها إليكم، وأديت ما عليّ، وقامت عليكم بذلك الحجة، ووضحت لكم المحجة، ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝٥٤﴾ [النور: ٥٤، العنكبوت: ١٨].

﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾، أي: فيهلككم ربي ويستبدل قومًا غيركم، يخلفونكم في دياركم وأموالكم، يوحدون الله ويخلصون له العبادة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ۝٣٨﴾ [محمد: ٣٨].

﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾، أي: ولا تضرونه بتوليكم. ﴿شيئًا﴾ نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: ولا تضرونه أيَّ شيء من الضرر مهما قل؛ لأنه عز وجل لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي، وإنما ضرر توليكم ووباله عليكم؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥].

﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ تعليل لما قبله، أي: إن ربي على كل شيء رقيب مطلع شاهد، وحافظ حاكم متولٍ على كل شيء، فلا يمكن أن يضره شيء.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: وحين جاء عذابنا، أو أمرنا الكوني بالعذاب بإرسال الريح العقيم على عاد؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات ٤١: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة ٦: ٧].

﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾؛ الباء: للسببية، أي: خلصناهم بسبب رحمة منا لهم، وفضل عليهم، ولطف بهم من العذاب الدنيوي، بالريح العقيم.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، أي: وخلصناهم من عذاب شديد عظيم، وهو عذاب الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١].

واستعمل الماضي في معنى المستقبل؛ لتحقق الوعد بوقوعه.

ويجوز أن يراد هنا: النجاة من العذاب الدنيوي بالريح العقيم، وكرر للامتنان عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩)﴾.

قوله: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾؛ أُنث اسم الإشارة باعتبار القبيلة، و﴿عَادٌ﴾ بيان لاسم الإشارة، وأشار إليهم بإشارة البعيد؛ تحقيرًا لهم، أي: وتلك عاد الذين أوقع الله بهم ما أوقع.

﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾؛ الجحود: الإنكار الشديد، مثل إنكار الواقعات والمشاهدات، والمعنى: أنكروا آيات ربهم الكونية والشرعية إنكارًا شديدًا، وكفروا بها وكذبوها، وقالوا: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣].

وعُدي «جحدوا» بالباء مع أنه متعد بنفسه؛ لتضمنه معنى «كفروا».

﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾: خالفوا رسله، بمعصيتهم ومخالفتهم لهود عليه السلام؛ لأن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، أي: واتبعوا وقلدوا- في الشرك بالله ومعصيته- أمر كل جبار، متسلط على عباد الله، متكبر عن قبول الحق، وعلى الخلق.

﴿عَنِيدٍ﴾: شديد العناد للحق، راد له وللآيات، أي: أنهم اتبعوا وأطاعوا دعاة الكفر والضلال والظلم.

قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)﴾.

قوله: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾، أي: وأُلحقوا في هذه الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾؛ من الله عز وجل بالحكم عليهم بالطرد والإبعاد عن رحمته، ومن الخلق بالدعاء عليهم بالطرد والإبعاد عن رحمة الله.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ معطوف على قوله: ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾، أي: وأتبعوا يوم القيامة لعنة، فلعنوا في الدنيا والآخرة، حيث ينادى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد:

﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ «أَلَا»: حرف تنبيه في الموضعين

لتهويل الخبر، و«إنَّ»: حرف توكيد؛ لإفادة التعليل لقوله: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

وعدي الفعل «كفروا» بدون حرف الجر؛ لتضمنه معنى «عصوا».

وهاتان اللعنتان في الدنيا والآخرة، مقابل ما فاز به هود عليه السلام والذين آمنوا معه من النجاتين في الدنيا والآخرة.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ «بُعدًا» مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: أُبعدوا بعدًا.

﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ بدل من «عاد» وبيان له.

أي: أبعدوا عن رحمة الله تعالى وجنته، ولعنوا وأهلكوا؛ لبعدهم عن الصراط المستقيم. وفي هذا تعريض بالمشركين المكذبين للنبي ﷺ؛ ليعتبروا بما أصاب عادًا بسبب تكذيبهم لهود عليه السلام.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة هود عليه السلام إلى قومه «عاد»؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ الآية.

٢- دعوة هود عليه السلام قومه إلى عبادة الله تعالى وحده، وبيان أنه ما لهم من إله غيره، وتوبيخهم على الافتراء بادعاء الشركاء له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

٣- وجوب إخلاص العبادة لله وحده، فلا معبود بحق سواه، وأن ما يدعى دونه من الشركاء كذب وافتراء يجب الحذر منه.

٤- أن هودًا عليه السلام- كغيره من الرسل عليهم السلام- لم يسأل قومه أجرًا على تبليغ رسالته فيستثقلوا ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

٥- بيان هود عليه السلام أن أجره في تبليغ الرسالة إنما هو على الذي فطره، لا على أحد سواه؛ لقوله: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾، وبنحو من هذا قال غيره من الرسل.

٦- أن الذي فطر الخلائق وأوجدهم هو الله عز وجل وحده؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا

عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾.

٧- تكفل الله عز وجل بثواب الرسل عليهم السلام، بل بثواب المؤمنين عمومًا، مع أنه عز وجل لا يجب عليه شيء لخلقه، لكنه عز وجل أوجبه على نفسه تفضلًا منه وكرمًا وإحسانًا؛ لقوله: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾.

٨- توبيخ هود لقومه، وإنكاره عليهم عدم الاهتداء بعقولهم إلى وحدانية الله تعالى، ووجوب إخلاص العبادة له وحده، وعلى افترائهم الشركاء له؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٩- وجوب الانتفاع بنعمة العقل، والاهتداء به إلى الحق والخير، والبعد عن الباطل والشر.

١٠- وجوب الاستغفار والتوبة، وفضيلتهما، وأنهما من أسباب نزول الأمطار الغزيرة، وكثرة الخيرات، وزيادة القوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَرَبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾.

١٢- الإشارة لما كانت عليه عاد من القوة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾.

١٣- وجوب الإقبال على الله تعالى بالاستغفار والتوبة، والحذر من التولي والإجرام، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾.

١٤- شدة عناد قوم هود وإنكارهم ما جاءهم به من الآيات البينات؛ لقولهم: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾.

١٥- تشبثهم بما هم عليه من الشرك وعبادة الأصنام، واحتقارهم لهود، ولما دعاهم إليه من عبادة الله تعالى وحده وترك الشرك؛ لقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾.

١٦- تأكيدهم البقاء على ما هم عليه من الكفر واختيارهم له، ونفيهم أن يؤمنوا

هود؛ لقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

١٧- سخريتهم بهود عليه السلام، وأنه أصابته بعض آلهتهم- كما يزعمون- بجنون، فأصبح يهذي بما لا يعقل؛ لقولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾.

١٨- إشهاد هود عليه السلام الله عز وجل على نفسه، وإشهاده قومه على براءته من شركهم وشركائهم من دون الله؛ لقوله: ﴿وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

١٩- تحديه لهم ولشركائهم أن يكيدوه جميعًا ثم لا ينظرونه، في تحد صارخ أنهم لا يستطيعون ذلك؛ لقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾.

٢٠- إعلانه لهم توكله على الله ربه وربهم، وتمام تفويضه إليه، واعتماده عليه، وثقته بحفظه له؛ لقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾.

٢١- إثبات ربوبية الله الخاصة لهود عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّي﴾.

٢٢- وجوب البراءة من الشرك، والتوكل على الله عز وجل، والاعتماد عليه وحده.

٢٣- عموم ملك الله عز وجل، وتدبيره لكل ما يدب على وجه الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾.

٢٤- كمال عدل الله عز وجل في خلقه وملكه، وأحكامه الكونية والشرعية والجزائية؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

٢٥- تحذير هود لقومه من التولي والإعراض، وتهديدهم بإهلاك الله لهم، واستخلافهم بغيرهم ممن يوحدون الله ولا يكونون أمثالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

٢٦- أن مهمة هود عليه السلام بالنسبة لقومه هي إبلاغهم رسالة ربه وإقامة الحجة، وقد فعل، كغيره من الرسل؛ لقوله: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾.

٢٧- أن من تولى وأعرض لا يضر الله شيئًا، وإنما يضر نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾.

٢٨- أن الله عز وجل حفيظ رقيب، حاكم متول على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ

﴿رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

٢٩- امتنان الله تعالى على هود عليه السلام بإنجائه والذين آمنوا معه- برحمة منه عز وجل- من الريح العقيم التي عذب بها قومه في الدنيا، وإنجائهم في الآخرة من عذاب النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

٣٠- أن النجاة من عذاب الدنيا والآخرة إنما هي برحمة الله تعالى، لا بعمل العبد، حتى ولو كان سيد الرسل ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾.

وكما قال ﷺ: «لن يدخل أحدَكم عملهُ الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(١).

فالإيمان والعمل الصالح إنما هو سبب فقط للنجاة ودخول الجنة، وحصول ذلك إنما هو برحمة أرحم الراحمين.

٣١- أن عذاب الدنيا مهما عظم فهو دون عذاب الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ يعني: عذاب الآخرة.

٣٢- ذم عاد وتحقيرهم؛ لجحودهم آيات ربهم، وعصيانهم لرسله، واتباعهم أمر الجبابرة المعاندين؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

٣٣- أن هودًا عليه السلام قد جاء قومه بآيات بينات؛ لقوله تعالى: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾، وفي هذا إبطال لقولهم قبل هذا: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [الآية: ٥٣].

٣٤- أن من عصى رسولًا من الرسل وكذبه فقد عصى وكذب جميع الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾، فبتكذيبهم هودًا صاروا مكذبين بجميع الرسل.

٣٥- ينبغي الحذر من اتباع وطاعة المتكبرين المتجبرين، المعاندين للحق، ودعاة الباطل والضلال.

---
(١) سبق تخريجه.

٣٦- الحكم على عاد باللعنة والإبعاد عن الرحمة والخير في الدنيا، ويوم القيامة بسبب كفرهم بربهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾.

٣٧- إثبات القيامة وما فيها من الحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

٣٨- أن التكذيب بآيات الله، ومعصية رسله، واتباع أرباب التكبر والجبروت والعناد؛ سبب للبعد عن الرحمة والخير في الدنيا والآخرة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾.

بعدما ذكر الله تعالى قصة عاد ونبيهم هود عليه السلام؛ أتبع ذلك بذكر قصة ثمود ونبيهم صالح عليه السلام؛ لأن ثمود كانوا بعد عاد؛ ولهذا كان يقال لثمود: «عاد» «الثانية».

قوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، أي: ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا، أي: أخاهم في النسب.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، أي: اعبدوه وأفردوه بالعبادة، وأخلصوها له؛ ما لكم من معبود سواه.

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ في موضع التعليل للأمر قبلها بعبادة الله تعالى، ونفي إلهية غيره، كما أنها علة أيضًا بطريق التفريع للأمر بعدها بالاستغفار والتوبة.

أي: هو وحده الذي ابتدأ إنشاءكم، أي: ابتدأ خلقكم وإيجادكم من الأرض، بخلق أبيكم آدم من التراب والطين.

﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، أي: جعلكم عمارًا لها، تعمرونها بالبناء والغرس والزرع؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ

﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾ [الشعراء: ١٤٦- ١٤٩].

﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾: اطلبوا منه مغفرة ما سلف من ذنوبكم.

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، أي: ثم ارجعوا وأنيبوا إليه بالإيمان والعمل الصالح، والبعد عن الشرك والذنوب فيما تستقبلونه من حياتكم.

﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ﴾؛ الجملة تعليل لما قبلها، و«إنَّ»: للتوكيد. وقرب الله عز وجل نوعان: عام وخاص، فالقرب العام: قربه عز وجل من جميع الخلق بعلمه وإحاطته وقدرته؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ [ق: ١٦].

والقرب الخاص: قربه من أوليائه وعباده المؤمنين وسائليه باستجابته لهم وتوفيقهم وحفظهم وعونهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱسۡجُدۡۤ وَٱقۡتَرِب۩ ١٩﴾ [العلق: ١٩]، وقال ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»(١).

وفي حديث معاوية بن حيدة القشيري، عن أبيه رضي الله عنه: «أن أعرابيًا قال: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]»(٢).

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «**ومن تقرب إلي شبرًا تقربت منه باعًا**»(٣).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي ﷺ: «**أيها الناس أربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٨٢، وأبو داوود في الصلاة ٨٧٥، والنسائي في التطبيق ١١٣٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١/ ٣١٤، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ١/ ٣١٣.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٠٥، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٧٥- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي ٤٢٠٥، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٧٠٤.

وهذا القرب الخاص هو المراد بالآية، فهو قريب ممن استغفره وتاب إليه، وممن دعاه دعاء مسألة أو دعاء عبادة.

﴿مُّجِيبٌ﴾، أي: سميع، مجيب دعاء من دعاه، يعطيه سؤله، ويغفر ذنبه، ويقبل توبته وعبادته، ويثيبه أجلَّ الثواب؛ كما قال تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢].

فهو عز وجل قريب من أوليائه وعباده الصالحين، يسمع دعاءهم، ويجيبهم، ويعطيهم سؤلهم، ويثيبهم، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٦].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾؛ افتتاحهم الكلام بالنداء لقصد التوبيخ والملام والتنبيه. و«قد» لتحقيق وتأكيد الخبر.

أي: كنا نؤمل ونتوسم فيك العقل والسؤدد، والنفع والخير، وهذه شهادة منهم على أنه عليه السلام من خيارهم، وذو مكانة رفيعة بينهم.

﴿قَبْلَ هَٰذَآ﴾، أي: قبل دعوتك لنا بعبادة الله وحده، وترك عبادة آلهتنا، أي: والآن خيبَّت رجاءنا فيك وأخلفت ظننا.

﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؛ الجملة بيان لقولهم: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾، وفي هذا إشارة إلى استخفافهم به بعد هذا؛ كما قال قوم شعيب عليه السلام: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧].

والاستفهام في قولهم: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ﴾ للإنكار والتوبيخ، أي: كيف تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا.

و«أنْ» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، و«ما»

موصولة، أي: أتنهانا عن عبادة الذي يعبده آباؤنا من الآلهة. هذا شيء لا ينبغي أن يكون منك، ولا يليق بك، ولا يمكن أن نقبله منك. وهذا من سفه عقولهم، وانتكاس فطرهم، وشدة جهلهم، وإلا فكيف يلام ويوبخ النبي الداعي إلى الحق وينكر عليه، وقد قيل:

ما يبلغ الأعداء من جاهل   ما يبلغ الجاهل من نفسه(١)

﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ الواو: حالية، و«إن»: حرف توكيد، واللام: للتوكيد، أي: والحال أننا لفي شك كثير من الذي تدعونا إليه من عبادة الله وحده، وترك عبادة ما يعبده آباؤنا.

﴿مُرِيبٍ﴾، أي: موقع في الريبة، موجب للتهمة، وقلق النفس، وعدم الطمأنينة

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ كقوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨]، وقد سبق الكلام على هذه الآية.

وفي مقالة نوح عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ إشارة- كما سبق بيانه- إلى عظمة هذه الرحمة، والاعتناء بها وبمن أوتيها.

وفي قول هود هنا: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ بتقديم «منه»، دلالة على أنه إيتاء خاص دال على عنايته عز وجل بنبيه هود عليه السلام.

والمراد: أخبروني إن كنت على بينة وبصيرة وحجة ظاهرة من ربي، وأعطاني منه رحمة بالنبوة والرسالة، أفأترك دعوتكم إلى ما أرسلني ربي به إليكم، أو أتبعكم على ما أنتم عليه وما تدعونني إليه؟

﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر دل عليه ما قبله، و«من» اسم استفهام، أي: فمن الذي ينصرني من الله، ويدفع عني عذابه؟

---

(١) البيت ينسب لصالح عبد القدوس. انظر: «العقد الفريد» (٢/ ٢٧٢)، وينسب لعبد الملك الحلاج. انظر: «الإيجاز والإعجاز» (ص١٦١).

﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ مجاراةً لكم في أهوائكم، فتركت تبليغكم رسالة ربي، ودعْوَتكم إلى الحق وعبادة الله تعالى، ونهيكم عن الشرك.

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِى﴾، أي: فما تزيدونني لو تركت تبليغكم رسالة ربي؛ نزولًا عند رغبتكم، أو اتبعتكم فيما تدعونني إليه؛ مجاراةً لكم؟

﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾، أي: غير خسار وتتبيب وتضليل وإبعاد عن الحق.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾؛ هذا جواب عن قولهم: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم: ٩].

أي: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾، أي: علامة ومعجزة دالة على صدق نبوتي، تزيل الشك عنكم؛ لأن الله خلقها بطلبهم، وإضافتها إلى الله إضافة تشريف؛ لأن الله تعالى خلقها بقدرته الخارقة للعادة.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾، أي: فاتركوها تأكل في أرض الله الواسعة، ليس عليكم من مؤونتها وعلفها شيء.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾، أي: ولا تتعرضوا لها أو تصيبوها.

﴿بِسُوٓءٍ﴾، أي: بأذى؛ من قتل، أو منع لها من الرعي أو الشرب، ونحو ذلك، وكان الاعتداء عليها متوقعًا منهم لشدة عنادهم؛ لهذا حذرهم منه.

﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾، أي: فيصيبكم عذاب قريب عاجل، فيهلككم من فرط غضب الله تعالى عليكم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، أي: فقتلوها.

﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح عليه السلام متوعدًا لهم: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ﴾، أي: تمتعوا

وابقوا في هذه الحياة في داركم، ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ فقط، ثم يأخذكم العذاب.

﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٍ﴾؛ الإشارة إلى ما توعدهم به من إمهالهم ثلاثة أيام فقط، يتمتعون فيها في دارهم، ثم نزول العذاب فيهم. والمعنى: ذلك وعد صادق، وأمر واقع كائن لا محالة.

والوعد المكذوب: الذي يعد ويخبر به الكاذب

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا ﴾؛ الفاء: عاطفة، أي: فحين جاء عذابنا وأمرنا الكوني ثمود بالصيحة.

﴿نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، أي: خلصناهم من العذاب.

﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾؛ الباء: للسببية، أي: بسبب رحمة عظيمة منا رحمناهم بها.

﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍ﴾؛ قرأ نافع، وأبو جعفر: «يومَئذ» بفتح الميم، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿يَوۡمِئِذٍ﴾.

والواو عاطفة، أي: ونجيناهم من خزي يومئذ، والتنوين في ﴿يَوۡمِئِذٍ﴾ عوض عن المضاف إليه، أي: يوم إذ جاء أمرنا.

أي: وخلصناهم من هوان وذل ذلك اليوم وفضيحته، الذي أُهلك به المكذبون بالصيحة، فامتن على صالح والذين آمنوا بإنجائهم من العذاب الحسي ومن العذاب المعنوي، وهو خزي ذلك اليوم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾؛ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح خطابه.

﴿هُوَ ٱلۡقَوِيُّ﴾ ذو القوة التامة، الشديد البطش؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

و﴿ٱلْقَوِيُّ﴾ اسم من أسماء الله عز وجل.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، أي: ذو العزة التامة: عزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع، وعزة القوة أيضًا، لكن حيث قرن «العزيز» بـ«القوي» فالأولى حمل «العزيز» هنا على عزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

فهو عز وجل ذو القوة وذو العزة، لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل هو القاهر فوق عباده، الغالب لكل شيء؛ ولهذا أكد الجملة بـ﴿إِنَّ﴾ وضمير الفصل ﴿هُوَ﴾.

قوله: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾، أي: وأصاب الذين ظلموا- بتكذيبهم صالحًا عليه السلام، وشركهم بالله- الصيحة الشديدة من السماء، والرجفة والصاعقة، فرجفوا لها وصعقوا، وهلكوا عن آخرهم. قيل: صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة قطعت قلوبهم في أجوافهم.

وعبر عن «ثمود» بـ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لبيان علة أخذهم بالصيحة، وهي ظلمهم بتكذيبهم لصالح وإشراكهم بالله تعالى، وفي هذا تعريض بمشركي قريش، وتحذير لهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك الظالمين قبلهم.

﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ﴾، أي: فصاروا في ديارهم، ﴿جَٰثِمِينَ﴾، أي: جثثًا هامدين لا يتحركون.

قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾، أي: كأنهم لما أخذهم العذاب لم يعيشوا في تلك الديار، ولم يقيموا في مساكنها ومرابعها، ولم يتمتعوا ويتنعموا فيها يومًا من الدهر.

كما قال أبو البقاء الرندي رحمه الله(١):

أين الملوك ذوو التيجان من يمنٍ   وأين منهم أكاليل وتيجان

(١) من قصيدته المشهورة في رثاء الأندلس، والتي مطلعها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان   فلا يغر بطيب العيش إنسان

انظر: «مجاني الأدب في حدائق العرب» (٥/ ٢٤٥)، «نفح الطيب» (٤/ ٤٨٤).

وأيـــن مـــا شـــاده شـــدّاد في إرمٍ وأيـن مـا ساسـه في الفـرس ساسـان
وأيـن مـا حـازه قـارون مـن ذهـب وأيـــن عـــاد وشـــداد وقحطـــان
أتـى عـلى الكـل أمـر لا مـرد لـه حتى قضـوا فكـأن الكـل مـا كـانوا

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ﴾؛ قرأ حمزة، وحفص عن عاصم، ويعقوب: ﴿ثَمُودَاْ﴾ بغير تنوين، على اعتباره اسمًا للقبيلة. وقرأ الباقون بالتنوين، على اعتباره اسمًا لجد القبيلة: «ثمودًا».

أي: ألا إن ثمود كفروا بربهم وكذبوا آياته، و«ألَا»: للتنبيه، وعُدي الفعل «كفروا» بدون حرف الجر؛ لأنه ضمن معنى «جحدوا».

﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾ قرأ الكسائي بكسر الدال مع التنوين: «لثمودٍ»، وقرأ الباقون بفتحها من غير تنوين: ﴿لِّثَمُودَ﴾.

أي: ألا بعدًا لثمود عن رحمة الله، وجنته، وعن الخير، ولعنةً وهلاكًا لهم؛ لبعدهم عن الحق.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة صالح عليه السلام إلى قومه ثمود؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ [الأعراف: ٧٣].

٢- نعمة الله تعالى على ثمود وعلى جميع الأمم في جعل رسلهم منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ [هود: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ [هود: ٥٠].

وذلك ليتمكنوا من الأخذ عنه والفهم منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤].

٣- أمر صالح عليه السلام قومه بعبادة الله تعالى وحده، وبيان أن ما لهم من إله غيره؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾ [هود: ٥٠].

٤- تذكير صالح عليه السلام لقومه بنعمة الله عليهم بإنشائهم من الأرض

واستعمارهم فيها؛ ليشكروه بعبادته وحده لا شريك له، ويستغفروه ويتوبوا إليه؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾.

٥- أن نشأة الخلق من الأرض؛ لأن الله خلق أباهم آدم من ترابها وطينها.

٦- أن من حكمة إيجاد الخليقة عمارة الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

٧- الاستدلال بتوحيد الربوبية على وجوب توحيد الألوهية.

٨- وجوب الاستغفار والتوبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأنبيائه ورسله؛ لقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى﴾.

١٠- قرب الله عز وجل- قربًا خاصًا- من أوليائه وعباده المؤمنين وسائليه؛ لقوله تعالى: ﴿قَرِيبٌ﴾ كما أنه عز وجل قريب- قربًا عامًا- من الخلق كلهم، بعلمه وإحاطته وقدرته.

١١- سماع الله عز وجل دعاء الداعين، واستغفار المستغفرين، وتوبة التائبين وسؤال السائلين من عباده المؤمنين، وإجابتهم وإثابتهم؛ لقوله تعالى: ﴿مُّجِيبٌ﴾.

كما أنه عز وجل يجيب دعوة المضطر والمظلوم، حتى ولو كان من غير المؤمنين، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، وهذا عام يشمل المؤمنين وغيرهم، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وقال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه حين أرسله إلى اليمن: «**واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»(١). وهذا أيضًا عام.

١٢- جهل ثمود المركب؛ حيث لاموا نبيهم صالحًا عليه السلام على دعوته إياهم إلى توحيد الله ونهيهم عن الشرك، واستخفافهم به وإنكارهم عليه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٩٦، ومسلم في الإيمان ١٩، وأبو داوود في الزكاة ١٥٨٤، والترمذي في الزكاة ٦٢٥، وابن ماجه في الزكاة ١٧٨٣؛ من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

١٣- أن الجهل والكفر مما يعمي عن الحق، فتنقلب عند المرء الحقائق، فيرى الحق باطلًا، والباطل حقًّا.

١٤- شدة عناد ثمود وتشكيكهم فيما يدعوهم إليه صالح عليه السلام وارتيابهم في ذلك؛ لقولهم: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾.

١٥- تنزل صالح عليه السلام مع قومه في الخطاب في رده عليهم في لومهم له وإنكارهم عليه دعوته لهم إلى عبادة الله وترك الشرك وتشكيكهم في دعوته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾، أي: إن عصيته في ترك دعوتكم، أو اتباعكم فيما تدعونني إليه، وحاشاه عليه السلام من ذلك.

١٦- أن صالحًا عليه السلام على بينة ويقين وبرهان ووحي من ربه فيما دعا إليه قومه.

١٧- أن إيتاء صالح عليه السلام الرسالة رحمة من الله تعالى له ولقومه، خصوصًا من آمن منهم؛ لقوله عليه السلام اعترافًا بهذه النعمة العظيمة: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾.

١٨- أنه لا أحد ينصر من الله، ويدفع عذابه عمن عصاه، حتى ولو كان من رسله، وحاشاهم من معصيته عز وجل؛ لقول صالح عليه السلام: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾.

١٩- أن طاعة دعاة الباطل والضلال واتباعهم لا تزيد المرء إلا الخسران والخذلان والتباب، مما يوجب الحذر منهم؛ لقوله: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾.

٢٠- تأييد الله عز وجل لصالح عليه السلام بالآية العظيمة، وهي الناقة التي أخرجها الله آية مبصرة لثمود؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

٢١- تشريف هذه الناقة بإضافتها إلى الله تعالى؛ لأنه سبحانه هو الذي خلقها وجعلها لهم آية ومعجزة بقدرته الخارقة للعادة.

٢٢- أمر صالح عليه السلام لقومه بترك الناقة تأكل وترعى في أرض الله، وتحذيرهم من أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب قريب؛ لقوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ

أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: ٧٣].

٢٣- أن الأرض كلها لله تعالى؛ لقوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾.

٢٤- جرأة ثمود على عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية بطلبهم، ومخالفتهم أمر الله وارتكابهم نهيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾.

٢٥- توعدهم بالعذاب، وإمهالهم ثلاثة أيام يتمتعون فيها في دارهم، ثم يحل بهم وعد الله لهم بالعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾﴾

٢٦- أن وعد الله ووعيده بالعذاب صدق لا يتخلف؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾.

٢٧- امتنان الله عز وجل على صالح عليه السلام والذين آمنوا معه برحمة منه عز وجل بإنجائهم من العذاب، ومن خزي ذلك اليوم، أي: من العذاب الحسي وهو الصيحة، ومن العذاب المعنوي وهو الخزي؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۗ﴾.

٢٨- أن النجاة من العذاب إنها هي برحمة الله تعالى لا بالعمل، وفي الحديث قوله ﷺ: «**لن يدخل أحدكم عمله الجنة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»(١).

٢٩- أن الإيمان والعمل الصالح سبب للنجاة من العذاب في الدنيا والآخرة.

٣٠- أن في العذاب خزي معنوي للمعذبين، وإذلال لهم وإهانة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍ﴾.

٣١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالنبي ﷺ وبالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾.

٣٢- إثبات اسم الله تعالى «القوي»، وما يدل عليه من إثبات صفة القوة التامة لله

---

(١) سبق تخريجه.

عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْقَوِىُّ﴾.

٣٣- إثبات اسم الله تعالى «العزيز»، وصفة العزة التامة لله عز وجل بأنواعها.

٣٤- في اقتران صفة القوة والعزة في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

٣٥- أخذ «ثمود» وإهلاكهم بالصيحة؛ بسبب ظلمهم وكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

٣٦- تحذير الظالمين المشركين المكذبين للرسول ﷺ مما حل بالظالمين قبلهم، كثمود وغيرهم.

٣٧- شدة أخذ الله وعقابه للظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

٣٨- عظم شؤم الكفر والذنوب والمعاصي؛ فهي تهلك الحرث والنسل، وتذر الديار بلاقع؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ [هود: ٩٥]، كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النمل: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢٥].

٣٩- تأكيد كفر ثمود بربهم، وجحودهم لآياته، وتكذيبهم رسوله؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾.

٤٠- الحكم على ثمود بالبعد عن رحمة الله وجنته، وعن الخير؛ بسبب كفرهم بربهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩)﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾، أي: ولقد جاءت رسلنا من الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط عليه السلام، قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]

﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ نبي الله وخليله عليه السلام ثاني أولي العزم بعد نبينا محمد ﷺ.

حيث مروا عليه في طريقهم ونزلوا عنده ضيوفًا؛ كما قال تعالى في سورة الذاريات ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥)﴾ [الذاريات: ٢٤- ٢٥]، وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢)﴾ [الحجر: ٥١- ٥٢].

﴿بِالْبُشْرَى﴾؛ الباء: للمصاحبة، و«البشرى»: اسم للتبشير والبشارة، أي: يبشرونه

بولده إسحاق؛ كما قال تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الصافات: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات: ٢٨]، والمراد به إسحاق عليه السلام.

وهذه البشارة هي المذكورة بعد هذا في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾؛ لأن بشارة زوجه بشارة له أيضا، وهي المذكورة في قوله: ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ [هود: ٧٤].

﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾، أي: سلمنا عليك سلامًا.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾؛ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف بكسر السين وإسكان اللام من غير ألف: «سِلْمٌ»، وقرأ الباقون بفتح السين واللام التي بعدها: ﴿سَلَٰمٌ﴾، أي: سلام عليكم، أو عليكم سلام.

ورده عليه السلام عليهم بقوله: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أبلغ وأحسن مما حيوه به؛ لأن الجملة الاسمية تدل على الثبوت والدوام بخلاف الجملة الفعلية فهي تدل على التجدد والحدوث.

﴿فَمَا لَبِثَ﴾؛ الفاء: للتعقيب، أي: فما أبطأ وما تأخر ﴿أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ «أنْ» والفعل «جاء» في تأويل مصدر في محل رفع فاعل لـ «لبث»، أي: فما لبث مجيئه بعجل حنيذ، ويجوز أن يكون في محل جر بحرف جر محذوف تقديره: بأن جاء، أو في أن جاء

أي: ذهب سريعًا وأتاهم بالضيافة، وهو عجل حنيذ؛ كما قال تعالى في سورة الذاريات: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات: ٢٦- ٢٧].

و«العجل»: ولد البقر الصغير ﴿حَنِيذٍ﴾ محنوذ، أي: مشوي على الرضف، وهي الحجارة المحماة.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ ﴾، أي: لا تصل إلى العجل الذي قدمه ضيافة

لهم، أي: لا يمدون أيديهم إليه؛ لأن الملائكة لا يأكلون، وليس لديهم الحاجة إلى الطعام ﴿نَكِرَهُمْ﴾، أي: أنكر ذلك منهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، أي: أحس في نفسه منهم خوفًا، وكان من عادة العرب إذا نزل بهم ضيف فلم يطعم من طعامهم وزادهم تخوفوا أنه لم يأت لخير، وأنه يُضمر شرًّا؛ ولهذا قال في سورة الحجر: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢)﴾ [الحجر: ٥٢]، وقال في سورة الذاريات: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥)﴾ [الذاريات: ٢٥].

﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾، أي: لما رأوا وعلموا خوفه ووجله منهم طمأنوه بقولهم: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾؛ كما قال تعالى في سورة الذاريات: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ (٢٨)﴾ [الذاريات: ٢٨]، وقال في سورة الحجر: ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ (٥٣)﴾ [الحجر: ٥٣].

والمعنى: إنا ملائكة أرسلنا الله لإهلاك قوم لوط؛ كما قال في سورة الحجر: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨)﴾ [الحجر: ٥٧-٥٨].

وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)﴾ [الذاريات: ٣١-٣٤].

أي: إن هذا هو شأننا الذي أرسلنا من أجله، فلا تخف منا.

وفي بيانهم المقصود الذي أرسلوا من أجله- وهو إهلاك قوم لوط- زيادة في طمأنته؛ لأنهم لو اكتفوا بقولهم: ﴿لَا تَخَفْ﴾ لم يحصل تمام الاطمئنان، ولذهب الذهن في التفكير عن مقصدهم لماذا جاؤوا، وماذا يريدون، وهذا مما يحسن من الضيف أن يبينه لمضيفه؛ لزيادة الاطمئنان والأنس ما لم يترتب عليه ضرر.

قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ (٧١)﴾.

قوله: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾، أي: وامرأة إبراهيم عليه السلام سارة، ﴿قَآئِمَةٌ﴾ تخدمهم، ﴿فَضَحِكَتْ﴾ من البشارة بالولد، أو بزوال الخيفة عن إبراهيم، أو بهلاك قوم لوط، أو غير ذلك. وقيل: ضحكت تعجبًا واستبعادًا لما بشرت بإسحاق، وهذا مخالف لهذا

السياق، فإن البشارة مرتبة صراحة على ضحكها؛ لقوله: ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا﴾.

﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾؛ قرأ ابن عامر، وحمزة، وحفص عن عاصم: ﴿يَعْقُوبَ﴾ بفتح الباء مجرورًا بالفتحة؛ عطفًا على ﴿بِإِسْحَاقَ﴾، وقرأ الباقون: «يعقوبُ» بالرفع على الابتداء، وجملة ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ﴾ خبره مقدم.

أي: ومن بعد إسحاق يعقوب، أي: بشرناها بمولود وهو إسحاق الذي يولد له يعقوب؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣].

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ﴾، أي: قالت امرأة إبراهيم سارة: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ﴾، أي: يا عجبي.

﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾؛ الاستفهام للتعجب، أي: كيف ألد وأنا عجوز، أي: امرأة مسنة، لا يحمل ولا يلد مثلها عادة، وكانت أيضًا عقيمًا؛ كما قال تعالى في سورة الذاريات: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الذاريات: ٢٩].

﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾، أي: وهذا زوجي.

﴿شَيْخًا﴾ حال من اسم الإشارة «هذا».

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ جملة مؤكدة لصيغة التعجب، أي: إن كوني ألد وأنا عجوز وزوجي شيخ كبير شيء عجيب وأمر غريب خارق للعادة.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُوا﴾، أي: قالت رسل الله من الملائكة: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.

كما قال تعالى في سورة الذاريات: ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الذاريات: ٣٠].

والاستفهام في قوله: ﴿أَتَعْجَبِينَ﴾ للإنكار والنفي، أي: لا تعجبي من أمر الله الكوني

في قدرته على خلق الولد منكما وأنت عجوز وزوجك شيخ كبير، وإن كان هذا أمرًا خارقًا للعادة؛ لأن أمره تعالى كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ تعليل لإنكار تعجبها، أي: رحمة الله وبركاته عليكم يا أهل البيت المبارك بيت النبوة، بيت خليل الرحمن إبراهيم وآله عليهم الصلاة والسلام.

أي: لا تعجبي من أمر الله في منحكما الولد وأنتما بهذا السن مما هو خارق للعادة فذلك من رحمة الله تعالى الخاصة بكم، وبركاته عليكم يا أهل بيت النبوة.

وفي هذا تنويه بفضيلة إبراهيم وأهل بيته عليهم السلام، وثناء عليهم، وأنهم أهل لرحمة الله تعالى وبركاته.

ولهذا أمرنا النبي ﷺ أن نقول في التشهد: «اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»[1].

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، أي: لأنه عز وجل ﴿حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾، فهو ﴿حَمِيدٌ﴾، أي: حميد الصفات؛ لأن صفاته كلها صفات كمال تستوجب الحمد، فهو محمود في جميع أقواله وأفعاله؛ لما فيها من الحكمة والإحسان والجود والبر والعدل والقسط؛ ولهذا حمد عز وجل نفسه وأثنى عليها في مواضع كثيرة من كتابه، وأمر عباده أن يحمدوه؛ لأنه أهل الحمد سبحانه؛ كما أنه تعالى شكور يعطي عباده العطاء الجزيل على العمل القليل، ويضاعف لهم الأجور.

﴿مَّجِيدٌ﴾، أي: ذو المجد، أي: ذو العظمة في ذاته وأسمائه وصفاته، له الأسماء الحسنى والصفات العلى، والمثل الأعلى؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٧٠، ومسلم في الصلاة ٤٠٦، وأبو داوود في الصلاة ٩٧٦، والنسائي في السهو ١٢٨٧، والترمذي في الصلاة ٤٨٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٠٤- من حديث كعب من عجرة رضي الله عنه.

[الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه: ٨] وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾، أي: فحين ذهب عن إبراهيم الروع، أي: الخيفة التي أوجسها منهم لما لم يأكلوا، بطمأنتهم له بقولهم: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾؛ «ال» في البشرى للعهد الذكري، أي: البشرى المذكورة في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [هود: ٦٩].

أي: وجاءته البشرى من الله بواسطة الملائكة بالولد، أي: بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وأخبروه بأنهم أرسلوا لإهلاك قوم لوط.

﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ جواب «لما»، أي: حين ذهب الروع عنه بطمأنة الملائكة له، وبشروه بعد ذلك بالولد التفت حينئذ ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾، أي: يجادلنا في إهلاك قوم لوط ويحاورنا، كيف يهلكون وفيهم لوط وأهله المؤمنون؛ كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [العنكبوت: ٣١- ٣٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: لذو حلم واسع وصدر رحب، والحلم صفة عظيمة تقتضي الصفح واحتمال الأذى، وعدم العجلة في الانتقام ممن أساء.

﴿أَوَّٰهٌ﴾: كثير التضرع والدعاء والالتجاء إلى ربه.

﴿مُّنِيبٌ﴾: رجاع إلى ربه، مطيع له، مؤثر محبته ورضاه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾، أي: أعرض عن هذا الجدال في هلاك قوم لوط.

﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ تعليل للأمر قبله، والضمير في «إنه» ضمير الشأن، أي: لأن الشأن ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾؛ «قد»: حرف تحقيق، أي: إنه قد حضر أمر ربك، أي: حكمه وقضاؤه الكوني الذي قدره في الأزل وكتبه في اللوح المحفوظ بعذابهم وهلاكهم.

﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ﴾، أي: واقع بهم عذاب لا محالة.

﴿غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾، أي: غير ممنوع ولا مدفوع عنهم؛ لأن الله قد قضى بعذابهم وهلاكهم، ولا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، فلا فائدة في الجدال عنهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا﴾، أي: وحين جاءت رسلنا من الملائكة- بعد صدورهم من عند إبراهيم- ﴿لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾، أي: ساءه مجيئهم، أي: شق عليه.

﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾، أي: وضاق صدره واغتم لمجيئهم؛ خوفًا عليهم من قومه، ولم يدر كيف يتصرف، وما المخرج.

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾، أي: شديدٌ حَرِجٌ عظيم بلاؤه؛ لأنه علم أن قومه لا يتركونهم؛ لأنهم في صور شباب حسان جرد مرد في غاية الكمال والجمال؛ ابتلاءً من الله عز وجل، وله الحكمة البالغة، وقد وقع ما خطر بباله عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾.

قوله: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾، أي: يسرعون إليه، ويبادرون من شدة فرحهم لما علموا بأضيافه، يريدونهم بالفاحشة؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧﴾ [الحجر: ٦٧].

﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، أي: ومن قبل مجيء الرسل من الملائكة إلى لوط كان قومه ﴿يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، أي: كان دأبهم عمل السيئات والفواحش بإتيان

الذكران من العالمين؛ كما قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾؛ كقوله في سورة الحجر: ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الحجر: ٧١].

يريد بذلك زوجاتهم ونساءهم، كما في الآية السابقة: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ﴾ [الشعراء: ١٦٦].

وقال ﴿بَنَاتِى﴾؛ لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد. وقيل: أراد بذلك بناته حقيقة، يزوجهم بهن.

﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ﴾، أي: هن الحلال لكم، واسم التفضيل هنا ليس على بابه؛ لأنه ليس في إتيان الذكران شيء من الطهر، بل هو نجس بالكلية.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بترك فعل هذه الفاحشة الشنيعة واجتنابها، وعدم طلبها.

﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾؛ قرأ أبو عمرو بإثبات ياء المتكلم: «ولا تخزوني»، وقرأ الباقون بحذفها تخفيفًا: ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾.

والخزي: الفضيحة والإهانة والإذلال، أي: ولا تفضحوني في ضيوفي؛ كما قال تعالى في سورة الحجر: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾ [الحجر: ٦٨-٦٩]، وكان ضيوفه ثلاثة من الملائكة منهم جبريل عليه السلام.

﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾؛ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أليس من بينكم رجل رشيد، أي: غير سفيه، يتقي الله وينهاكم عن هذا الفعل، ويزجركم ويأخذ على أيديكم فتتقوا الله، ولا تفضحوني في ضيوفي.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُواْ﴾، أي: قالوا للوط عليه السلام.

﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾، أي: إنه ليس لنا في بناتك من حاجة ولا رغبة، أو أنهن لسن أزوجًا لنا.

﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾؛ اللام: للتوكيد، أي: وإنك لتعلم مرادنا، أو الذي نريده، أي: لتعلم أننا لا نريد إلا الذكور، أي: إنه لا رغبة لنا في النساء، وإنما رغبتنا في الرجال، فلا حاجة في تكرار القول علينا في ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أدفعكم بها، وأمنع منكم أضيافي، وأُنكل بكم، وفي هذا توعد لهم.

﴿أَوْ ءَاوِيَ﴾، أي: أو أستند وأعتمد ﴿إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، أي: إلى ركن قوي منيع يناصرني عليكم، من أتباعٍ مؤمنين، أو عشيرة، أو قبيلة؛ لأنه كان غريبًا بينهم.

ومراده بهذا الأسبابُ المادية المحسوسة، وإلا فإنه يأوي إلى أقوى الأركان، وهو الله عز وجل شديد المحال، القوي المتين، الذي لا يقوم لقوته أحد.

ولهذا فليس في قول النبي ﷺ: «**يرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد**»[(١)]، إنكار على لوط في قوله: ﴿أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، وإنما أخبر ﷺ أن لوطًا عليه السلام يأوي إلى ركن شديد يعني من نصر الله له بالملائكة، ولم يكن لوط علم ذلك، وقد طلب النبي ﷺ من الأنصار والمهاجرين منعة حتى يؤدي رسالة ربه.

ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه، واشتد الكرب على لوط، جاء الفرج من الله؛ كما في الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾، أي: نحن رسل ربك من الملائكة، فطمأنوه أولًا بأنهم رسل ربه من الملائكة، والملائكة لا ينزلون إلا لإظهار الحق؛ كما قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨]

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة يوسف ٤٦٩٤ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم طمأنوه ثانيًا وبشروه بقولهم: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾، أي: إن قومك لن يستطيعوا الوصول إليك بمكروه، أو أذى ولا إلى ضيوفك، وسيكفيكهم الله. فخرج إليهم جبريل عليه السلام، فضرب وجوههم بجناحيه فطمس أعينهم فرجعوا لا يهتدون الطريق كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧﴾ [القمر: ٣٧].

﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾؛ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو جعفر: «فاسر» بهمزة الوصل من الفعل: «سرى»، وقرأ الباقون بهمزة القطع مفتوحة، ﴿فَأَسۡرِ﴾، من الفعل: «أسرى».

و«السري»: السير في الليل، يقال: سرى وأسرى، والمعنى: فاخرج وسر بأهلك.

﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾، أي: بجزء كبير من آخر الليل؛ فكونه من آخر الليل حتى لا يشعر بهم قومه فيمنعوهم، وكونه بقطع من الليل، أي: بجزء من آخره حتى يتمكنوا من البعد عن قريتهم قبل الصبح وحلول العذاب.

﴿واتبع أدبارهم﴾، أي: كن خلفهم، ساقةً لهم.

﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾، أي: ولا يلتفت منكم أحد إلى ما وراءه؛ لئلا يرى ما حل بالمجرمين من العذاب، وفيه حث على الإسراع وحث الخطى؛ للتباعد عن موقع العذاب؛ كما قال تعالى في سورة الحجر: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٦١ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٦٢ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٦٣ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥﴾ [الحجر: ٦١-٦٥]

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾؛ قرأ أبو عمرو، وابن كثير بالرفع «إلا امرأتُك» وهو على هذه القراءة مستثنى من قوله: ﴿فَأَسۡرِ﴾، و«امرأتُك» مبتدأ وخبره ما بعده.

وقيل هو مستثنى من قوله: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾، والصحيح الأول؛ لأن الله أمره أن يسري بأهله إلا امرأته، كما تدل على هذا قراءة النصب.

وقرأ الباقون بالنصب: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ مستثنى من قوله: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾، أي: إلا امرأتك لا تسر بها.

﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ تعليل لاستثنائها من بين أهله، أي: لأنه مصيبها ما أصابهم،

أي: سيصيبها الذي يصيبهم من العذاب؛ لأنها كانت تشارك قومها في الإثم، فتدلهم على أضياف لوط إذا نزل به أضياف، قال تعالى في سورة الحجر: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٦٠﴾ [الحجر: ٥٩- ٦٠]

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٣٣﴾ [العنكبوت: ٣٣].

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ﴾، أي: إن موعد عذابهم وهلاكهم الصبح؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ۝٦٦﴾.[الحجر: ٦٦]

﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؛ الاستفهام: تقريري، كأن لوطًا استعجل ذلك، فقيل له: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، أي: بل هو قريب، أو: ما أقربه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾، أي: فحين حان وحضر أمرنا الكوني بعذابهم وإهلاكهم، وذلك في الصباح الباكر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣٨ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٩﴾ [القمر: ٣٨- ٣٩].

وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣﴾ [الحجر: ٧٣].

﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾، أي: جعلنا عالي قريتهم سافلها، والضمائر تعود على قريتهم المفهومة من السياق، وهي «سدوم».

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾، أي: من طين مشوي شديد الحرارة، متحجر صلب؛ كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤﴾ [الحجر: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ﴾ [الفرقان: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝١٧٣﴾ [الشعراء: ١٧٣،النحل: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ [النجم: ٥٤]

﴿مَنضُودٍ﴾ صفة لـ «سجيل»، أي: متتابعة مصفوفة، يرسل بعضها إثر بعض.

﴿مُسَوَّمَةً﴾ حال من «حجارة» أو صفة لها، أي: معلمة مكتوب على كل حجر منها اسم صاحبه الذي ينزل عليه؛ كما قال تعالى في سورة الذاريات: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)﴾ [الذاريات: ٣٣- ٣٤].

وهذا هو الرجز المذكور في قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤)﴾ [العنكبوت: ٣٤].

﴿وَمَا هِيَ﴾، أي: وما هذه النقمة والعقوبة ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يتشبهون بقوم لوط في ظلمهم بالكفر والشرك وفعل فاحشة اللواط التي ما سبقهم بها أحد من العالمين

﴿بِبَعِيدٍ﴾، أي: ببعيد منهم، أي: ما هذه العقوبة ببعيدة من الظالمين الذين يعملون عمل قوم لوط.

وقد قيل: إن المعنى: وما هذه القرية من الظالمين مشركي مكة ببعيد، فهي قريبة منهم، يمرون بها في أسفارهم إلى الشام، والراجح الأول، ولاينافي هذا.

وفي الآية تحذير لمن يتشبه بقوم لوط من هذه الأمة؛ ولهذا قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥)﴾ [العنكبوت: ٣٥].

أي: تركنا من هذه العقوبة عظة وعبرة بينة لقوم يعقلون، فيحذرون من التشبه بقوم لوط.

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)﴾ [الحجر: ٧٥- ٧٧].

أي: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ الذين يتوسمون في الآيات والعبر ويتأملونها، ﴿وَإِنَّهَا﴾، أي: هذه القرية ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾، أي: لفي طريق واضح ثابت للسالكين، يراها المسافرون المارون بها، وفيها عظة وعبرة للمؤمنين خاصة الذين ينتفعون بالآيات والعظات.

وقد قال ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»(١).

وقد اتفق العلماء على قتل الفاعل والمفعول به في اللواط، إلا أنهم اختلفوا في كيفية ذلك، فمنهم من قال يقتل محصنًا أو غير محصن، ومنهم من قال يُلقى من شاهق ويتبع بالحجارة، كما فعل الله بقوم لوط، ومنهم من قال حكمه حكم الزنا مطلقًا.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات نبوة إبراهيم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا﴾ والملائكة إنما تأتي وتخاطب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

٢- بشارة الملائكة لإبراهيم عليه السلام بمولود وولده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾، أي: بإسحاق وولده يعقوب.

٣- أن رسل الله من الملائكة ومن الناس؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

٤- مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾.

٥- أن السلام قبل الكلام.

٦- أن الأولى أن يكون رد السلام بأحسن وأبلغ منه؛ لأن رد إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿سَلَامٌ﴾ أبلغ من سلام الملائكة؛ لأنه جملة اسمية تدل على الثبوت والدوام، أي: عليكم سلام، بينما سلام الملائكة بقولهم: ﴿سَلَامًا﴾ جملة فعلية تدل على التجدد والحدوث، أي: سلمنا عليك سلامًا.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء: ٨٦].

٧- فضيلة إبراهيم عليه السلام وكرمه وجوده، ومسارعته إلى إكرام ضيوفه من

---

(١) أخرجه أبو داوود في الحدود ٤٤٦٢، والترمذي في الحدود- حد اللواط ١٤٥٦، وابن ماجه في الحدود- من عمل عمل قوم لوط ٢٥٦١- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الملائكة بأحسن الضيافة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ فاختار لهم العجل وهو من أحسن وأنفع أنواع اللحوم، وجاء به على أحسن طبق حنيذًا مشويًّا على الحجارة.

٨- مشروعية إكرام الضيف، والمسارعة في تقديم الضيافة له، واختيار أحسنها.

٩- استنكار إبراهيم عليه السلام لضيوفه لما لم يأكلوا، وتخوفه أنهم جاؤوا لشر؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

١٠- أن الرسل والأنبياء عليهم السلام كغيرهم من البشر يعتريهم الخوف؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ كما يعتريهم الحزن وضيق الصدر، ويتألمون لما يصيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾.

١١- طمأنة ضيوف إبراهيم عليه السلام له بقولهم ﴿لَا تَخَفْ﴾، وبيانهم له أنهم ملائكة أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

١٢- أن الملائكة لا يأكلون، وليسوا بحاجة إلى الطعام والشراب.

١٣- يحسن من الضيف أن يطمئن مُضيفه؛ بعدم الامتناع من الأكل مما يقدم ضيافة له، كما يحسن أن يخبر مضيفه بوجهته أو مقصده، ونحو ذلك؛ ليطمئن مضيفه، ما لم يترتب على ذلك ضرر.

١٤- استحباب خدمة الضيف، وجواز خدمة المرأة للأضياف، ولو كانوا رجالًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾، أي: قائمة على خدمة ضيوف إبراهيم عليه السلام.

١٥- تعجّب امرأة إبراهيم عليه السلام، وضحكها مما رأت من أحوال الملائكة، وإبراهيم قدّم لهم الضيافة فلم يأكلوا فخاف منهم فطمأنوه بقولهم ﴿لَا تَخَفْ﴾، وأخبروه أنهم ملائكة جاؤوا لإهلاك قوم لوط.

١٦- بشارتها بإسحاق ومن بعده ولده يعقوب؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾.

١٧- في قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ دلالة على أن الذي أمر إبراهيم عليه السلام بذبحه هو إسماعيل عليه السلام لا إسحاق؛ إذ كيف يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير وقد أُخبر وبُشّر بأنه سيولد له ولد هو يعقوب.

١٨- أن حصول الولد نعمة، كما أن هلاك المكذبين والعصاة نعمة؛ لحصول البشارة بهما.

١٩- تعجّب امرأة إبراهيم عليه السلام من أن تلد وهي عجوز مسنّة وزوجها شيخ كبير؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾.

٢٠- لا عجب من أمر الله وقدرته على إيجاد الولد من عجوز وشيخ كبير، وعلى كل شيء ولو كان خارقًا للعادة؛ لقوله تعالى: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ﴾، أي: لا تعجبي من أمر الله.

٢١- رحمة الله تعالى وبركاته على أهل بيت إبراهيم عليه السلام بيت النبوة؛ لقوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ﴾.

٢٢- فضيلة بيت إبراهيم عليه السلام، والثناء عليهم، والتنويه بهم، والعناية بهم؛ لقوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ﴾

٢٣- أن الله عز وجل حميد الصفات، صفاته كلها صفات كمال تستوجب الحمد، محمود في جميع أقواله وأفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ﴾.

٢٤- إثبات صفة العظمة التامة لله عز وجل، في ذاته وأسمائه وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿مَّجِيدٌ﴾.

٢٥- جواز محادثة المرأة للرجال، وأن صوتها ليس بعورة.

٢٦- مجادلة إبراهيم عليه السلام، ومحاورته الملائكة بعد أن ذهب الروع عنه وبشر بإسحاق في قوم لوط، وكيف يهلكون وفيهم لوط عليه السلام ومن آمن به؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾.

٢٧- فضيلة إبراهيم عليه السلام وعلو منزلته عند ربه؛ لثناء الله عز وجل عليه، ووصفه له بأنبل الصفات: الحلم، والتضرع إلى ربه، والإنابة والرجوع إليه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾.

٢٨- أمر الله عز وجل لإبراهيم عليه السلام بالإعراض عن المجادلة في إهلاك قوم

لوط؛ إذ لا فائدة في ذلك بعد مجيء أمر الله، وتحتم أخذهم بعذاب غير مردود؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ ﴾.

٢٩- أن الله عز وجل إذا أبرم أمرًا وقضى قضاء فإنه لا يرد، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، ولا دافع لعذابه إذا حل.

٣٠- إثبات القدر وأن الله قدر وكتب مقادير كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾، أي: حضر أمره الكوني الذي قدّره في الأزل وكتبه في اللوح المحفوظ؛ ولقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾.

٣١- إثبات ربوبية الله الخاصة لإبراهيم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٣٢- استياء لوط عليه السلام من مجيء الرسل من الملائكة إليه، وضيقه بهم ذرعًا، وشدة يوم مجيئهم عليه، خوفًا عليهم من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾﴾.

٣٣- فرح قوم لوط بمجيء ضيوفه، وإقبالهم مسرعين إليه يريدونهم بالفاحشة، كما هو ديدنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

٣٤- دلالة لوط عليه السلام، وتوجيهه لقومه إلى ما أباح الله لهم من النساء اللاتي هن أطهر لهم؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡ﴾.

٣٥- أمره عليه السلام لهم بتقوى الله بترك هذه الفاحشة واجتنابها والبعد عنها، وعدم إهانته وإذلاله وفضيحته في ضيوفه؛ لقوله عليه السلام: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾.

٣٦- سفه قوم لوط كلهم؛ لتوبيخه عليه السلام لهم، وإنكاره عليهم أنه ليس فيهم رجل رشيد، يأمرهم بتقوى الله وترك ما هم عليه من فعل الفاحشة، وينهاهم عن فضيحة لوط عليه السلام في ضيوفه؛ لقوله عليه السلام: ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾.

٣٧- أن من حق المُضيف ألا يُذل ولا يُهان في ضيوفه ما داموا في ضيافته، وألا يؤذى من نزل في ضيافته.

٣٨- أن من ارتكب الفواحش ولم يتق الله، وخالف أمره وارتكب نهيه؛ فهو سفيه غير رشيد.

٣٩- شغف قوم لوط بإتيان الذكران وإرادتهم له، وعزوفهم عما أباح الله من النساء؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾.

٤٠- توعّد لوط عليه السلام لقومه، لو أن له بهم قوة، أو يستند إلى ركن شديد من عشيرة أو قبيلة أو أتباع؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ وهذا لا ينفي اعتماده على الله؛ لأنه أراد بقوله هذا الأسباب المادية المحسوسة.

٤١- طمأنة الملائكة للوط عليه السلام بأنهم رسل الله، وأن قومه لن يستطيعوا الوصول إليه ولا إلى ضيوفه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾.

٤٢- إنجاء الله عز وجل للوط عليه السلام من العذاب؛ بأمره له أن يسري بأهله بقطع من الليل، ويتبع أدبارهم، ولا يلتفت منهم أحد؛ خشية أن يصيبه العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾.

٤٣- استثناء امرأة لوط عليه السلام ممن أمر بالإسراء بهم من أهله؛ لأنها من الهالكين المعذبين؛ بسبب مشاركتها لقومها في أذية لوط؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾.

٤٤- أن امرأة الرجل من أهل بيته، وفي هذا رد على الرافضة الإمامية في إخراجهم أزواج النبي ﷺ من أهل بيته.

٤٥- أن ما بين نجاة لوط عليه السلام وأهله، وبين إهلاك قومه هو فقط ما بين السحر وطلوع الفجر والصبح؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

٤٦- إهلاك قوم لوط وتعذيبهم بقلب قريتهم، وجعل عاليها سافلها، وإمطارها بحجارة من طين مشوي متتابعة عليهم، معلم على كل منها اسم صاحبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾.

٤٧- تحذير الظالمين من هذه الأمة الذين يتشبهون بقوم لوط بالكفر والشرك وفعل فاحشة اللواط؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، أي: ولقد أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبًا، و«مدين» قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام في بلد يعرف بهم يقال له: «مدين»: فأرسل الله إليهم شعيبًا عليه السلام، وكان من أشرفهم نسبًا؛ ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ وكان يقال له خطيب الأنبياء.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ كما قال الأنبياء قبله: نوح، وهود، وصالح عليهم السلام، أي: اعبدوا الله وحده لا شريك له، ما لكم من معبود سواه، وكانوا يشركون بالله.

﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾، أي: أوفوا الكيل والوزن بالقسط، وكانوا مع شركهم يبخسون المكيال والميزان.

﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ تعليل للنهي عن نقص المكيال والميزان، أي: إني أراكم في غنى عن هذا التطفيف في الكيل والوزن بما أوتيتم من النعمة والثروة التي يجب عليكم شكرها، والباء في قوله: ﴿بِخَيْرٍ﴾ للملابسة.

﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾، أي: عذاب يوم مُهلك يحيط بكم جميعًا ولا يبقي منكم أحدًا، يوم القيامة، أو في الدنيا، بسبب شرككم بالله، وكفران نعمه، وتطفيف الكيل والوزن، ومعصيته عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

نهاهم أولًا عن نقص المكيال والميزان، ثم أمرهم بإيفائه، ونهاهم عن بخس الناس أشياءهم تأكيدًا لذلك.

قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: أكملوا وأتموا المكيال والميزان بالعدل، آخذين ومعطين؛ كما قال تعالى: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥].

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ معطوف على «أوفوا» من عطف العام على الخاص؛ لأن عدم إيفاء المكيال والميزان من بخس الناس أشياءهم، وهذا أعم.

والمعنى: ولا تنقصوا الناس أشياءهم ببخس المكيال والميزان، أو بأي طريق كان، سواء كانت من الأشياء الحسية من مال، ومتاع، وأثاث، ونحو ذلك، أو أشياء معنوية من إنصافهم، وتقديرهم، واحترامهم، وإنزال كل منهم منزلته، فإن بخس هذه الحقوق هو الأكثر شيوعًا، وقد يفوق بخس الأشياء الحسية.

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ معطوف على ما قبله، من عطف العام على الخاص، و«مفسدين» حال مؤكدة لمضمون الجملة، أي: ولا تسعوا في الأرض وتسيروا فيها حال كونكم مفسدين بالاستمرار على المعاصي من الشرك، والتطفيف في الكيل والوزن، وقطع الطريق، وغير ذلك من أنواع المعاصي، فكلها تفسد أمر الدين والدنيا،

وتهلك الحرث والنسل؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

فترقى وتدرج من نهيهم عن التطفيف إلى نهيهم عما هو أعم، وهو بخس الناس أشياءهم، ثم إلى نهيهم عما هو أعم من ذلك كله، وهو الإفساد في الأرض.

قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾.

بعد أن نهاهم عن التطفيف وبخس الناس أشياءهم وغير ذلك مما هو فساد في الأرض، من قطع الطريق، وغير ذلك؛ أتبع ذلك بيان أن ما لهم من الثواب العاجل والآجل على امتثال أمر الله واجتناب نهيه، وما أباحه الله وأبقاه لهم من الربح؛ خير لهم.

قوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: ما أعدّه الله لكم من الثواب الباقي على امتثال أمره واجتناب نهيه، وما تكفل به لكم من الرزق، وأبقاه لكم من الربح الحلال بعد الوفاء وأداء حقوق الناس ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: خير لكم خيريّة مطلقة، في دينكم ودنياكم وأخراكم، فلا تطمعوا فيما ليس لكم.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: فاعملوا بمقتضى إيمانكم، بفعل ما أمرتم به، وترك ما نهيتم عنه، تظفروا ببقية الله التي هي خير لكم مطلقا؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾، أي: ولست عليكم بوكيل ولا رقيب؛ أحفظ أعمالكم وأحصيها عليكم، وما عليّ إلا البلاغ، والله الحفيظ عليكم؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾ [الشورى: ٤٨].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ﴾، أي: قال قوم شعيب عليه السلام له على سبيل التهكم والسخرية: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ قرأ حمزة والكسائي

وخلف وحفص: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ بالإفراد.

وقرأ الباقون بالجمع: «أصلواتك».

والاستفهام للتهكم والسخرية، وخصّوا صلاته عليه السلام؛ لأنها من أخص أعماله المخالفة المعتادة، ولأن الصلاة عماد الأديان كلها.

﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، و«ما»: موصولة، أي: أصلاتك تأمرك بأن نترك، أي: بترك الذي يعبده آباؤنا من الآلهة، أي: بترك عبادتها.

﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ «أو»: عاطفة، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب عطفًا على مفعول «نترك» وهو «ما» الموصولة.

والتقدير: أصلاتك تأمرك أن نترك الذي يعبد آباؤنا، أو أن نترك فعل ما نشاء في أموالنا من التطفيف والبخس وغير ذلك؟

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أكدت الجملة بـ«إن» ولام التوكيد، وضمير الفصل «أنت»، أي: إنك لأنت ذو الحلم، أي: ذو العقل ﴿ٱلرَّشِيدُ﴾، أي: ذو الرشد وحسن التصرف والتدبير.

وهذا منهم من باب التهكم والسخرية والازدراء والذم له عليه السلام، أي: كيف تكون أنت الحليم الرشيد وآباؤنا هم أهل الجهل والسفه؟ ويقوي هذا تهكمهم قبله بقولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾.

ومقصودهم بهذا وذاك التهكم والسخرية والاستهزاء به وبصلاته، وأن صلاتك وعبادتك لا شيء، وأنك أنت الأحمق السفيه، لا الحليم الرشيد.

ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ مدحًا له، و«أل» في الحليم و«الرشيد» للاستغراق أو العهد، أي: إنك لأنت الكامل الحليم الرشيد، فمستغرب منك ما تأمرنا به؛ كما قال قوم صالح: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [هود: ٦٢].

وحقيقة الأمر أن صلاته عليه السلام تأمره أن ينهاهم عما يفعله آباؤهم الضالون،

وأن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ومن أكبر ذلك عبادة غير الله، والتطفيف وبخس الناس أشياءهم وحقوقهم.

كما أنه عليه السلام هو الحليم الرشيد ذو العقل والرشد وحسن التصرف.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾.

قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾، أي: على بصيرة وبرهان ويقين من ربي فيما أدعوكم إليه، ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗا﴾ وهو النبوة والرزق الحلال.

وجواب الشرط محذوف يدل عليه سياق الكلام، أي: فماذا ينفعكم تكذيبي، أو فما الذي ينجيكم من عاقبة تكذيبي، ونحو ذلك.

وهذا كما قال نوح عليه السلام: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨]، وكما قال صالح عليه السلام: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ [هود: ٦٣].

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ﴾، أي: وما أريد في دعوتي لكم أن أخالفكم إلى فعل الذي أنهاكم عنه، أي: لا أريد أن أنهاكم عن شيء وأخالفكم إلى فعله خفية عنكم، وليس دعوتي لكم لمجرد مخالفة ما أنتم عليه؛ ولهذا قال بعده:

﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾ الجملة: تعليل أو بيان لما قبلها، و«إن»: نافية بمعنى «ما» و«إلا»: أداة حصر، أي: ما أريد فيما آمركم به وأنهاكم عنه ﴿إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾، أي: إلا الإصلاح لكم، أي: إلا أن تصلح أحوالكم وتستقيم أمور دينكم ودنياكم ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُ﴾، أي: حسب استطاعتي.

﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ لما كان قوله: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ فيه نوع من تزكية النفس، دفع هذا بإرجاع الفضل في ذلك إلى الله تعالى، فقال: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، الواو: عاطفة، و«ما»: نافية، و«إلا» أداة حصر، والباء للاستعانة، أي: وما توفيقي فيما أردت من الإصلاح إلا بعون الله تعالى لي على ذلك.

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾، أي: عليه وحده اعتمدت وفوضت في جميع أموري مع تمام الثقة به، ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾، أي: وإليه وحده أتوب وأرجع.

وبهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بالله والإنابة إليه؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ۝٨٩﴾.

قوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾، أي: لا يحملنكم ولا يكسبنكم، و«جرم» هنا متعدٍّ لمفعولين، الأول: الكاف والميم، والثاني قوله ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ فـ«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول ثان، أي: لا يكسبنكم مشاقتي وعداوتي إصابة العذاب لكم.

﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖ﴾، أي: مثل الذي أصاب هؤلاء الأقوام من العذاب، من الغرق والريح والصيحة.

والمعنى: لا يكسبنكم شقاقكم لي إصابة العذاب لكم مثل ما أصاب هؤلاء الأقوام بسبب إصراركم على ما أنتم عليه من الشرك والكفر والضلال، ونقص المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض.

﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ﴾، أي: وما قوم لوط الذين علمتم ما حل بهم من النقمة والعذاب الشديد، بقلب ديارهم وجعل عاليها سافلها، وإمطارهم بحجارة من سجيل.

﴿مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾، أي: ما هم منكم ببعيد، بل هم أقرب الأقوام إليكم زمانًا ومكانًا فاعتبروا واتعظوا بما أصابهم، واحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم بسبب مشاقتكم لي؛ فزمن لوط غير بعيد من زمن شعيب، وديار قوم لوط قريبة من ديار قوم شعيب؛ لأن منازل مدين قوم شعيب عند عقبة أيلة مجاورة معان مما يلي الحجاز، وديار قوم لوط بناحية الأردن إلى البحر الميت.

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ۝٩٠﴾.

قوله: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾ كقول هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾ [هود: ٥٢]، وقول صالح عليه السلام: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾ [هود: ٦١].

والمعنى: اطلبوا من ربكم مغفرة ما سلف من ذنوبكم من الشرك بالله، والتطفيف، وبخس الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض، وغير ذلك.

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾، أي: ارجعوا وأنيبوا إليه فيما تستقبلونه من أعماركم وأعمالكم بإخلاص التوحيد لله تعالى، وطاعته وترك مخالفته.

﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴾ تعليل للأمر بالاستغفار والتوبة، أي: إن ربي ذو رحمة واسعة لمن استغفره؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴾ [النجم: ٣٢].

﴿وَدُودٞ ﴾، أي: شديد المحبة لمن استغفره وتاب إليه وتقرب إليه.

فمن استغفره وتاب إليه غفر له وقبل توبته وأحبه وأثابه الثواب العظيم؛ كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «**ولايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**»(١).

فهو عز وجل يحب عبادة المؤمنين ويحبونه؛ كما قال تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وعلى هذا فقوله: ﴿وَدُودٞ ﴾ «فعول» بمعنى ﴿فاعل﴾، وبمعنى «مفعول».

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١ ﴾.

قوله: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾، أي: ما نفهم ولا نعرف كثيرًا من الذي تقوله وتدعونا إليه، وهذا إمعان منهم في العتو والمكابرة، والتكذيب لما يقول،

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب التواضع (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعدم قبوله وتصديقه، واستهانة به عليه السلام، وإلا فهو أخوهم ومنهم ولسانه لسانهم؛ وهذا كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت: ٥].

وصدق الله العظيم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾، أي: لست من الكبراء ولا الرؤساء، بل من المستضعفين، فلا قوة لك، ولا منعة تمتنع منا وتدافع بها إن أردناك بسوء.

وأكدوا مقالتهم هذه بـ«إن» ولام الابتداء.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾، أي: ولولا عشيرتك وقرابتك، وكرامتهم ومعزتهم علينا؛ لكونهم على ديننا وملتنا.

﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ اللام: واقعة في جواب «لولا»، أي: لرجمناك بالحجارة وقتلناك قتلة خزي وحقارة.

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ الجملة مؤكدة لمضمون ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾، أي: وما أنت بصاحب قدر ومنزلة عندنا، وليس لك احترام في نفوسنا، وإنما لم نرجمك احترامًا لقرابتك وعشيرتك الأعزة علينا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ الاستفهام إنكاري، أي: كيف تراعونني لأجل رهطي، ولا تراعونني تعظيمًا لله وخوفًا منه، فاعتزازي بالله، وهو أعز من رهطي، وفي هذا تهديد لهم بأن الله ناصره.

﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ الضمير الهاء يعود إلى لفظ الجلالة:

﴿اللَّهِ﴾، ﴿ظِهْرِيًّا﴾ حال مؤكدة لقوله: ﴿وَرَاءَكُمْ﴾، والظهري نسبة إلى الظهر.

والمعنى: واتخذتم الله، أي: جعلتموه وصيرتموه خلفكم ظهريًّا ونسيتموه، فلم تعظّموه ولم تخافوه ولم تطيعوه.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، أي: بجميع الذي تعملونه محيط، أو بجميع عملكم، لا تخفى عليه منه خافية، وسيحاسبكم ويجازيكم عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾.

لما يئس شعيب عليه السلام من إيمان قومه أمرهم بالعمل على طريقتهم متوعدًا ومهددًا لهم بترقب العذاب المخزي.

قوله: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾، أي: على طريقتكم وحالتكم.

﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على طريقتي ومنهجي.

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ «سوف»: للاستقبال، و«من» موصولة، مبتدأ، وخبره جملة: ﴿يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾.

أي: سوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يذّله ويهينه.

﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ معطوف على قوله: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ﴾، «من» موصولة، أي: وسوف تعلمون الذي هو كاذب.

أو اسم استفهام، أي: سوف تعلمون من الذي منا يأتيه عذاب يذله ويهينه، ومن هو الكاذب منا أنا أو أنتم.

وهذا من باب التنزل معهم، وإلا فهو عليه السلام يعلم أنه الناجي من العذاب وهو الصادق، كما علموا هم أنهم الكاذبون المعذبون حين وقع عليهم العذاب.

﴿وَارْتَقِبُوا﴾، أي: انتظروا وترقبوا ما يحل بي وبكم، وعاقبة كل منا.

﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾، أي: منتظر ومترقب ما يحل بكم وبي ولمن تكون العاقبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، أي: وحين حضر أمرنا الكوني بإهلاك قوم شعيب.

﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾، أي: خلصنا شعيبًا والذين آمنوا معه من الهلاك.

﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب رحمة منا رحمناهم ونجيناهم بها.

﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾، أي: وأهلكت الذين ظلموا- وهم قوم شعيب بسبب ظلمهم- الصيحة، وهي الرجفة؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١)﴾ [الأعراف: ٩١]، وهو عذاب يوم الظلة؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩)﴾ [الشعراء: ١٨٩].

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، أي: هامدين صرعى هالكين، لا تسمع لهم صوتًا، ولا ترى منهم حركة.

قوله تعالى: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾.

قوله: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢]، وكما قال تعالى عن ثمود: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (٦٨)﴾ [هود: ٦٨].

والمعنى: كأنهم لما أخذهم العذاب وهلكوا لم يعيشوا في تلك الديار ولم يتمتعوا ويتنعموا فيها.

﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ﴾ «ألا»: أداة تنبيه، أي: ألا بعدًا لمدين من رحمة الله وجنته، ولعنة وهلاكًا لهم؛ لبعدهم عن الحق.

﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾، أي: كما بعدت ثمود قبلهم من رحمة الله وجنته؛ لشدة كفرهم وعنادهم، وكانت مدين جيرانًا لثمود وقريبًا منهم في الدار، وشبههم في الكفر وقطع الطريق، وكانوا عربًا مثلهم.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة شعيب عليه السلام إلى قومه مدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

٢- دعوة شعيب عليه السلام- كغيره من الرسل- قومه إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

٣- نهيه عليه السلام لقومه عن نقص المكيال والميزان؛ لقوله: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾.

٤- تذكيره عليه السلام لهم بما هم فيه من الخير، والنعمة مما فيه غنية لهم عن التطفيف؛ لقوله: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾.

٥- شفقته عليه السلام عليهم، وتحذيره لهم من عذاب يوم محيط؛ لقوله: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

٦- إحاطة عذاب الله بالمكذبين في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

٧- أمره عليه السلام قومه بإيفاء المكيال والميزان بالقسط؛ تأكيدًا للنهي عن نقصهما، وتأكيده ذلك بما هو أعم، وهو النهي عن بخس الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض؛ لقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥)﴾.

٨- وجوب الوفاء بالمكيال والميزان، وأن نقصهما من بخس الناس أشياءهم والإفساد في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

٩- حرمة بخس الناس أشياءهم حسية كانت بنقص المكيال والميزان وغير ذلك، أو معنوية باحتقارهم وتنقصهم والحط من منازلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

١٠- النهي عن الإفساد في الأرض بالشرك، ونقص الكيل والوزن، وبخس الناس أشياءهم، وغير ذلك من المعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

١١- أن ما أعدّه الله للمؤمنين من الثواب الباقي، وما تكفّل به لهم من الرزق، وأباحه لهم من الربح الحلال خير لهم مطلقًا؛ وخير لهم وأبقى؛ لقوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٢- أن القناعة كنز لا يفنى، وهي من الإيمان، لقوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

١٣- بيان شعيب لقومه أنه ليس حفيظًا عليهم يرقبهم ويحفظ أعمالهم، فهو كغيره من الرسل مهمته البلاغ، والله الحفيظ عليهم وعلى جميع الخلق؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

١٤- تهكمهم بصلاة شعيب وقراءته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾.

١٥- أن الصلاة لم تزل مشروعة للأنبياء المتقدمين، وأنها أفضل الأعمال، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزان للإيمان وشرائعه.

١٦- تعصب قوم شعيب لما عليه آباؤهم من الشرك، والتطفيف، وبخس الناس أشياءهم، وقطع الطريق، والإفساد في الأرض، وتقليدهم إياهم على جهل تقليدًا أعمى.

١٧- خطأ قوم شعيب في ظنهم أن لهم أن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون، ولو أضروا بالآخرين، ونقصوهم حقوقهم، وبخسوا الناس أشياءهم؛ وما علموا أن المال أمانة يجب كسبه من الحلال وأداء حقوقه، وصرفه في الحلال.

١٨- تهكمهم بشعيب وسخريتهم به، وذمهم له؛ لقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ ويحتمل أن يكون هذا من باب المدح له، أي: كيف تدعونا إلى ما تدعونا إليه وأنت الكامل الحليم الرشيد؟.

١٩- تحذير شعيب عليه السلام لقومه من عاقبة تكذيبهم له مع ما هو عليه من البينة والحجة من ربه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾.

٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لشعيب عليه السلام؛ لقوله: ﴿مِّن رَّبِّى﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى﴾.

٢١- تنويه شعيب عليه السلام بنعمة الله تعالى عليه بالنبوة والرزق الحلال؛ لقوله: ﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾.

٢٢- طمأنة شعيب لقومه أنه لم يقصد بما دعاهم إليه مجرد المخالفة لما هم عليه، ولن يخالفهم في فعل ما ينهاهم عنه، بل سيوافق فعلُه قولَه؛ لقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ

إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾.

٢٣- بيانه لهم أنه لا يريد إلا الإصلاح لهم قدر استطاعته؛ لقوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ كما هي وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٢٤- دفعه عليه السلام التزكية لنفسه، وإرجاعه الفضل فيما يريده من الإصلاح إلى توفيق الله عز وجل له؛ لقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

٢٥- تفويضه عليه السلام جميع أموره على الله وإنابته إليه؛ لقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

٢٦- ينبغي استلهام الدروس من منهج شعيب عليه السلام في دعوته، من حيث امتثال الداعي والمربي لما يدعو إليه، وعدم مخالفته له، ومن حيث الصدق في إرادة الإصلاح، وسؤال الله التوفيق في ذلك، والتوكل عليه، والإنابة إليه.

٢٧- تحذير شعيب عليه السلام لقومه أن يحملهم شقاقهم له وعداوتهم على الاستمرار على ما هم عليه من الكفر والتكذيب؛ فيصيبهم ما أصاب المكذبين قبلهم؛ لقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾.

٢٨- أن ما أصاب المكذبين للرسل من العقوبات والعذاب هو بسبب مشاقتهم لهم؛ مما يوجب الحذر من المشاقة للداعي إلى الله.

٢٩- قرب قوم لوط من «مدين» زمانًا ومكانًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾.

٣٠- أمر شعيب عليه السلام لقومه باستغفار ربهم مما سلف منهم من الشرك والكفر والمعاصي، والتوبة إليه في المستقبل بتوحيده وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾.

٣١- أن بالاستغفار والتوبة محو ما سلف من جميع الذنوب من الشرك وما دونه.

٣٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق، لقوله تعالى: ﴿رَبَّكُمْ﴾.

٣٣- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله تعالى رحمة ذاتية ورحمة فعلية، عامة وخاصة؛

لقوله تعالى: ﴿رَحِيمٌ﴾.

٣٤- إثبات صفة المودة والمحبة لله تعالى، وشدة محبته لأوليائه وعباده المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَدُودٌ﴾.

٣٥- الترغيب في الاستغفار والتوبة إلى الله تعالى، لأنه سبحانه الرب الرحيم الودود؛ لقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)﴾.

٣٦- إمعان قوم شعيب عليه السلام بالتكذيب لما يقول وعدم قبوله، والاستهانة به عليه السلام، وزعمهم أنهم لا يفهمون قوله؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾.

٣٧- استضعافهم له عليه السلام، وأنه لا قوة له ولا منعة، ولا أتباع يخافون منهم لو أرادوا به سوءًا؛ لقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾.

٣٨- تهديدهم له عليه السلام لولا رهطه وعشيرته، واحتقارهم له؛ لقولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

٣٩- أن الله قد يدفع عن رسله وأوليائه بأسباب كثيرة، كما دفع عن شعيب رجم قومه له بسبب رهطه.

٤٠- إنكاره عليه السلام عليهم تعظيمهم لرهطه وخوفهم منهم دون الله، واعتزازه بربه، وثقته بتأييده له،؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾.

٤١- إحاطة الله عز وجل بأعمال العباد؛ مما يوجب الخوف منه وتعظيمه ومراقبته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

٤٢- توعد شعيب عليه السلام قومه بعد يأسه منهم وتهديده لهم بالعذاب؛ لقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣)﴾.

٤٣- أنه ما على الرسل والدعاة إلى الله تعالى بعد الإياس من الاستجابة لهم إلا تذكير المدعوين بالانتظار لمن تكون العاقبة، وأن العاقبة للحق وأهله؛ كما قال تعالى:

﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

٤٤- تنزل شعيب عليه السلام مع قومه في الخطاب في قوله ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞ﴾، أي: ما دمتم مصرين على ما أنتم عليه من المخالفة فأنتم وشأنكم. ﴿إِنِّي عَٰمِلٞ﴾ على ما أنا عليه ليقيني أني على الحق ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ﴾ أهو أنا أم أنتم، وهو يعلم أنهم هم الذين سيأتيهم عذاب يخزيهم؛ لردهم الحق، وأنهم هم الكاذبون المكذبون.

٤٥- أن المعذبين يجمع لهم بين العذاب الحسي للأبدان، والعذاب المعنوي للقلوب بالخزي والذل؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾.

٤٦- إنجاء الله تعالى لشعيب والذين آمنوا معه من العذاب برحمته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾.

٤٧- أنه لا نجاة لأحد من الخلق بعمله- حتى الرسل عليهم السلام- إلا برحمة الله أرحم الراحمين؛ لقوله تعالى: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾.

٤٨- إثبات القدر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾.

٤٩- أخذ قوم شعيب وإهلاكهم بالصيحة بسبب ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾.

٥٠- عظم شؤم الذنوب والمعاصي؛ لأنها سبب للعقوبات، وهلاك الحرث والنسل، وتذر الديار بلاقع؛ لقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآ﴾.

٥١- الحكم على مدين بالبعد عن رحمة الله تعالى وجنته بسبب كفرهم وظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ﴾.

٥٢- تأكيد ذكر الحكم ببعد ثمود عن رحمة الله تعالى هنا؛ لشدة كفرهم وعنادهم، ولمناسبة شبه مدين بهم بالكفر وقطع الطريق، وقربهم منهم وكونهم عربًا مثلهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨)﴾.

بعدما ذكر الله عز وجل قصة شعيب عليه السلام وقومه مدين أتبع بذكر بعثة موسى عليه السلام؛ لقرب ما بين زمنيهما، ولشدة الصلة بينهما؛ فإن موسى بعث في حياة شعيب، وقد قيل: إنه تزوج ابنة شعيب عليهما السلام.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ الواو استئنافية، واللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، والباء: للملابسة، أي: ولقد بعثنا موسى بآياتنا البيّنات الدالة على صدقه.

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، أي: وحجة ظاهرة وبرهان بيّن على صحة ما جاء به، كالعصا واليد ونحوهما؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾، أي: فأطاعوا أمر فرعون، وسلكوا مسلكه في الغي والضلال.

﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ الجملة حالية أو استئنافية، أي: وما أمر فرعون بأمر رشيد، بل هو في غاية الجهل والسفه والضلال، والغي والكفر والعناد، والضرر والفساد.

وأظهر اسم فرعون في المرة الثانية والثالثة للتشهير به، والإعلان بذمه، بانتفاء الرشد عن أمره.

﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، أي: يتقدم قومه ويقودهم يوم القيامة.

﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فأدخلهم النار، وعبر بالماضي لتحقق وقوعه، والورود الدخول، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم: ٧١].

وقال تعالى: ﴿جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] فكما قادهم في الدنيا إلى الكفر والضلال يقودهم يوم القيامة إلى النار والأغلال.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾، أي: وبئس مكان الورد المورود، وهو النار، أو وبئس الورد المورود النار.

و﴿ٱلۡوِرۡدُ﴾ اسم مصدر بمعنى «الورود»، أي: الدخول، و﴿ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ اسم مفعول بمعنى: «المدخول»، أي: فورود النار بئس الورود، وهي بئس المورود المدخول.

قوله تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾.

قوله: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ﴾، أي: وألحقوا في هذه الحياة الدنيا ﴿لَعۡنَةٗ﴾ بالطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى لحكمه تعالى الكوني عليهم بذلك.

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، أي: وأتبعوا لعنة أخرى يوم القيامة بالطرد عن رحمة الله تعالى وجنته، وإدخالهم النار بالحكم الجزائي عليهم بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢﴾ [القصص: ٤١، ٤٢].

﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ الرفد في الأصل: العون والعطاء، أي: ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ اللعنتان، لعنة الدنيا والآخرة.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ لعنة الدنيا والآخرة».

وقال قتادة: «ترادفت عليهم اللعنتان من الله، لعنة في الدنيا، ولعنة في الآخرة».(١)

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠﴾

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى ما سبق من ذكر قصص الأنبياء من قصة نوح وما بعدها، وما جرى لهم مع أممهم، وكيف نجّى الله الرسل وأتباعهم، وأهلك المكذبين.

﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ﴾ الأنباء: جمع نبأ، وهو الخبر الهام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ٣﴾ [النبأ: ١ - ٣].

أي: ذلك الذي ذكرناه من أخبار القرى وأهلها من الأمم السابقة.

﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ﴾ الضمير يعود إلى مرجع اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: ذلك المذكور من أخبار القرى نقصه عليك يا محمد في هذا الكتاب العظيم «القرآن الكريم» آية على صدق رسالتك، وتسلية لك، وموعظة وذكرى للمؤمنين، وإنذارًا وتحذيرًا للكافرين، والسعيد من وعظ بغيره.

﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ﴾، أي: من هذه القرى ﴿قَآئِمٞ﴾، أي: قائم عامر يدل على آثار أولئك الأقوام، كآثار الفراعنة في مصر، وآثار قوم يونس بنينوى، وآثار ثمود في الحجر.

﴿وَحَصِيدٞ﴾ «فعيل» بمعني «مفعول»، أي: محصود، أي: ومنها محصود هالك داثر قد محيت آثاره ودرست معالمه، كديار عاد وقرى قوم لوط.

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾، أي: وما ظلمنا أهل هذه القرى حين أهلكناهم وعذبناهم.

﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، أي: ولكنهم ظلموا أنفسهم بتكذيبهم الرسل والشرك والكفر والعناد، وأوبقوها في الهلاك والعذاب.

﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: فما نفعتهم ولا دفعت عنهم معبوداتهم من الأصنام والأوثان التي كانوا يعبدونها ويدعونها من دون الله.

﴿مِن شَيۡءٖ﴾ «مِن»: زائدة لتأكيد العموم، و«شيء» نكرة في سياق النفي تفيد العموم،

---

(١) أخرجها الطبري في «جامع البيان»، ١٢/ ٥٦٥، ٥٦٦.

أي: فما أغنت عنهم آلهتهم أي شيء من الغناء، لا قليل ولا كثير، ولا صغير ولا كبير.

﴿لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾، أي: حين جاء أمر ربك بإهلاكهم وتعذيبهم.

﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾، أي: وما زادوهم غير هلاك وتخسير وتدمير؛ حيث خسروا بسبب عبادتهم إياهم دينهم ودنياهم وأخراهم.

فلم يتوقف الأمر عند كونهم لم يغنوا عنهم شيئًا، بل تعدى إلى أن زادوهم تتبيبًا وتخسيرًا وهلاكًا وتدميرًا.

وفي هذا تعريض بتحذير المشركين وموعظة لهم لو كانوا يهتدون.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الكاف: للتشبيه، والإشارة إلى المذكور من إهلاك واستئصال تلك القرى الظالمة، أي: ومثل ذلك الأخذ والإهلاك لتلك القرى.

﴿أَخۡذُ رَبِّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح له، أي: أخذ ربك وإهلاكه.

﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾، أي: إذا أهلك القرى حال كونها ظالمة بالشرك والكفر والمعاصي.

﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ الجملة تعليل، أو بيان لما قبلها، أي: إن عقابه وعذابه ﴿أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾، أي: مؤلم شديد حسيًا للأبدان، ومعنويًا للقلوب.

فهذه سنة الله تعالى التي لا تبدل ولا تغير في أن عاقبة الظالمين أخذهم بالعذاب الأليم الشديد.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ (١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود ٤٦٨٦، ومسلم في البر- تحريم الظلم ٢٥٨٣، والترمذي في التفسير ٣١١٠، وابن ماجه في الفتن ٤٠١٨ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: إن في أخذ القرى وإهلاك أهلها الظالمين، وإنجاء الرسل وأتباعهم ﴿لَءَايَةً﴾ اللام: للتوكيد، أي: لعظة وعبرة ودلالة على صدق وعد الله ووعيده في الدار الآخرة للذي خاف عذاب الآخرة واتعظ واعتبر.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤].

﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ الإشارة إلى يوم القيامة، المدلول عليه بالسياق من قوله ﴿عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

قال ابن القيم: "فإنه إنما آثر اسم المفعول هاهنا على الفعل المضارع؛ لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع، وأنه لا بد أن يكون ميعادًا مضروبًا لجميع الناس، وأنه الموصوف بهذه الصفة"(١).

واللام في قوله: ﴿لَّهُ﴾ لام الأجل أي: ذلك يوم مجموع لأجله الناس؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩] وهو يوم القيامة الذي فيه الحساب والجزاء على الأعمال. ونُكر ﴿يَوْمٌ﴾ وأشير إليه قبل ذلك بإشارة البعيد تعظيمًا له.

﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ معطوف على قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ لزيادة التهويل لليوم، أي: يشهده الرب عز وجل والملائكة وجميع الخلق، أولهم وآخرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف: ٤٧].

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٢/ ٤٤٠.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾، أي: وما نؤخر ذلك اليوم المشهود يوم القيامة، أي: وما نؤخر إتيان ذلك اليوم وإقامته ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ﴾، ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، و﴿الأجل﴾ المدة والوقت، ﴿مَّعۡدُودٍ﴾ محسوب معين مضبوط.

أي: وما نؤخر إتيان ذلك اليوم إلا لوقت محسوب، ومدة محددة، ونهاية معلومة ضربها الله وقدرها في الأزل يوم خلق السموات والأرض، لا يزاد على ذلك ولا ينقص منه، ولا يتقدم ولا يتأخر؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ۝٣٠﴾ [سبأ: ٢٩، ٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف: ٣٤، النحل: ٦١].

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ۝١٠٥﴾.

قوله: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ﴾، أي: يوم يأتي ذلك اليوم العظيم يوم القيامة.

﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾، أي: لا تتكلم نفس إلا بإذن الله عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ۝٣٨﴾ [النبأ: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ۝١٠٨﴾ [طه: ١٠٨].

ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل: «اللهم سَلِّم سَلِّم»(١).

﴿فَمِنۡهُمۡ﴾، أي: فمن الناس؛ لقوله قبل هذا: ﴿مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ ويدخل في هذا الجن؛ لدلالة الكتاب والسنة على أنهم مكلفون، والإجماع على ذلك.

﴿شَقِيّٞ﴾، أي: فريق شقي، وهم الكفار والمجرمون.

﴿وَسَعِيدٞ﴾، أي: ومنهم فريق سعيد، وهم الرسل وأتباعهم المؤمنون المتقون؛ كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى: ٧].

عن عمر رضي الله عنه قال: «لما نزلت ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ سألت رسول الله

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٣٨، ومسلم في الإيمان- معرفة طريق الرؤية ١٨٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ﷺ، قلت: يا رسول الله، علام نعمل؟ على شيء قد فرغ منه، أم على شيء لم يفرغ منه؟ فقال: «**على شيء قد فرغ منه يا عمر، وجرت به الأقلام، ولكن كل ميسر لما خلق له**»(١).

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

هاتان الآيتان والتي بعدهما بيان وتفصيل لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾.

قوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ ﴾ الفاء: عاطفة، «أمّا»: حرف شرط وتفصيل، أي: وأما الذين شقوا وهم الكفار والفجار.

﴿فَفِى ٱلنَّارِ﴾، أي: فمصيرهم النار ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾، أي: في النار من شدة ما هم فيه من العذاب، وشدة ما يعانونه من ضيق التنفس.

﴿زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ «الزفير»: إخراج الأنفاس بدفع وشدة وصوت شنيع؛ بسبب ضغط التنفس.

و«الشهيق»: عكسه وهو اجتلاب الهواء إلى الصدر بشدة وصوت شنيع؛ لقوة الاحتياج إلى النفس.

﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾، أي: مقيمين لابثين ماكثين فيها أبدًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧].

﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ كان العرب إذا أرادوا أن يصفوا الشيء بالدوام أبدًا قالوا: «هذا دائم دوام السموات والأرض» كما يقولون: «هو باق ما اختلف الليل والنهار، وما تكرر الجديدان».

وفي هذا دلالة على خلود أهل النار فيها خلودًا أبديًّا.

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] لا يدل على فناء السموات والأرض، وإنما يدل على تبديلهما.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ ﴾ «إلّا»: أداة استثناء، «ما»: موصولة، والخطاب للنبي ﷺ، أو له

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده- فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٤/ ٢٨٠.

ولكل من يصح خطابه، والاستثناء: يحتمل أن يكون من قوله: ﴿إِلَّا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، أي: إلا المدة التي شاء الله ألا يكونوا فيها، وهي ما كان قبل دخولهم لها(١).

ويحتمل أن يكون الاستثناء من قوله: ﴿خَٰلِدِينَ﴾، أي: استثناء بعض الداخلين، أي: إلا الذين شاء الله عدم خلودهم فيها، وهم العصاة من أهل التوحيد، فهم- إن أدخلوا النار- لا يخلّدون فيها، بل يخرجون منها بعد تطهيرهم(٢).

قوله تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ وهم الرسل وأتباعهم المؤمنون المتقون.

قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم بضم السين: ﴿سُعِدُواْ﴾ بمعنى: رُزقوا السعادة، وقرأ الباقون: «سَعِدُوا» بفتح السين.

﴿فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: فمأواهم الجنة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مقيمين ماكثين لابثين فيها أبدًا.

﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ قيل: يحتمل أن الاستثناء هنا لقصد التحذير من توهّم استحقاقهم ذلك على الله تعالى.

قال ابن كثير(٣): «معنى الاستثناء هنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرًا واجبًا بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم؛ ولهذا يُلهمون التسبيح والتحميد كما يُلهمون النفس».

وقيل ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ المدة التي يمكث فيها العصاة من أهل التوحيد في النار لتطهيرهم إذا أدخلوا فيها.

﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، أي: خلودهم في الجنة، وما أعدّ لهم فيها من النعيم دائم

---

(١) انظر «تيسير الكريم الرحمن» ٣/ ٤٦١.

(٢) انظر «جامع البيان» ١٢/ ٥٧٩.

(٣) في «تفسيره» (٤/ ٢٨١-٢٨٢).

ومستمر غير مقطوع، وفي هذا تأكيد لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ولئلا يُتوهّم بعد قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أن ثمّ انقطاعًا لهذا الخلود والنعيم.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيُذبح بين الجنة النار، ثم يُقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»(١).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ۝١٠٩﴾.

ذكر في الآيات السابقة إهلاك المكذبين من أهل القرى، بسبب ظلمهم وشركهم، ثم بيّن أن المكذبين له ﷺ، سلكوا مسلك أولئك الأقوام في الظلم والشرك، وسيوفون نصيبهم من العذاب غير منقوص، كما وفّي من قبلهم نصيبهم.

قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، و«ما» في قوله ﴿مِّمَّا﴾ موصولة، أو مصدرية، أي: فلا تك في شك من بطلان الذي يعبده هؤلاء المشركون من المعبودات من دون الله، أو من بطلان عبادتهم.

ولم: يقل «مما يعبد المشركون»، بل قال: ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بالإشارة إليهم بـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تحقيرًا لهم.

﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ «إلا»: أداة حصر، والكاف للتشبيه، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: ما يعبدون إلا مثل الذي يعبده آباؤهم من الأصنام والأوثان من قبل، أو إلا كعبادة آبائهم الباطلة من قبل، من غير مستند ولا حجة ولا برهان، وإنما مجرد تقليد أعمى لآبائهم على جهل وضلال؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣].

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة مريم ٤٧٣٠، ومسلم في الجنة- النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٤٩، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٨.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾، أي: وإنا لمعطوهم نصيبهم من العذاب وافيًا؛ بسبب تكذيبهم وشركهم، ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ تأكيد لما قبله، أي: غير منقوص منه، بل تام، عدلًا منا، كما وفّينا أسلافهم.

كما أنه عز وجل سيوفيهم نصيبهم من الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: ٢٠]؛ لأنه سبحانه «**يعطي الدنيا من يحب ومن لا يُحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب**»(١).

الفوائد والأحكام:

١ - إثبات رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه؛ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾.

٢- تأييد الله عز وجل لموسى عليه السلام بالآيات البينات والسلطان المبين؛ لقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

٣- اتباع ملأ فرعون وقومه أمر فرعون، وطاعتهم له، ومعصيتهم لموسى، ومخالفتهم أمر الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ﴾.

٤- أن أمر فرعون ليس برشيد، بل هو في غاية السفه والجهل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾، كيف وقد ادّعى الربوبية والألوهية.

٥- تقدّم فرعون قومه يوم القيامة وإيرادهم النار؛ لقوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾.

٦- إثبات يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾، وقوله: ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾.

٧- إثبات النار، وأنها مآل الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾، وقوله: ﴿فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.

٨- ذم النار، وأن ورودها ودخولها بئس الورود والدخول، وهي بئس المورود

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٧٧، ٣٨٧.

المدخول؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾.

٩- إتباع فرعون وقومه في الدنيا لعنة؛ لحكمه تعالى الكوني بإبعادهم عن رحمة الله وحرمانهم توفيقه، وإهلاكهم، وإتباعهم يوم القيامة بلعنة أخرى بالحكم الجزائي بإبعادهم عن رحمة الله تعالى وجنته، وإدخالهم النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

١٠- بئس ما استحقوه وجُوزوا به من ترادف اللعنتين عليهم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾.

١١- الامتنان بذكر أنباء أهل القرى ورسلهم وقصصهم في القرآن الكريم، دلالة على صدق رسالته ﷺ، وتسلية له، وموعظة وذكرى للمؤمنين، وإنذارًا وتحذيرًا للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠﴾.

١٢- أن السعيد من وعظ بغيره.

١٣- أن من قرى المكذبين ما بقيت آثاره ومعالمه حتى بعثته ﷺ، وحتى يومنا هذا، ومنها ما اندرست معالمه؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ﴾.

١٤- أن الله لم يظلم أولئك الأقوام حين عذَّبهم وأهلكهم، وإنما هم ظلموا أنفسهم بالشرك والكفر ومخالفة أمر الله وعصيان رسله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾.

١٥- أن الله عز وجل لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

١٦- أن كل ما يعبد من دون الله من الآلهة لا يغني شيئًا عن عابديه، فلا يجلب لهم نفعًا ولا يدفع عنهم ضرًّا، ولا ينجيهم من عذاب الله وعقابه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾.

١٧- أن ما يعبد من دون الله من الآلهة لا يزيد عابديه إلا تبابًا وخسارًا، في دينهم ودنياهم وأخراهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١﴾.

١٨- بيان سنة الله تعالى التي لا تتبدل في شدة أخذه للقرى إذا أخذها وهي ظالمة بالشرك والكفر والمعاصي؛ زجرًا عن الظلم وتحذيرًا للظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ

أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

٢٠- أن في أخذ القرى الظالمة وإهلاك الظالمين وإنجاء الرسل وأتباعهم عظة وعبرة ودلالة على صدق وعد الله ووعيده لمن يتعظ ويعتبر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

٢١- جمع الناس ليوم عظيم مشهود يوم القيامة للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

٢٢- أن لمجيء ذلك اليوم وقيام القيامة أجلًا معدودًا لا يتأخر عنه ولا يتقدم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

٢٣- أنه لا أحد يتكلم في ذلك اليوم؛ لعظمه وشدة هوله إلا بإذن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

٢٤- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريق شقي وهم الكفّار والفُجّار، وفريق سعيد وهم الرسل وأتباعهم المؤمنون؛ لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾.

٢٥- بيان أن مآل الأشقياء النار، وبيان سوء حالهم فيها، وخلودهم فيها خلودًا أبديًّا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.

٢٦- أن النار لا تفنى، ولا يفنى عذابها، ولا يفنى أهلها.

٢٧- إثبات المشيئة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.

٢٨- تمام قدرة الله تعالى ونفوذ إرادته، فلا يستعصي عليه شيء إذا أراد فعله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

٢٩- إثبات الإرادة لله تعالى بقسميها: الإرادة الكونية التي بمعنى المشيئة، والإرادة الشرعية التي بمعنى المحبة؛ لقوله تعالى: ﴿لِّمَا يُرِيدُ﴾.

٣٠- أن مآل السعداء إلى الجنة خالدين فيها أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟

فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

٣١- أن الجنة لا تفنى، ولا يفنى نعيمها، ولا ينقطع عطاؤها؛ لقوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

٣٢- دوام السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

٣٣- نهيه ﷺ أن يكون في شكٍّ من بطلان ما يعبده المشركون من الآلهة، وتحقيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

٣٤- ذم المشركين، وأنهم ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل تقليدًا لهم على جهل وضلال؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾.

٣٥- تهديد المشركين وتوعّدهم بمجازاتهم على شركهم بالله بما يستحقون عدلًا منه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾، أي: لموفوهم نصيبهم من العذاب كما وفَّينا من قبلهم نصيبهم من ذلك، إلا أن الله أعطى هذه الأمة ألا يستأصلهم بسنة عامة، ولا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم[1].

* * *

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٨٨٩، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٥٢، والترمذي في الفتن ٢١٧٦- من حديث ثوبان رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١١٠ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١١١ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٢ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝١١٣ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١١٠﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: ولقد أعطينا موسى الكتاب، أي: أنزلنا عليه الكتاب المعروف: «التوراة».

﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾، أي: فاختلف قومه في الكتاب الذي أنزله الله عليه، وفي نبوته عليه السلام، فصدّقه قوم وآمنوا به، وكذّبه آخرون وكفروا به.

والمقصود- والله أعلم- من ذكر إيتاء موسى الكتاب والاختلاف فيه- مع أنه سبق قريبًا في هذه السورة ذكر إرساله إلى فرعون- تسلية الرسول ﷺ، وتحذير المكذبين من قومه.

أي: فلا تأس على تكذيب كثير من بني إسرائيل للقرآن الذي أُنزل عليك، فقد اختلفوا في الكتاب الذي أُنزل على نبيهم موسى عليه السلام، ولا تأس على اختلاف قومك فيما أُنزل إليك، فهذه حال الأمم مع رسلهم وما أُنزل إليهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأجيل العذاب وعدم معاجلتهم بالعقوبة إلى أجل معلوم في الدنيا، أو يوم القيامة.

﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ جواب ﴿لولا﴾، أي: لعوجلوا بالعقوبة، وقضي بينهم بإهلاك المكذبين ونصر المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ۝١٢٩ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٢٩، ١٣٠].

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، أي: وإن هؤلاء المكذبين الكافرين من أهل الكتاب والمشركين لفي شك من القرآن الكريم.

﴿مُرِيبٍ﴾، أي: قوي شديد موقع في الريبة وقلق النفس لصاحبه وللناس.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

قوله: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم: «وَإِنْ» بإسكان النون مخففة، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿وَإِنَّ﴾، و﴿كُلًّا﴾ منصوب بها على القراءتين، والتنوين في ﴿كُلًّا﴾ عوض عن المضاف إليه.

﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وعاصم وحمزة وخلف: ﴿لَّمَّا﴾ بتشديد الميم، وقرأ الباقون بتخفيفها: «لَـمَا»، واللام في قوله ﴿لَّمَّا﴾ لام الابتداء، واللام في قوله ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ لام القسم لقسم مقدر، أي: وإن كلًّا من الخلائق من آمن منهم ومن كفر، السابق منهم واللاحق ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: ليعطينهم ربك جزاء أعمالهم وافيًا تامًّا، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

وقد أكد عز وجل هذا بسبعة مؤكدات، وهي «إن» و«كل» واللام في «لَـمَّا»، و«مَا» على القول بأنها موصولة، والقسم المضمر في قوله ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ واللام الداخلة على جواب القسم، ونون التوكيد في قوله: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾.

وأضاف التوفية إلى الأعمال؛ للتنبيه على أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يُدان؛ كما قال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تعليل للتوفية؛ لأن خبرته بعملهم توجب أن يكون الجزاء مطابقًا للعمل تمام المطابقة، محققًا للتوفية، ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها أوفى الجزاء؛ لكمال علمه وتمام خبرته.

أي: إن ربك خبير بعملهم، أو بالذي يعملونه من خير أو شر، مطّلع على جميع أعمالهم، باطنها وظاهرها، دقيقها وجليلها، خفيّها وجليّها. وفي هذا وعد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾.

بعد أن بيّن اختلاف أهل الكتاب فيما أنزل على موسى عليه السلام، تسلية للنبي ﷺ وتحذيرًا للمكذبين له، وأنه سيوفي كلًّا عمله. أمره بالاستقامة كما أمر هو ومن تاب معه، ونهاهم عن الطغيان؛ تحذيرًا من الاختلاف الذي وقع فيه أهل الكتاب.

قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾، أي: فاستقم كما أمرك الله في القرآن أنت ومن آمن معك؛ ولهذا لما قال أبو عمرة الثقفي: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما نزل على رسول الله ﷺ آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه؛ ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشيب، قال: «**شيبتني هود وأخواتها**»، وسئل عما في هود، فقال: «﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ »(٢).

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾، أي: لا تتجاوزوا ما حدّه الله لكم، بمخالفة أمر الله، أو ارتكاب نهيه؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ [طه: ٨١].

وفي هذا تحذير من الاختلاف الذي وقع فيه أهل الكتاب، كما قال ﷺ: «ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»(٣).

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أي: إنه عز وجل بعملكم، أو بالذي تعملونه ﴿بَصِيرٌ﴾، أي: مطّلع عليه، لا تخفى عليه منه خافية، وسيجازيكم على ذلك، وفي هذا وعد لمن استقام على أمر الله، ووعيد لمن طغى وتجبّر.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٣٨، والترمذي في الزهد ٢٤١٠، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٢ – من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه بنحوه.

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة ٧٧٨٨، ومسلم في الحج ١٣٣٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٦١٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٩– من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝١١٣﴾.

قوله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ الركون: الميل والموافقة، أي: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا بالشرك بالله؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] أي: لا تداهنوهم ولا ترضوا أعمالهم، ولا تعتمدوا عليهم، ولا تثقوا بهم.

﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾، أي: فتصيبكم النار، والفاء: للسببية، أي: فيتسبب عن ركونكم إليهم أن تصيبكم النار.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يتولونكم بجلب النفع لكم.

﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾، أي: لا أحد ينصركم، وينقذكم من النار، ويدفع عنكم عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤﴾.

أمر الله عز وجل في الآيات السابقة النبي ﷺ بالاستقامة كما أُمر هو ومن تاب معه، وهو أمر عام، ثم خص الصلاة هنا؛ لعظمها وفضلها.

سبب النـزول:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أن رجلًا أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟ قال: لجميع أمتي كلهم»(١).

وفي رواية قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبت منها ما دون أن أمسها، فأنا هذا، فاقض فيَّ ما شئت. فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت على نفسك، قال: فلم يرد النبي ﷺ شيئًا، فقام الرجل

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٢٦، وفي تفسير سورة هود ٤٦٨٧، ومسلم في التوبة ٢٧٦٣، والترمذي في التفسير ٣١١٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٩٨.

فانطلق، فأتبعه النبي ﷺ رجلًا دعاه، وتلا عليه هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ فقال رجل من القوم، يا نبي الله هذا له خاصة؟ قال: بل للناس كافة»(١).

قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: فرضها ونفلها، وهذا أمر له ﷺ ولأمته؛ لأن الصلاة من أعظم الواجبات.

﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾، أي: أول النهار وآخره، في الصباح والمساء، ويدخل في هذا صلاة الفجر والظهر، وصلاة العصر والمغرب، والرواتب والنوافل قبلهما أو بعدهما.

﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ قرأ أبو جعفر بضم اللام: «وَزُلُفًا»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَزُلَفًا﴾.

و «الزلف»: جمع زلفة، أي: طائفة من أول الليل، أو ساعات من الليل، ويدخل في هذا صلاة العشاء والنفل قبلها والراتبة بعدها، وقيام الليل.

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، ﴿إِنَّ﴾ تفيد التعليل والتوكيد وتحقيق الخبر.

أي: إن الصلوات الخمس وغيرها من الفرائض، وما ألحق بها من النوافل من أكبر الحسنات التي تقرب إلى الله تعالى وتوجب الثواب وتذهب السيئات، أي: الذنوب الصغائر وتمحوها؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال ﷺ: **«الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»**(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«أرأيتم لو أن بباب أحدكم**

---

(١) أخرجها مسلم في الموضع السابق ٢٧٦٣، والترمذي في الموضع السابق ٣١١٢، وأبو داود في الحدود ٤٤٦٨.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة- فضل الوضوء والصلاة عقبه ٢٣٣، والترمذي في الصلاة ٢١٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٨٦- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

نهرًا غمرًا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟» قالوا: لا يا رسول الله. قال: «وكذلك الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا»(١).

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ، ثم قال: «هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ» وقال: «من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدّث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه»(٢).

وعن أبي بكر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يذنب ذنبًا فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له»(٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن»(٤).

وعن أبي ذر ومعاذ رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»(٥).

فالحسنات- وهي الصلاة وأعمال البر كلها- تذهب السيئات أي: تكفرها وتزيلها وتمحو إثمها بعد وقوعها، كما أنها سبب للحيلولة دون وقوعها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ الإشارة لقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، أو له ولما قبله من قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [الآيات: ١١٢- ١١٤].

أي: ذلك تذكير وعظة للذاكرين المتعظين، وخصّهم بذلك؛ لأنهم هم الذين

---

(١) أخرجه البخاري في المواقيت- الصوات الخمس كفارة ٥٢٨، ومسلم في المساجد- المشي إلى الصلاة تُمحى به الخطايا وترفع به الدرجات ٦٦٧، والنسائي في الصلاة ٤٦٢، والترمذي في الأمثال ٢٨٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء- الوضوء ثلاثًا ثلاثًا ١٦٠، ومسلم في الطهارة صفة الوضوء وكماله ٢٢٦، وأبو داود في الطهارة ١٠٦، والنسائي في الطهارة ٨٤.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢.

(٤) أخرجه أحمد ١/ ٣٨٧.

(٥) أخرجه أحمد ٥/ ٢٢٨، ٤٣٧.

ينتفعون بالذكرى ويتعظون، وإلا فالقرآن كله ذكرى وهدى للناس أجمعين.

قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾.

قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾، أي: واصبر أنت ومن آمن معك على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى ما يصيبك في ذات الله في سبيل تبليغ رسالته.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالصبر، أي: لأن الله لا يضيع أجر المحسنين، أي: فالصبر من الإحسان، والله لا يضيع ثواب المحسنين، الذين أحسنوا بالصبر على طاعة الله، فأحسنوا في عبادة الله بالإخلاص لله والمتابعة لشرعه، وأحسنوا إلى عباد الله، والذين أحسنوا بالصبر على ما يصيبهم في ذات الله، وعن معصيته، بل يجازيهم بالإحسان؛ كما قال تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وإيتائه الكتاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

٢- اختلاف أهل الكتاب في التوراة التي جاءهم بها موسى عليه السلام بين مصدّق بها ومكذب لها؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾.

٣- تسلية النبي ﷺ تجاه تكذيب كثير من أهل الكتاب والمشركين له بذكر الاختلاف على موسى عليه السلام في الكتاب الذي آتاه الله إياه، وتكذيب كثير من أهل الكتاب له.

٤- في ذكر الاختلاف على موسى عليه السلام، تحذير للمكذبين للنبي ﷺ مما حل بمن كذبوا موسى عليه السلام.

٥- تهديد المكذبين للنبي ﷺ، وأنه: لولا ما سبق في تقدير الله الكوني من تأجيل العذاب إلى أجل معلوم في الدنيا أو يوم القيامة لعوجلوا بالعقوبة، وقُضي بينهم بإهلاك المكذبين وإنجاء المؤمنين، لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَّبِّكَ﴾.

٧- شك كثير من المكذبين من أهل الكتاب والمشركين بالقرآن شكًّا مريبًا؛ لقوله

تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

٨- إثبات وتأكيد مجازاة الخلائق بأعمالهم جزاءً وافيًا، وفي هذا وعيد للكافرين ووعد للمؤمنين؛ بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

٩- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يُدان؛ لإضافة التوفية إلى الأعمال.

١٠- خبرة الله تعالى وبصره وعلمه الواسع بأعمال الخلق، واطلاعه التام عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

١١- أمر الله تعالى له ﷺ بالاستقامة كما أمر ومن آمن معه، ونهيهم عن الطغيان؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾؛ وهذا كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

١٢- التحذير من الاختلاف في القرآن كما اختلف أهل الكتاب في التوراة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾.

١٣- تحذير المؤمنين من الركون والميل إلى الذين ظلموا بالشرك والكفر، ومداهنتهم فتصيبهم النار، ويتخلى الله عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

١٤- في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الآية؛ سد ذرائع الفساد المحققة والمظنونة.

١٥- أنه لا ولي لأهل النار من دون الله يجلب لهم نفعًا، ولا نصير لهم من دونه ينصرهم وينقذهم من النار، ويدفع عنهم عذاب الله.

١٦- أمر الله عز وجل له ﷺ، وهو أمر له ولأمته بإقام الصلوات الخمس المفروضة في أوقاتها، وما يتبعها من الرواتب والنوافل، وقيام الليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾.

١٧- عظم أمر الصلاة في الإسلام وفضيلتها، فرضها ونفلها؛ ولهذا خصها بالذكر بعد الأمر العام بالاستقامة.

١٨- الترغيب في فعل الحسنات من الصلاة وغيرها من العبادات؛ لأنهن يذهبن

ويمحون السيئات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

١٩- أن في أمره ﷺ بالاستقامة كما أمر هو والذين آمنوا معه، ونهيهم عن الطغيان، وتحذيرهم من الركون إلى الظالمين، وأمرهم بإقام الصلاة فرضها ونفلها؛ ذكرى وعظة لمن يتذكر ويتعظ؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾

٢٠- الحث على التذكر والاتعاظ بالآيات وما فيها من العظات؛ لأنه لا ينتفع بها إلا الذاكرون المتعظون؛ ولهذا خصّهم بالذكر فقال: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ وإن كانت لهم ولغيرهم.

٢١- أمر الله عز وجل له ﷺ بالصبر على ما أمره الله به من الاستقامة كما أمر من طاعة لله تعالى، وتبليغ الرسالة، وإقام الصلاة، وعلى ما يصيبه في ذات الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ﴾.

٢٢- أنه لا بد للقيام بأمر الله من الصبر بأنواعه الثلاثة: على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

٢٣- فضيلة الصبر، وأنه من الإحسان، والترغيب فيه وفي الإحسان؛ لأن الله لا يضيع أجر المحسنين، لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الفاء: استئنافية، و«لولا»: حرف تحضيض فيه معنى النفي، ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ الخطاب لهذه الأمة ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾، أي: أصحاب بقية، أي: بقايا من أهل الخير والعقل والدين، أي: فهلا وجد من الأمم الماضية من قبلكم أولو بقية من خير ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: أنه لم يوجد منهم أولو بقية.

﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: ينهون قومهم عن الفساد في الأرض، أي: عن الشرك والكفر والمعاصي؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ «إلا»: حرف استثناء، ﴿قَلِيلًا﴾ منصوب على الاستثناء، ﴿مِّمَّنْ﴾ «مِن»: بيانية، و«مَن»: موصولة، أي: إلا قليلًا من الذين أنجينا منهم بعد إهلاك المكذبين، وهم أتباع الرسل؛ لنهيهم عن الفساد، وهؤلاء هم الذين وصفهم الرسول ﷺ بالغرباء، كما في حديث عوف بن زيد بن ملحة، عن أبيه، عن جده رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الدين بدأ غريبًا ويرجع غريبًا، فطوبى**

للغرباء الذين يُصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي»(١).

وفي قوله: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ إشارة وبشارة إلى أن هذه الأمة لا يكونون كذلك، بل يكون فيهم أولو بقية من خير، وفيه تنويه بأصحاب رسول الله ﷺ وأتباعه، فإنهم أولو بقية من قومهم بين غيرهم من الأمم، يدعون قومهم إلى الإيمان، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر؛ كما قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] امتثالًا لأمر الله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٌ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقوله ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»(٢).

﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالشرك والكفر والمعاصي، وتكذيب الرسل، وهم الأكثرون.

﴿مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ﴾ «ما»: موصولة، أي: الذي أترفوا فيه، أي: متعوا ونعموا فيه من الرزق ولذات الدنيا وشهواتها.

﴿وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ باستمرارهم على الفساد والظلم، واتباع ما أترفوا فيه، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدم الالتفات إلى من ينهاهم عن المنكر؛ كما قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان ٢٦٣٠، وقال «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ٩٥٦، ومسلم في الإيمان ٤٩، وأبو داود في الصلاة ١١٤٠، والنسائي في الإيمان ٥٠٠٨، والترمذي في الفتن ٢١٧٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٢٧٥- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ [الأعراف: ١٦٤-١٦٦].

وفي الآية تحذير لغيرهم أن يقع فيما وقعوا فيه، وأخذ العبرة مما أصابهم، والسعيد من وعظ بغيره.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أو له ولكل من يصلح له، واللام في قوله ﴿لِيُهْلِكَ﴾ للتوكيد، ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾، أي: القرى وأهلها، ﴿بِظُلْمٍ﴾ الباء للسببية.

﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ الجملة: حالية، أي: ما كان ربك يا محمد ليهلك القرى بظلم منه لها، والحال أن أهلها مصلحون، أي: مقيمون على الصلاح مستمرون عليه.

أي: أنه لم يكن ظالمًا لهم حين أهلكهم؛ لأنه إنما أهلكهم؛ لأنهم مفسدون ظالمون لأنفسهم بالشرك والكفر والمعاصي، ولم يكن ليهلكهم لو كانوا مصلحين غير ظالمين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

وأيضًا: وما كان ربك ليهلك القرى بظلم منهم سابق وهم مصلحون الآن، أي: لم يكن ليهلكهم بظلم منهم سابق بعدما تابوا وأصلحوا عملهم؛ فإن الله يعفو عنهم، ويمحو ما تقدم من ظلمهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

لما ذكر إهلاك كثير من الأمم؛ لقلة من ينهى عن الفساد فيهم، واتباعهم الترف وإجرامهم، وبيّن أن هلاكهم إنما كان بسبب ظلمهم؛ إذ لو كانوا مُصلحين ما أُهلكوا؛ أتبع ذلك ببيان أن له الحكمة في ذلك، فلو شاء لجعل الناس أمة واحدة على الحق،

ولكن حكمته اقتضت أن يختلفوا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [يونس: ١٩] ليميز الله الخبيث من الطيب.

قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ «لو»: حرف امتناع لامتناع، وهي شرطية غير عاملة، و«شاء»: فعل الشرط، أي: ولو أراد ربك كونًا وقدرًا، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ جملة جواب الشرط، أي: ولو شاء ربك أن يجعل الناس أمة واحدة على دين واحد لجعلهم كذلك، أي: ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة على الدين الإسلامي لفعل؛ لأنه عز وجل ما شاء كان، ولا يمتنع عليه شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، أي: وسيستمرون مختلفين؛ لأن حكمته الكونية القدرية ومشيئته اقتضت ذلك، ولم يشأ جعلهم أمة واحدة على دين واحد.

أي: ولا يزال الاختلاف بينهم على أديان واعتقادات وملل ونحل ومذاهب شتى، كل يرى الحق في قوله، وما هو عليه، ويرى الضلال في قول ومنهج غيره، كما قيل:

وكل يدعي وصلًا بليلى   وليلى لا تقر لهم بذاك(١)

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ «إلا»: حرف استثناء، و«من»: اسم موصول مبني في محل نصب على الاستثناء، أي: ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، فعصمهم من الاختلاف، وهداهم ووفقهم إلى الإيمان، والعلم بالحق والعمل به، والاتفاق عليه، والثبات على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، كما قال ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة**»، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»(٢).

---

(١) البيت ينسب لمجنون ليلى. انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٤/ ٧١).

(٢) أخرجه أبو داود في السنة ٤٥٩٦، والترمذي في الإيمان- افتراق هذه الأمة ٢٦٤٠، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٠، ٣٩٩٢، وأحمد ٢/ ٣٣٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أحمد أيضًا ٣/ ١٢٠ من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ اللام: للتعليل، وقدّم ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾؛ للاهتمام بالعلة، والإشارة إلى الاختلاف المأخوذ من قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، أي: ولذلك الاختلاف خلقهم، أي: اقتضت حكمته وإرادته الكونية ومشيئته اختلافهم؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

قال السعدي(١): «ليتبيّن للعباد عدله وحكمته، وليظهر ما في الطباع البشرية من الخير والشر، ولتقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالابتلاء والامتحان».

وأما حكمته عز وجل، وإرادته الشرعية بخلقهم، فهي أن يعبدوه وحده؛ كما قال تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

ولهذا قال بعض السلف في قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، أي: للرحمة خلقهم، والإشارة على هذا ترجع إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، أي: أن حكمته عز وجل وإرادته الشرعية في خلقهم لعبادته ورحمته.

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ هذا تفسير وبيان للمراد بقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ وأن المراد: ولذلك الاختلاف خلقهم كونًا وقدرًا، فمنهم شقي وسعيد.

قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾، أي: وسبقت كلمة ربك- يا محمد- وقدره وقضاؤه المكتوب في اللوح المحفوظ في الأزل.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لأملأن، و«جهنم» اسم من أسماء النار، سُميت به لجهمتها وظلمتها، وبُعد قعرها، وشدة حرها.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٣/ ٤٧٠.

﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ﴾، أي: من الجن، و﴿وَٱلنَّاسِ﴾ الإنس، ﴿أَجۡمَعِينَ﴾، أي: من الثقلين كلهم جميعًا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا الضعفة من الناس وسقطهم. وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. فقال الله عز وجل للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، وقال للنار: أنت عذابي أنتقهم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقًا يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول هل من مزيد حتى يضع عليها رب العزة قدمه، فتقول: قط قط وعزتك»(١).

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٠﴾.

قوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ الواو: عاطفة، و﴿وَكُلًّا﴾ مفعول مقدم لـ ﴿نَّقُصُّ﴾ والتنوين عوض عن المضاف إليه المُبيَّن بقوله: ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾، أي: وكل نبأ نقص عليك ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ بيان له أو صفة، أي: كل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل قبلك مع أممهم، وما حصل لهم من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله أولياءه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين.

﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ «ما»: موصولة، أو نكرة موصوفة، أو مصدرية في محل نصب بدلًا من «كلًّا» أو خبر لمبتدأ تقديره: هو ما نثبّت به فؤادك. والتثبيت: التسكين والطمأنة، أي: ما نسكن ونطمئن ونقوي به قلبك ونسليك، فلا تجزع من تكذيب من كذّبك، ولا يضيق صدرك، ولتعلم ما لقيت الرسل من قبلك من أممهم، فتصبر كما صبر أولو العزم من الرسل؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ﴾، أي: وجاءك في هذه السورة، أو في هذه الآيات وغيرها من

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، ما جاء في قوله: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ٧٤٤٩، ومسلم في الجنة ونعيمها وأهلها، النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٤٦.

آيات القرآن الكريم، ﴿ٱلْحَقُّ﴾، أي: الحق الثابت اليقين الذي يدحض الباطل ويزيله؛ كما قال تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال: ٨].

﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: وعظة وعبرة لمن يتعظ ويعتبر، وتذكير للمؤمنين الذين ينتفعون بالآيات ويتذكرون، ونكّر «موعظة» و«ذكرى» للتعظيم.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: وقل للذين لا يصدقون بما جئتهم به مهددًا لهم: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، أي: على حالتكم وطريقتكم ومنهجكم، واستمروا على ذلك، وهذا كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ [هود: ٩٣].

﴿إِنَّا﴾، أي: أنا ومن آمن بي ﴿عَٰمِلُونَ﴾ على حالنا وطريقتنا ومنهجنا.

﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾، أي: ترقبوا لمن تكون العاقبة، أهي لنا أم لكم؟ أو ترقبوا ما يحل بنا.

﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، أي: مترقبون ما يحل بكم.

وفي هذا تهديد ووعيد للذين لا يؤمنون؛ كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام: ١٣٥]، وقال تعالى في سورة الزمر: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الزمر: ٣٩، ٤٠].

وقد أنجز الله عز وجل لرسوله ﷺ وعده ونصره وأيّده، وجعل كلمته العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الواو: استئنافية، واللام: للملك

والاختصاص، أي: ولله وحده ملك وعلم ما غاب عن علم الناس من جميع غيوب السموات والأرض، فهو وحده المحيط بذلك كله، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ قرأ نافع: «يَرجع» بالبناء للفاعل، وقرأ الباقون: ﴿يُرْجَعُ﴾ بالبناء للمفعول، أي: وإليه وحده يرد الأمر كله، والأمر اسم جنس، أي: وإليه يرجع جميع أمور الدنيا والآخرة، خلقًا وملكًا وتدبيرًا، بيده التوفيق والنصر، والخذلان والحرمان؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] إليه إياب جميع الخلائق وعليه حسابهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، أي: فاعبده وحده، واعتمد عليه، وفوض أمرك إليه دون غيره، وداوم على ذلك، فإنه كافٍ لمن عبده واستعان به وتوكل عليه؛ كما قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]

وفي الآية تعريض بذم الذين عبدوا آلهة غير الله، وفساد آرائهم، وسفههم في عبادتهم آلهة لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بتاء الخطاب، خطابًا للنبي ﷺ والناس معه في الخطاب، وقرأ الباقون: «يعملون» بياء الغيبة، أي: عما يعمل الكفار.

أي: وما ربك يا محمد بغافل عن الذي تعملون، أو عن عملكم، أنت ومن معك من المؤمنين، ولا عن عمل من خالفكم من الكافرين، بل هو مطّلع على أعمالكم جميعًا، محيط بها، محصٍ لها، وسيحاسب ويجازي كلًّا بعمله، خيرًا كان أو شرًّا، وفي هذا تسلية له ﷺ، وتهديد للمشركين.

الفوائد والأحكام:

١- خلو كثير من الأمم السابقة من أولي بقية من أهل الخير ينهون قومهم عن

الفساد في الأرض إلا قليلًا ممن أنجاهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

٢- حاجة كل أمة إلى أهل بقية من أهل الخير والعلم والصلاح ينهون عن الفساد في الأرض والمنكر، ويأمرون بالمعروف.

٣- الإشارة والبشارة لهذه الأمة بأنها لا تخلو من أولي بقية ينهون عن الفساد في الأرض، والتنويه بأصحاب رسول الله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية.

٤- أن النهي عن الفساد في الأرض سبب للنجاة من الهلاك والعقوبات؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: ١٦٥].

٥- اتباع الذين ظلموا من الأمم الماضية بالشرك والكفر ما أترفوا ونعموا فيه من لذات الدنيا وشهواتها، وإجرامهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾.

٦- ينبغي الحذر من مسلك الذين ظلموا بالشرك والكفر والميل إلى الترف والإجرام، والسعيد من وعظ بغيره.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بنبيه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾.

٨- كمال عدل الله عز وجل، وأنه عز وجل ما كان ليهلك القرى بظلم منه لها وأهلها مصلحون؛ وما كان ليهلكهم بظلم سبق منهم وقد تابوا ورجعوا عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

٩- أن الصلاح والإصلاح سبب للنجاة من الهلاك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

١٠- أنه عز وجل لو شاء وأراد كونًا لجعل الناس أمة واحدة على دين الإسلام كلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

١١- أن الله عز وجل لم يشأ جعل الناس أمة واحدة، بل شاء اختلافهم؛ لمفهوم قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، ولقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾.

١٢- أن الناس لا يزالون مختلفين على ملل ونحل واعتقادات ومذاهب شتى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

١٣- الترغيب في الاجتماع على الحق والتحذير من الاختلاف؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾.

١٤- أن الله خلق الناس للاختلاف كونًا وقدرًا، كما خلقهم شرعًا لعبادته؛ ليفوزوا برحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾.

١٥- إثبات كلمة الله وقدره السابق المكتوب في اللوح المحفوظ في الأزل بملء النار من الثقلين جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

١٦- إثبات جهنم وهي النار، وأنها موجودة معدة لأهلها.

١٧- إثبات وجود الجن، وأنهم مكلفون ومحاسبون ومجزيون بأعمالهم.

١٨- أن الحكمة من ذكر أخبار الأنبياء وقصّها عليه ﷺ، هو تثبيت قلبه ﷺ وتقويته وتسليته بذكر ما لقي الرسل من أقوامهم قبله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

١٩- بيان أن ما جاءه ﷺ في هذه السورة وفي الآيات كلها هو الحق الثابت اليقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾.

٢٠- أن ما جاءه ﷺ في هذه الآيات وغيرها عظة وعبرة لمن يتعظ ويعتبر، وتذكير للمؤمنين خاصة؛ لانتفاعهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢١- تهديد الذين لا يؤمنون وأمرهم بالانتظار لمن تكون العاقبة، وعلى من تكون الدائرة، وأن العاقبة للمؤمنين، والدائرة والعذاب على الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

٢٢- أن الله عز وجل يُمهل ولا يُهمِل.

٢٣- اختصاص الله عز وجل وحده بملك وعلم غيب السماوات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

٢٤- رجوع الأمر كله إلى الله تعالى خلقًا وملكًا وتدبيرًا: أمر الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾.

٢٥- وجوب عبادة الله تعالى وحده والتوكل عليه دون غيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾.

٢٦- لا بد من الجمع بين عبادة الله تعالى والتوكل عليه، فهما متلازمان؛ كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

فالتوكل على الله لا يستقيم ولا يعد توكلًا حقًّا إلا بعبادة الله تعالى وحده، وعبادته عز وجل لا تقوم إلا بالتوكل عليه والاستعانة به. وكما قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجني عليه اجتهاده[1]

٢٧- أن في الجمع بين هذين الأمرين- عبادة الله تعالى والتوكل عليه- القوة والمنعة والحصانة بإذن الله من جميع شرور الخلق، فمن وفق للجمع بينهما فهو محفوظ بحفظ الله تعالى، لسان حاله كما قال الشاعر:

سأعيش رغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشماء

النور في جبيني وبين جوانحي ... فعلام أخشى السير في الظلماء[2]

٢٨- علم الله تعالى الواسع واطلاعه التام على أعمال العباد، وأنه سيحاسبهم ويجازيهم عليها، خيرها وشرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

* * *

---

(١) البيت ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «الفرج بعد الشدة» (١/ ١٧٧).

(٢) البيتان لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» (ص١١).

تَفْسِيرُ سُورَةِ يُوسُفَ

المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة يوسف» لذكرها قصته مع أبيه وإخوته عليهم السلام، وما جرى له، ولم ترد الإشارة إلى قصته عليه السلام في أي سورة من القرآن، بل لم يرد ذكر اسمه إلا في سورة الأنعام وغافر.

ب- مكان نزولها:

نزلت سورة يوسف كلها بمكة.

ج- موضوعاتها:

١- افتتحت سورة يوسف ببيان فضل القرآن، وبيان الحكمة من نزوله عربيا، وأنه مشتمل على أحسن القصص، قال تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾.

٢- بيان الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام، ونُصْحِ يعقوب عليه السلام لابنه بكتمان تلك الرؤيا، وبيان اصطفاء الله ليوسف عليه السلام ونعمته عليه، قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦﴾ .

٣- بيان أن في قصة يوسف الكثير من العبر والعظات، قال تعالى: ﴿۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾.

٤- بيان ما كان من إخوة يوسف من المكر بيوسف ومحاولتهم قتله والتخلص منه، قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

٥- الحديث عن القافلة التي أخذت يوسف من الجب وباعته بثمن زهيد، وبيان وصية من اشتراه لامرأته بإكرام مثواه، وبيان ما أنعم الله به على يوسف من العلم والفهم، قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

٦- الحديث عن خبر امرأة العزيز مع يوسف، وبيان موقفها لما انتشر هذا الخبر، قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

٧- الحديث عن موقف يوسف من طلب امرأة العزيز ودعائه أن يخلصه الله من ذلك، واستجابة الله له ذلك، ثم بيان ما كان من دخوله السجن ودخول الغلامين معه وطلبهما تعبير رؤياهما، وبيانه للغلامين أنه متبع لملة آبائه مخلص لله في دينه وعبادته، ثم تصريحه بدعوة الغلامين إلى توحيد الله تعالى ونبذ الشرك، والشروع بتعبير رؤياهما، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

٨- الحديث عن رؤيا ملك مصر وتأويلها على يد يوسف عليه السلام، فكان ذلك سببا لإثبات براءته وظهور فضله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

٩- الحديث عن اللقاء الأول بين يوسف وإخوته، وطلب يوسف من إخوته الإتيان بأخيهم من أبيهم، ومحاولتهم إقناع أبيهم الموافقة على ذلك، وبيان أن أباهم

وافق على طلبهم، ووصاهم بألا يدخلوا مجتمعين من باب واحد، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

١٠- الحديث عن اللقاء الثاني بين يوسف وإخوته وبحضور بنيامين معهم، واحتيال يوسف عليه السلام بحجزه عنده، وطلب إخوة يوسف بأخذ أحدهم مكانه، ورفض يوسف لذلك، ثم بيان موقف يعقوب عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

١١- الحديث عن اللقاء الثالث بين يوسف وإخوته، الذي عرفهم يوسف فيه على نفسه، واعتذارهم عن فعلهم، وعفوه عليه السلام عنهم، وطلبه أن يذهبوا بقميصه ويلقوه على وجه أبيه، ثم تحدثت الآيات عن لقاء يوسف بأبويه، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

١٢- بيان ما في قصة يوسف من الحكم والأحكام والعبر والعظات والآداب، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾.

قوله: ﴿الٓر﴾: سبق الكلام على الحروف المقطعة في مطلع سورة البقرة.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: هذه آيات الكتاب، أي: القرآن، أي: هذه آيات القرآن المؤلَّفة من هذه الحروف، وأشار إليها بإشارة البعيد «تلك»؛ تعظيمًا لها.

وسمِّي القرآن بـ«الكتاب»؛ لأنه مكتوب عند الله عز وجل في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب بالمصاحف التي بأيدي المؤمنين.

﴿ٱلْمُبِينِ﴾ اسم فاعل نعت لـ«الكتاب»، أي: الكتاب البيِّن الواضح في نفسه، المُبيِّن الموضِّح للهدى من الضلال، وللحق من الباطل، والحلال من الحرام، ولما تحتاجه الأمة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾.

قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾، أي: إنا أنزلنا هذا الكتاب، و«إنَّا» لتأكيد إنزاله من عند الله تعالى.

﴿قُرْءَٰنًا﴾ بدل من ضمير «أنزلناه»، أو حال منه، «عربيًّا» صفة له، أي: حال كونه قرآنًا عربيًّا، أي: مقروءًا ومكتوبًا بلغة العرب، أفصح اللغات، وأبينها، وأشرفها، وأوسعها.

فهو أشرف الكتب، أنزل بأشرف اللغات، على أشرف الخلق وأفضل الرسل سيدنا ونبينا محمد ﷺ، بسفارة أشرف الملائكة جبريل عليه السلام، في أشرف بقاع الأرض مكة بلد الله الحرام، مشتملًا على أعظم الشرائع، وكان ابتداء إنزاله في أشرف الشهور شهر رمضان المبارك، فكمل له الشرف من جميع الوجوه.

ولا يشكل على هذا القول بأن في القرآن الكريم ألفاظًا غير عربية، مثل: «سجيل» و«المشكاة» و«إستبرق» ونحو ذلك؛ لأن هذه الألفاظ لما تكلَّمت بها العرب، ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة، وإن كانت غير عربية في الأصل.

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ «لعل»: للتعليل، والعقل: الفهم والعلم، والمعنى: إنا أنزلناه قرآنًا عربيًّا؛ لأجل أن تعقلوه، وتفهموا ما تضمَّنه من المعاني والأسرار، والحكم والأحكام، والمواعظ والأخبار، وغير ذلك، وتعملوا به، ولا يلتبس عليكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: ٤٤].

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾.

قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ افتتح الجملة بضمير العظمة «نحن»؛ للتنويه بالخبر، وقدم الضمير على الخبر «نقص»؛ لإفادة الاختصاص، أي: نحن نقص عليك لا غيرنا، وفي هذا رد لمن يطعن في القرآن؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل: ٢٤].

ومعنى ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾، أي: نخبرك ونعلمك، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾، أي: أبدعه طريقة، وأعجبه نظمًا وأسلوبًا، وأجمعه حكمًا وأحكامًا وعبرًا، وأصدقه خبرًا، وأبلغه إعجازًا وإيجازًا.

﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، والوحي: الإعلام بسرعة وخفاء، أي: بإيحائنا إليك هذا القرآن المشتمل على أحسن القصص التي لا يوجد في شيء من الكتب أحسن منها، بل ولا مثلها.

وليس المراد بأحسن القصص أن قصة يوسف عليه السلام هي أحسن قصص القرآن، بل قصص القرآن كلها أحسن القصص، وكلها في غاية الحسن؛ لأنها من عند الله تعالى الحكيم العليم، اللطيف الخبير، ومنها قصة يوسف، فهي من أحسن القصص وأوضحها وأبينها؛ لما فيها من التنقلات من حال إلى حال، من محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومنة، وغير ذلك.

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ الجملة: حالية، و«إن» واللام في قوله ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ للتوكيد، أي: وإن كنت من قبل إنزال القرآن عليك وإيحائه إليك

﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾، المراد بالغفلة هنا انتفاء العلم، أي: لمن الغافلين عن هذا القرآن، وعما فيه من القصص، أي: لا تعلم شيئًا من ذلك، ولم يخطر ببالك.

وفيه امتنان الله تعالى عليه ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

الفوائد والأحكام:

١- التحدي بالقرآن الكريم، وما فيه من الإيجاز والإعجاز والفصاحة والبيان؛ لقوله تعالى: ﴿الٓر﴾.

٢- تعظيم آيات القرآن الكريم وتشريفه؛ لقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فآياته أعظم الآيات، وهو أعظم الكتب وأفضلها على الإطلاق.

٣- بلوغ القرآن الغاية في البيان والتفصيل، فهو بيِّن جلي واضح، ومبيِّن للهدى من الضلال، وللحق من الباطل، والحلال من الحرام، وما تحتاج إليه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾.

٤- قيام الحجة على الناس بالقرآن؛ لما فيه من التفصيل والبيان والهدى.

٥- الامتنان بإنزال القرآن الكريم، وكونه بلسان عربي مبين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾.

٦- تشريف اللغة العربية؛ حيث أنزل الله تعالى بها القرآن الكريم أعظم كتبه وأشرفها، وحقَّ لها الشرف والفخر بذلك؛ كما قال حافظ إبراهيم على لسان هذه اللغة الخالدة:

وسعت كتابَ الله لفظًا وغاية ... وما ضقت عن آي به وعظاتِ[1]

٧- دلالة القرآن- بما فيه من الإعجاز في ألفاظه ومعانيه وأحكامه ومواعظه

---

(١) سبق ذكر القصيدة بأكملها في الكلام على مطلع سورة البقرة.

وأخباره، وغير ذلك- على أنه من عند الله عز وجل، المستحق للعبادة دون من سواه، وعلى صدق من جاء به؛ ولهذا سميت نصوصه «آيات».

٨- إثبات علو الله عز وجل على خلقه، فله عز وجل العلو المطلق: علو الذات، وعلو الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾، والإنزال يكون من أعلى إلى أسفل.

٩- أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل وليس بمخلوق، وفي هذا رد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾.

١٠- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لتكلمه عن نفسه بضمير الجمع وضمير العظمة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾، وقوله ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

١١- أن الله عز وجل أنزل الكتاب قرآنًا عربيًّا؛ لأجل أن تعقله الأمة، وتفهم معانيه وأسراره، وما تضمنه من الحكم والأحكام والمواعظ، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١٢- اشتمال القرآن الكريم في قصصه على أحسن القصص مطلقًا؛ في صدقها ونظمها وأسلوبها، وإيجازها وإعجازها، وفي حكمها وأحكامها وعِبرها، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾.

١٣- أن قصة يوسف وأبيه وإخوته من أحسن قصص القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ الآية.

١٤- أن نزول القرآن الكريم على النبي ﷺ من طريق الوحي بواسطة جبريل عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾.

١٥- إثبات رسالة النبي ﷺ وتشريفه بخطاب الله تعالى له.

١٦- أن النبي ﷺ لا علم له بالقرآن وقصصه قبل أن يوحيه الله تعالى إليه، وينزله عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

قوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾، أي: اذكر يا محمد لقومك حين قال يوسف لأبيه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، في قصة من أحسن القصص وأعجبها وأكملها.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «**أكرمهم عند الله أتقاهم**». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «**فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله**». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «**فعن معادن العرب تسألوني؟**». قالوا: نعم. قال: «**فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**»(٢).

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

قرأ أبو جعفر «يا أبتَ» بفتح التاء، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿يَا أَبَتِ﴾ أصله: يا أبي، وحذفت الياء، وعوض عنها تاء التأنيث، ونقلت إليها كسرة الباء، ثم فتحت الباء لمناسبة تاء التأنيث.

﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾، أي: في المنام، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كانت رؤيا الأنبياء

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٩٠، وأحمد ٢/ ٩٦.
(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٦٨٩، ومسلم في الفضائل ٢٣٧٨؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وحيًا»(١)، والرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوَّة، كما جاء في الحديث(٢).

﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾: قوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ تأكيد لقوله: ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾، وقد تأوَّل يعقوب عليه السلام هذه الرؤيا بأن الأحد عشر كوكبًا هم إخوته، والشمس أمه، والقمر أبوه، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكرامًا وتعظيمًا، في دلالة على اصطفاء الله تعالى له وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض، وشمول هذه النعمة آل يعقوب كلهم، كما أفصحت عنه الآيات بعد ذلك.

وهكذا فسَّر السلفُ رضي الله عنهم الآيةَ، فقالوا: الأحد عشر عبارة عن إخوته، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه.

وقد وقع تأويل هذه الرؤيا وتفسيرها بعد ذلك، قيل: بعد أربعين سنة، وقيل: بعد ثمانين، وقيل غير ذلك.

قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾﴾.

لما قصَّ يوسف عليه السلام على أبيه رؤياه- والتي تأوَّلها يعقوب بخضوع وسجود إخوته وأمه وأبيه له تعظيمًا له وإكرامًا- نهاه في هذه الآية أن يقصَّ رؤياه على إخوته؛ خشية أن يحسدوه، ويكيدوا له بتزيين الشيطان ذلك لهم.

قوله: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ ناداه بصيغة التصغير «بني» تصغير «ابن»؛ لصغر سنه، وشفقة

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ١٠.

(٢) أخرجه البخاري في التعبير ٦٩٨٩، وابن ماجه في تعبير الرؤيا ٣٨٩٠؛ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وأخرجه البخاري أيضًا مطولًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ «**رؤيا المؤمن**.....» ٧٠١٧، ومسلم في الرؤيا ٢٢٦٣، والترمذي في الرؤيا ٢٢٧٠.

عليه، وتحببًا إليه، وتلطفًا معه.

﴿لَا نَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾، أي: لا تقصَّ رؤياك على إخوتك، ولا تخبرهم بها، وإنما نهى يعقوب ابنه يوسف أن يقص رؤياه على إخوته؛ لما تدل عليه هذه الرؤيا من أنه سيكون له شأن عظيم، وسيهبه الله منزلة رفيعة، ويعطيه من فضله عطاء عظيمًا قد يحسده عليه إخوته؛ لأن كل صاحب نعمة محسود، كما قيل:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالقوم أعداء له وخصوم

كضرائر الحسناء قُلْنَ لوجهها ... حسدًا وبغيًا: إنه لذميم[1]

﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ الفاء: للسببية، و«الكيد»: المكر بخفية، أي: فيدبروا لك كيدًا بخفية؛ حسدًا منهم لك أن يكون لك الشرف والفضل عليهم، و﴿كَيْدًا﴾ مفعول مطلق مؤكِّد لفعله، والتنوين فيه للتعظيم والتهويل، أي: فيكيدوا لك كيدًا عظيمًا، ويبغوك الغوائل.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليل للنهي عن قصِّ الرؤيا على إخوته، أي: لأن الشيطان للإنسان عدو بيِّن العداوة ظاهرها، لا يألو جهدًا في إغواء من أطاعه، أي: فقد يحمل إخوتك ويزين لهم أن يكيدوا لك كيدًا، ويمكروا بك، ويحتالوا لكي يردوك؛ حسدًا من عند أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾: هذا وما بعده إلى آخر الآية من تتمة كلام يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام، وما توقعه له من الخير والبركة من خلال تأمله في رؤياه، و«الكاف» في قوله «كذلك»: حرف تشبيه بمعنى: «مثل»، أي: ومثل هذا الاجتباء والاصطفاء بإراءتك هذه الرؤيا العظيمة الشأن الدالة على ما سيمنحك الله عز وجل من التمكين والمنزلة الرفيعة، كذلك يجتبيك ربك ويصطفيك، ويختارك لما هو أعظم وأهم.

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، أي: ويعلمك من تعبير الرؤيا والمنامات وبيان ما

---

(١) البيتان لأبي الأسود الدؤلي. انظر: «ديوانه» (ص٤٠٤).

تؤول إليه وتفسيرها.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بالنبوة والرسالة مع الملك والرياسة.

﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، أي: ويتم نعمته أيضًا على آل يعقوب- وهم أهله وذريته- باصطفائه لك، وإتمام نعمته عليك بالنبوة والرسالة، وبركة ذلك عليهم.

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾، أي: مثل ما أتم نعمة النبوة والرسالة من قبل ذلك على أبويك: إبراهيم خليل الرحمن، وابنه إسحاق عليهما السلام، فإبراهيم جد يوسف الأعلى، وإسحاق جده الأدنى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تعليل لما قبله، ويحتمل أن يكون هذا من تتمة كلام يعقوب عليه السلام، فيكون الخطاب فيه ليوسف عليه السلام.

ويحتمل أن يكون مستأنفًا من كلام الله عز وجل، فالخطاب فيه لنبينا محمد ﷺ، ولكل من يصلح له.

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو العلم الواسع لكل شيء، ﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية، فهو سبحانه عليم بمن هو أهل لحمل الرسالة، حكيم فيما شرعه وقدره، يضع الأمور مواضعها: قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ وأمته بقصة يوسف وأبيه وإخوته، وما جرى له مع امرأة العزيز وملك مصر، وغير ذلك، وما في ذلك من العظات والعبر؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ الآيات.

٢- إثبات علم الرؤيا وتأويلها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾

[الأنفال: ٤٣]، وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما بديء به من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»(١).

ولهذا قال ﷺ: **«الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»**(٢).

وقال ﷺ: **«يا أيها الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم، أو ترى له»**(٣).

وقال ﷺ: **«الرؤيا ثلاث: رؤيا من الله، ورؤيا من الملك، ورؤيا من الشيطان»**(٤).

وفي رواية: **«الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان، فإذا رأى أحدكم شيئًا يكرهه فلينفث عن يساره ثلاث مرات، ثم ليتعوذ من شرها؛ فإنها لا تضره»**(٥).

٣- جواز- بل استحباب- الإخبار بالرؤيا إذا كانت حسنة، وخاصة لمن يحب؛ لأن يوسف أخبر بها أباه، وقد قال ﷺ: **«الرؤيا الحسنة من الله، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر، وليتفل عن يساره ثلاثًا، وليستعذ بالله من شرها، ولا يحدث بها أحدًا؛ فإنها لا تضره»**(٦).

وقال ﷺ: **«الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت، ولا تقصها إلا على وادٍّ، أو ذي رأي»**(٧).

---

(١) أخرجه البخاري مطولًا في التعبير ٦٩٨٢، ومسلم في الإيمان ١٦٠، والترمذي في المناقب ٣٦٣٢.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٧٩، وأبو داود في الصلاة ٨٧٦، والنسائي في التطبيق ١٠٤٥، وابن ماجه في تعبير الرؤيا ٣٨٩٩- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في التعبير ٢٥٣٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجها أبو داود من حديث أبي قتادة أبو داود في الأدب ٥٠٢١، والترمذي في الرؤيا ٢٢٧٧، وابن ماجه في تعبير الرؤيا ٣٩٠٩.

(٦) أخرجه البخاري في التعبير ٧٠٤٤، ومسلم في الرؤيا ٢٢٦١؛ من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

(٧) أخرجه أبو داود ٥٠٢٠، وابن ماجه في الرؤيا- الرؤيا إذا عبرت وقعت ٣٩١٤، وأحمد ٤/ ١٠؛ من حديث أبي رزين رضي الله عنه.

٤- في كون الكواكب الأحد عشر في هذه الرؤيا عبارة عن إخوته، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه ما يدل على أن بيت يعقوب وأهله وذريته بيت خير وهدى، يشع منه الإيمان والنور؛ لهذا شبهوا جميعًا بالكواكب.

٥- أن السجود تكريمًا وتوقيرًا لذوي المكانة والسيادة، كان جائزًا في شريعة يعقوب وشريعة يوسف عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾، وهذا لا يجوز في شرعنا المطهر.

٦- نهي يعقوب عليه السلام ليوسف عليه السلام وتحذيره له من أن يقص رؤياه على إخوته؛ خشية أن يحسدوه فيكيدوا له كيدًا؛ ليُرْدوه، لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾.

٧- تلطف يعقوب مع ابنه يوسف، وشفقته عليه، وتحببه إليه؛ لقوله في ندائه له: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾.

٨- لا ينبغي أن تقص الرؤيا على من لا يُطمأن إليه، بل يخشى شره، وفي الحديث: «**ولا تخبر بها إلا من تحب**»(١).

٩- أنه يجوز للإنسان إخفاء بعض ما أنعم الله به عليه؛ إذا خشي حسد الحاسدين وعدوان الظالمين؛ لأن يعقوب عليه السلام نهى يوسف عليه السلام من إخبار إخوته بهذه الرؤيا العظيمة؛ فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾.

لكن ينبغي الحذر مما عليه كثير من الموسوسين من التكتم والتستر على كل شيء، حتى مما لا داعي لإخفائه مخافة العين، حتى صار ذلك ديدنًا وعادةً لكثير من الناس، شب عليه الصغير، وشاب وهرم عليه الكبير، حتى ظن كثير من هؤلاء أنهم بهذا التكتم هم الذين حفظوا أنفسهم، ونسوا قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ [يوسف: ٦٤] وأوغلوا في الاعتماد على الأسباب، وضعف إيمانهم واعتمادهم على الله عز وجل مسبب الأسباب، حتى صار كثير منهم يخشون الناس أشد من خشية الله تعالى، وصار ذلك سببًا للعداوة بين الأقارب والجيران، وفقدان الثقة والطمأنينة فيما بينهم.

---

(١) سبق تخريجه.

ولست بهذا أدعو إلى إظهار ما لا ينبغي إظهاره، ولكنني أدعو إلى عدم إخفاء ما لا ينبغي إخفاؤه، وإلى الاعتماد على الله تعالى، والثقة به، مع فعل الأسباب، وعدم الركون إليها.

١٠- أن يعقوب عليه السلام قد عبّر هذه الرؤيا وعرف تأويلها، وما فيها من البشارة ليوسف بما سيعطيه الله من الفضل والسيادة والتمكين؛ ولهذا نهاه أن يقصها على إخوته.

١١- تخوف يعقوب وتوقعه حسد إخوة يوسف وكيدهم له، كما هي العادة بين الإخوة والأقارب والأقران.

١٢- أن الكيد والحسد قد يحصل من المؤمن؛ ولهذا لما قيل للحسن: «هل يحسد المؤمن؟ قال: وما أنساك بني يعقوب، لا أبا لك، حيث حسدوا يوسف»(١).

١٣- جواز ذكر الإنسان بما يكره إذا كان ذلك على وجه النصيحة لغيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾، وقال ﷺ لفاطمة بنت قيس لما ذكرت له أن معاوية وأبا جهم خطباها: «**أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، انكحي أسامة**»(٢).

١٤- عداوة الشيطان للإنسان عداوة بينة ظاهرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

١٥- حرص الشيطان على الإفساد بين الإخوة والأقارب، وجعل بعضهم يكيد لبعض، ويحسد بعضهم بعضًا، مما يوجب الحذر منه.

١٦- أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، والأنبياء ينزهون عن مثل هذا، وليس للشيطان عليهم سلطان، وعلى هذا عامة السلف وأكثر الخلف؛ لأنه ليس في الكتاب والسنة ما يدل على أنهم أنبياء، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، لا من الصحابة ولا من التابعين.

---

(١) أخرجه في «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» (ص١٣٦)، وذكره في «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٨٩).

(٢) أخرجه مسلم في الطلاق ١٤٨٠، وأبو داود في الطلاق ٢٢٨٤، والنسائي في النكاح ٣٢٤٥؛ من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها.

وقيل بأنهم أنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ونحوها من الآيات، وأنهم هم الأسباط.

١٧- إثبات نبوة يوسف عليه السلام، وأنه كما اصطفاه الله عز وجل بأن أراه هذه الرؤيا العظيمة التي تدل على ما سيعطيه الله له من الفضل والتمكين، كذلك يجتبيه ويختاره لما هو أعظم وأهم من تعليمه تأويل الأحاديث، وإتمام نعمة الله تعالى عليه بالنبوة والرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾.

١٨- إتمام الله نعمته على آل يعقوب ﴿أهله وذريته﴾ بنبوة يوسف عليه السلام وبركة ذلك عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ فالنعمة على العبد نعمة على أهله وذويه.

١٩- إثبات نبوة إبراهيم وإسحاق، وإتمام الله تعالى عليهما النعمة بالنبوة والرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾.

٢٠- أن الجد يسمى أبًا؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾، فإبراهيم جد يوسف الأعلى، وإسحاق جده الأدنى.

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة ليوسف عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾.

٢٢- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل؛ لقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾.

٢٣- إثبات صفة الحكم التام لله عز وجل: الحكم الكوني والشرعي والجزائي، وصفة الحكمة البالغة: الحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿۞لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضٗا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمٗا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدٗا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾.

قرأ ابن كثير: «آية» بالإفراد، وقرأ الباقون: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بالجمع.

أي: لقد كان في قصة يوسف وخبره وإخوته وحديثهم ﴿ءَايَٰتٌ﴾، أي: عبر وحكم وعظات، ودلائل على تمام قدرة الله تعالى وحكمته في كل شيء، وعلى صدق النبي ﷺ، وأن القرآن وحي من عند الله عز وجل.

﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾، أي: لمن سأل عن نبئهم، وما فيه من العبر والعظات، بلسان الحال أو بلسان المقال؛ للانتفاع بذلك، أما من أعرض فإنه لا ينتفع بالآيات، ولا يعي ما فيها من العبر والعظات.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾.

يظهر- والله أعلم- أن يوسف عليه السلام أخبر إخوته برؤياه؛ مما أثار حفيظتهم عليه وعلى أبيهم، فحكموا على أبيهم بهذا الحكم الجائر، وأخذوا في التدبير للكيد لأخيهم يوسف.

قوله: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ «إذ»: ظرف بمعنى «حين»، أي: حين قال إخوة يوسف فيما بينهم: ﴿لَيُوسُفُ﴾ اللام: للتوكيد، ﴿وَأَخُوهُ﴾، أي: شقيقه بنيامين، ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾، أي: إن أبانا يقدمهما ويفضلهما في المحبة علينا.

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أننا عصبة، أي: جماعة أقوياء ذوو عدد؛ والعصبة من الثلاثة إلى العشرة، وكانوا عشرة دون يوسف وبنيامين؛ فكيف يؤثر أبونا يوسف وأخاه ويقدمهما في المحبة علينا.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ «إن» واللام: للتوكيد، أي: إن أبانا في تقديم محبة يوسف وأخيه علينا، ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، أي: لفي خطأ وبعد عن الحق والصواب بيِّن واضح.

وما علموا ما كان يتوسمه عليه السلام في يوسف من اجتباء الله له واصطفائه، وخاصة بعد تلك الرؤيا العظيمة، وكأنهم لم يعلموا أن تقديم محبة الأصغر أمر جِبلي فطر عليه الآباء؛ ولهذا لما قيل لرجل: أي أولادك أحب إليك؟ قال: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يشفى، والغائب حتى يرجع.

قوله تعالى: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

هكذا أخذوا في تدبير الكيد لأخيهم يوسف كما خشي ذلك أبوهم.

قوله: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾، أي: تخلصوا من يوسف واستريحوا منه، إما بقتله، أو ألقوه في أرض مهلكة بعيدة، لا يتمكن من الرجوع منها إلى أبيه.

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ جواب الأمر «اقتلوا»، أي: يخلص لكم وجه أبيكم ويتفرغ لكم، ويقبل عليكم، وتخلص لكم شفقته ومحبته.

﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾، أي: وتكونوا من بعد التخلص من يوسف بقتله أو طرحه أرضًا مهلكة ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ بأن تتوبوا إلى الله تعالى من فعلتكم هذه، فأضمروا التوبةَ قبل الذنب؛ تسهيلًا وتهوينًا لجرمهم، وتشجيعًا من بعضهم لبعض على هذا العمل الشنيع القبيح.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

قوله: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾.

كأن هذا القائل أحسنهم رأيًا في يوسف، وأخفهم شدة عليه، فنهاهم عن قتله

استعظامًا للقتل، وأمرهم بالاكتفاء بإلقائه في غيابة الجب إن كانوا لا بد فاعلين، ووافقوه على ذلك، قيل: إن هذا القائل هو روبيل أكبرهم، وقيل: غيره.

ولم يكن لهم سبيل إلى قتله؛ لأن الله أراد أن يجتبيه، ويتم عليه نعمة النبوة والرسالة والرياسة والملك، فصرفهم عنه بهذه المقالة.

وأظهر في مقام الإضمار في قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ ولم يقل: لا تقتلوه؛ استجلابًا لشفقتهم، واستعظامًا لقتله، وإظهارًا لشناعته.

﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾: قرأ نافع بالجمع: «غيابات»، وقرأ الباقون بالإفراد: ﴿غَيَابَتِ﴾، و«غيابة الجب»: أسفله وجوفه وقعره، و«الجب»: البئر التي لم تطو بالحجارة.

﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾، أي: يأخذه بعض المارَّة من المسافرين فيمتلكونه، فلا يمكنه الرجوع إلى أبيه.

﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾، أي: إن كنتم عازمين ومصرِّين على إبعاده، والتفريق بينه وبين أبيه، فاختلفوا بادئ الأمر بين قتل يوسف وإبعاده، واستقر بهم الأمر في النهاية، وأجمعوا على قول هذا القائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾؛ حيث لم يعارضه أحد منهم.

قال ابن كثير[(١)]: «واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦] وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط».

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾.

لما تواطؤوا على أخذ يوسف وإلقائه في غيابة الجب، جاؤوا إلى أبيهم يتوسلون إليه

---

(١) في «تفسيره» (٤/ ٣٠٠).

أن يرسله معهم.

قوله: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ الاستفهام: للتعجب والإنكار، أي: ما الذي جعلك لا تأمنا على يوسف؟ أو لماذا لا تأمنا على يوسف؟ أو لأي شيء يدخلك الخوف منا على يوسف من غير سبب ولا موجب؟

وفي هذا دلالة على أن يعقوب ما كان يأذن ليوسف بالخروج معهم، أو أنهم فهموا هذا من حرصه عليه وعدم مفارقته له، كما أن فيه أنه أحس منهم ما يوجب ألا يأمنهم عليه، كما نهاه سابقًا أن يقص عليهم رؤياه؛ مخافة كيدهم له.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ﴾ الجملة: حالية، أي: والحال إنا له لناصحون، و«إن» واللام للتوكيد، أي: وإنا نريد له الخير، ونشفق عليه، ونحب له ما نحب لأنفسنا، وهذا كما قيل: «كاد المريب أن يقول: خذوني».

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: «نرتع ونلعب» بالنون، وقرأ الباقون بالياء: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾، وقرأ نافع، وأبو جعفر، وابن كثير بكسر العين من «يرتعِ»، وقرأ الباقون: ﴿يَرْتَعْ﴾ بإسكانها، أي: دعه يذهب معنا غدًا، و«الغد»: اليوم الذي بعد اليوم الحاضر، كما أن الأمس هو اليوم الذي قبله.

﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾، أي: يتنزه في البرية، ويأنس ويلهو وينشط ويسعى ويستجم، ويأكل ويشرب مما لذ وطاب، حيث الخضرة والمياه والزروع.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾، أي: والحال إنا له لحافظون، أي: إنا سنحفظه ونحوطه، فلن يتعرض لأي مكروه، وقد أكدوا قولهم هذا بـ«إن» واللام.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾.

«إن» واللام في قوله ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ﴾ للتوكيد، و«أن» والفعل «تذهبوا» في محل رفع فاعل، أي: ليحزنني ذهابكم به، والجملة في محل نصب مقول القول.

والمعنى: قال يعقوب عليه السلام لبنيه؛ إجابةً على طلبهم إرسال يوسف معهم:

﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾، أي: إن مجرد ذهابكم به يحزنني ويشق عليَّ؛ لأنني لا أقدر على فراقه ولو مدة يسيرة، ولا أستطيع الصبر عنه ساعة.

﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾: «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أخاف»، أي: وأخاف أَكْلَ الذئب له.

﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾، الجملة في محل نصب حال، أي: وأنتم عنه ساهون لاهون برعيكم ورميكم ولعبكم، أو لقلة اهتمامكم وعنايتكم به، وهو صغير لا يمتنع من الذئب.

فاعتذر إليهم بشيئين:

أحدهما: عدم قدرته على الصبر عنه ولو مدة يسيرة.

والثاني: خوفه أن يأكله الذئب في حال غفلتهم عنه. وقد أخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن أكله الذئب ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾، أي: والحال أننا عصبة، أي: جماعة أقوياء يمكننا أن نخلصه من الذئب.

﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾، أي: إنا حينئذ لعجزة هالكون ضعفاء، و«إن» واللام: للتوكيد.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾، أي: فلما ذهبوا بيوسف من عند أبيهم بعد مراجعتهم له في إرساله معهم وإذنه في ذلك.

﴿وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾، أي: وصمموا وعزموا أن يجعلوه في غيابة الجب، أي: في أسفل البئر، وأجمعوا على ذلك، كما قال القائل منهم: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾.

و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر، بحرف جر محذوف، أي:

بأن يجعلوه.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لتنبئنهم.

والمعنى: وأعلمناه في تلك الحال الحرجة بإلقائنا في روعه أو بواسطة ملك؛ تثبيتًا لقلبه، وتبشيرًا له بأنك ستخلص مما أنت فيه، وتخبرهم بفعلهم العظيم بك وإساءتهم إليك؛ كما قال تعالى في آخر السورة: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: والحال أنهم لا يدرون، ولا يعرفونك، ولا يعلمون بإيحاء الله إليك.

والمقصود: أنك لا تحزن مما أنت فيه؛ فإن لك من ذلك فرجًا ومخرجًا حسنًا، وسينصرك الله عليهم، وتكون لك العقبى عليهم.

الفوائد والأحكام:

١- أن في قصة يوسف وإخوته وخبرهم آيات وعبرًا وعظات، لمن سأل عنها وتأمل فيها، وقصد الانتفاع بها؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

٢- أنه لا يستفيد من الآيات ولا ينتفع بها إلا من تأمل فيها وتفكر، وحرص على الانتفاع بها.

٣- حسد إخوة يوسف له ولأخيه؛ لكونهما أحب إلى أبيهم منهم، وإضمارهم لهما الشر؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾.

٤- أن العدل مطلوب في كل الأمور؛ ولهذا لما آثر يعقوب يوسف على إخوته في المحبة جرى منهم ما جرى في حق أنفسهم وأبيهم وأخيهم.

٥- اعتداد إخوة يوسف بكثرتهم وقوتهم؛ لقوله: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾.

٦- جور أبناء يعقوب في حقه عليه السلام بقولهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وهذا مما يقوي قول من قال: إنهم ليسوا بأنبياء.

٧- غلظة أبناء يعقوب وشدتهم على أخيهم يوسف؛ لقولهم: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ

ﵟٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗاﵞ، وهذا أيضًا مما يقوي القول بأنهم ليسوا بأنبياء.

قال ابن إسحاق: «لقد اجتمعوا على أمر عظيم، من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل عليهم، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده؛ ليفرقوا بينه وبين ابنه وحبيبه على كبر سنه ورقة عظمه، مع مكانه من الله، وبين من أحبه طفلًا صغيرًا على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمرًا عظيمًا»(١).

٨- أن إخوة يوسف إنما حسدوه وعمدوا إلى الكيد له والتخلص منه؛ لأجل أن يخلص لهم وجه أبيهم، ولا ينشغل بمحبته له عنهم وعن محبتهم؛ لقولهم: ﵟيَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡﵞ، والحاسد لا حيلة فيه؛ كما قيل:

كل العداوات قد ترجى إزالتها ... إلا عداوة من عاداك عن حسد

٩- إضمار إخوة يوسف التوبة قبل الذنب، والصلاح بعد أن يتخلصوا منه؛ لقولهم: ﵟوَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَﵞ.

١٠- أن من مداخل الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء في تخفيف أمر المعصية على مرتكبيها وتهوينها إضمار التوبة بعدها، وكم من مؤمل أن يتوب حيل بينه وبين التوبة!

١١- اختلاف إخوة يوسف فيما بينهم كيف يتخلصون منه: فمنهم قاسي القلب الذي يرى قتله، ومنهم من استعظم قتله ونهى عنه، ورأى الاكتفاء بإلقائه في غيابة الجب، وكان هذا أحسنهم رأيًا فيه؛ لقوله تعالى: ﵟٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَﵞ.

١٢- عدول إخوة يوسف عن قتله واتفاقهم على إلقائه في غيابة الجب؛ لأنه لم يعترض أحد على القائل منهم: ﵟلَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّﵞ.

١٣- حنانيك بعض الشر أهون من بعض، فإلقاء يوسف في الجب أهون من قتله،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢١٠٦، وذكره ابن كثير في تفسيره ٤/ ٣١.

وإن كان الكل شرًّا.

١٤- ظاهر قول هذا القائل ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ أنه لا يرى في قرارة نفسه ما يراه إخوته من التصميم على إبعاد يوسف والتفريق بينه وبين أبيه، وإنما جارى إخوته وجاملهم في ذلك.

١٥- أن يعقوب عليه السلام في ظاهر الأمر ما كان يأمن إخوة يوسف عليه، فلا يدعه يذهب معهم؛ خوفًا عليه منهم، ولعدم استطاعته مفارقته؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

١٦- مخادعة أبناء يعقوب له في تأكيدهم النصح ليوسف، وطلب إرساله معهم؛ ليتنزه ويأنس ويلعب وينشط، وتأكيدهم أنهم له حافظون؛ لقولهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، فأكَّدوا النصح له أولًا، وأكَّدوا حفظهم له ثانيًا على حد قول القائل: كاد المريب أن يقول: خذوني.

١٧- اعتذار يعقوب لأبنائه في عدم إرسال يوسف معهم بأنه يحزنه مفارقته ولا يصبر عنه، وخوفه أن يأكله الذئب وهم عنه غافلون؛ لقوله تعالى ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ﴾.

١٨- أن الأنبياء كغيرهم من البشر يتطرق إليهم الحزن والخوف.

١٩- إجابة أبناء يعقوب عن أهم الأمرين الذين يمنعانه من إرسال يوسف معهم- وهو خوفه أن يأكله الذئب- باستبعادهم لذلك؛ اعتدادًا بكثرتهم وقوتهم، ولمزهم أنفسهم إن أكله الذئب وغلبهم عليه وهم عصبة قوية؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

٢٠- موافقة يعقوب عليه السلام على ذهاب يوسف مع إخوته بعد إلحاحهم عليه في ذلك، وذهابهم به، وإجماعهم على جعله في غيابة الجب، وتنفيذهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾.

٢١- إيحاء الله عز وجل إلى يوسف تثبيتًا لقلبه وبشارة له بأنه سيخلص مما هو فيه،

وسينبئهم بأمرهم هذا وفعلهم السيئ به وهم لا يشعرون بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

٢٢- أن من اتقى الله وقاه الله وحفظه وجعل العاقبة له وأيّده ونصره.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾، أي: وجاء إخوة يوسف أباهم، ﴿عِشَآءً﴾ ظرف زمان منصوب، أي: وقت العشاء، أي: بعد مغيب الشفق الأحمر، وإقبال العشو وظلمة الليل، متأخرين عن عادتهم في المجيء عند الغروب.

﴿يَبْكُونَ﴾ حال، أي: حال كونهم يبكون؛ إظهارًا للأسف والجزع والفجيعة على يوسف وفرط محبتهم له؛ تصنعًا منهم.

فجعلوا من تأخرهم في المجيء عن عادتهم حتى أظلم الليل، ومن مجيئهم وهم يبكون؛ دليلين وقرينتين على صدقهم؛ إيهامًا لأبيهم.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾، أي: قالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا كذبًا، ومتوددين إلى أبيهم، ومستعطفين له: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾، أي: نتسابق في الجري على الأقدام، أو الرمي بالنصل والسهام.

﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾، أي: عند زادنا وثيابنا وآنيتنا وطعامنا؛ توفيرًا له وراحة.

﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ حال استباقنا وغفلتنا عنه، كما تخوفت ذلك.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾، أي: وما أنت بمصدق لنا.

﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾، أي: ولو كنا صادقين في نفس الأمر، وقيل: «لو» بمعنى «إن» الشرطية، أي: وإن كنا صادقين، أي: ولو كنا صادقين حقًّا؛ لغرابة ما وقع وعجيب ما حصل، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك، لكن هذا لا يمنعنا أن نعتذر بالعذر الحقيقي، وهذا كله تعريض بصدقهم وتأكيد لعذرهم.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، أي: بدم مكذوب، فالمصدر بمعنى المفعول، أو بدم ذي كذب، فهو مصدر بتقدير مضاف.

قيل: عمدوا إلى سخلة شاة فذبحوها، ولطخوا بدمها قميص يوسف؛ موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، لكنهم نسوا أن يخرقوه أو يمزقوه؛ ولهذا لم يَرُج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب عليه السلام، بل قال معرضًا عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من تمالئهم عليه؛ كما حكى الله تعالى عنه: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، أي: قال أبوهم مبطلًا لدعواهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، أي: ليس بصحيح ما تقولون من أن الذئب أكله، بل زينت وحسنت لكم أنفسكم الأمارة بالسوء أمرًا، والتسويل: التزيين وتصوير القبيح والسيئ بصورة الحسن؛ قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

وقال الشاعر:

يقضى على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسنِ

ونكَّر ﴿أَمْرًا﴾ للتعظيم والتهويل، أي: أمرًا عظيمًا خطيرًا، ومنكرًا فظيعًا كبيرًا، وهو تغييب يوسف وإبعاده عني والتفريق بيني وبينه، ومن ثم الاعتذار الكاذب.

وإنما قال يعقوب هذا؛ لأنه رأى من القرائن والأحوال ومن رؤيا يوسف التي قصها عليه ما يدل على هذا، واتهامه لهم بأنهم تلقَّفوا العذر من قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾.

﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾ الفاء: عاطفة، و«صبر»: خبر لمبتدأ محذوف، أي: فصبري صبر جميل، أو فأمري صبر جميل، أو مبتدأ وخبره محذوف، أي: فصبر جميل أجمل، أو أليق.

والصبر: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عما حرم الله.

والصبر الجميل: الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله؛ مع تمام الرضا والتسليم لقضاء الله.

والمعنى: فسأصبر على هذه المحنة صبرًا جميلًا سالمًا من التسخط والتشكي لغير الله، وأستعين بالله تعالى وحده، وأشكو حالي إلى الله لا إلى غيره؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

فالصبر الجميل والاستعانة بالله هما عدة المؤمن في النوائب والمصائب، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقال ﷺ حين مر بآل ياسر وهم يعذبون: «**صبرًا آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة**»(١).

وقال ﷺ: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»(٢).

وقال الشاعر:

تعزّ فإن الصبر بالحر أجملُ ... وليس على ريب الزمان مُعَوَّلُ(٣)

وقال الآخر:

إصبر لكل مصيبة وتجلدِ ... واعلم بأن المرء غير مخلدِ

واصبر كما صبر الكرام فإنها ... نوَبٌ تنوب الآن تُفرج من غدِ

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» ٥٦٤٦ – من حديث ابن إسحاق، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٥١٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٤٠).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ١٢٨٣، ومسلم في الجنائز ٩٢٦، والنسائي في الجنائز ١٨٦٩، والترمذي في الجنائز، ٩٨٨، وابن ماجه في الجنائز ١٥٩٦ – من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) البيت لإبراهيم بن كنيف النبهاني. انظر: «شرح ديوان الحماسة» (ص١٨٨).

وإذ أصبت مصيبة تشجى بها   فاجبر مصابك بالنبي محمدِ[(١)]

وقال الآخر:

صبرت على بعض الأذى خوف كله   وجاهدت عن نفسي بنفسي فعزّتِ

وجرّعتها المكروه حتى تدربت   ولو لم أجرعها إذن لاشمأزتِ

وقلت لها يا نفس موتي كريمة   فقد كانت الدنيا لنا ثم ولّتِ

إذا ما مددت الكف ألتمس الغنى   إلى غير من قال اشتكوا لي فشلت[(٢)]

وقد أمر الله عز وجل النبي ﷺ بالصبر الجميل، والهجر الجميل، والصفح الجميل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الله أمر نبيه بالهجر الجميل، والصفح الجميل، والصبر الجميل، فالهجر الجميل: هجر بلا أذى، والصفح الجميل: صفح بلا عتاب، والصبر الجميل: صبر بلا شكوى؛ قال يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مع قوله: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل»[(٣)].

﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾، أي: والله تعالى وحده المطلوب منه العون.

﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: والله المستعان على وصفكم، أو على الذي تصفون، أي: على الذي تذكرون من الكذب والمحال، وعلى ما أصاب يوسف من الضر على أيديكم وغير ذلك.

وبمثل هذا تمثلت عائشة رضي الله عنها، لما ضاق عليها الأمر في قصة الإفك؛ حيث قالت: «والله ما أجد لي ولكم مثلًا إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ

(١) تنسب هذه الأبيات- مع اختلاف كثير فيها- لأبي العتاهية. انظر: «أحسن ما سمعت» للثعالبي (ص١٠٢)، «موسوعة الشعر الإسلامي» (٥/ ٨٦).

(٢) الأبيات تنسب للفيروزبادي مع اختلاف فيها، وزيادة ونقصان. انظر: «الحياة الأولى» (ديوان شعر) (ص١٧)، «الشكوى والعتاب» (ص٥).

(٣) انظر: «دقائق التفسير» ٣- ٤/ ٢٩٤.

ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾، أي: ومكث يوسف في غيابة الجب ما مكث حتى جاءت سيارة، أي: قافلة وجماعة مسافرون يريدون مصر، قيل: مكث في الجب ثلاثة أيام، وقيل غير ذلك.

﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾، أي: الذي يَرِد الماء، ويتطلبه ويستقي لهم.

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾، أي: فأرسل دلوه في البئر؛ ليملأها بالماء، ثم ينزعها، فتشبث يوسف عليه السلام بها فأخرجه واستبشر به. والدلو: وعاء من جلد أو غيره يستخرج به الماء من الآبار.

﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾: قرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿يَٰبُشْرَىٰ﴾ بغير ياء إضافة، وقرأ الباقون: «يا بشرايَ» بياء مفتوحة بعد الألف، أي: إنه فَرِح وسُرَّ وابتهج بالعثور على هذا الغلام.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾، أي: وأسرَّه إخوته بضاعة، وكتموا أنه أخوهم؛ ليبيعوه على هؤلاء السيارة؛ حيث كانوا قريبًا من البئر حين أخرجه منها واردهم.

ويحتمل: وأَسَرَّه وارد السيارة بضاعة، أي: أخفوه عن بقية السيارة، وقالوا: اشتريناه وتبضعنا من أصحاب الماء؛ مخافة أن يشاركوهم إذا علموا خبره.

أو أن السيارة لما وجدوه عزموا أن يسروا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم إذ جاءهم إخوته فزعموا أنه عبد آبق منهم، فباعوه على السيارة بثمن بخس.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، أي: والله ذو علم واسع وتام بالذي يعمله إخوة يوسف، والذين اشتروه منهم، وكل ذلك بعلمه وتقديره؛ ابتلاء وامتحانًا ليوسف عليه السلام، ثم يجعل العقبى له، وفي هذا تعريض للرسول ﷺ، وإعلام له بأني عالم بأذى قومك وسأملي لهم، ثم أجعل العاقبة لك عليهم، كما جعلت ليوسف العاقبة والحكم على إخوته.

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٦١، ومسلم في التوبة ٢٧٧٠.

قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ۝٢٠﴾.

قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾، أي: وباعه إخوته على وارد السيارة ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ «بخس» بدل من «ثمن»، أي: بثمن مبخوس، أي: منقوص، أي: باعوه بثمن قليل جدًّا.

﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ تفسير لقوله: ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾، أي: دراهم قليلة ﴿مَعْدُودَةٍ﴾، أي: يسهل عدها لقلتها، كما يقال للقليل: يُعد بالأصابع.

﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ وكان إخوة يوسف في أخيهم يوسف من الزاهدين؛ حيث باعوه واعتاضوا عنه بأبخس الأثمان وأنقصها وأقلها؛ لعدم رغبتهم فيه وشدة حرصهم على التخلص منه، ولو سئلوه بلا شيء لأجابوا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢١﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، أي: وقال الذي اشتراه من السيارة الذين جلبوه لمصر، وهو عزيز مصر ووزيرها والقائم على خزائنها ﴿لِامْرَأَتِهِ﴾، أي: لزوجته زليخا، ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، أي: أكرمي مقامه ومنزله الذي يأوي ويرجع إليه، أي: أكرميه واجعلي مقامه حسنًا مرضيًّا، وهذا من إلطافه عز وجل بيوسف عليه السلام؛ حيث قيض الله له الذي اشتراه من مصر- وهو عزيزها- فاعتنى به وأكرمه وأوصى به أهله، وتوسم فيه الخير والنفع، وأعجب به.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «أفرس الناس ثلاثة: العزيز حين تفرس في يوسف فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١]، وأبو بكر حين تفرس في عمر، والتي قالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ۝٢٦﴾ [القصص: ٢٦]»(١).

﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ بخدمته لنا.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٦٤.

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، أي: أو نجعله ولدًا بأن نستمتع به كالولد، قيل: لأنهما لم يكن لهما ولد.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الكاف: للتشبيه، والإشارة إلى المعنى المفهوم مما سبق، أي: كما أنقذنا يوسف من إخوته، وجعلنا له مثوى كريمًا في منزل العزيز وقلبه، كذلك مكنَّا له في الأرض فجعلناه على خزائنها، وجعلنا له تصرفًا في الأمر والنهي، ومكانة رفيعة في أرض مصر، ووجاهة في أهلها ومحبة في قلوبهم.

ويجوز كون الإشارة إلى مصدر الفعل «مكنا» وهو التمكين، وفيه تنويه إلى أن ذلك التمكين بلغ ذروة التمكين وغايته؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف: ٥٦].

﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ الجملة معطوفة على «مكنا» واللام: للتعليل، أي: ولنعلمه من تعبير الرؤيا وتفسيرها؛ مما سيكون سببًا في جعله على خزائن الأرض وتقليده الرياسة العظمى، وذلك بعد تعبيره لرؤيا الملك.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ الضمير في «أمره» يعود إلى الله عز وجل، وأمره: ما قدره وأراده، أي: إنه عز وجل إذا أراد أمرًا وقدره، فأمره نافذ لا محالة، لا يرد، ولا يمانع ولا ينازع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه الفعَّال لما يريد.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون العلم الذي ينفعهم، ولا يدرون ما لله عز وجل من حكم وألطاف في خلقه وأحكامه القدرية.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾، أي: وحين بلغ يوسف عليه السلام ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾، أي: منتهى شدته وقوته العقلية والبدنية وشبابه، وصار أهلًا لتحمل النبوة والرسالة.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، أي: أعطيناه حكمًا وعلمًا وفهمًا وجعلناه نبيًّا رسولًا.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: إنه كان من المحسنين في عبادة الله تعالى إخلاصًا لله تعالى واتباعًا لشرعه، ومن المحسنين إلى عباد الله قولًا وفعلًا وبذلًا، فهو عليه السلام في أعلى المقامات وهو مقام الإحسان؛ ولهذا جزاه الله تعالى على إحسانه بأن آتاه الله

الحكم بين الناس والعلم بالنبوة والرسالة.

الفوائد والأحكام:

١- تأخر إخوة يوسف عن المجيء إلى أبيهم عند الغروب- كما هي عادتهم- إلى وقت العشاء وظلمة الليل؛ تمويهًا على أبيهم، وإيهامًا له أنه حصل لهم ولأخيهم ما لم يكن في الحسبان؛ لعله يصدقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ﴾.

٢- مخادعتهم لأبيهم بمجيئهم وهم يبكون؛ إظهارًا للأسف والحزن على يوسف، وفرط محبتهم له، لقوله تعالى: ﴿يَبۡكُونَ﴾.

٣- أن بكاء المرء لا يدل على صدقه؛ لاحتمال أن يكون تصنعًا.

عن الشعبي قال: «شهدت شريحاً، وجاءته امرأة تخاصم رجلاً، فأرسلت عينيها فبكت. فقلت: يا أبا أمية، ما أظنها إلا مظلومة؟ فقال: يا شعبي، إن إخوة يوسف جاؤوا أباهم عشاءً يبكون»(١).

٤- مشروعية المسابقة بأنواعها؛ لقوله تعالى: ﴿نَسۡتَبِقُ﴾.

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: سابقت رسول الله ﷺ مرتين، فسبقته في المرة الأولى، فلما بدنت سبقني وقال: «**هذه بتلك**»(٢).

وقال ﷺ: «**لا سبق إلا في نصل أو خف أو حافر**»(٣)، وقال ﷺ: «**ليس اللهو إلا في ثلاثة: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته امرأته، ورميه بقوسه ونبله**»(٤).

٥- كذب أبناء يعقوب على أبيهم صراحًا بقولهم: ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾.

٦- معرفتهم أن أباهم لن يصدقهم، ولن ينطلي عليه كذبهم؛ لقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ

---

(١) انظر: «تاريخ دمشق» (٢٣/ ٤٦)، «الطرق الحكمية» (ص٢٤)، «الأذكياء» (ص٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٥٧٨، وابن ماجه في النكاح- حسن معاشرة النساء ١٩٧٩.

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٥٧٤، والترمذي في الجهاد ١٧٠٠، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٧٨- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٤) أخرجه أبو داود في الجهاد ٢٥١٣، والنسائي في الخيل ٢٥٧٨؛ من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾.

٧- تعريضهم بصدقهم وتأكيدهم لعذرهم بقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾.

٨- أن الإيمان معناه لغة: التصديق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾.

٩- إمعان إخوة يوسف في مخادعة أبيهم والتمويه والكذب عليه؛ حيث لطخوا قميص يوسف بدم سخلة شاة ذبحوها، وقالوا: هذا دم يوسف؛ لقوله تعالى: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾.

١٠- أن كل ما قاموا به من التمويه والإيهام والكذب لم يرُج على يعقوب عليه السلام؛ ولهذا قال مكذبًا لهم مبطلًا لكل دعاواهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾.

١١- معرفة يعقوب عليه السلام أن ما فعله إخوة يوسف به مما زينته لهم أنفسهم الأمارة بالسوء؛ لإبعاده عن أبيه والتفريق بينه وبينه؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾.

١٢- عظم وخطر ما فعله إخوة يوسف وما أقدموا عليه في حقه؛ لما في ذلك من الحسد والظلم له، والعقوق لأبيهم؛ لقوله: ﴿أَمْرًا ﴾، أي: أمرًا عظيمًا كبيرًا ومنكرًا فظيعًا.

١٣- وجوب الحذر من طاعة النفس الأمارة بالسوء، وعدم الانسياق وراء ما تزينه من قبيح الفعال.

١٤- تجلد يعقوب عليه السلام، وتحليه بالصبر الجميل واستعانته بالله على هذا الخطب الجلل والمحنة العظيمة؛ لقوله عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾.

١٥- أن في الصبر الجميل مع الاستعانة بالله عز وجل جلاء الخطوب وانفراج الكروب، فهما عدة المؤمن وسلاحه في المحن والملمات.

١٦- تفريج كربة يوسف عليه السلام بإخراجه من الجب على يد وارد السيارة، لطفًا من الله عز وجل به؛ لقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ﴾.

١٧- أن يوسف حين أبعد عن أبيه كان غلامًا صغيرًا، والغلام: الصغير منذ ولادته إلى أن يشب.

١٨- استبشار وارد السيارة بيوسف عليه السلام لما وجده؛ لما توسم فيه من الخير.

١٩- إسرار إخوة يوسف وإخفاؤهم كون يوسف أخًا لهم، واعتباره بضاعة وعبدًا آبقًا؛ لكي يبيعوه على السيارة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾.

ويجوز أن يكون الذين أسروه بضاعة هم السيارة أو واردهم، أي: جعلوه بضاعة؛ ولهذا باعوه في مصر.

٢٠- أن إخوة يوسف لم يذهبوا بعيدًا عن الجب، بل كانوا قريبًا منه حين جاء وارد السيارة فأخرجه.

٢١- علم الله تعالى التام بما يعمله إخوة يوسف والذين اشتروه منهم، وأن ذلك كله بعلم الله تعالى وتقديره؛ ابتلاءً وامتحانًا ليوسف عليه السلام، ثم تكون له العقبى، وفي هذا تعريض للنبي ﷺ وإعلام له بأنه عز وجل عالم بتكذيب قومه وأذيتهم له، وأنه سيملي لهم ثم يجعل العاقبة له ﷺ؛ كما جعل ليوسف العقبى على إخوته؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾.

٢٢- بيع إخوة يوسف له على السيارة بثمن بخس معدود قليل، وزهدهم فيه، حتى لو سئلوه بلا شيء لأجابوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾.

٢٣- منة الله تعالى على يوسف؛ حيث اشتراه عزيز مصر، وأعجب به وأمر امرأته بإكرام مثواه رجاء نفعه، أو اتخاذه ولدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾، ويظهر من هذا أنهم لم يكن لهم ولد.

٢٤- تمكين الله عز وجل ليوسف في أرض مصر، وجعله على خزائنها، له الأمر والنهي والتصرف؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٢٥- منة الله تعالى على يوسف بتعليمه تأويل الرؤيا؛ مما كان سببًا في خروجه من السجن، وجعله على خزائن الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾.

٢٦- أن ما أراده الله تعالى وقدره كونًا واقع لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾.

٢٧- أن كثيرًا من الناس لا يعلمون العلم الذي ينتفعون به، كما لا يعلمون ما لله عز وجل من حكم وألطاف في خلقه وأحكامه القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

٢٨- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق؛ فأكثرهم على جهل وضلال؛ كما قال تعالى: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾﴾ [محمد: ١٢]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٢٩- نعمة الله تعالى العظمى، ومنته الكبرى على يوسف عليه السلام لما بلغ أشده بإيتائه حكمًا وعلمًا، أي: بإيتائه النبوة والرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًا﴾.

٣٠- أن الإيحاء إلى الرسل إنما يكون بعد اكتمال قوتهم العقلية والجسمية وقدرتهم على تحمل النبوة والرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًا﴾.

وهكذا كان وحي الله عز وجل إلى نبينا محمد ﷺ بعد أن بلغ أربعين سنة.

٣١- أن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم المرجع لأممهم في الحكم وبيان الأحكام والإرشاد للهدى والحق والعلم.

٣٢- أن يوسف عليه السلام من المحسنين في عبادة الله، وإلى عباد الله؛ ولهذا جزاه الله على ذلك بإيتائه الحكم والعلم، أي: النبوة والرسالة.

٣٣- فضل الإحسان، والترغيب فيه، وعظم ثواب المحسنين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾، أي: راودته امرأة العزيز، والمراودة: المحاولة، أي: حاولته عن نفسه؛ لتمكنها منه لفعل المكروه، أي: دعته وطلبت منه أن يواقعها؛ لما رأت فيه من الجمال والكمال والبهاء، وشطر الحسن الذي لم يعط لغيره.

وقوله: ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ ولم يقل: امرأة الذي اشتراه، أو زوجته، ونحو ذلك؛ لأن كونه في بيتها من شأنه أن يطوّعه لمرادها.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ إغلاقًا تامًّا؛ أمانًا من دخول أحد عليهما.

﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر في رواية ذكوان بكسر الهاء وفتح التاء من غير همزة: «هِيتَ»، وقرأ ابن كثير بفتح الهاء وضم التاء: «هَيتُ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿هَيۡتَ﴾، والمعنى: هلم لك، وأقبل إليَّ، وادن وتقرَّب وتعال.

وفي رواية هشام بن عمّار عن ابن عامر: «هِئتُ» بكسر الهاء وضم التاء مع الهمز، أي: تهيأت لك.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾، أي: أعوذ بالله وأعتصم به من أن أفعل هذا الفعل القبيح.

﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾، أي: صاحب البيت وزوجك أيتها المرأة.

﴿رَبِّيٓ﴾، أي: سيدي ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾، أي: أحسن مقامي ومنزلتي وأكرمني، فلا يليق أن أقابل فضله ومعروفه عليَّ بخيانته في أهله.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تعليل للامتناع المذكور، أي: لأنه لا يفلح الظالمون بارتكاب المعاصي، ومقابلة الإحسان بالإساءة ونحو ذلك.

فاستعاذ عليه السلام بالله واعتصم به من أن يجيبها إلى ما تدعوه إليه؛ لما في ذلك من الخيانة والظلم الذي لا يفلح أهله، مع وجود الدواعي العظيمة، والإغراءات المتعددة الكثيرة: من مراودتها له، وحرصها الشديد على إيقاعه في المكروه، وكونه في بيتها وتحت تدبيرها؛ لأنها سيدته، وإغلاقها الأبواب إغراء له بأمانها، وبذلها نفسها له بقولها: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ وكونه شابًّا عزبًا، مع توعدها له إن لم يفعل بالسجن أو العذاب الأليم، وغير ذلك، ومع وجود هذه الدواعي القوية كلها صبر عليه السلام عن معصية الله، واستعصم بالله، فعصمه الله تعالى وحفظه وحماه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ﴾ الواو عاطفة، واللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، أي: والله لقد همت به، أي: همت به هم إصرار، بذلت معه جهدها، وعملت كل ما أمكنها من الأسباب لتحقيق ذلك، فلم تصل إليه.

﴿وَهَمَّ بِهَا﴾، أي: وهم بها هم خطرات وهو حديث النفس، فتركه لله؛ فأثابه الله عليه، وقيل: إنه لم يهم بها، بل لولا أن رأى برهان ربه لهم بها.

والأظهر المعنى الأول، وقد صوبه ابن القيم، وقال: «قال الإمام أحمد رحمه الله: الهم همان: هم خطرات، وهم إصرار، فهم الخطرات لا يؤاخذ به، وهم الإصرار يؤاخذ به»(١).

قال ابن باز رحمه الله: «﴿هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ على ظاهرها، ولكن الله عصمه وحفظه عليه الصلاة والسلام، ورأى برهانًا منعه من ذلك، فهذا من فضل الله

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٤٦.

عليه»(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: إذا همَّ عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها بمثلها**»(٢).

﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ «لولا»: حرف شرط غير جازم.

و«أن» الفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع مبتدأ خبره محذوف، تقديره: موجود، أي: لولا أن رأى برهان ربه، وهو ما معه من العلم والإيمان والهدى الموجب لتقوى الله والبعد كل البعد عما حرم الله.

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ الكاف للتشبيه، والإشارة لرؤيته برهان ربه، واللام للتعليل، أي: كذلك أريناه برهان ربه؛ لأجل أن نصرف عنه السوء والفحشاء ولم يقل: لنصرفه عن السوء والفحشاء؛ لأنه لم يطلب ذلك، وفي هذا حجة قاطعة على أنه لم يقع منه همٌّ بالمعصية.

و«السوء»: العمل السيئ القبيح المنكر، و«الفحشاء»: ما فحش وتناهى قبحه في الشرع وعُرف المسلمين؛ كالزنا ونحوه.

قال ابن القيم: «السوء: العشق، والفحشاء: الزنا، وهو صرف دواعي القلب وميله إليها، فينصرفان عنه بصرف دواعيهما»(٣).

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: قرأ حمزة والكسائي وعاصم ونافع وأبو جعفر بفتح اللام، ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ اسم مفعول، أي: الذين أخلصهم الله واصطفاهم واختارهم واجتباهم وطهرهم وعصمهم.

وقرأ الباقون بكسر اللام: «المخلِصين» اسم فاعل، أي: الذين أخلصوا لله دينهم وعبادتهم، والجملة تعليل لحكمة صرف السوء عنه.

---

(١) «فتاوى نور على الدرب» لابن باز ٢٧/ ٢١١-٢١٢.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٥٠١، ومسلم في الإيمان: إذا هم العبد بحسنة كتبت ١٢٨، والترمذي في التفسير ٣٠٧٣.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٥٠.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾، أي: تسابقا وأسرعا إلى الباب، هو يريد الخروج والفرار منها والسلامة من مراودتها، والهروب والتخلص من فتنتها، وهي تريد منعه وتطلبه؛ لتقضي حاجتها منه، وشتان بين الإرادتين.

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾، أي: لحقته وأمسكت بقميصه من ورائه؛ لأنه كان موليًا هاربًا، وجذبته بشدة فقدَّته قدًّا عظيمًا، أي: شقته شقًّا عظيمًا، حتى قيل: إنه سقط عنه، واستمر يوسف هاربًا وهي في أثره.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾، أي: وجدا وصادفا زوجها عند الباب قادمًا.

﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: قالت مبادرة؛ لتبرئة نفسها ونفي التهمة عنها، وإلصاقها بيوسف، متهمة وقاذفة له بدائها؛ كيدًا منها ومكرًا: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾، أي: ما جزاء وعقوبة الذي أراد بأهلك سوءًا، أي: أراد بهم أمرًا سيئًا، وهو الزنا.

﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ «إلا» أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في قوله: ﴿أَن يُسْجَنَ﴾ في تأويل مصدر في محل رفع بدل من ﴿جَزَآءُ﴾، أي: إلا السجن، ﴿أَوْ عَذَابٌ﴾ معطوف على محل المصدر المؤول، مرفوع مثله، أي: أو يوقَع عليه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: مؤلم موجع، بأن يُضرب ضربًا شديدًا مؤلمًا موجعًا، أو نحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

لما ألصقت امرأة العزيز التهمة بيوسف عليه السلام مبرئة ساحتها، وقالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لم يجد عليه السلام بُدًّا من الدفاع عن نفسه وبيان الحقيقة.

قوله: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾، أي: قال يوسف عليه السلام؛ مبرئًا لنفسه مما رمته به بارًّا صادقًا: ﴿هِيَ﴾ يعني امرأة العزيز، ﴿رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾، أي: هي التي أرادت بي السوء، وحاولتني عن نفسي، وطلبت مني مواقعة المكروه معها.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾، أي: وشهد شاهد من أهل امرأة العزيز: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾، أي: إن كان قميصه شُقَّ من قُدَّامه وأمامه، ﴿فَصَدَقَتْ﴾، أي: فصدقت بأنه هو الذي أراد بها سوءًا وراودها عن نفسها؛ لأن انشقاق قميصه من الأمام يدل على أنه هو المقبل عليها المراود لها، وأنها أرادت أن تدفعه فشقت قميصه من هذا الجانب، ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ تأكيدٌ لقوله: ﴿فَصَدَقَتْ﴾، أي: وهو من الكاذبين في هذه الحال بادعائه خلاف ذلك.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾، أي: وإن كان قميصه شُقَّ من خلفه وورائه ﴿فَكَذَبَتْ﴾ في زعمها أنه هو الذي أراد بها سوءًا وراودها عن نفسها؛ لأن انشقاق قميصه من دبر يدل على هروبه منها، وأنها هي التي طلبته وأمسكت بقميصه من ورائه؛ لترده إليها فشقت قميصه من ورائه.

﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾، وهذا تأكيد لقوله: ﴿فَكَذَبَتْ﴾.

واختلف في هذا الشاهد من أهلها، فقيل: رجل حكيم من أهلها من خاصة الملك، وقيل: كان صبيًّا في المهد.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «تكلم أربعة في المهد وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم عليه السلام»(١).

وقيل: المراد بالشاهد: القميص المقدود.

وقدَّم الشاهد أمارةَ صدقها، وهو أن يكون القميص قُدَّ من قبل، على أمارة صدقه وهو كون القميص قدَّ من دبر؛ إزاحة للتهمة، ووثوقًا بأن الأمارة الثانية هي الواقعة فعلًا، فلا يضر تأخيرها.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ١٠٥، وذكره ابن كثير في تفسيره ٤/ ٣١٠.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾، أي: فلما رأى زوجها العزيز ﴿قَمِيصَهُۥ﴾، أي: قميص يوسف ﴿قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾، أي: شُقَّ من خلفه وورائه، تحقق صدق يوسف وكذبها، كما شهد بذلك الشاهد من أهلها.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾، أي قال زوجها: إن هذا الكذب على يوسف وإلصاق التهمة به، ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾، أي: من صنيعكن معاشر النساء، وتدبيركن الخفي، والكيد: الحيلة والمكر والتدبير بخفية.

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ﴾، أي: إن كيدكن واحتيالكن ومكركنَّ، ﴿عَظِيمٌ﴾، أي: كيد ومكر عظيم، وهل أعظم من هذا الكيد الذي برَّأَتْ به نفسها مما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام؟

وإنما استُعظم كيدهن؛ لأنهن ألطف وأعلق بالقلب، وأشد تأثيرًا في النفس، وبذلك يغلبن الرجال، قال ﷺ: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لِلُبِّ الرجل الحازم من إحداكن**»(١).

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

هذا من تتمة كلام عزيز مصر لما تحقَّق الأمرَ.

قوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾، أي: يا يوسف أعرض عن هذا الأمر، واضرب عنه صفحًا، واكتمه ولا تحدث به، أو تذكره لأحد، وهذا من العزيز طلبًا للستر على امرأته، وعدم مؤاخذة يوسف لها عما رمته به.

﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ أمر يوسف بالإعراض عما حصل، وأمر امرأته بالاستغفار لذنبها، أي: وأنت أيتها المرأة اطلبي من الله المغفرة، أي: التجاوز والستر لذنبك الذي وقع منك في مراودتك ليوسف، ومن ثم اتهامه بذلك وقذفه بما هو بريء منه.

---

(١) أخرجه البخاري في الحيض ٣٠٤، ومسلم في الإيمان ٨٠؛ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ الجملة تعليل للأمر بالاستغفار لذنبها، أي: لأنك كنت من الخاطئين، و«الخاطئين» جمع «خاطئ»، وهو المتعمد للذنب، أي: لأنك كنت من جملة الخاطئين المتعمدين للذنب الآثمين، يقال: خطئ: إذا أذنب متعمدًا، وأخطأ: إذا فعله من غير عمد.

ولم يزد العزيز على قوله لامرأته: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ قيل: لأنه كان ليِّن العريكة سهلًا، وكان حليمًا عاقلًا، وقيل: لأنه كان قليل الغيرة، أو أنه عذرها؛ لأنها رأت ما لا صبر لها عنه.

الفوائد والأحكام:

١- مراودة امرأة العزيز يوسف عن نفسه ليواقعها، وبذلها كل جهد؛ لتحصل منه على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

٢- خطر الخلوة بين الرجل والمرأة إذا كان أجنبيًّا عنها؛ فإن امرأة العزيز حصل لها ما حصل بسبب خلوتها بيوسف.

٣- اختيار التعبير بقوله: ﴿فِى بَيْتِهَا﴾؛ لأن من شأن ذلك أن يطوعه لها؛ لكونه في خدمتها وتحت تدبيرها.

٤- إغلاقها الأبواب؛ أمانًا من دخول أحد عليها، وطمأنة ليوسف؛ عله أن يجيبها.

٥- إغراؤها له ببذلها نفسها له، وتليين الكلام وترقيقه؛ لاستدراجه إلى مرادها؛ لقولها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾.

٦- اعتصامه عليه السلام بالله، وامتناعه أشد الامتناع عن إجابتها إلى مرادها؛ لقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾؛ كما قالت فيما يأتي: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢].

٧- الاستعاذة والاعتصام بالله عند الدعوة إلى المعصية من الشيطان وأعوانه؛ من شياطين الإنس والجن والنفس الأمَّارة بالسوء.

٨- كرم يوسف وحسن خلقه واعترافه بإحسان العزيز وجميله إليه، وشكره له؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾.

٩- لا يجوز مقابلة الإحسان بالإساءة، بل يجب مقابلة الإحسان بالإحسان؛

لقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾، وفي الحديث: «**ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه**»(١).

١٠- إطلاق اسم «رب» على السيد والمالك؛ لقول يوسف: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾.

١١- أن ارتكاب المعاصي والوقوع فيما حرم الله ومقابلة الإحسان بالإساءة، كل ذلك من فعل الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

١٢- خسران الظالمين وعدم فلاحهم أبدًا بسبب ظلمهم.

١٣- تأكيد هَمِّ امرأة العزيز بيوسف عليه السلام وإصرارها في مراودته ليواقعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ﴾.

١٤- هم يوسف عليه السلام بها همُّ خطرات، وحديث نفس لا يؤاخذ به، وتركه ذلك لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فغلَّب عليه السلام محبة الله تعالى وخشيته على داعي النفس والهوى، فكان ممن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النازعات: ٤].

ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، كما قال ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»(٢).

١٥- أن الإيمان والهدى والعلم مما يوجب تقوى الله تعالى والبعد عن محارمه؛ لقوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾.

١٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة ليوسف عليه السلام؛ لقوله تعالى ﴿رَبِّهِۦ﴾.

١٧- صرف الله عز وجل السوء والفحشاء عن يوسف، وحفظه له بأن أراه برهان

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب ٥١٠٩، والنسائي في الزكاة ٢٥٦٧؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان- من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ٦٦٠، ومسلم في الزكاة- فضل إخفاء الصدقة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ربه؛ لكونه من عباده المخلصين؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

١٨- تسابق يوسف وامرأة العزيز ومسارعتهما صوب الباب، هو يريد الخروج والفرار منها والسلامة من فتنتها، وهي تريد منعه؛ لتقضي حاجتها منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾.

١٩- الفرار من محل الفتنة وأسباب المعصية، فالسلامة غنيمة، والعافية لا يعدلها شيء.

٢٠- إمساكها بقميصه؛ لتمنعه من الخروج، وشقه من خلفه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾.

٢١- مصادفتهما زوجها عند الباب قادمًا، ورؤيته ما هما عليه؛ لقوله تعالى ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾.

٢٢- إطلاق السيد على الزوج.

٢٣- مبادرة امرأة العزيز لتبرئة نفسها وإلصاق التهمة بيوسف؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ الآية، وهذا كما يقال: كاد المريب أن يقول: خذوني.

٢٤- تأكيدها براءة ساحتها، واتهامها ليوسف بمطالبتها بمجازاته بالسجن أو العذاب الأليم؛ لقولها: ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢٥- دفاع يوسف عليه السلام عن نفسه، وبيانه أنها هي التي راودته عن نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾.

٢٦- شهادة الشاهد بما يفصل في الأمر بالتأمل في القميص، فـ ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

٢٧- العمل بالقرائن عند الاشتباه.

٢٨- في تقديم الشاهد أمارة صدق المرأة- وهو كون القميص قدَّ من قبل- على أمارة صدق يوسف- وهو كون القميص قد من دبر- إزاحة للتهمة، ووثوق بأن الأمارة الثانية هي الواقعة فعلًا، فلا يضر تأخيرها.

٢٩- تحقق العزيز كذب امرأته وصدق يوسف وبراءته مما اتهمته وقذفته به، وأن

ذلك من كيد النساء ومكرهن؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾.

٣٠- عِظَم كيد النساء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، ولما قال النبي ﷺ في مرضه، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**» قالت: فقلت: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه، فلو أمرت غير أبي بكر. قالت: والله ما بي إلا كراهية أن يتشائم الناس بأول من يقوم في مقام رسول الله ﷺ. قالت: فراجعته مرتين أو ثلاثاً. فقال: «**ليصل بالناس أبو بكر فإنكن صواحب يوسف**»(١).

٣١- أمر العزيز ليوسف بالإعراض عما وقع من مراودة امرأة العزيز له، واتهامها وقذفها له، وعدم ذكر ذلك أو التحدث به، وترك مؤاخذتها؛ لقوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾.

٣٢- عظم ما جُبِل عليه يوسف عليه السلام من النبل والخلق الكريم والعفو، فقد أعرض عما وقع من امرأة العزيز من المراودة والكيد له واتهامه.

٣٣- أمر العزيز لامرأته بالاستغفار لذنبها؛ لكونها من الخاطئين في مراودتها يوسف، واتهامها له؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾.

٣٤- أن العاقبة للمتقين، فظهر للعزيز براءة يوسف وصدقه؛ لأنه كان من المتقين كما ظهر له أن امرأته من المذنبين الخاطئين.

٣٥- وجوب الاستغفار من الذنوب والخطيئات.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٦٦٤، ومسلم في الصلاة ٤١٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٢٣٢.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾، أي: تحدَّث الناس بأمر يوسف وامرأة العزيز، وشاع خبرهما في مصر ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾، أي: في مصر، من نساء الأمراء والكبراء والسادة يَلُمنها ويَعِبن عليها ويتشمتن بها: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾، أي: امرأة عزيز مصر ووزيرها وأميرها، مع علوِّ مكانتها وقدرها وشرفها.

﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾، أي: تحاول عبدها وخادمها وغلامها عن نفسه، وتدعوه إلى نفسها.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، أي: قد غلب حبه عليها، ووصل إلى شغاف قلبها، أي: إلى باطنه وسويدائه، أي: بلغ حبها أعظم ما يكون من الحب.

﴿إِنَّا لَنَرَاهَا﴾ «إن»، واللام للتوكيد، أي: إنا لنراها في مراودتها له وغلبة حبه عليها، وولعها وفتنتها به.

﴿فِي ضَلَالٍ﴾، أي: في خطأ وبُعد عن طريق الرشد والصواب.

﴿مُّبِينٍ﴾، أي: بيِّن ظاهر واضح.

وقلن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا﴾، ولم يقلن: «إنها» للإشعار بأن حكمهن بضلالها صادر عن رؤية وعلم، مع التلويح والتلميح بنزاهتهن.

قال المفسرون: وهذا مكر منهن، ليس المراد منه مجرد لومها والعيب عليها والشماتة

بها، وإنما أردن بهذا أن يتوصلن إلى أن تريهن يوسف؛ لما بلغهن من حسنه وجماله؛ ليعذرنها؛ ولهذا سماه الله تعالى مكرًا.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾، أي: فحين سمعت ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾، أي: باغتيابهن لها وشماتتهن بها، وسوء مقالتهن فيها، وسُمِّي مكرًا؛ لأنهن قلن ذلك خفية فيما بينهن، وقصدن من ذلك أن تريهن يوسف.

﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾، أي: دعتهن إلى منزلها؛ لتضيفهن.

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ «أعتدت» أصلها أعددت، فأبدلت الدال الأولى تاء، والمعنى: أحضرت وهيأت لهن ما يتكئن عليه من الفرش والوسائد والنمارق؛ لتناول الطعام على طريقة أهل الترف، وقد قال ﷺ: «**لا آكُلُ متكئًا**»(١).

﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾، أي: وأعطت كل واحدة من هؤلاء النسوة سكينًا؛ ليقطعن ما قدمته لهن من الطعام والفواكه من أترج ونحوه، وكأن هذا مكيدة منها ومقابلة لهن في شماتتهن بها، واحتيالهن على رؤيته.

﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾، أي: وقالت ليوسف: ابرز إليهن.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾، أي: أعظمنه وأجللن قدره، وبهرهن جماله وحسنه الفائق وشمائله.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، أي: وحززن وجرحن أيديهن بالسكاكين، من شدة دهشتهن برؤيته، وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترج، وبهذا تكون قابلت مكرهن القولي بهذا المكر الفعلي.

﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ قرأ أبو عمرو: «حاشا» بألف بعد الشين لفظًا في حالة الوصل، وقرأ الباقون بحذفها: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة ٥٣٩٨، وأبو داود في الأطعمة ٣٧٦٩، والترمذي في الأطعمة ١٨٣٠، وابن ماجه في الأطعمة ٣٢٦٢؛ من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه.

والمعنى: معاذ الله وتنزيهًا له سبحانه من صفات النقص والعجز، وتعجبًا من قدرته تعالى على هذا الصنيع البديع والجمال الفائق الذي أعطاه ليوسف، حتى كان آية للناظرين، وعبرة للمتأملين، قال ﷺ في حديث الإسراء: **«ثم عرج بي إلى السماء الثالثة، فإذا أنا بيوسف ﷺ، إذ هو قد أعطى شطر الحسن، فرحب ودعا لي بخير»**(١).

﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ «ما» نافية تعمل عمل «ليس»، و«هذا» اسمها مبني في محل رفع، و«بشرًا» خبرها منصوب.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ «إن» نافية بمعنى «ما»، و«إلا» أداة حصر، أي: ما هذا إلا ملك كريم، وإنما نفين عنه البشرية، وأثبتن له الملكية؛ لغرابة جماله.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

لما بهرهن يوسف وأدهشهن بجماله الظاهر، وأعجبهن غاية العجب، وظهر منهن العذر لامرأة العزيز، أرادت أن تريهن جماله الباطن بعفته التامة واستعصامه، وأنها مقيمة على محبته والتعلق به، مهما عذلها العاذلون ولامها اللائمون، فقالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ الآية.

قوله: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾، أي: فهذا الذي أصابكن في رؤيتكن إياه، هو الذي جعلني أولعت وفتنت به، وشغفت بحبه، فمن يلومني على محبته، وهذا حسن منظره وجماله؟!

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ الواو استئنافية، واللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، فأقرت لهن بأنها راودته، وأن الذي تُحدِّث عنها في أمره حق، وأكدت ذلك بالقسم وحرف التحقيق.

﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ السين والتاء للمبالغة، أي: فامتنع أشد الامتناع، وطلب من الله أن يعصمه مما أدعوه إليه؛ كما قال في الآية الآتية: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان- الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات ١٦٢- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ٱلْجَٰهِلِينَ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ اللام موطئة للقسم، و«ما» موصولة، أي: والله لئن لم يفعل، أي: لئن لم يمتثل الذي آمره به، تعني: إجابتها إلى مقصودها منه.

﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أي: ليحبسن في السجن.

﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، أي: من الذليلين الحقيرين، فتوعدته بإيداعه السجن وحبسه فيه، وإذلاله وإهانته، وأكدت ذلك بالقسم ونون التوكيد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴿٣٣﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾، أي: قال يوسف يا رب السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه.

قرأ يعقوب: «السَّجن» بفتح السين، وقرأ الباقون: ﴿ٱلسِّجْنُ﴾ بكسرها، اسم مكان، أي: قال يوسف: يا رب السجن أحب إلي من الذي يدعونني إليه من الفاحشة؛ لأن فيه الخلاص من الحرام.

وقوله: ﴿يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ بضمير الجمع يدل على أن النسوة جعلن يشرن على يوسف بمطاوعة سيدته، وجعلن يكدنه ويحرضنه على ذلك، فاستحب السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة توجب العذاب الأخروي، ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوته، وفزع إلى ربه في طلب العصمة فقال:

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾، أي: وإن لم تصرف عني كيدهن ومكرهن.

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾، أي: أمل إليهن، أي: إلى إجابتهن بمقتضى البشرية، أي: إن لم تصرف وتدفع عني كيدهن وما أردن بي من السوء، صبوت إليهن، فلا تكلني إلى نفسي؛ فإني ضعيف عاجز.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، أي: وأكن بسبب ميلي إليهن ومقارفة المعصية ﴿مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، أي: من سفهاء الأحلام، فالجهل هنا مقابل الحلم، فكل ذنب عُصي الله به فهو جهالة، وكل من عصى الله تعالى فهو جاهل بهذا المعنى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

﴿ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ [النساء: ١٧]، أي: بسفه ثم يرشدون.

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤﴾.

قوله: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ الفاء عاطفة، ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾ بمعنى أجاب، والسين والتاء فيه: للمبالغة، أي: فاستجاب له ربه حين دعاه بقوله: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ﴾؛ لأن معناه: اصرف عني كيدهن.

﴿فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّ﴾، أي: فعصمه ودفع عنه كيدهن ومكرهن.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ تعليل لما قبله، و«السميع» من أسماء الله عز وجل، أي: ذو السمع الذي يسمع الدعاء والأقوال وجميع الأصوات؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها: «والذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله ﷺ وما بيني وبينهما إلا ساتر، فلم أسمع كلامها، وقد سمع الله كلامها من فوق سبع سموات»(١).

﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ من أسماء الله عز وجل، أي: ذو العلم الذي وسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ٩٨﴾ [طه: ٩٨].

فهو عز وجل السميع لدعاء يوسف ودعاء المتضرعين إليه، العليم بحاله وصدقه في تضرعه ودعائه، وحاجته إلى لطف الله عز وجل وعونه وإمداده وإجابة دعائه، وقدم «السميع» على «العليم»؛ لأن السمع من أهم وسائل العلم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ «ما» مصدرية، أي: ثم ظهر للعزيز وأهله من بعد رؤيتهم الآيات، أي: العلامات والدلائل والشواهد على براءته وصدقه، وعلى كذب امرأة العزيز.

﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ اللام لام القسم لقسم مقدر، أي: ليسجننه إلى وقت ومدة يرون رأيهم فيها؛ وذلك لتبرئة امرأة العزيز وتغطية جرمها، وإلصاق تهمة المراودة بيوسف.

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا في كتاب التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾، فتح الباري ١٣/ ٣٧٢، وأخرجه موصولًا النسائي في الطلاق ٣٤٦٠، وابن ماجه في المقدمة، فيما ذكرت الجهمية ١٨٨، وأحمد ٦/ ٤٦.

أي: أنه لما شاع الخبر وانتشر، وصار الناس فيه بين لائم وعاذر، ظهر لهم من بعد رؤيتهم الآيات على براءته وصدقه وعفته ونزاهته أن المصلحة أن يسجنوه مدة؛ إيهامًا بأنه هو الذي راودها عن نفسها، وحتى ينقطع بذلك الخبر وينساه الناس؛ ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة، امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نُسب إليه من الخيانة.

الفوائد والأحكام:

١- انتشار خبر يوسف وامرأة العزيز ومراودتها له، وشغفها بحبه في مصر، وتكلم النساء بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴿٣٠﴾﴾.

٢- لوم النسوة وعذلهن لها، وشماتتهن بها وتخطئتها؛ مكرًا منهن؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

٣- مقابلة امرأة العزيز مكر النسوة بها بالقول، وشماتتهن بها بالمكر بهن بالفعل والقول؛ باستضافتهن وإعداد المتكأ والطعام والفواكه لهن، وإعطاء كل واحدة منهن سكينًا، وأمر يوسف بالخروج عليهن؛ ليقطعن أيديهن من شدة دهشتهن لما رأينه، ومن ثم يعذرنها؛ لقوله تعالى: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

٤- عظم ما منح الله عز وجل يوسف من الجمال والكمال، مما يبهر العقول ويأخذ بالألباب؛ مما جعل النسوة لما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهم من شدة دهشتهن، ونزَّهن الله، ونفين أن يكون يوسف بشرًا، بل هو ملك كريم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

٥- انتصار امرأة العزيز على النسوة، وإعذارهن لها في مراودتها ليوسف، وشغفها بمحبته؛ يظهر هذا من قولها: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾.

٦- إقرارها بمراودتها ليوسف؛ لقولها: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

٧- اعتصام يوسف بالله، وامتناعه أشد الامتناع من مطاوعتها؛ لعفته العظيمة وجمال وطهارة باطنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾.

٨- تمادي امرأة العزيز في غيها، وإصرارها على مراودة يوسف، وانتقالها إلى تهديده إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن والإهانة والإذلال؛ لقولها: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بيوسف عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾، وقوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾.

١٠- اختيار يوسف عليه السلام السجن على فعل المعصية، وأن السجن أحب إليه مما تدعوه إليه النسوة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾.

١١- أن عذاب الدنيا بالسجن أو غيره أهون من عذاب الآخرة الذي تسببه المعاصي.

١٢- يجب مدافعة الإكراه على فعل المعصية ما أمكن.

١٣- تضرع يوسف عليه السلام إلى ربه أن يصرف عنه كيد هؤلاء النسوة، واعتصامه بالله وتفويضه أمره إليه وبراءته من حوله وقوته؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

١٤- أنه لا حول للإنسان ولا قوة إلا بالله، ولا حافظ له من الوقوع في الشرور والمعاصي إلا الله، فمن استعان به أعانه وحفظه، ووقاه، ومن كل سوء حماه، ومن أعرض عن الله، واعتمد على حوله وجهده وقواه، خاب وضلَّ وأوبق نفسه بمسعاه، كما قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجني عليه اجتهاده[1]

١٥- فضيلة العلم والعقل؛ لأنهما يدعوان صاحبهما إلى الخير، وينهيانه عن الشر. والجهل والسفه بضد ذلك، يدعوان صاحبهما إلى اتباع هوى النفس، ولو كان معصية لله.

١٦- استجابة الله عز وجل لدعاء يوسف عليه السلام، وصرفه عز وجل عنه كيد النسوة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾، فعصمه الله عصمة عظيمة، فامتنع أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك.

وهذا في غاية مقامات الكمال، أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع ويختار السجن على

(١) البيت ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «الفرج بعد الشدة» (١/ ١٧٧).

ذلك؛ خوفًا من الله، ورجاءً في ثوابه، وهذه منزلة عظيمة لا ينالها إلا من وفقه الله واختاره واصطفاه.

قال ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**»، وذكر منهم رجلًا دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال إني أخاف الله[(١)].

١٧- إثبات خلق الله لأفعال العباد، وفي هذا ردٌّ على القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾.

١٨- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل، وهما «السميع» و«العليم»، وأنه سبحانه ذو السمع الواسع لجميع الأقوال والأصوات، وذو العلم الواسع لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

١٩- استجابة الله عز وجل لمن دعاه؛ لسمعه الواسع للدعاء، وعلمه الواسع بأحوال عباده.

٢٠- تقديم «السميع» على «العليم» في الآية؛ لأن السمع وسيلة للعلم.

٢١- توجه العزيز وأهله من بعد رؤيتهم الآيات الدالة على براءة يوسف وصدقه إلى سجنه حتى حين؛ لتبرئة امرأة العزيز، وتغطية جرمها، وإلصاق تهمة المراودة بيوسف، ولينقطع هذا الخبر وينساه الناس؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

٢٢- عظم ما لقيه يوسف عليه السلام من الظلم؛ فأُبعد عن أبيه ظلمًا، وألقي في غيابة الجب ظلمًا، وبيع على السيارة بثمنٍ بخس ظلمًا، واتهم بمراودة امرأة العزيز ظلمًا، ومن ثم أودع السجن ظلمًا.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْأٓخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾، أي: شابان: أحدهما صاحب سقيا الملك وشرابه، والثاني صاحب خبزه وطعامه، قيل: سجنهما لأنهما تمالآ على سمه في طعامه وشرابه، فرأى كل منهما رؤيا، فقصها على يوسف ليعبرها.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ وهو ساقي الملك: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ في المنام ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾، أي: أعصر عنبًا؛ ليكون خمرًا؛ فهو من تسمية الشيء بما يؤول إليه.

﴿وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ﴾ وهو صاحب خبزه وطعامه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ في المنام ﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾.

﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾، أي: أخبرنا بتعبيره وتفسيره وبيان ما يؤول إليه.

والضمير يعود إلى رؤيا كل منهما، فهو بمعنى اسم الإشارة ونحوه، أي: أخبرنا بتأويل ذلك، أو بتأويل الذي رأينا، أو بتأويل المذكور أو المرئي.

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إلى عباد الله من أهل السجن وغيرهم، فأحسن إلينا في

تعبيرك لرؤيانا، وقيل: من المحسنين الذين يحسنون تأويل الرؤيا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾، أي: قال يوسف للفتيين مجيبًا لطلبهما ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ غداء أو عشاء، أو غير ذلك ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾، أي: إلا أخبرتكما بتأويله، وتأويله بيان ما هو؛ بأن يقول: يأتيكما طعام كيت وكيت، فيجدانه كذلك ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾، أي: قبل أن يصل إليكما.

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ الإشارة إلى تأويل الرؤيا وإنبائهما بما يأتيهما من طعام يرزقانه قبل أن يأتيهما، و«ما» موصوله أو مصدرية، أي: ذلكما التأويل للرؤيا وإخباركما بما يأتيكما من طعام ترزقانه قبل أن يأتيكما؛ من الذي علمني ربي من العلوم الجمة الكثيرة، من تأويل الرؤيا، وعلم المغيبات، وغير ذلك، أو من تعليم الله تعالى إياي، لا حدسًا، أو رجمًا بالغيب، أو تكهنًا.

﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ تعليل لعناية ربه تعالى به وتعليمه، أي: لأني ﴿تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، أي: اعتزلتها واجتنبتها؛ كما قال: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨]، أي: إني تركت ما عليه قومي من الشرك والكفر بالله واليوم الآخر، ولم يقل: «قومي»؛ إشارة إلى شدة مخالفته وبراءته منهم؛ لما هم عليه من الشرك والكفر بالله واليوم الآخر.

﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أكد كفرهم بالآخرة بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: وهم بالآخرة كافرون لا يؤمنون بالبعث والمعاد والحساب والجزاء على الأعمال، فلا يرجون ثوابًا، ولا يخافون عقابًا.

وإنما خص الكفر بالآخرة؛ لأن الإيمان بها من أعظم ما يحفز على العمل؛ ولهذا يربط الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله كثيرًا في القرآن الكريم.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

ذكر أولًا تركه وهجره لملة قومه، وما هم عليه من الشرك والكفر بالله واليوم الآخر، ثم أتبع ذلك بذكر اتباعه ملة آبائه المرسلين، وسلوكه طريق المهديين، وقدَّم ذكر تركه ملة الكافرين؛ لأن التخلية قبل التحلية.

قوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾، أي: واتبعت دين آبائي: إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

وهو توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له دون سواه، وفي هذا تنويه بالحنيفية السمحة ملة إبراهيم، وفضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام، وما كانوا عليه من إخلاص التوحيد والعبادة لله تعالى؛ ولهذا لما سئل عليه السلام عن أكرم الناس قال: «**يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله**»(١).

﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ تفسير لملة إبراهيم، «ما» نافية، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم كان مؤخر، أي: ما كان جائزًا لنا الإشراك بالله، ولا صح ذلك ولا استقام؛ لعصمة الله تعالى لنا أهل بيت النبوة.

﴿مِن شَىْءٍ﴾ «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، أي: ما كان جائزًا لنا أن نشرك بالله أي شيء من الشرك، لا أكبر، ولا أصغر، ولا شركًا خفيًّا، وما كان جائزًا لنا أن نشرك بالله أي شيء من الأشياء، قليلًا كان أو كثيرًا، صغيرًا أو كبيرًا.

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الإشارة إلى ما يؤخذ مما سبق، أي: توفيق الله عز وجل لنا إلى توحيده وإخلاص العبادة له، وعدم الإشراك به، وجعل كلمة التوحيد في إبراهيم وعقبه، وجعل النبوة والكتاب في ذريته، ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾، أي: من زيادته عز وجل وتفضله علينا وإنعامه.

﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾، أي: ومن فضله عز وجل على الناس عامة، فإن بعث الرسل والأنبياء فيهم، والهداية إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، وعدم الإشراك به؛ من أعظم نعم الله تعالى وإفضاله على الناس عامة، وبخاصة من قبل ذلك منهم وقام بحقه؛

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٥٣، ومسلم في الفضائل ٢٣٧٨، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى﴾ [إبراهيم: ١]، وقال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، أي: لا يشكرون ولا يقدرون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب لهدايتهم إلى الإيمان بالله وتوحيده وتحذيرهم من الكفر والشرك ليسعدوا في دينهم ودنياهم وأخراهم.

ولهذا لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فإن أكثر الناس على ضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى يوم القيامة لآدم عليه السلام: «**أخرج بعث النار من ذريتك. قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعون**»(١).

قال بعض السلف: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين، ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين»(٢).

وقال الشاعر:

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمر عنا(٣)

وفي قول يوسف للفتيين: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) نسب نحو هذه المقالة للفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة وغيرهما. انظر: «الأذكار» للنووي (ص١٠٨)، «مدارج السالكين» (١/ ٤٦)، «الزهد الكبير» للبيهقي (ص١٣١).

(٣) البيت لابن دريد. انظر: «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي (ص٧٤).

عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ تقديم وتمهيد وتوطئة لدعوته لهما لعبادة الله تعالى وحده، وبيان بطلان الشرك بالله في الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩)﴾.

لما ذكر ما هو عليه من الملة الحسنة والدين القويم وعبادة الله تعالى وحده؛ ضرب لهما مثلًا متلطفًا بهما؛ لبيان بطلان ما عليه قومهما من الشرك.

قوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ شروع منه عليه السلام بدعوتهما إلى توحيد الله، أي: يا صاحبي ورفيقي في السجن، ووصفهما بالصحبة المقتضية للمودة والنصيحة لهما، والصحبة قد تقوم مقام صلة القرابة، أو تفوقها، وقد قالوا في المثل: «صحبة عشرين يوما قرابة».

﴿ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ﴾ الاستفهام للتقرير، والمراد به تقريرهما لإبطال دينهما، أي: آلهة ومعبودون شتى- كما تعبدون أنتم وقومكم- خير.

﴿أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾، «أم»: هي المتصلة، عطفت لفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ على (أرباب)، أي: أم الله الواحد في ذاته وأسمائه وصفاته، ﴿الْقَهَّارُ﴾ لكل شيء، الغالب الذي لا يغالب، خير من هذه الآلهة المتفرقة كلها، وهي وجميع الأشياء تحت قهره وسلطانه، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها.

فالخير كل الخير في عبادته عز وجل، ولا خير في معبوداتهم البتة، بل هي شر محض.

قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)﴾.

قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ﴾، أي: ما تعبدون غير الله، ﴿إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ «إلا» أداة حصر، و«أنتم» ضمير فصل للتأكيد، أي: ما تعبدون سوى الله إلا مجرد أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة، وليس لها من صفات الإلهية شيء؛ ولهذا قال:

﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾، أي: ما أنزل الله بعبادتها من حجة ولا برهان، بل أنزل السلطان والحجة والبرهان في النهي عن عبادتها وبيان بطلانها.

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ «إن»: نافية، بمعنى «ما»، أي: ما الحكم إلا لله وحده، فله عز وجل الحكم الشرعي، يأمر وينهى، ويحلل ويحرم، ويشرع الأحكام، وله عز وجل الحكم الكوني، والحكم الجزائي.

والمعنى: إن الحكم في التشريع، والأمر والنهي، والتحليل والتحريم إلا لله عز وجل وحده.

﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، أي: أمر بألا تعبدوا إلا إياه، أي: أمر بأن تعبدوه وحده، ولا تعبدوا غيره.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة لما أمر الله تعالى به في الآية السابقة، أي: توحيد الله تعالى وعبادته وحده دون سواه.

﴿ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾، أي: الدين العدل المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، الموصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة، وإلى دخول الجنة والنجاة من النار.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون حقائق الأشياء والعلم الذي ينفعهم في دينهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧].

ولهذا كان أكثرهم مشركين.

وشتان بين عبادة من له الخلق والملك والأمر، وبين عبادة من ليس لهم من الأمر شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾.

لما فرغ عليه السلام من بيان ما هو عليه من صحة المنهج وسلامة المعتقد، ومن دعوة الفتيين إلى عبادة الله تعالى وحده دون سواه؛ شرع في تعبير رؤياهما، كما وعدهما بذلك.

قوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾، أي: يا صاحبي في السجن.

﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا، لكنه لم يعيِّنه؛ لئلا يحزن الآخر؛ ولهذا أبهمه في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ﴾ الآية.

﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا﴾، أي: فيخرج من السجن ويسقى سيده خمرًا، أي: يعود إلى ما كان عليه من سقى سيده الخمر.

﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ﴾ وهو الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه.

﴿فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾، أي: فيقتل ويصلب، ويعلق على خشبة في مكان بارز، فتأكل الطير من لحم رأسه، فعبَّر الخبزَ الذي يحمله وتأكل الطير منه بلحم رأسه وشحمه وما فيه من المخ.

﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾، أي: قضي الأمر الذي تسألان عن تعبيره وتفسيره، أي: هذا تأويل رؤياكما قد فرغ منه وتم، وهو واقع لا محالة، كما في حديث معاوية بن حيدة عن النبي ﷺ: «**الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عُبِّرت وقعت**»(١).

قال ابن كثير(٢): «وفي مسند أبي يعلى مرفوعًا: **الرؤيا لأول عابر**».

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ﴾، أي: وقال يوسف عليه السلام ﴿لِلَّذِي ظَنَّ﴾، أي: تيقن ﴿أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا﴾، أي: أنه سالمٌ من القتل من الفتيين بعد خروجهما من السجن، وهو ساقي الملك الذي رأى أنه يعصر خمرًا.

﴿ٱذۡكُرۡنِي﴾، أي: اذكر قصتي ومظلمتي ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: عند سيدك ملك مصر؛ لعله يرق لي فيخرجني من السجن.

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ الضمير في قوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ يعود إلى الفتى الناجي من القتل، أي: أنساه الشيطان ذكر ربه، أي: ذكر يوسف لربه الملك، وكان هذا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في تفسيره ٤/ ٣١٦.

من مكائد الشيطان؛ ليظل يوسف حبيس السجن.

وقيل: الضمير في ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ يعود إلى يوسف، أي: فأنسى الشيطان يوسف ذكر ربه، وذلك عندما قال للذي ظن أنه ناج منهما: اذكرني عند ربك، وكان الأولى له أن يتوكل على الله وحده، ويسأله تفريج كربته.

﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾، أي: فمكث يوسف في السجن ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾، البضع: ما بين الثلاثة إلى التسعة، وقيل غير ذلك، قيل: لبث يوسف في السجن سبع سنين، وقيل غير ذلك

الفوائد والأحكام:

١- أن يوسف لما دخل السجن دخل معه فتيان: أحدهما: صاحب سقيا الملك، والآخر: صاحب خبزه وطعامه؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾.

٢- رؤية كل واحد من الفتيين رؤيا، وطلبهما من يوسف تأويلها، فأحدهما رأى أنه يعصر خمرًا، والآخر رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

٣- أن للرؤيا وتأويلها أصلًا في الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾، وقوله بعد ذلك: ﴿يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ الآية، وقد قال ﷺ: «**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة**»(١).

وقال ﷺ: «**لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له**»(١).

والرؤيا الصالحة التي تكون من الله لها شروط ثلاثة:

الأول: ألا تكون مخالفة للشرع. فإن كانت مخالفة للشرع، فهي من الشيطان. كما في قصة الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ وقال: إني رأيت رأسي ضرب فرأيته يتدهده، فقال

---

(١) سبق تخريجه.

رسول الله ﷺ: «يعمد الشيطان إلى أحدكم، فيتهوّل له، ثم يغدو يخبر الناس»(١).

الثاني: أن يتذكرها ويضبطها، من غير تضييع بعضها. فإن ضيع بعضها فليست بشيء.

الثالث: ألا تدخل عليه الحزن والأذى في البدن، وإلا فهي من الشيطان.

ويشترط في المعبِّر شروط، منها:

الأول: المعرفة بدلالات اللغة التي تحكى بها الرؤيا.

الثاني: المعرفة بنصوص الكتاب والسنة ومعانيهما.

الثالث: أن يكون له فراسة وبصيرة.

وينبغي أن يعلم أن المعبر يصيب ويخطئ. وقد قال النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «أصبت بعضًا وأخطأت بعضًا»(٢).

وأيضًا فإن الرؤيا ليس لها قاعدة تطبيقية، فكل رؤيا لها تفسيرها. ولا ينبغي الجزم بتفسيرها لئلا تجر إلى فتنة أنه يعلم الغيب.

ومع جواز تفسير الرؤيا بشروطها فالأولى عدم الانشغال بها.

وقد روي أن الإمام أحمد رحمه الله أنكر على ابن سيرين ذلك. وناهيك عما يترتب على ذلك من المفاسد العظيمة من التشكيك في العقيدة، والتفريق بين الناس، من الأقارب والإخوان، والأصحاب والجيران، وإدخال الأذى على الناس، بسبب كثير من المعبرين، الذين خاضوا في هذا الأمر، وهم لا يحسنون صنعًا.

٤- حُسن خُلق يوسف عليه السلام وإحسانه الظاهر؛ لقول الفتيين له: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٥- بيان يوسف للفتيين أنه لا يأتيهما طعام يرزقانه إلا أخبرهما؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في تعبير الرؤى ٣٩١١، وأحمد ٢/ ٣٦٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التعبير ٧٠٤٦، ومسلم في الرؤيا ٢٢٩١، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٦- جواز ثناء الإنسان على نفسه بما هو حق، إذا كان ذلك لمصلحة، كطمأنة السائل، ونحو ذلك؛ لقول يوسف: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾.

٧- اعتراف يوسف بنعمة الله عليه بتعليمه عز وجل له، ونسبته النعمة إلى مسديها؛ حمدًا لله تعالى وشكرًا له وثناء عليه؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾.

٨- إطلاع الله تعالى يوسف عليه السلام على شيء من الغيب.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بيوسف عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾.

١٠- بيان يوسف عليه السلام سبب إنعام الله تعالى عليه بالعلوم الجمة، وهو اعتزاله ملة الذين لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة كافرون، واتباعه ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ بتوحيد الله تعالى والبعد عن الشرك؛ لقوله: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

١١- أن الجد يُسمَّى أبًا؛ لقوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

١٢- حرمة الشرك قليله وكثيره، وشدة خطره، ووجوب البعد عنه؛ لقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

١٣- امتداح الحنيفية السمحة ملة إبراهيم عليه السلام.

١٤- عظم فضل الله تعالى على إبراهيم وعقبه وذريته؛ حيث جعل النبوة فيهم، ووفقهم إلى توحيده وإخلاص العبادة له والبراءة من الشرك، واعتراف يوسف عليه السلام بهذا الفضل العظيم؛ شكرًا لله تعالى؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا﴾.

١٥- فضل الله تعالى على الناس ببعث الرسل والأنبياء فيهم، يدعونهم إلى عبادة الله تعالى وحده، ويحذرونهم من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

١٦- أن أكثر الناس لا يشكرون، ولا يقدرون نعمة الله عليهم بإرسال

الرسل، وإنزال الكتب؛ لهدايتهم إلى الإيمان بالله وتوحيده، وتحذيرهم من الكفر والشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، فلا يُغتر بما عليه أكثر الخلق؛ فأكثرهم لا يشكرون.

١٧- أن ما قدم به يوسف عليه السلام من ذكر ما أنعم الله به عليه من علم تأويل الرؤيا وغيره، واعتزاله ملة أهل الكفر، واتباعه ملة آبائه الحنيفية السمحة ملة إبراهيم بإخلاص التوحيد والبراءة من الشرك، وأن ذلك من فضل الله عليهم وعلى الناس، كل ذلك توطئة وتمهيدًا لدعوتهما إلى توحيد الله تعالى، وترك ما هما عليه وقومهما من الشرك بالله، وعبادة آلهة باطلة ما أنزل الله بها من سلطان.

١٨- شروع يوسف عليه السلام بدعوة الفتيين إلى عبادة الله تعالى وحده، وبيان بطلان ما هما عليه من الشرك وقومهما؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾.

١٩- لا مانع من ذكر الداعي إلى الله أو المعلم أو المفتي ونحوهم ما هو عليه من المنزلة في العلم والدين، إذا احتاج الأمر إلى ذلك، وكان لذلك أثر في الاستفادة منه والاطمئنان إليه، ولا يعد هذا من تزكية النفس المنهي عنها.

٢٠- شتان بين من يعبد أربابًا وآلهة متفرقين، وبين من يعبد الله وحده الواحد القهار؛ لقوله تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾، فهو عز وجل خير من كل ما يعبد من دونه، والخير كل الخير في عبادته عز وجل وحده، ولا خير البتة في عبادة ما سواه، بل هي شر محض، والمفاضلة قد تكون بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل؛ كما قال تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤]، أي: خير مستقرًّا وأحسن مقيلًا من أهل النار، مع أن النار شر محض لا خير فيها مطلقًا.

٢١- أنه كما أن على العبد عبودية لله في الرخاء فعليه عبودية له في الشدة، فيوسف عليه السلام لم يترك الدعوة إلى الله حتى في السجن؛ حيث دعا الفتيين

بلسان حاله ومقاله إلى توحيد الله.

٢٢- البداءة بالأهم فالأهم، وأنه إذا كان السائل في حاجة أشد إلى غير ما سأل عنه ينبغي أن يبين له ما يحتاج إليه قبل الإجابة على سؤاله؛ لشدة حاجته إلى هذا الشيء، وانتهازًا لفرصة إقباله على المسؤول.

٢٣- إثبات اسم الله تعالى: «الواحد» وصفة الوحدانية التامة له عز وجل في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾.

٢٤- إثبات اسم الله تعالى «ٱلْقَهَّارُ»، وصفة القهر والغلبة التامة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾.

٢٥- أن كل ما يعبده المشركون من دون الله ما هي إلا أسماء لا حقيقة لها، لا تنفع ولا تضر، سموها هم وآباؤهم الضالون ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان؛ لقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠].

٢٦- جهل هؤلاء الأقوام؛ بتقليدهم آباءهم على ما هم عليه من الضلال والشرك.

٢٧- أن الحكم في التشريع والأمر والنهي إنما هو لله تعالى وحده، كما أن له الحكم الكوني والحكم الجزائي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

٢٨- أن الله عز وجل أمر ألا يعبد سواه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

٢٩- أن الدين القيم والهدى القويم والصراط المستقيم عبادة الله تعالى وحده دون سواه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

٣٠- أن أكثر الناس لا يعلمون حقائق الأشياء والعلم الذي ينفعهم في دينهم؛ ولهذا كان أكثرهم مشركين؛ لقوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

٣١- تأويل وتعبير يوسف رؤيا الفتيين كما وعدهما، وذلك بعد دعوته لهما إلى عبادة الله تعالى وحده دون غيره؛ لقوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾.

٣٢- أن تعبير الرؤيا داخل في الفتوى؛ لقول يوسف عليه السلام ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾.

لهذا يجب على من يتصدر لذلك، أن يكون ذا علم وعقل وفطنة وحكمة وإخلاص وتحرٍّ للصدق، ومما يؤسف له أن أكثر من يتصدر لتعبير الرؤيا ليس عندهم مما ذكر شيء يتخبطون تخبط العشواء، جعلوا من هذا الأمر طريقًا لكسب الشهرة والجاه أو الأطماع الدنيوية؛ فضلوا وأضلوا، وفرَّقوا بين الزوج وزوجه، وبين الأقارب والجيران والمعارف، مما يوجب أن تُلجم أفواههم؛ كفًّا لشرهم عن المسلمين.

٣٣- حكمة يوسف عليه السلام في الإبهام في قوله: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾، وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ﴾ دون تعيين واحد منهما؛ لئلا يحزن الذي سيصلب وتأكل الطير من رأسه.

وهكذا ينبغي لمن يقوم بتفسير الرؤيا أن يكون عاقلًا فطنًا حكيمًا مراعيًا لمشاعر صاحب الرؤيا، إذا كان تأويل رؤياه ينذر بوقوع أمر مكروه له، فيَحسُن في مِثل هذا التلميح والتعريض دون التصريح.

٣٤- جواز إطلاق اسم «رب» على السيد المالك؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾، ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴿٤٢﴾﴾.

٣٥- أن الرؤيا إذا عُبِّرت وقعت؛ لقوله: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ وفي الحديث: «**الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت**»(١).

٣٦- وصية يوسف عليه السلام للناجي من القتل- وهو الساقي- بأن

---

(١) سبق تخريجه.

يذكره عند الملك؛ لعله يرق له فيخرجه من السجن؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

٣٧- لا بأس أن يستعين المرء بمن يخلصه من مكروه، أو ينفعه في أمر ما إذا كان ذلك في مقدوره، وليس ذلك من الشكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس فيها بعضهم ببعض؛ لقول يوسف للناجي منهما: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

٣٨- إنساء الشيطان للفتى الناجي ذكر يوسف وحالته وظلامته للملك كما أوصاه يوسف بذلك، ولبثه في السجن بضع سنين، وفي هذا- والله أعلم- ما يدل على أن الأَولى بيوسف أن يرفع حاجته وظلامته وشكايته إلى الله، ويكل أمره إليه، ويتعلق به وحده، فكأن في هذا ما يوحي بالعتاب له؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

٣٩- شدة عداوة الشيطان ليوسف وكيده له؛ ولهذا أنسى الناجي ذكر يوسف عند الملك؛ ليظل يوسف رهين الحبس بضع سنين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣)﴾.

لما أراد الله أن يأذن بإخراج يوسف عليه السلام من السجن معززًا مكرمًا، ويعلو قدره وشأنه في الملأ، قدر وعقد لذلك سببًا، وهو رؤيا الملك العجيبة التي يتناول تأويلها شأن الأمة كلها، ويكون ذلك على يد يوسف عليه السلام؛ ليظهر من فضله وعلمه ما يكون رفعة له في الدارين.

قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾، أي: وقال ملك مصر الريان بن الوليد، لملئه: ﴿إِنِّي أَرَى﴾، أي: في المنام ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾، أي: سبع بقرات سمينة لحمًا وشحمًا، ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾، أي: يأكل هذه البقرات السمان سبع بقرات عجاف، أي: ضعاف مهازيل.

﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾.

أي: وأرى «سبع سنبلات» جمع سنبلة، وهي نبات الزروع والحبوب؛ كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ (٢٦١)﴾ [البقرة: ٢٦١].

﴿خُضْرٍ﴾، أي: خضراء مورقة مونقة مثمرة ممتلئة.

﴿وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾، أي: وسبع سنبلات أخر يابسات، والمعنى: يأكلهن سبع سنبلات أخر يابسات، كأنها نبتت وراء السبع الخضر فابتلعتها.

وإنما استغنى عن ذكر عددها وأكلها للخضر؛ للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات؛

لأنها نظيرتها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ﴾ خطاب لكبراء دولته وأشراف قومه وساداتهم.

﴿أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾، أي: أخبروني في تأويل وتعبير رؤياي وتفسيرها ﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾، أي: إن كنتم للرؤيا تفسرون وتؤولون، وقدم ﴿لِلرُّءۡيَا﴾ لرعاية الفاصلة.

﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾، أي: رؤياك هذه أخلاط أحلام مشتبهة كاذبة، لا حاصل لها ولا تأويل، وهذا تبرير لعجزهم عن تأويلها، ويدل على عجزهم، وعدم علمهم شك الملك بقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾.

﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾ «الأحلام» جمع «حلم»؛ وهو ما يراه النائم فهو مرادف للرؤيا، إلا أنها غلبت في رؤيا الخير والشيء الحسن، وغلب الحلم على خلافه، وفي الحديث: «**الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان**».

ومرادهم بقولهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ أنهم لا يُعبرون إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس؛ فإنا لا نعبرها، فجمعوا بين الجهل والجزم بأنها أضعاث أحلام، والإعجاب بأنفسهم؛ لأنهم لم يعترفوا بالحقيقة، ويقولوا: لا نعلم تأويلها؛ وهذا ليظهر فضل يوسف وعلو مكانته ورفعة منزلته.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ٤٥﴾.

لما رأى الملك هذه الرؤيا العجيبة والمهولة وعرضها على ملئه؛ ليعبروها له فما استطاعوا؛ تذكر الذي نجا من صاحبي السجن يوسف وعلمه بالرؤيا، والشيء بالشيء يذكر، فقال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا﴾، أي: قال الذي نجا من صاحبي السجن، أي: الذي نجا من القتل والصلب، وهو ساقي الملك.

﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ الجملة معترضة بين «قال» ومقوله: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾، أي: وتذكر بعد مدة، قيل: كان ذلك بعد خروجه من السجن بسنين، والمعنى: وتذكر بعد مدة وصية يوسف له بذكره للملك، وتذكر ما كان عليه يوسف من العلم بتأويل

الرؤيا، وتعبيره رؤياهما، وأنه كفيل بتعبير هذه الرؤيا؛ ولهذا قال جازمًا:

﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾، أي: أنا أخبركم به بالتلقي عمن عنده علم تأويله، لا من تلقاء نفسي؛ ولذلك لم يقل: أنا أفتيكم فيها، وعقبه بقوله: ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾، أي: فابعثوني إلى يوسف، والخطاب للملك والذين جمعهم لتأويل رؤياه، أي: فابعثوني إلى يوسف في السجن؛ لأسأله عنها.

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٤٦﴾.

قوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ «يوسف»: منادى، أي: يا يوسف، و«أي» بدل من يوسف، و«ها» للتنبيه، و«الصديق» نعت لـ«أي» أو عطف بيان، أي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله، والصديقية منزلة دون منزلة الأنبياء وفوق منزلة الشهداء، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩﴾ [النساء: ٦٩]، وفي الحديث «**إنما عليك نبي وصديق وشهيدان**»(١).

والتقدير: فأرسلوه فجاء إليه فقال: يا يوسف أيها الصديق:

وإنما وصفه بالصديق لما عرف عنه من حسن السريرة، وجميل الخصال، والصدق في أقواله وأفعاله إبان صحبتهما له في السجن وتعبيره لرؤياهما هو وصاحبه، ولم يعنفه يوسف عليه السلام على نسيانه، بل استمع ما يسأله عنه وأجابه.

﴿أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٤٦﴾.

ولم يغير لفظ الملك؛ لأن التعبير يكون على وفقه، وفي قوله ﴿أَفۡتِنَا﴾ بالجمع- مع أن المستفتي واحد- إشعار بأن الرؤيا ليست له، بل لغيره ممن له ملابسة في أمور العامة،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٦٩٤، وأبو داود في السنة ٤٦٥١، والترمذي في المناقب ٣٦٩٧؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

وأنه مجرد سفير في ذلك؛ كما يدل عليه قوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٤٦﴾.

ومعنى ﴿أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ﴾ الآية، أي: أفتنا في تأويل هذه الرؤيا وتعبيرها و«لعل» في قوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ وفي قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ للتعليل؛ لأجل أن أرجع إلى الناس فأخبرهم؛ لأجل أن يعلموا تأويل هذه الرؤيا وتعبيرها فيعملوا بمقتضاها، ويعلموا فضلك ومكانتك من العلم؛ لعلهم يخلصوك من محنتك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ۝٤٧ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ۝٤٨﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال يوسف عليه السلام في تعبير هذه الرؤيا وتأويلها مضمنًا جوابه ما ينبغي أن يعملوه ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ قرأ حفص بفتح الهمزة: ﴿دَأَبٗا﴾ وقرأ الباقون: «دَأْبًا» بإسكانها، ومعنى ﴿دَأَبٗا﴾، أي: استمرارًا، أي: وأنتم دائبون جادون.

﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ﴾ من تلك الزروع ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾، أي: فاتركوه في سنبله من غير درس؛ لأن ذلك أبقى له، وأبعد عن وصول التلف والسوس إليه الذي يصيب الحب إذا تراكم بعضه على بعض.

﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ﴾، أي: إلا قليلًا من الذي تأكلون، أي: قدر الذي تأكلون فهذا يدرس ويهيأ للأكل.

وفي قوله «قليلا» إشارة عليهم بتقليل الأكل في سنوات الخصب؛ لادخار ما فضل عن ذلك لزمن الشدة.

قوله: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾.

أي: ثم يأتي من بعد سبع السنين المخصبات سبع سنين شداد، أي: مجدبات ﴿يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ﴾، أي: يأكلن جميع الذي قدمتم لهن، أي: جميع الذي ادخرتموه ولو كان كثيرًا.

ولما عبر عن البقرات بالسنين نسب الأكل إلى السنين.

﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾ إلا أداة حصر، و«التحصين» الإحراز والادخار والحفظ في الحصن، أي: إلا قليلًا من الذي تحفظون وتدخرون.

ففسر البقر السمان بالسنين المخصبات؛ لأنها تثير الأرض التي تستغل منها الثمرات

والزروع، وساعد على هذا قوله بعده: ﴿وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ﴾، فالبقر السمان والسنبلات الخضر هن السبع السنين المخصبات التي يكثر فيها الخصب والمطر.

وفسر البقر العجاف بالسنين المجدبات، وساعد على هذا قوله بعده: ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ﴾، فالبقر العجاف والأخر اليابسات هن السبع السنين المجدبات.

وضمن هذا التفسير إرشادهم إلى ما يعتمدونه في تلك السنين من الجد والاجتهاد في زراعة الحبوب، والاستمرار على ذلك، والدأب فيه طيلة السبع السنين المخصبات، مع ترك ما يحصدونه من الزروع في سنبله؛ ليبقى أطول وقت لا يتطرق إليه السوس والتلف إلا ما يحتاجون لأكله، فهذا يدرس، وينبغي تقليل ذلك والاقتصاد فيه وعدم الإسراف.

كما أرشدهم إلى تحصين وادخار ما أمكنهم تحصينه وادخاره، ولو كان قليلًا طيلة السنين المجدبات؛ فقال: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾.

وبهذا جمع لهم في تأويلها بين التعبير والإرشاد لما يفعلونه ويستعدون به من التدابير في سني الخصب إلى سني الجدب.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

هذا مما بشرهم به يوسف وزاده على ما سئل عنه في رؤيا الملك، ولعله فهم من التعبير بالسبع الشداد أن العام الذي يليها تزول به شدتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجدب المستمر سبع سنوات متوالية إلا بعام خصب جدًّا.

قوله: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾، أي: ثم يأتي من بعد السنين الشداد ﴿عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾، أي: تكثر فيه السيول والأمطار، وتكثر فيه الغلات والثمار والخيرات.

﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ قرأ الكسائي وحمزة وخلف بتاء الخطاب: «تعصرون»، وقرأ الباقون بياء الغيبة: ﴿يَعۡصِرُونَ﴾.

أي: وفيه يعصرون العنب والزيت والسكر ونحو ذلك، ويحلبون الدر من المواشي؛ لكثرة الخير والخصب والنماء.

الفوائد والأحكام:

١- جواز تسمية الكافر ملكًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾.

٢- صحة رؤيا الكافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ﴾ الآية.

٣- رؤيا الملك هذه الرؤيا العظيمة المهولة، وانعقاد الأسباب لخروج يوسف من السجن مكرمًا معززًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾.

٤- طلب الملك من ملئه أن يفتوه بتأويل هذه الرؤيا، وعجزهم عن تأويلها، وتبريرهم لذلك بأنها أخلاط أحلام، لا حاصل لها ولا تأويل، وأنها من إيحاء الشيطان وحديث النفس؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

٥- جواز طلب تعبير الرؤيا، وخاصة إذا كانت رؤيا حسنة، ومشروعية تأويلها وتعبيرها.

٦- أن تعبير الرؤيا من الفتوى التي هو قول على الله تعالى، فيجب على المعبر تقوى الله، وألا يتصدر لهذا الأمر إلا إذا كان أهلًا لذلك دينًا وعلمًا وحكمة وعقلًا؛ لقول الملك: ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾، وقول الفتى الناجي: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ...﴾ الآية.

٧- تشكيك الملك في قدرة ملئه على تعبير رؤياه؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

٨- تذكر الناجي من القتل والصلب- وهو ساقي الملك- بعد مدة يوسف، وما هو عليه من العلم بتأويل الرؤيا، وطلبه أن يرسلوه إليه؛ ليعبرها لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾.

٩- مجيء هذا الناجي إلى يوسف وطلبه الإفتاء بتأويل هذه الرؤيا، وعرضها عليه كما رآها الملك؛ لقوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

١٠- وصف الناجي يوسف بـ «الصديق»؛ لما عرفه من صدقه في أقواله وأفعاله

وجميع أحواله حينما كان معه في السجن.

١١- الإشارة في قوله ﴿أَفْتِنَا﴾ بضمير الجمع إلى أن هذه الرؤيا ليست له، وأنها من الأهمية بمكان؛ لأنها رؤيا من له ملابسة لأمر العامة، وهو الملك.

١٢- أن الرؤيا قد يفسر بعضها بعضًا؛ فقوله: ﴿وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ تفسير وبيان لقوله: ﴿سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾.

١٣- أن الغرض من عرض الرؤيا على يوسف ليعبرها؛ لكي يعلم الناس تأويلها، ويعملون بمقتضاها؛ لأنه قد أهمهم أمرها؛ لقوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

١٤- تعبير يوسف عليه السلام لهذه الرؤيا مع تضمين ذلك إرشادهم كيف يعملون؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

ففسر سبع البقرات السمان وسبع السنبلات الخضر بسبع سنين مخصبات، وأوصاهم بالاجتهاد فيها بالزرع، وترك ما حصدوه من الزروع في سنبله؛ لأن ذلك أبقى له وأسلم من السوس والتلف، وأرشدهم إلى الاقتصاد في الأكل.

وفسَّر سبع البقرات العجاف، وسبع السنبلات اليابسات بسبع سنين مجدبات، وأرشدهم إلى تحصين وحفظ ما أمكنهم حفظه من الحبوب.

وهذا من أصول التعبير، وفيه الإرشاد لهم كيف يصنعون، وهذا مما يندب للمعبر في مثل هذه الحالات.

١٥- أن جباية الأرزاق وادخارها لمصلحة الناس في المستقبل، من غير احتكار أو تضيق عليهم؛ أمر لا بأس به، وليس مناقضًا للتوكل، بل هو من فعل الأسباب مع التوكل؛ لفعل يوسف عليه السلام؛ حيث ادخر من السنين المخصبات للسنين المجدبات.

١٦- أن ما قيل: «إن الرؤيا لأول عابر» ليس على إطلاقه؛ لأن الملأ قالوا: أضغاث أحلام، وفسرها يوسف بعدهم، ولم تسقط بقولهم.

١٧- زيادة يوسف على ما جاء في الرؤيا؛ تبشيرًا لهم بعام يأتي بعد السبع يكثر فيه الخصب والخير؛ لقوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

١٨- جواز الزيادة على تفسير الرؤيا بما فيه بشارة.

١٩- حسن خلق يوسف عليه السلام؛ حيث لم يُعنف الساقي على نسيانه ذكره للملك، والعذر بالنسيان.

٢٠- أن الشيء بالشيء يذكر؛ فالناجي لم يتذكر يوسف ووصيته له حتى رأى الملك الرؤيا، وتحيروا في تأويلها.

❋ ❋ ❋

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ لما أبلغه الساقي تعبير يوسف لرؤياه بها أعجبه وأيقنه، وما ضمنه من إرشاد عرف به فضل يوسف وعلمه وعقله، وحسن خلقه وحنكته.

﴿ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ الخطاب لملئه، أي: ائتوني بيوسف الذي فسر هذه الرؤيا العجيبة، أي: أخرجوه من السجن وأحضروه، لما علم من علمه وفضله.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾، أي: فلما جاء يوسفَ الرسول الذي أرسلوه للإتيان به؛ لم يجبه لأول وهلة، وأبى الخروج من السجن.

﴿قَالَ﴾، أي: قال يوسف للرسول الذي جاءه ليأتي به إلى الملك: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

وإنما قال له هذه المقالة؛ ليثبت صدقه وبراءته مما اتهم به من مراودة امرأة العزيز، وليظهر للملك وملئه وعموم رعيته أنه إنما سجن ظلمًا وبغير جُرم، وليخرج من السجن مرفوع الرأس معززًا مكرمًا، فلا يظن أنه سجن بحق، ولا أن خروجه من السجن لتبريزه في تعبير الرؤيا، وهذا من صبره ورجحان عقله وثاقب رأيه.

قوله: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، أي: ارجع إلى سيدك الملك ومن أمر بإرسالك إلي.

﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾، أي: ما شأن النسوة؟ وما خبرهن؟

﴿ٱلَّـٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، أي: اللاتي قطعن وجرحن أيديهن لما رأينني.

﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ﴾، أي: بمكرهن وما يدبرنه بينهن.

﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو علم واسع به، لا يخفى عليه منه شيء، وفي هذا وعيد لهن.

ولا شك أن امتناع يوسف عن المبادرة إلى الخروج من السجن سيثير دهشة الملك وغيره، فمن الذي يأبى الخروج من السجن؟ ولهذا قال ﷺ: «**لو لبثت ما لبث يوسف لأجبت الداعي**»(١)، أي: داعي الملك، وفي رواية: «**لو كنت أنا لأسرعت الإجابة، وما ابتغيت العذر**»(٢).

كما أن قوله: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ﴾ الآية، مما سيهيج الملك ويحمله على الكشف والبحث والاستعلام؛ فتظهر البراءة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٔـٰنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾.

قوله: ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ﴾، أي: قال الملك بعد أن جمعت له النسوة مخاطبًا لهن: ﴿مَا خَطۡبُكُنَّ﴾، أي: ما شأنكن، وما خبركن.

﴿إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾، أي: حين راودتن يوسف عن نفسه، وذلك يوم الضيافة، أي: هل وجدتن منه ميلًا إليكن، أو رأيتن منه ما يريب؟

﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾ قرأ أبو عمرو في هذا الموضع والذي قبله كما سبق بيانه: (حاشا) بألف بعد الشين لفظًا في حالة الوصل، وقرأ الباقون بحذفها في الموضعين، أي: تنزيهًا لله تعالى، واستعظامًا أن يكون يوسف متهمًا.

﴿مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ﴾ «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، و﴿سُوٓءٖ﴾ أيضًا نكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي: ما علمنا عليه أيَّ سوء، أي: أي فعل قبيح، لا قليل ولا كثير.

﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٔـٰنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾، أي: ثبت واستقر وتبين وظهر بعد خفائه، وهو براءة يوسف مما اتهمته به.

---

(١) أخرجه البخاري تفسير سورة يوسف ٤٦٩٤، ومسلم في الإيمان- زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة ١٥١، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجها أحمد (٢/ ٣٤٦، ٣٨٩).

﴿أَنَا رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾، أي: أنا التي راودته، أي: حاولته عن نفسه، وهذا نقض وإبطال لقولها فيما سبق: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾ [يوسف: ٢٥] فهو إقرار منها على نفسها، وشهادة ببراءته.

﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ «إن» واللام للتوكيد، أي: وإنه لمن الصادقين في قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ [يوسف: ٢٦]، وهذا تأكيد لقولها: ﴿أَنَا رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾.

ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة، واعتراف امرأة العزيز على نفسها، وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق وهو على الباطل لم يبق لأحد مقال، والفضل ما شهدت به الأعداء.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ الإشارة لإقرارها على نفسها وتبرئته.

واللام للتعليل، أي: لكي يعلم، أو لأجل أن يعلم ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ الباء للظرفية، أي: بمكان الغيب، أو في حال الغيب.

وفاعل «يعلم»، والضمير في ﴿أَخُنۡهُ﴾ يعود إلى يوسف، أي: ليعلم أني لم أكن أكذب عليه، وأخنه في حال غيبته، وإن كنت ختنته في وجهه في أول الأمر، لكن الأول وهو الأشد وهو خيانته في غيبته لم يحصل مني، وقد جئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه.

قال ابن القيم: «هذا من تمام الاعتذار، قرنت الاعتذار بالاعتراف، فقالت: ذلك أن قولي هذا وإقراري ببراءته؛ ليعلم أني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته، وإن ختنته في وجهه في أول الأمر، فالآن يعلم أني لم أخنه في غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾»(١).

وقيل: إن الضمير في ﴿لِيَعۡلَمَ﴾ وفي ﴿أَخُنۡهُ﴾ يعود إلى العزيز، أي: ليعلم زوجي أني لم أخنه في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة؛ فلهذا اعترفت؛ ليعلم أني بريئة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿لِيَعۡلَمَ﴾، أي: وليعلم أن

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٤٧.

الله لا يهدي كيد الخائنين، أي: لا يسدده ولا يرضاه ولا يوفق أهله، فكل خائن فكيده في سفال وأمره في ضلال، ومكره على نفسه، ولا بد أن يفتضح أمره، لأن الله لا يهدي الخائنين في كيدهم، أو بسبب كيدهم.

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾.

لما كان في الكلام السابق نوع من تزكيتها لنفسها، وأنه لم يجرِ منها ذنب في شأن يوسف، استدركت فقالت:

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ هذا اعتذار من امرأة العزيز عن نفسها، أي: وما أبريء نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى؛ فقد حصلت مني المراودة والهم والحرص الشديد والكيد في ذلك.

﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾؛ تعليل لقولها: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾، أي: لأن النفس أمارة بالسوء، أي: كثيرة الأمر لصاحبها بفعل السوء، أي: بفعل الأعمال السيئة التي تسوء صاحبها في الحال والمآل من ارتكاب الفواحش وغيرها من الذنوب.

وقد قيل: إن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾ من كلام يوسف عليه السلام، أي: ذلك ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته، وإنما رددت الرسول؛ ليعلم الملك براءتي، وليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته بالغيب.

والقول الأول أقوى وأظهر وأشهر، وهو أنه من قول امرأة العزيز؛ لأنه متصل بقولها: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾، ثم قالت: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ الآية.

ومن جعله من قول يوسف، فإنه يحتاج إلى إضمار قول لا دليل عليه في اللفظ بوجه، وأيضًا: فإن يوسف عليه السلام لم يكن حاضرًا حين قالت امرأة العزيز: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ الآية، بل كان في السجن.

﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ «إلا» أداة استثناء، و«ما» موصولة، أي: إلا الذي رحمه ربي فإنه

يسلم من شر النفس الأمارة بالسوء، فتكون نفسه مطمئنة، لا أمارة بالسوء، ولا لوامة، فينقاد للهدى، ويسلم من اتباع طريق الردى.

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو مغفرة واسعة لذنوب عباده، بسترها عن الخلق، والتجاوز عنها، وعدم المعاقبة عليها.

﴿رَّحِيمٌ﴾، أي: ذو رحمة واسعة بعباده، ومن رحمته يغفر ذنوبهم بسترها والتجاوز عنها.

الفوائد والأحكام:

١- طلب الملك من حاشيته الإتيان بيوسف بإخراجه من السجن وإحضاره إليه، لما أبلغه الساقي تعبير يوسف للرؤيا بما أعجبه وأيقنه، وما ضمن ذلك من إرشاد عرف به فضله وعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾.

٢- امتناع يوسف عن المبادرة إلى الخروج من السجن؛ حتى يثبت صدقه وبراءته مما اتهم به من مراودة امرأة العزيز، وأنه إنما سجن ظلمًا وعدوانًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾، وهذا دليل على صبره ورجحان عقله، وثاقب رأيه، وأناته؛ ولهذا قال ﷺ: «**لو لبثت ما لبث يوسف لأجبت الداعي**»(١).

٣- إطلاق اسم «رب» على السيد والمالك.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بيوسف عليه السلام؛ وربوبيته العامة؛ لقول يوسف: ﴿إِنَّ رَبِّى﴾ وقول امرأة العزيز: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

٥- لا لوم على الإنسان في الاجتهاد في دفع التهمة عن نفسه، بل ذلك مطلوب منه؛ لذا قال ﷺ للصحابيَّيْن اللذَين لما رأياه أسرعا، وهو يقلب صفية إلى بيتها: «**على رِسلكما؛ إنها صفية**»(٢).

٦- كيد النسوة وامرأة العزيز ليوسف عليه السلام، وتعاونهن في ذلك.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٨١، ومسلم في السلام ٢١٧٥، وأبو داود في الصوم ٢٤٧٠، وابن ماجه في الصيام ١٧٧٩؛ من حديث صفية رضي الله عنها.

٧- التهديد والوعيد لهن؛ لقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

٨- علم الله الواسع لكل شيء مما أخفي أو أعلن؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

٩- سؤال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن: ما شأنهن، وما خبرهن حين راودن يوسف عن نفسه؟ استجابة لأمر يوسف؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

١٠- شهادة النسوة ببراءته عليه السلام؛ لقولهن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾، أي: تنزيهًا لله تعالى، واستعظامًا أن يكون يوسف متهمًا بسوء.

١١- اعتراف امرأة العزيز على نفسها بعد ظهور الحق، وتبينه أنها هي التي راودت يوسف عن نفسه، وأنه كان من الصادقين في قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾؛ لقولها: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

١٢- أن حبل الكذب قصير، والحق أبلج لا بد أن يظهر ولو بعد حين.

١٣- في اعتراف امرأة العزيز على نفسها بأنها التي راودته عن نفسه وأنه من الصادقين بنسبة المراودة إليها، اعتراف منها في مراودتها له علنًا، وتمدح بأنها لم ترتكب أشد الأمرين، وهو خيانته في غيبته؛ وكما يقال: حنانيك بعض الشر أهون من بعض؛ لقولها: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾.

١٤- أن الله لا يهدي ولا يسدد كيد الخائنين ومكرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ فأمرهم إلى انكشاف وفضيحة وعقاب.

١٥- اعتذار امرأة العزيز عن نفسها مع اعترافها؛ لقولها: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ (٥٣)﴾.

١٦- ينبغي الاعتراف بالتقصير واتهام النفس وعدم تزكيتها؛ فإنها محل للنقص والتفريط، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢)﴾ [النجم: ٣٢].

١٧- أن النفس أمارة بالسوء، إلا من رحم الله فوقاه شرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ

﴿ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾، وقد قيل:

إني بليت بأربع لم يخلفوا ... إلا شديد شقاوتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف الخلاص وكلهم أعدائي[1]

١٨- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾.

١٩- ينبغي التعلق برحمة الله تعالى ورجائه مع العمل وفعل السبب، وعدم الاعتماد على الجهد والعمل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾.

وقد قال ﷺ: «**لن يدخل أحدًا منكم عملُه الجنة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا؛ إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»[2].

٢٠- إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ﴾.

٢١- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رَّحِيمٞ﴾.

* * *

---

(١) البيتان مجهولا النسبة مع اختلاف فيهما. انظر: «كشف الخفاء» للعجلوني (١/ ٤٠).

(٢) سبق تخريجه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾، أي: وقال الملك حين تحقق براءة يوسف، ونزاهة عرضه مما نسب إليه، وظهر له ما هو عليه من العلم والفطنة في تأويل الرؤيا وحكمته وصبره.

﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ﴾، أي: ائتوني بيوسف ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ السين والتاء في ﴿أَسْتَخْلِصْهُ﴾ للمبالغة، أي: أجعله من خلصائي وخاصتي وأهل مشورتي، ومقربًا مني.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾، أي: فأتوه به معززًا مكرمًا، فلما كلمه، أي: كلم الملك يوسف، أي: خاطبه وعرفه عن قرب، فأعجبه وزادت مكانته عنده.

ويجوز أن يكون فاعل «كلّم» يوسف عليه السلام، أي: فلما كلم يوسف الملك أعجب الملك كلامه وحكمته، فازداد منزلة عند الملك.

﴿قَالَ﴾ الملك ليوسف ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ﴾، أي: الآن ﴿لَدَيْنَا﴾، أي: عندنا ﴿مَكِينٌ﴾، أي: ذو مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة، ﴿أَمِينٌ﴾ فعيل بمعنى «مفعول»، أي: مأمون على الأسرار، موثوق به في حفظه.

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾، أي: قال يوسف عليه السلام للملك: ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾، أي: اجعلني وكيلًا وواليًا على خزائن الأرض، وحافظًا ومدبرًا لها، وخزائن الأرض: جميع خيراتها وغلاتها، وليس هذا حرصًا منه عليه السلام على الولاية، وإنما رغبة في النفع العام، وقد عرف من نفسه الكفاية والأمانة والحفظ، مما لم يكونوا يعرفونه عنه، ومما لم يكن عند غيره؛ ليتصرف لهم على الوجه الأرشد والأصلح، ويتمكن من تطبيق أحكام الله، وإقامة الحق، وبسط العدل.

﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾، أي: لأني ﴿حَفِيظٌ﴾،

أي: خازن أمين حفيظ لما أتولاه، فلا يضيع منه شيء في غير محله، ﴿عَلِيمٌ﴾ بتدبيره ووجوه التصرف فيه؛ فوصف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما أساس نجاح الوالي على خزينة الدولة.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، أي: وبهذه الأسباب والمقامات المذكورة ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: أيدناه وقويناه، وجعلنا له تمكنا من التصرف والتدبير في جميع أرض مصر؛ حيث ولاه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة في مصر مكان الذي اشتراه من مصر، زوج التي راودته.

﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ قرأ ابن كثير بالنون: «نشاء»، وقرأ الباقون بالياء: ﴿يَشَآءُ﴾.

والتبوء: النزول، والمعنى: ينزل منها حيث يشاء بعد الضيق والحبس والسجن، ويتصرف فيها كيف يشاء.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾، أي: نصيب ونختص برحمتنا الفعلية الدينية والدنيوية الذي نشاء ونريده من عبادنا.

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: ولا نضيع ثواب وجزاء المحسنين، ولا نخيب رجاءهم وآمالهم، بل نجازيهم على إحسانهم أعظم الجزاء في الدنيا، وفي الآية ثناء على يوسف أنه من المحسنين، بل هو في مقدمتهم؛ لإحسانه في عبادة الله تعالى، وصبره على ما قدره الله عليه من أذى إخوته، وأذى إمرأة العزيز والنسوة، وعلى السجن بضع سنين ظلمًا وعدوانًا، وغير ذلك؛ ولهذا أعقبه الله بالفرج والنصر والتأييد.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ الواو للحال واللام للتوكيد، أي: والحال أن أجر الآخرة خير، أي: ولثواب الدار الآخرة وجزاؤها خير من ثواب الدنيا ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، أي: للذين صدقوا بقلوبهم وبواطنهم.

﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، أي: يتقون الله بجوارحهم بفعل أوامر الله، وترك نواهيه.

فالمطلب الأعلى هو ثواب الآخرة، فما يدخر للمحسنين فيها أعظم وأجل مما يخولون في الدنيا من التمكين في الأرض والجاه والثروة والملك، وغير ذلك، بل ومن الدنيا كلها.

فما ادخره الله تعالى ليوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا؛ كما قال عز وجل: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: ٣٩- ٤٠].

قال الفضيل بن عياض: «وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مر يوسف، فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكًا بطاعته، والملوك عبيدًا بمعصيته»(١).

الفوائد والأحكام:

١- طلب الملك الإتيان بيوسف؛ ليجعله من خلصائه وخاصته والمقربين منه وأهل مشورته، وذلك بعد أن تحقق براءته ونزاهة عرضه وعلمه وحكمته وصبره وفطنته في تعبير الرؤيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾.

٢- تكليم الملك ليوسف ومعرفته عن قرب ما هو عليه من العلم والعقل والفطنة والحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾.

٣- حلول يوسف مكانة عظيمة عند الملك؛ لما عرف من علمه وعقله وحكمته وفطنته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

٤- طلب يوسف من الملك أن يجعله على خزائن أرض مصر؛ لقدرته على حفظ ما يتولاه، وعلمه كيفية تدبيره والتصرف فيه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾.

٥- جواز عرض الإنسان نفسه لطلب الولاية إذا وثق من نفسه القيام بحقوق الولاية، وأن من مصلحة الأمة والنصح لها توليه هذه الولاية، بل قد يجب عليه ذلك إذا رأى أنه ليس هناك من يصلح لها سواه، ونحو ذلك؛ لقول يوسف عليه السلام للملك: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾.

٦- لا بأس بامتداح الإنسان نفسه بالإخبار عما فيه من صفات الكمال من علم أو

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره ٤/ ٣٢١.

عمل إذا جُهِل حاله، وكان في ذلك مصلحة، ولم يقصد بذلك الرياء والسمعة، وسلم من الكذب؛ لقول يوسف: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾.

وفي المثل: «من لا يعرفك لا يُثَمِنك»، أي: لا يقدرك قدرك.

٧- تمكين الله عز وجل ليوسف في أرض مصر حيث جعله الملك وزيرًا له وواليًا على خزينة دولته؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ ٥٦﴾.

٨- اختصاص الله تعالى من يشاء من عباده برحمته؛ لقوله تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ﴾.

٩- إثبات صفة الرحمة وصفة المشيئة، وهي الإرادة الكونية لله تعالى.

١٠- إثابة المحسنين ومجازاتهم في الدنيا قبل الآخرة على إحسانهم؛ بتوفيقهم وتيسير أمور دينهم ودنياهم، وعدم إضاعة ثوابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

١١- الترغيب في الإحسان بنوعيه: الإحسان في العبادة، إخلاصًا لله تعالى ومتابعة للشرع، وإحسانًا إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة قولًا وفعلًا وبذلًا، وكف الأذى عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

١٢- أن يوسف عليه السلام من خاصة المحسنين.

١٣- أن ثواب الآخرة خير من ثواب الدنيا، بل ومن الدنيا كلها للمؤمنين المتقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾.

١٤- الترغيب في الإيمان والتقوى.

١٥- جمع الله تعالى ليوسف بين خيري الدنيا والآخرة؛ لإيمانه وتقواه، وصبره وأمانته، وعفته ونزاهته، وصدقه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

لما تولى يوسف عليه السلام خزائن أرض مصر، وجاءت السنون المخصبة؛ أحسن التدبير؛ فزرع أرض مصر كلها في هذه السنين، واحتاط وادخر الكثير من الغلات من الحبوب والثمار وغير ذلك للسنين المجدبة، ولما حلت هذه السنون المجدبة أخذ الناس يفدون إلى مصر يمتارون لأنفسهم وعيالهم، وكان الجدب قد وصل إلى فلسطين موطن يعقوب وأولاده، فأرسل يعقوب بنيه إلى مصر؛ لأجل الميرة، فجاؤوا وقدموا إلى مصر فدخلوا على يوسف.

قوله: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ من بلاد كنعان إلى مصر؛ لطلب الميرة، ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾، أي: على يوسف، في وزارته ورياسته، ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾، أي: لما رآهم سرعان ما عرف أنهم إخوته؛ لقوة فراسته ونباهته، دون توسم أو تأمل.

﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، أي: لم يعرفوه، والجملة اسمية تدل على أن عدم معرفتهم له أمر ثابت متمكن منهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾، أي: كَالَ لهم كما كان يكيل لغيرهم، وحملهم أحمالهم، وأوقر ركائبهم بالطعام والميرة، وكان من حسن تدبيره أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير، وقد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخًا عند أبيهم اسمه بنيامين.

﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ﴾، أي: قال لهم ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ﴾، لم يقل: بأخيكم؛ إظهارًا لجهله به، أي: ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم؛ لأعلم صدقكم فيما ذكرتم.

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ «ألا» أداة عرض واستمالة، أي: ألا تشاهدون أني أتم الكيل ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، أي: وأنا خير المضيفين المكرمين للضيوف؛ حيث أنزلتكم وأضفتكم، وهذا منه تحريض وترغيب في الرجوع إليه والإتيان بأخيهم، وليس امتنانًا عليهم.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ بعد أن رغبهم في الإتيان بأخيهم رهبهم إن لم يأتوا به؛ وذلك لعلمه باضطرارهم إلى الإتيان إليه؛ وأن ذلك يحملهم على الإتيان به.

والمعنى: فإن لم تأتوني بأخيكم من أبيكم فليس لكم عندي ميرة، ولن يكال لكم.

﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾، أي: ولا تعودوا لأرض مصر، ولا تدخلوها في المستقبل.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

أي: سنبذل جهدنا لإقناع أبيه في تركه يأتي معنا، ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ أكدوا مقالتهم هذه بـ «إن» واللام وكون الجملة اسمية، والمعنى: وإنا لفاعلون لما أمرتنا به من الإتيان بأخينا، والمراودة لأبيه من أجل ذلك.

وفي قولهم ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ دلالة على أن يعقوب عليه السلام كان مولعًا به، لا يصبر عنه، وكان يتسلى به بعد يوسف، ويخاف أن يحصل له ما حصل ليوسف؛

«والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين»، كما جاء في الحديث(١).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وحفص: ﴿لِفِتْيَـٰنِهِ﴾ بألف بعد الياء ونون مكسورة بعدها، وقرأ الباقون بتاء مكسورة بعد الياء من غير ألف: «لفتيته» جمع تكسير، أي: غلمانه وخدمه الكيالين.

﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ﴾، أي: اجعلوا الثمن الذي دفعوه واشتروا به من الميرة.

﴿فِى رِحَالِهِمْ﴾ الرحال: جمع رحل، وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب؛ ولهذا سمي البعير راحلة.

والمعنى: اجعلوا بضاعتهم في أمتعتهم وأوعيتهم، خفية عنهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾، أي: لأجل أن يعرفوا أنها بضاعتهم ودراهمهم وضعت في رحالهم، وردت إليهم قصدًا، عطية من عزيز مصر.

﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾، أي: إذا رجعوا إلى أهلهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: لعلهم يعودون إلى مصر بأن يتحرجوا من أخذها، أو يحملهم ذلك الإحسان إليهم برد بضاعتهم إليهم على الإحسان وتمام الوفاء بالإتيان بأخيهم؛ لأن الإحسان يحمل الإنسان على تمام الوفاء للمحسن، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان(٢)

وقد قيل: إن يوسف إنما وضع بضاعتهم في رحالهم؛ خشية ألا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها، أو أنه تحرج من أخذها من إخوته، أو خشي أن يضر

---

(١) سيأتي تخريجه قريباً.

(٢) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «حياة الحيوان الكبرى» (١/ ٢٥٠)، «مجاني الأدب» (٤/ ٩٤).

بهم ذلك، وقيل غير ذلك، وعلى أكثر هذه التقادير ففيه احتيال منه لمصلحة، وهي رجوعهم إليه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٦٣ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٦٤﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾، أي: منع منا الكيل في المستقبل إذا لم نأت بأخينا بنيامين، أي: أنذرنا بعدم الكيل لنا إذا لم نأت به؛ ولهذا قالوا:

﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف بالياء: «يكتل»، أي: هو، وقرأ الباقون بالنون: ﴿نَكۡتَلۡ﴾، أي: نكتل جميعًا، أي: يكون إرساله معنا سببًا في حصول الكيل لنا جميعًا.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أكدوا حفظهم له بحرف التوكيد «إن»، وبتقديم الخبر، ولام التوكيد، وكون الجملة اسمية، أي: وإنا له لحافظون من أن يعرض له ما يكره، أي: لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك، وهذا كما قالوا له في يوسف: ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢﴾ [يوسف: ١٢]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٦٤﴾ [يوسف: ٦٤].

قوله: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾، أي: قال أبوهم: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾، الاستفهام إنكاري فيه معنى النفي، أي: ما ائتماني لكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه يوسف من قبل، ففرطتم فيه، ولم تفوا بما التزمتم به من حفظه، أو ما أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، غيبتموه عني، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم.

﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف، وحفص: ﴿حَٰفِظٗا﴾ بألف بعد الحاء وكسر التاء، وقرأ الباقون بكسر الحاء وإسكان الفاء من غير ألف: «حِفْظًا»، أي: فلا أثق بالتزامكم بحفظه، وإنما ثقتي بالله تعالى وحده، فأفوض أمري إليه ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾، أي: فهو خير حافظ سبحانه وتعالى.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، أي: وهو سبحانه أعظم الراحمين وأشدهم رحمة، أرحم من الوالدة بولدها، فأرجو أن يرحمني وإياه ويحفظه، وفي هذا إيذان بميله إلى إرساله معهم؛ تغليبًا للمصلحة.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾، أي: وحين فتحوا أوعية طعامهم الذي اشتروه من مصر.

﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾، أي: وجدوا دراهمهم التي دفعوها ثمنًا للطعام.

﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾، أي: أرجعت إليهم، ووضعت في متاعهم ورحالهم؛ لقول يوسف لفتيانه: ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ الآية.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي﴾، أي: قالوا لأبيهم ترغيبًا في إرسال أخيهم معهم ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ «ما» للاستفهام الإنكاري والنفي، أي: أي شيء نطلب أكثر من هذا، أو بعد هذا الإكرام الجميل؛ حيث أكرم وفادتنا، وأحسن مثوانا بإنزالنا عنده، ووفى لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا، فلا مزيد على هذا.

﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا﴾، أي: الثمن الذي دفعناه، ﴿رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾، أي: أرجعت إلينا، وهذا يدل على أنهم عرفوا أن يوسف ردها إليهم بالقصد، وأراد أن يملكهم إياها.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾، أي: ونأتي بالميرة والطعام لأهلنا إذا أرسلته معنا.

﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ فلا يناله سوء ولا مكروه، ولا شيء مما تخافه.

﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾، أي: ونزداد حمل بعير باستصحاب أخانا معنا؛ وذلك لأن يوسف يعطي كل رجل حمل بعير، فتكون أحمالهم بعد أن كانت عشرة، تكون أحد عشر حملًا.

﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾، أي: ذهابنا للكيل يسير، أي: سهل قصير المدة بدون حبس أو تأخير، أو الكيل لنا يسير سهل على الملك؛ لسخائه وكرمه، أو الذي يكال لنا دون

أخينا كيل يسير فنتكثر بكيله.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾.

قوله: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ ﴾، أي: قال يعقوب عليه السلام لأبنائه لن أرسله معكم، أي: لن أرسل بنيامين معكم.

﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ «حتى» لانتهاء الغاية، أي: إلى غاية أن تعطوني عهدًا ويمينًا مؤكدًا بالحلف بالله.

﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ اللام واقعة في جواب قسم محذوف، أي: والله لتأتنني به.

﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ «إلا» أداة استثناء، أي: إلا أن يحيط بكم أمر لا قبل لكم به، ولا تقدرون على دفعه.

﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾، أي: فلما أعطوه موثقهم، أي: عهدهم المؤكد بالحلف بالله.

﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ هذا توكيد للحلف، وتذكير لهم بأن الله رقيب على ما وقع بينهم، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: والله على الذي نقوله؛ أو على قولنا شهيد رقيب، والقصد حثهم على الوفاء بميثاقهم، وعدم نقضه بتخويفهم بالله ورقابته على الجميع ومجازاته لهم.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) ﴾.

قوله: ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾، أي: وقال يعقوب عليه السلام لبنيه وهو يودعهم مع أخيهم بنيامين قبيل مسيرهم إلى مصر؛ شفقة منه عليهم: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ﴾، أي: لا تدخلوا كلكم مصر من باب واحد، ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ توكيد وبيان لما قبله، أي: وادخلوا من أبواب متعددة، أي: ليس من باب واحد ولا بابين، وإنما من أبواب متعددة كثيرة، وكلما تفرقت الأبواب وتعددت فهو أولى، حتى لو دخل كل واحد من باب كان أولى وأحسن؛ وذلك لأنه خشي عليهم من العين؛ لما منحهم الله من الوسامة والجمال

والكمال والبهاء والهيئة الحسنة، ولكثرتهم وهم أبناء رجل واحد.

وقيل: خشي أن يستلفت دخولهم من باب واحد أنظار الجند ومن يعس للحاكم.

﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ «من» زائدة إعرابًا، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، أي: لا أجزي ولا أدفع عنكم بوصيتي هذه لكم أي شيء مما قضاه الله وقدره عليكم؛ فإن الحذر لا ينجي من القدر، والمقدر واقع لا محالة، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال الشاعر:

وإذا حذرت من الأمور مقدرًا وفررت منه فنحوه تتوجه(١)

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ تعليل لما قبله، «إن»: نافية بمعنى «ما»، «إلا»: أداة حصر، أي: ما الحكم والتصرف والتقدير إلا لله وحده، فله عز وجل الحكم الكوني- وهو المراد بهذه الآية- كما أن له الحكم الشرعي والحكم الجزائي، لا يشاركه في ذلك أحد، ولا يمانعه شيء، فلا يتم إلا ما أراده؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٣].

وفي هذا تعليم لهم الاعتماد على الله وتوفيقه ولطفه، مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة؛ كما قال ﷺ: «**اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له**»(٢).

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أي: عليه وحده اعتمدت وفوضت أمري.

فعلى العبد أن يتطلب الأمور من أسبابها، وفي الأثر: «**إذا أراد الله أمرًا يسر أسبابه**».

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩].

﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، أي: وعليه تعالى وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ كلهم من الحاضرين وغيرهم، أي: يعتمدوا عليه ويفوضوا أمورهم إليه، فبالتوكل

(١) البيت لابن الرومي. انظر: «شرح كتاب الأمثال» (ص٤٥٤)، «التذكرة الحمدونية» (٧/ ٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٤٩)، ومسلم في القدر (٢٦٤٧)، وأبو داود في السنة (٤٦٩٤)، والترمذي في القدر (٢١٣٦)، وابن ماجه في الإيمان (٧٨)، من حديث علي رضي الله عنه.

عليه مع فعل الأسباب يحصل كل مطلوب، ويزول كل مرهوب.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾، أي: ولما ذهبوا إلى مصر و﴿دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾، أي: من أبواب متفرقة على الكيفية التي أمرهم بها أبوهم.

﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، أي: ما كان دخولهم من حيث أمرهم أبوهم من أبواب متفرقة ﴿يُغْنِي عَنْهُم﴾، أي: ما كان لينفعهم، أو يدفع عنهم ﴿مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ «من» في قوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ زائدة إعرابًا، مؤكدة لعموم النفي، أي: ما كان يغني عنهم من الله أيَّ شيء، أي: ما كان ذلك ليرد عنهم قضاء الله وقدره لو قدر الله أن يحاط بهم، لكن الله قدر سلامتهم.

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ «إلا» أداة استثناء بمعنى «لكن»، أي: لكن حاجة في نفس يعقوب ﴿قَضَاهَا﴾، أي: أبداها وأظهرها وأنفذها، شفقة على أولاده ومحبة لهم بالوصية لهم بألا يدخلوا من باب واحد، وإنما من أبواب متفرقة؛ خشية الحسد والعين، فحصل له بهذه الوصية لهم قضاء لما في خاطره، وهذا ليس لقصور في علمه عليه السلام، فهو رسول يأتيه الوحي من رب العالمين؛ ولهذا قال:

﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ اللام لام الابتداء للتوكيد، أي: وإنه لذو علم عظيم، وهو علم النبوة ﴿لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ «ما» مصدرية، أو موصولة، أي: لتعليمنا إياه، أو للذي علمناه إياه، أي: لذو علم وعمل بما علمناه، ولا يخفى عليه أن الحذر لا ينجي من القدر، وأن الواجب الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله، وفي هذا دلالة على علو شأن يعقوب وفضيلته، وعظيم منة الله تعالى عليه، وقد أكد ذلك بـ(إن) واللام، وتنكير علم، وإسناده تعليمه إليه عز وجل.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يعلمون العلم الذي ينفعهم ويهتدون به إلى طريق الحق، ولا يعلمون عواقب الأمور، وأن الحذر لا ينجي من القدر، وأن

الواجب الجمع بين فعل الأسباب والاعتماد على الله، لا على الأسباب، كما لا يعلمون ما منحه الله ليعقوب من العلم بوحيه عز وجل إليه.

الفوائد والأحكام:

١- مجيء إخوة يوسف، وقدومهم إلى مصر، ودخولهم على يوسف طالبين الميرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾.

٢- حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض، وادخاره للغلات؛ لهذا قصده الناس من شتى الأقطار لطلب الميرة.

٣- معرفة يوسف لإخوته؛ لفراسته ونباهته، وعدم معرفتهم له؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾.

٤- طلبه منهم- بعد أن جهزهم بأحمالهم- الإتيان بأخيهم من أبيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴿٥٩﴾﴾.

٥- تظاهر يوسف بأنه لا يعرفهم ولا يعرف أخاه بنيامين؛ لقوله ﴿بِأَخٍ لَّكُم﴾، ولم يقل: بأخيكم.

٦- ترغيبهم وحضهم على الإتيان بأخيهم؛ لقوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

٧- عدل يوسف عليه السلام، وإيفاؤه الكيل؛ لقوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾.

٨- بلوغه عليه السلام الغاية في الكرم؛ لقوله: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، وقد قال ﷺ: **«الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام»**(١).

٩- مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين.

١٠- جواز امتداح الإنسان لنفسه، وثنائه عليها إذا كان ذلك لمصلحة؛ لقول يوسف: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

١١- فضيلة العدل، وإيفاء الكيل، وإكرام الضيف.

١٢- ترهيب يوسف لإخوته إن لم يأتوه بأخيهم بحرمانهم الكيل، ونهيهم أن يقربوه؛ لقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾.

١٣- تكفلهم ليوسف بمراودتهم أبا أخيهم، وفعل ما أمرهم به من الإتيان بأخيهم ما أمكنهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

١٤- تعلق يعقوب الشديد بابنه «بنيامين»؛ ولهذا احتاج إلى مراودته ومحاولة إقناعه؛ ليرسله مع إخوته.

١٥- أمر يوسف عليه السلام لفتيانه بوضع بضاعة إخوته في رحالهم؛ ترغيبًا لهم في الرجوع إليه؛ ليعرفوها فتكون سببًا لرجوعهم إلى مصر، إما وفاءً لمن أحسن إليهم، أو تحرجًا من أخذها، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

وفي هذا دلالة على جواز الحيل الحسنة(١).

١٦- إخبارهم لأبيهم لما رجعوا إليه بمنع الكيل لهم مستقبلًا إلا أن يأتوا بأخيهم بنيامين، وطلبهم منه إرساله معهم؛ ليكتالوا، وتكفلهم بحفظه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

١٧- تشكيك يعقوب عليه السلام في حفظهم لأخيهم وفقدانه الثقة بهم؛ لتجرعه مرارة فعلهم بيوسف، وسوء ظنه بهم؛ لوجود قرائنه، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين(٢)، ولكن قدر الله كائن ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]؛ لقوله عليه السلام: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤]، ولقوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ٨٣].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٥٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٣٣، ومسلم في الزهد ٢٩٩٨، وأبو داود في الأدب ٤٨٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٢؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٨- شدة ولع يعقوب عليه السلام بيوسف، وعظم معاناته بفقده، وتذكره له.

١٩- تفويض يعقوب أمره إلى الله تعالى، والتماسه الخير منه، وثقته بحفظه لابنه ورحمته له؛ لقوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٦٤)﴾.

٢٠- سعة رحمة الله تعالى وعظمها، فهو أرحم الراحمين، أرحم من الوالدة بولدها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

٢١- أن إخوة يوسف لما فتحوا متاعهم وجدوا دراهمهم التي اشتروا بها الطعام ردت إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ﴾.

٢٢- استغلال أبناء يعقوب رد بضاعتهم إليهم للتأكيد على أبيهم بإرسال أخيهم معهم في إشارة إلى ما غمرهم به يوسف من الإكرام؛ حيث أنزلهم وأكرم وفادتهم، ووفى لهم بالكيل، ورد بضاعتهم إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ﴾.

٢٣- بيانهم وجوه المصلحة بإرسال أخيهم معهم، من الامتيار لأهلهم، وزيادة كيل بعير، مع حفظهم لأخيهم؛ لقولهم: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ﴾.

٢٤- تسهيل الأمر على أبيهم بأن ذهابهم للاكتيال يسير، مدة قصيرة ثم يرجعون؛ لقولهم: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾، ويحتمل أن الكيل لهم يسير؛ لكرم يوسف وسخائه، أو غير ذلك.

٢٥- امتناع يعقوب من إرسال بنيامين معهم حتى يعطوه موثقًا وعهدًا مؤكدًا بالحلف بالله أن يأتوه به، إلا في حالة أن يحيط بهم أمر لا يستطيعون دفعه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ (٦٦)﴾.

٢٦- توكيد العهود والمواثيق بالحلف بالله تعالى.

٢٧- في الاستثناء- كما في قوله ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ﴾- مخرج لمن تعهد عهدًا فحيل بينه وبين الوفاء به بأمر لا قبل له به.

٢٨- توكيد يعقوب لما أعطاه أولاده من الموثق والحلف، بتذكيرهم برقابة الله تعالى عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

٢٩- نهي يعقوب عليه السلام لبنيه من دخول مصر من باب واحد، ووصيته لهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة؛ خشية عليهم من العين، من باب فعل الأسباب؛ لكثرتهم، ولما منحهم الله من الجمال والكمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾.

٣٠- جواز استعمال الأسباب الواقية من المكاره من العين وغيرها، أو الرافعة لها بعد نزولها، مع التوكل على الله، وأنه لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر.

٣١- أنه لا ينجي حذر من قدر، وأن ما قدره الله كائن لا محالة، ولا يمكن دفعه ولا منعه؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾، أي: لا أستطيع أن أدفع عنكم قدر الله إن قدَّر الله عليكم مكروهًا، وإنما آمركم بفعل السبب.

٣٢- أن لله تعالى وحده الحكم الكوني والتصرف والتقدير، فما حكم به وقدره وقع؛ لقوله: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ كما أن له عز وجل الحكم الشرعي، والحكم الجزائي.

٣٣- احتراز يعقوب عليه السلام بعد أن أمر بنيه بفعل السبب من الاعتماد على ذلك، والتصريح باعتماده على الله؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾.

٣٤- وجوب التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾.

٣٥- التزام أبناء يعقوب بوصيته لهم، ودخولهم من أبواب متفرقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾.

٣٦- أن دخولهم من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء، لا نفعًا ولا دفعًا؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾.

٣٧- أن وصية يعقوب لأبنائه بعدم الدخول من باب واحد، وأمرهم بالدخول من أبواب متفرقة، مجرد حاجة في نفسه أبداها وأنفذها؛ شفقة عليهم، وهو يعلم أنه لا ينجي حذر من قدر؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾.

٣٨- أن العين حق؛ كما قال ﷺ: «**العين حق**»[(١)]، وتأثيرها بإذن الله عز وجل وتقديره؛ ولهذا قال يعقوب بعد وصيته لأولاده بالدخول من أبواب متفرقة خشية العين: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ۝٦٧﴾، أي: إن ما قدره الله كائن لا محالة، ولا ينجي حذر من قدر، عليه اعتمدت، وإليه فوضت أمري، وعليه يجب أن يتوكل المتوكلون.

وقال في الآية الأخرى: ﴿مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾.

ومع أن العين حق فيجب الحذر مما عليه كثير من الموسوسين من ضعاف الإيمان والعقيدة، الذين يتكتمون على كل شيء مخافة العين، ويربون أولادهم على هذا المنهج الهزيل، بدل تربيتهم على التوكل على الله مع فعل الأسباب؛ حتى نشأت أجيال تخاف من العين ومن الناس أكثر مما تخاف من الله، فإذا وقع لأحدهم مكروه أو أصيب بأي مصاب من مرض أو حادث أو غير ذلك فسره بالعين.

وزاد الطين بلة وجود كثير من الدجالين والمشعوذين وبعض مفسري الأحلام وبعض القراء، الذين نذروا أوقاتهم لإفساد عقائد المسلمين، فإذا أتاهم المريض بادروا بالقول: أنت مصاب بالعين، أو مسحور، أو فيك مس من الجن، رجمًا بالغيب، فأدخلوه في بلبلة وحيرة ودوامة لا يمكنه الخروج منها، بدلًا أن يقولوا له: أبشر بالخير وسيشفيك الله عز وجل، فأكثِرْ من ذكر الله تعالى وقراءة القرآن والطاعات، واحرص على الأوراد اليومية، واقرأ على نفسك وعند من تثق بدينه وأمانته، وراجع الطبيب، ونحو ذلك.

وبهذا اهتزت كثير من عقائد المسلمين، وضعف توكلهم واعتمادهم على الله، وانتابت كثيرًا منهم المخاوف من العين والسحر والجن.

٣٩- فضيلة يعقوب عليه السلام، وأنه ذو منزلة عظيمة من العلم؛ لتعليم الله تعالى إياه بوحيه عز وجل إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الطب ٥٧٤٠، ومسلم في السلام ٢١٨٧، وأبو داود في الطب ٣٨٧٩، وابن ماجه في الطب ٣٥٠٧؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٤٠- أن كثيرًا من الناس لا يعلمون العلم الذي به يهتدون إلى الحق، ولا يعلمون عواقب الأمور، وأن الحذر لا ينجي من القدر، وأنه لا بد من الجمع بين فعل الأسباب والتوكل على الله، كما لا يعلمون عظم منزلة يعقوب في العلم، وما منحه الله تعالى من العلم بوحيه عز وجل إليه.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾، أي: ولما دخل إخوة يوسف عليه، ومعهم شقيقه بنيامين.

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾، أي: ضم إليه أخاه وشقيقه بنيامين، وقربه إليه، واختلى به.

﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ ﴾، أي: قال لأخيه بنيامين مسرًّا له: أنا أخوك يوسف: وأطلعه على شأنه وما جرى له، وقد أكد مقالته هذه بـ «إن» وضمير الفصل «أنا» الذي يفيد القصر، وبكون الجملة اسمية.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، أي: لا تغتمَّ ولا تأسف ولا تحزن، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: فلا تبتئس بالذي كانوا يعملونه، أو لا تبتئس بعملهم؛ فإن العاقبة لنا، وأمره ألا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وأطلعه على أنه سيحتال إلى أن يبقيه عنده معززًا مكرمًا.

ولعل يوسف عليه السلام في احتياله في الظاهر على أخذ أخيه عنده- مع ما في ذلك

من مرارة على أبيه وتجديد حزنه على يوسف- لعله خاف على أخيه أن يتأثر بها عليه إخوته مما ينبغي ألا يكون، أو يؤذونه كما آذوا يوسف من قبل، مع التمهيد والتقديم لمجيء أبيهم وأهلهم أجمعين؛ ولهذا قال لأخيه: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾، أي: فلما جهز يوسف عليه السلام إخوته بجهازهم، أي: كال لكل واحد منهم وأعطاه حمل بعيره من الطعام.

﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ وهي: إناء فضة، وقيل: من ذهب، كان الملك يشرب فيه، ويكيل للناس به، وهو صواع الملك؛ كما دل عليه قوله: ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾.

﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾، أي: في حمل أخيه بنيامين ومتاعه، وكان هذا على ما قيل: بمواطأة بينه وبين أخيه ورضا منه بذلك، وهو في الظاهر حيلة حسنة على إخوته ليأخذ أخاه بنيامين، وهي الحيلة الثانية، وقبلها حيلته في وضع بضاعتهم في رحالهم؛ ليرجعوا إليه.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾، أي: ثم لما انطلقوا ذاهبين نادى مناد؛ لأنهم لو لم يذهبوا ما احتاج إلى الأذان والمناداة لهم.

﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ يا أيتها العير، والعير: القافلة من إبل وحمير عليها الأحمال والركاب.

﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ أكد هذا بـ «إن» ولام الابتداء، وكيف يقال هذا ويؤكد، وهم لم يسرقوا، بل كان وضع الصواع في رحل أخيه كان بمواطأة بينه وبين أخيه؟

قيل: إن المنادي هو الذي قال ذلك، ولم يأمره يوسف، أو هذا من باب المعاريض، وأن يوسف هو الذي أمر بذلك، وهو يقصد أنهم سرقوه من أبيه، والمنادي فهم سرقة الصواع، وقيل غير ذلك.

﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾، أي: قال إخوة يوسف وأقبلوا على المنادي؛ لإزالة التهمة التي رُموا بها، ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾، أي: ما الذي تفقدونه؟ ولم يقولوا: ما الذي سرقنا؟ لجزمهم أنهم براء من السرقة.

﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾، أي: صاعه الذي يكيل به للناس.

﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾، أي: وللذي يأتي به، أي: بهذا الصواع.

﴿حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾، أي: حمل بعير من الطعام جعالة وأجرة له.

﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾، أي: وأنا بحمل البعير لمن جاء بالصواع ضامن وكفيل، وهذا يقوله المتفقد للصواع.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣﴾.

أي: قال إخوة يوسف لفتيانه الذين اتهموهم بسرقة الصواع:

﴿تَٱللَّهِ﴾؛ التاء حرف قسم، وحروف القسم ثلاثة: الواو، والباء والتاء.

﴿لَقَدۡ عَلِمۡتُم﴾ اللام واقعة في جواب القسم، أي: والله لقد علمتم.

﴿مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ «ما» نافية واللام للتعليل، أي: ما جئنا لأجل الإفساد في الأرض؛ يعنون أرض مصر، والجملة في محل نصب مفعول به لفعل العلم المعلق بالنفي.

﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ الجملة في محل نصب عطفًا على جملة ﴿مَّا جِئۡنَا﴾، أي: تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض، وعلمتم ما كنا سارقين.

فأقسموا على علم من اتهموهم أنهم ما جاؤوا للإفساد في الأرض، وما كانوا سارقين؛ لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم وسيرتهم الحسنة ما يدلهم على عفتهم وورعهم، وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة من أن لو قالوا: تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤﴾.

أي: قال الفتيان لإخوة يوسف؛ ليحكِّموهم في أنفسهم ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾، أي: فما جزاء السارق؟ أو فما جزاء هذا الفعل؟ أي: ما عقوبته عندكم وفي دينكم ﴿إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾، أي: إن تبين كذبكم بوجود الصواع في رحالكم.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾.

قوله: ﴿قَالُواْ﴾ لثقتهم ببراءتهم ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ﴾، أي: جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله رقيقًا للمسروق منه مملوكًا له.

﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ هذا تقرير وتأكيد لقولهم: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ﴾.

فهذا في دينهم، أي: في شريعة يعقوب عليه السلام أن السارق يكون ملكًا لصاحب المال المسروق، وهكذا كان في شريعة إبراهيم عليه السلام.

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: مثل هذا الجزاء نجزي الظالمين بالسرقة في ديننا وحكم قومنا، وفيه تأكيد لما قبله.

وهذا الذي أراده يوسف في جعله السقاية في رحل أخيه؛ ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه؛ تورية كما في الآية الآتية.

قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾.

قوله: ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، أي: فبدأ بتفتيش أوعيتهم، قبل وعاء أخيه وشقيقه بنيامين؛ توريةً وإبعادًا للتهمة والريبة؛ لئلا يظن أنها فعلت بالقصد.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾، أي: ثم لما لم يجد في أوعيتهم شيئًا ﴿ٱسۡتَخۡرَجَهَا﴾، أي: استخرج السقاية من وعاء أخيه.

﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾، أي: دبرنا ليوسف وألهمناه هذه الحيلة المحكمة في وضع الصواع في رحل أخيه، واستنطاق إخوته بالحكم على أنفسهم بقولهم: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾.

ومن ثم تفتيشه لأوعيتهم قبل وعاء أخيه؛ توريةً وإبعادًا للتهمة، ثم استخرجها من وعاء أخيه، فتوصل إلى مقصوده بأخذ أخيه عنده بأمر غير مذموم، بل بحيلة حسنة، وكان عليه السلام يعرف ذلك من شريعتهم.

قال ابن القيم: «المكر: إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنه نوعان: قبيح وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه، وحسن وهو إيصاله

إلى مستحقه عقوبةً له، فالأول مذموم، والثاني ممدوح»(١).

فمن الثاني كيده عز وجل ليوسف وتدبيره عز وجل الخفي له للتوصل لأخذ أخيه، ومن الأول المذموم كيد إخوته له في التفريق بينه وبين أبيه، وكيد امرأة العزيز بها أظهرت أنه راودها عن نفسها، وكذا كيد النسوة حتى استعاذ بالله من كيدهن وآثر السجن على ما يدعونه إليه؛ قال يعقوب عليه السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ ۝٥﴾ [يوسف: ٥]، وقال العزيز: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ۝٢٨﴾، وقال يوسف لرسول الملك: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ۝٥٠﴾.

﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ اللام: للتوكيد، أي: ما كان يوسف ليأخذ أخاه وشقيقه بنيامين ﴿فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾، أي: في حكم ملك مصر وشرعه وقضائه؛ لأنه ليس في دين الملك وحكمه أخذ السارق وتمليكه للمسروق منه، وإنها فيه على ما قيل ضرب السارق وتغريمه ما سرق مرتين، فلو ردت الحكومة إلى دين الملك لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده.

وقيل: ﴿فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾، أي: حكمه، وهو استرقاق السراق.

فالمعنى: ما كان يوسف ليأخذ أخاه في دين الملك لولا حيلة وضع الصواع في متاع أخيه.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ الاستثناء منقطع، أي: لكن إن يشأ الله يأخذه بطريق آخر.

﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ قرأ يعقوب بالياء: «يرفع»، وقرأ الباقون بالنون: ﴿نَرۡفَعُ﴾، وقرأ حمزة وعاصم والكسائي وخلف بتنوين: ﴿دَرَجَٰتٖ﴾، وقرأ الباقون «درجاتِ» بإضافة درجات إلى ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾.

أي: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ﴾، أي: رتب ومنازل ﴿مَّن نَّشَآءُۗ﴾، أي: الذي نشاء من عبادنا بالعلم النافع ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقاصدها، كما رفعنا يوسف عليه السلام

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٦٠.

بذلك درجات، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: ١١].

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، أي: وفوق كل صاحب علم ﴿عَلِيمٌ﴾ أعلم منه، أي: فكل عالم فوقه من هو أعلم منه، حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

قوله تعالى: ﴿۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُوٓا۟﴾، أي: قال إخوة يوسف لما رأوا الصواع استخرج من وعاء بنيامين؛ انتهازًا للوقيعة بأخيه يوسف عليه السلام: ﴿إِن يَسْرِقْ﴾ يعنون بنيامين ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ يعنون يوسف عليه السلام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم، وأنه لا يستغرب من بنيامين أن يسرق، فقد سرق أخوه وشقيقه يوسف من قبل، أي: إنه محل للسرقة؛ لأن أخاه وشقيقه يوسف قد سرق من قبله، وهذا قياس فاسد، وفيه من الغض من شأنهما ما لا يخفى؛ ولهذا قال:

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾ يجوز عود الضمير إلى مقالتهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ والمعنى: تحملها يوسف في نفسه.

﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ تأكيد لقوله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾، أي: ولم يظهرها لهم، بل كظم الغيظ وأسر الأمر في نفسه، ولم يظهر غضبًا منها، وأعرض عن زجرهم وعقابهم، مع أنها طعن فيه، وكذب عليه. ويجوز عود الضمير إلى قوله بعد ذلك:

﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾، أي: قال في نفسه ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾، أي: أنتم أشر مكانًا، و«مكانًا» تمييز، وأطلق المكان على الحالة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ على مكانتكم﴾ [الأنعام: ١٣٥، الزمر: ٣٩].

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾، أي: بالذي تذكرون من وصفنا بالسرقة، وأعلم بأنكم كاذبون، وأنا براء منها، وفي هذا تهديد ووعيد لهم، وهو من باب الإضمار قبل الذكر وهو كثير، قال الشاعر:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى سنمار[١]

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (٧٩) ﴾.

قوله: ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ لما تعين أخذ بنيامين، وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى حكمهم واعترافهم على أنفسهم أخذوا يترققون له ويعطفونه عليهم.

قوله: ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾، أي: قالوا مستعطفين ليوسف: ﴿إِنَّ لَهُ ﴾، أي: لأخينا بنيامين ﴿أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ لا يصبر عنه، ويشق عليه فراقه؛ لصغره وشدة محبته له، وتسليه به عن ولده الذي فقده، يُرحم لأبوته وشيخوخته، وبلوغه في الكبر منتهاه، حتى صار إلى حال لا يقبل، بل لا يسمع عذرًا من معتذر، فتوسلوا بأبيه وشيخوخته وكبره.

﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾، أي: خذ أحدنا بدلًا وعوضًا عنه.

﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ تعليل لإجابة المطلوب، أي: لأنا نراك من المحسنين إلينا وإلى غيرنا، فأتمم إحسانك إلينا بالإحسان لنا ولأبينا في أخذ أحدنا مكان أخينا.

﴿قَالَ ﴾، أي: قال يوسف ﴿مَعَاذَ اللَّهِ ﴾، أي: نعوذ بالله ونعتصم به.

﴿أَنْ نَأْخُذَ ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: من أن نأخذ، أو بأن نأخذ.

﴿إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ «إلا» أداة حصر، و«من» موصولة، أي: إلا الذي وجدنا متاعنا عنده، أي: إلا الذي وجدنا صواعنا عنده؛ يعني بنيامين، ولم يقل: إلا من سرق؛ تحرزًا من الكذب، وتحريًا للصدق، فالمتاع موجود عنده حقًّا، لكنه ليس بسارق، وهذا من أحسن المعاريض.

﴿إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴾ تعليل لما قبله، أي: لأنا إن أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده

---

(١) البيت لسليط بن سعد. انظر: «الأغاني» (٢/ ١٣٨)، «خزانة الأدب» (١/ ٢٩٤).

﴿إِذًا﴾، أي: إنا والحالة هذه ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: إن أخذنا بريئًا بمتَّهَمٍ؛ لأنه لا يجوز أن يؤخذ أحد بجرم غيره.

الفوائد والأحكام:

١- إيواء يوسف عليه السلام لأخيه وشقيقه بنيامين لما دخل عليه بصحبة إخوته، وضمه إليه، واختلاؤه به، والإسرار له بأنه أخوه؛ تأنيسًا له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ ﴿٦٩﴾﴾.

٢- إسرار يوسف لأخيه وشقيقه بنيامين؛ طمأنةً له وتسليةً بألَّا ييتئس ولا يغتم، ولا يحزن بما يعمله إخوته مما لا ينبغي كما فعلوا به وبأبيهم، فإن العاقبة للمتقين؛ لقوله عليه السلام: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

ولعل هذا مما حمل يوسف على طلبه منهم الإتيان بأخيهم والاحتيال حسب الظاهر على أخذه عنده؛ مع ما في ذلك من المرارة على أبيه وتجديد حزن فَقْدِ يوسف في نفسه، وذلك خشية من يوسف أن يتأثر أخوه بهم، أو يؤذوه كما آذوا أباهم ويوسف من قبل، وعلى أمل الإتيان بأبيهم وأهلهم أجمعين.

٣- تجهيز يوسف لإخوته بجهازهم وحمولتهم من الميرة والطعام؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾.

٤- وضع السقاية في رحل أخيه حيلة في الظاهر لأخذه عنده؛ لقوله تعالى ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾، وهذا يدل على جواز الحيلة للتوصل إلى المباح واستخراج الحقوق.

٥- المناداة عليهم بعد شروعهم في الذهاب لأهلهم بالسرقة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

٦- إقبالهم على المنادي مسرعين، وسؤالهم عن المفقود؛ لعلمهم ببراءتهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

٧- أن هذا المفقود هو سقاية الملك التي يشرب بها، وصواعه الذي يكيل فيه، لقوله: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾، وقوله: ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾.

٨- التكفل والضمان لمن أتى بالصواع بحمل بعير من الطعام جعالةً له؛ لقوله:

﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢﴾، فهذه الآية أصل في الجعالة والضمان والكفالة.

٩- إقسام إخوة يوسف على علم من اتهموهم بالصواع بأنهم ما جاؤوا ليفسدوا في الأرض، وما كانوا سارقين؛ لتحققهم من براءتهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣﴾.

١٠- سؤال يوسف وفتيانه لإخوته عن جزاء السارق عندهم؛ ليلزموهم بحكمهم على أنفسهم إن كانوا كاذبين، وذلك حسب الظاهر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤﴾.

١١- حكم إخوة يوسف واعترافهم على أنفسهم أن جزاء السارق: هو أن يكون السارق نفسه ملكًا للمسروق منه، كما هو في شريعة يعقوب، وتأكيدهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾.

١٢- أن السرقة ظلم للمسروق منه، يستحق مرتكبها أن يوصف بالظلم، ويحسب في عداد الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

١٣- البداءة بتفتيش أوعية إخوة يوسف قبل تفتيش وعاء أخيه بنيامين؛ إبعادًا لتهمة التواطؤ؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾.

١٤- استخراج الصواع من وعاء أخيه؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾.

١٥- أن وجود المسروق في حوزة السارق أصدق من البينة، فهو بينة لا تلحقها التهمة.

١٦- كيد الله ليوسف عليه السلام، وتدبيره عز وجل الخفي له في الكيفية التي توصل بها إلى إتيان إخوته بأخيه بنيامين، وأخذه عنده بحكم إخوته واعترافهم على أنفسهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾.

١٧- جواز استعمال المكائد والحيل التي يتوصل بها لاستخراج الحقوق، وأن الممنوع منه التحيل لإسقاط واجب، أو فعل محرم.

١٨- أنه ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في شرع الملك؛ لأن شرع الملك لا يعاقب

السارق بتمليكه للمسروق منه، وإنما كان هذا الحكم في شريعة يعقوب وأولاده، ولهذا سأل يوسف إخوته عن جزاء السارق عندهم فقالوا: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾، فحكموا بهذا واعترفوا به على أنفسهم، فألزمهم بهذا الحكم، واستبقى أخاه عنده؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾.

ويحتمل كما سبق أن المعنى: ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في دين الملك، لولا أنه احتال بوضع الصواع في رحل أخيه.

١٩- أن يوسف من عدله وحكمته ما كان يتجاوز شريعة الملك، أو ما ثبت في شريعة يعقوب، وإلا لاسْتَبَدَّ بها شاء؛ ولهذا احتال بوضع الصواع في رحل أخيه؛ ليتوصل بذلك إلى أخذ أخيه، سواء كان ذلك في شرع يعقوب أو في شرع الملك.

٢٠- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، وقوله تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾.

٢١- رفع الله عز وجل درجات ومراتب من يشاء من عباده بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصلة إلى المقاصد الحسنة، كما رفع عز وجل بذلك يوسف عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾.

٢٢- أن فوق كل ذي علم من هو أعلم منه، إلى أن ينتهي العلم إلى علام الغيوب العليم الخبير؛ لقوله تعالى: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِى عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾.

٢٣- انتهاز إخوة يوسف ما حصل من استخراج الصواع من وعاء بنيامين للوقيعة في يوسف؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ يعنون يوسف عليه السلام.

٢٤- تحمُّل يوسف عليه السلام هذه المقالة من إخوته بوصفه بالسرقة وإسرارها في نفسه، وكظم غيظه، والإعراض عن زجرهم وعقابهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾.

ويحتمل أن المعنى: أنه أسر هذه المقالة: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾، أي: أنتم شر مكانًا وحالة مما تصفوننا به من السرقة.

٢٥- تهديده لهم وتوعدهم بأن الله أعلم بما يصفون ويذكرون، وأنه كذب وزور، وسوف يحاسبهم الله ويجازيهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

٢٦- استعطافهم يوسف ليرد إليهم أخاهم ويأخذ أحدهم مكانه؛ رحمة بأبيهم وشيخوخته وكبره؛ وإحسانًا إليهم وإلى أبيهم؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

٢٧- عراقة يوسف وشهرته بوصف الإحسان؛ لقول إخوته: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾، وقبله قال له صاحبا السجن: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

٢٨- امتناع يوسف من أخذ أحدهم مكان بنيامين، واستعاذته بالله من أخذ غير من وجد متاعهم عنده، فيكون بذلك من الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦)﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠)﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾، أي: فلما استيأس إخوة يوسف، أي: يئسوا من يوسف أن يأخذ أحدهم مكان أخيه بنيامين، ويسمح له بالرجوع معهم، أو يئسوا من أخيهم بنيامين، أي: من تخليصه ليرجع معهم كما التزموا بذلك لأبيهم، والسين والتاء فيه للمبالغة، أي: لما بلغ بهم اليأس منتهاه.

﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾، أي: اجتمعوا وانفردوا عن الناس يتناجون فيما بينهم ويتشاورون: ما الحل؟ ما المخرج من هذه الورطة؟ ماذا نقول لأبينا وقد غلبنا على أمرنا في أخذ أخينا؟

والتناجي: المحادثة سرًّا بين اثنين فأكثر.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾، أي: أكبرهم سنًّا، وهو «روبيل»، ويقال: «رؤبين»، وهو الذي نهاهم أن يقتلوه، وأشار عليهم بإلقائه في غيابة الجب.

﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ الاستفهام للتقرير، وهذا تذكير منه لهم، أي: ألم تعلموا وتذكروا أن أباكم قد أخذ عليكم ﴿مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾، أي: عهدًا مؤكدًا موثقًا بالحلف بالله بأن تأتوا بأخيكم إلا أن يحاط بكم، وهو المذكور في

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)﴾ [يوسف: ٦٦].

﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ هذه الجملة معترضة بين جملة: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا﴾ وجملة ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾، أي: ومن قبل هذا تفريطكم في يوسف، فاجتمع عليكم الأمران: تفريطكم السابق في يوسف، وعدم إتيانكم بأخيه اللاحق، وقد أخذ أبوكم عليكم موثقًا بأن تأتوه به إلا أن يحاط بكم، وسينكأ هذا المصاب الجديد في بنيامين في قلب أبيكم المصاب الدفين في يوسف.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾، أي: فلن أفارق هذه الأرض- أرض مصر- فليس لي وجه أواجه به أبي بعد أن جمعنا عليه هاتين المصيبتين.

﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾، أي: إلى غاية أن يأذن لي أبي بالرجوع إليه، راضيًا عني.

﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾، أي: أو يحكم الله لي حكمًا قدريًّا بالخروج من مصر والمجيء وحدي، أو بتخليص أخي بسبب ما، والمجيء به معي.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، له الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨)﴾ [التين: ٨].

قوله تعالى: ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾.

قوله: ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ﴾، أي: ارجعوا فأخبروه بحقيقة ما جرى، ﴿فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾، أي: نُسب إليه سرقة صواع الملك وأخذ بسرقته، فلم نتمكن من الإتيان به مع ما بذلنا من الجهد في ذلك.

﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ الواو حالية، أي: والحال أنا ما شهدنا عليه بالسرقة إلا بالذي علمناه وتيقناه من استخراج الصواع من رحله.

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾: احتراس من تحقق كونه سرق، والغيب: الأحوال

الغائبة عن المرء، والحفظ: العلم.

ويحتمل أن يكون المعنى: لو كنا نعلم بما سيجري لما حرصنا على ذهابه معنا، ولما أعطيناك الموثق على الإتيان به، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ، ولكن قدر الله وما شاء فعل.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾، أي: واسأل- إن شككت بأمرنا- أهل القرية- مصر- يخبروك بما جرى.

﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾، أي: واسأل أيضًا القافلة التي أقبلنا فيها ورفقتنا الذين جئنا معهم عما جرى يخبروك بالحقيقة.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ الواو عاطفة، و«إن» واللام للتوكيد، أي: وإنا لصادقون فيما أخبرناك به من أن أخانا سرق وأخذوه بسرقته.

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، أي: قال لهم كما قال حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، والتقدير: فرجعوا إلى أبيهم وقالوا له ما قاله لهم أخوهم، فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، أي: زينت وسهلت لكم أنفسكم، ﴿أَمْرًا﴾: نكر للتعظيم، أي: أمرًا منكرًا عظيمًا خطيرًا، فاتهمهم في هذه القضية كما اتهمهم في الأولى.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، أي: اشتد حزنه وتضاعف كَمَدُه، وقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، أي: ألجأ في هذا المصاب والخطب الجلل إلى الصبر الجميل، والصبر الجميل: الذي لا جزع معه ولا تسخط ولا شكوى إلى غير الله تعالى.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾: تجلَّدَ بالصبر الجميل، ثم أتبعه بالرجاء من الله أن يأتيه بهم جميعًا، أي: بأولاده الثلاثة: يوسف، وبنيامين، وروبيل أكبرهم الذي جلس في مصر ينتظر إذن أبيه له بالرجوع، أو حكم الله له.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تعليل لما قبله، أي: لأنه هو العليم بحالي واحتياجي إلى تفريجه ومنِّته، واضطراري إلى إحسانه.

و«العليم» من أسماء الله عز وجل، أي: ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما حكم وقدر وقضى، وفيما شرع وأمر ونهى، جعل لكل شيء قدرًا، ولكل أمر منتهًى.

و«الحكيم» من أسمائه عز وجل، أي: ذو الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾، أي: أعرض عن بنيه؛ كراهةً لما جاؤوا به، وانصرف عنهم بعد المحاورة انصراف غضب.

﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، أي: اشتد به الأسى والحزن، ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، أي: يا حزناه على يوسف، والأسف: أشد الحزن والحسرة على ما فات، فجدد له حزن الابنين الحزن الدفين.

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾، أي: ذهب سوادهما، وضعف بصرهما من الحزن وكثرة البكاء.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي: شديد الحزن والغيظ والكمد، مع الكتمان لذلك، لا يشكو حاله لمخلوق.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

لما قال أبوهم بعد أن تولى وأعرض عنهم: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قيل: وقد قالها في خلوته، لكنهم سمعوها فقالوا: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ الآية.

قوله: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ﴾، أي: قال أبناء يعقوب له لما سمعوه يتأسف على يوسف لوماً له، وتعجبًا منه وشفقة عليه: ﴿تَٱللَّهِ﴾ التاء حرف قسم، والمعنى: والله.

﴿تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾، أي: لا تزال ولا تبرح تذكر يوسف، أو لا تفتر تذكر يوسف، وهو جواب القسم.

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾، أي: حتى تكون مريضًا ضعيفًا مُشْفيًا على الهلاك والموت.

﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾، أي: من الميتين إن استمر بك هذا الحال.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال يعقوب عليه السلام لما تعجبوا من ذكره يوسف ولاموه على ذلك.

﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: «إنما» أداة حصر، أي: لا أشكو بثي وحزني إلا إلى الله وحده، والبث: الهم الشديد، وهو التفكير في الشيء المسيء، والحزن: الأسف الشديد والتحسر على فائتٍ، أي: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي﴾، أي: همي، أي: ما أنا فيه من الهم الشديد، وما أبثه من الكلام. ﴿وَحُزۡنِيٓ﴾، أي: أسفي، أي: ما أنا فيه من الأسف الشديد. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي: إلى الله تعالى وحده، ملتجئًا إليه دون سواه، فهو الذي يسمع النجوى، ويعلم الشكوى، ويكشف الضر، ويرفع البلوى.

قال المتنبي(١):

لا تشكون لمخلوق فتورثه ... شكوى الجريح إلى الغربان والرَّخَمِ

وقال الآخر:

وإذا شكوت إلى الأنام فإنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحمُ(٢)

﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، أي: وأعلم من علم الله تعالى الذي علمنيه.

﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ «ما» موصولة أو نكرة موصوفة، أي: الذي لا تعلمونه، أو الشيء الذي لا تعلمون، أي: أعلم أن يوسف حي، وأن رؤياه صادقة، وأننا سنخر له

---

(١) انظر: «ديوانه» (٢/ ٢٦٢).

(٢) البيت ينسب للشافعي، وينسب لزين العابدين. انظر: «عيون الأخبار» لابن قتيبة (٢/ ٢٧٤).

ساجدين، وأن الله سيرده هو وأخويه علي، ويقر عيني بالاجتماع بهم.

الفوائد والأحكام:

١- اجتماع إخوة يوسف منفردين للتناجي فيما يفعلون، وماذا يقولون لأبيهم لما يئسوا من يوسف أن يأخذ أحدهم مكان أخيهم بنيامين، ويئسوا من أخذه معهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْـَٔسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾.

٢- حاجة من يعنيهم الأمر في أي مشكلة أو عمل يهمهم إلى الانفراد والتشاور فيما بينهم للخروج من تلك المشكلة أو القيام بذلك العمل؛ قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]؛ قال الشاعر:

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به ... رغم الخلاف ورأيُ الفردِ يشقيها(١)

٣- تذكير كبيرهم لهم بما أخذه أبوهم عليهم من موثق من الله ليأتينه بأخيهم، وبتفريطهم قبل ذلك في يوسف؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴿٨٠﴾﴾.

٤- أن هذا الأخ الكبير من إخوة يوسف كان أعدلهم رأيًا، وأقربهم للإنصاف، وأوفاهم للعهد، وأرحمهم بأبيه وأخويه.

٥- إصرار هذا الأخ الكبير على البقاء في أرض مصر؛ تحرجًا من مواجهة أبيه وليس معه أخوه، حتى يأذن له أبوه في المجيء، أو يحكم الله له بتخليص أخيه أو غير ذلك؛ لقوله: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾.

٦- وجوب تسليم الأمر الله تعالى وحكمه الكوني؛ لقوله: ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾.

٧- أن الله عز وجل هو خير الحاكمين قدرًا وشرعًا وجزاء، لقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

٨- وصية هذا الأخ وأمره لإخوته بالرجوع إلى أبيهم وحكاية الواقع له؛ لقوله: ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴿٨١﴾﴾.

٩- ينبغي أن تكون الشهادة موافقة للواقع وبما يعلمه الشخص تمامًا؛ لقوله:

(١) البيت لحافظ إبراهيم. انظر: «ديوانه» (ص ٩٠)، «صيد الأفكار» (٢/ ٢٧).

﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾، فلا يجوز أن يشهد الإنسان إلا بما علم.

١٠- أن الغيب وما في طي القدر لا يعلمه إلا الله، لقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾.

١١- إبداء إخوة يوسف حسن النية، وأنهم لو علموا بما سيحصل لهم من أخذ أخيهم ما ألحوا على أبيهم بالذهاب به، وما أعطوه الموثق من الله على الإتيان به.

١٢- طلبهم من أبيهم سؤال أهل القرية ورفقتهم في الطريق، وتأكيدهم صدقهم؛ لقولهم: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

١٣- عدم اقتناع يعقوب عليه السلام بقولهم؛ لما جرب منهم في أمر يوسف، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ ﴿٨٣﴾﴾.

١٤- أن مصاب يعقوب ببنيامين وأخيه نكأ عنده الجرح الدفين في يوسف؛ لقوله في هذا المقام ما قاله في المقام الأول يوم فجع بيوسف: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ﴾ الآية.

١٥- تجلُّد يعقوب في المصابين جميعًا بالصبر الجميل؛ لقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ﴾.

١٦- قوة رجاء يعقوب بالله وتعلقه به، ودعاؤه بردِّ أولاده جميعًا؛ لقوله عليه السلام: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ﴾.

١٧- تعليله قوة هذا الرجاء بالثناء على الله بإثبات واسع علمه، وتمام حكمه، وبالغ حكمته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

١٨- إثبات اسمين من أسماء الله وهما «العليم» و«الحكيم»، وما يؤخذ منهما من إثبات صفة العلم الواسع، والحكم التام، والحكمة البالغة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

١٩- تولى يعقوب وإعراضه عن بنيه إعراض غضب بعد المحاورة لهم لما جاؤوا به مما لا يسر؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾.

٢٠- شدة أسفه عليه السلام وتجدد حزنه الدفين على يوسف بسبب مصابه بأخويه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾.

٢١- ابيضاض عيني يعقوب وضعف بصرهما؛ من شدة الحزن وكثرة البكاء على

يوسف وأخويه؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ ﴿٨٤﴾﴾.

٢٢- جواز الحزن والبكاء عند المصيبة، لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾﴾.

وقد بكى ﷺ وحزن على ابنه إبراهيم لما مات، وقال ﷺ: «**إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضى الرب، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»(١).

٢٣- كظم يعقوب ما في قلبه من الأسى والحزن والكمد والغيظ وكتمانه لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾.

٢٤- تعجب أبناء يعقوب من كثرة تذكره ليوسف، ولومهم له، وإشفاقهم عليه من الضعف أو الهلاك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

٢٥- إعلام يعقوب عليه السلام لبنيه أنه إنما يشكو بثه وهمه وحزنه إلى الله تعالى وحده لا إلى غيره؛ لقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴿٨٦﴾﴾.

والشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه الشكوى إلى الخلق.

٢٦- علمه عليه السلام مما علمه الله ما لا يعلمونه من أن الله سيرد إليه أبناءه ويجمعه بهم، وغير ذلك مما علمه الله؛ لقوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، قول النبي ﷺ: «**وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**» ١٣٠٣، ومسلم في الفضائل، رحمته ﷺ الصبيان والعيال ٢٣١٥، وأبو داود في الجنائز ٣١٢٦؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

هذه الآية كالتفسير والبيان لقوله قبلها: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ التحسس: شدة الطلب والتعرف، وهو أعم من التجسس، الذي هو التطلب مع اختفاء وتستُّرٍ.

والمعنى: ارحلوا إلى مصر، وتطلبوا خبر يوسف وأخيه، أي: استعلموا واستقصوا الأخبار عنهما بحواسكم.

﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾، أي: لا تقطعوا رجاءكم وأملكم من الله تعالى وفرجه ورحمته، وأن يرد يوسف وأخاه، فهو عز وجل خير مرجُوٍّ وأعظم مأمول، لمن أحسن الظن به عز وجل، وفي هذا تشجيع وبشارة لهم.

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾، أي: لا يقطع الرجاء من روح الله ورحمته.

﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: إلا القوم الكافرون بالله، المنكرون لقدرته على تبديل الأحوال من الشدة إلى الرخاء، ومن العسر إلى اليسر، المستبعدون لرحمته، وهي بعيدة عنهم؛ لكفرهم، قريبة من المؤمنين المحسنين؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦].

وفي الإظهار مكان الإضمار في قوله ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل «منه» تأكيد لذلك.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾، أي: فلما دخل إخوة يوسف عليه بعد قدومهم لمصر للمرة الثالثة.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾، أي: في ملكه ومكانته.

﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾، أي: أصابنا وأهلنا القحط والجدب الذي أضرَّ بنا.

﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾، أي: بدراهم قليلةٍ حقيرةٍ، وهذا منهم تذلُّلٌ واستجلابٌ لعطفه وحنانه وإحسانه.

﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾، أي: فتمم لنا الكيل، واجعله وافياً، وتجاوز عن كون بضاعتنا مزجاةً قليلةً حقيرةً.

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ﴾ بالزيادة عن الواجب والإحسان إلينا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ تعليل لما قبله، أي: لأن الله يجزي المتصدقين، أي: يكافئهم بمضاعفة الأجر لهم أضعافًا كثيرة، وإثابتهم أحسن المثوبة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾

هذا مصداق لقوله تعالى في أول السورة: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال يوسف لإخوته: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ الاستفهام للتوبيخ، و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: هل علمتم الذي فعلتم؟ أو هل

علمتم فعلكم العظيم، وما ارتكبتموه في حق يوسف وأخيه بالأذية لهما، والتفريق بينهما وبين أبيهما؟ فيوسف معلوم ظاهر فعلهم فيه، وأخوه أيضًا فرقوا بينه وبين أبيه، وقالوا فيه: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧].

﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ «إذ» ظرف بمعنى «حين»، أي: حين أنتم جاهلون، أي: جاهلون بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، والمراد بالجهل هنا: السفه؛ ضد الرشد، وكل من عصى الله تعالى فهو جاهل على هذا المعنى؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ [النحل: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النساء: ١٧].

وهذا فيه توبيخ لهم لجهلهم، كما أن فيه تلويحًا لعذرهم بجهلهم، وفيه تعريض بصلاح حالهم بعد ذلك.

﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ قرأ ابن كثير: «إنك» بدون استفهام، وقرأ الباقون: ﴿أَءِنَّكَ﴾ بالاستفهام، وهو للتقرير أو الاستخبار، وفيه معنى التعجب والاستغراب من قوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾؛ لأن هذا لا يعلمه إلا يوسف، وقد كانوا يترددون إليه من سنتين وأكثر وهم لا يعرفونه، وهو مع ذلك يعرفهم ويكتم نفسه، وقد أكدوا كلامهم بـ «إن»، ولام الابتداء، وضمير الفصل «أنت».

﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ يعني: بنيامين.

﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ بحفظه لنا، والخلاص مما ابتلينا به، والاجتماع بعد الفرقة، والتمكين والعزة بعد الذلة.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ تعليل لمنة الله تعالى عليهم، أي: لأنه من يتق الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ويصبر على ذلك وعلى ما يصيبه من أقدار الله المؤلمة.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾، أي: لا يضيع ثوابهم وجزاءهم، بل يحفظه لهم ويثيبهم على إحسانهم بالأجر العظيم في الدنيا والآخرة، فجمع بينهما

وحفظهما بسبب تقواهما وصبرهما وإحسانهما.

فالمحسن في عبادة الله تعالى إخلاصًا لله تعالى ومتابعة لشرعه؛ أجره ثابت عند الله، والمحسن إلى عباد الله محتسبًا ذلك عند الله أجره أيضًا ثابت عند الله، مع ما قد يكافئه المحسن إليه برد الجميل إليه؛ قال الشاعر:

يد المعروف خير حيث كانت ... تلقفها كفور أم شكور

ففي شكر الشكور لها جزاء ... وعند الله ما كفر الكفور[1]

وفيه تعريض لإخوته للأخذ بذلك؛ ولهذا أظهر مقام الإضمار في قوله: ﴿أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ولم يقل: «أجرهم» للدلالة على أن ذلك من الإحسان، وللتعميم في الحكم، وأنه يعم كل محسن.

قال ابن كثير[2]: «والظاهر أن يوسف عليه السلام إنما تعرَّفَ إليهم بنفسه بإذن الله له في ذلك؛ كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر فرج الله تعالى من ذلك الضيق؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: ٥- ٦]، فعند ذلك قالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾».

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾، أي: قال إخوة يوسف له ﴿تَٱللَّهِ﴾، أي: والله ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾، أي: لقد فضلك الله علينا واختارك، بما أعطاك من النعم الدينية من التقوى والصبر والإحسان والنبوة، على قول من يقول: إنهم ليسوا أنبياء، ومن النعم الدنيوية في التمكين في الأرض والملك.

﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ الخاطئ: المتعمد للخطأ، أي: وإن كنا لخاطئين آثمين

---

(١) البيتان لابن المبارك. انظر: «ديوانه» (ص١٣٩)، «بهجة المجالس» ص٦٥، ونسبا في «المحاسن والأضداد» ص٢٥ لابن أبي عائشة.

(٢) في تفسيره ٤/ ٣٣٢.

بما فعلناه بك وبأخيك وبأبينا، فاعترفوا له بالفضل والأثرة عليهم، وأقروا أنهم أخطؤوا وأساؤوا في حقه وحق أخيه، وفي حق أبيهم، وهذا نوع من التوبة.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾، أي: قال يوسف لإخوته لما أقروا بكونهم خاطئين؛ كرمًا منه وجودًا، وتسامحًا تامًّا منه وإحسانًا: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾، أي: لا لوم ولا عتب عليكم، ولا تقريع ولا تأنيب.

﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ دعاء لهم، أي: اللهم اغفر لهم، والظرف «اليوم» يجوز أن يكون متعلقًا بـ «تثريب» أو بـ «يغفر».

أي: اليوم يتجاوز الله عنكم ويستر ذنبكم، فيغفر لكم ما لي من حق عليكم لرضاي عنكم وتجاوزي عنكم، ويغفر ما له من حق أيضًا؛ لواسع رحمته؛ ولهذا قال:

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، أي: أعظمهم رحمة، وما عندهم من رحمة هي من رحمته عز وجل، أرحم من الوالدة بولدها؛ كما قال ﷺ «**لله أرحم بعباده من هذه بولدها**»(١).

وبهذا جمع لهم بين ترك التثريب واللوم والعتاب وبين العفو عنهم وسؤال الله المغفرة لهم، وهذا لا يتأتى إلا من الخواص.

قوله تعالى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣)﴾.

قوله: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾، أي: قال يوسف لإخوته ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾ حتى يشم رائحتي.

﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾، أي: يَصِر بصيرًا بعد العمى؛ لأنه قد عمي من شدة الحزن وكثرة البكاء.

وقيل: المعنى: يأتي إلي، أي: يقدم إلي؛ لقوله: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ والأظهر المعنى الأول.

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٩٩، ومسلم في التوبة ٢٧٥٤؛ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال السعدي(١): «لأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص لما كان فيه أثر ريح يوسف الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم، أراد أن يشمه فترجع إليه روحه، وتتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصره، ولله في ذلك حكم وأسرار لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر».

﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: وائتوني في مصر ﴿بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: بجميع أولاد يعقوب وأحفاده وأهله وتوابعهم؛ ليحصل تمام اللقاء والأنس، ويزول عنهم نكد العيش ووحشة الفرقة.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾، أي: ولما خرجت القافلة من أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين.

﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعقوب عليه السلام لمن عنده من أهله وحفدته وغيرهم:

﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾، أي: إني لأشم وأتنسم رائحة يوسف، وأكد هذا بـ«إن» وبلام الابتداء؛ لأنه مظنة الإنكار؛ ولذلك أعقبه بقوله:

﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ «لولا» حرف شرط غير جازم، و«أن» حرف مصدري، ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ مضارع منصوب وعلامة نصبه حذف النون، والنون للوقاية، والأصل «تفندونني» وحذفت ياء المتكلم للتخفيف ومراعاة الفواصل.

والمعنى: أي: لولا أن تسفهوني وتكذبوني، وتنسبوني إلى الفند؛ وهو ضعف الرأي والعقل والتخريف؛ بسبب الهرم وكبر السن، وهكذا حصل منهم كما في الآية التالية.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾.

أي: قال من بحضرة يعقوب له ﴿تالله﴾، أي: والله ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ «إن» ولام الابتداء للتوكيد، أي: والله إنك لفي خطئك وبعدك القديم عن الصواب،

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤/ ٥٦.

في إفراطك في محبة يوسف وتذكره ورجائك لقاءه بعد مرور عشرات السنين على فراقه وفقده.

قال قتادة: «قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبي الله ﷺ»(١).

الفوائد والأحكام:

١- قوة إيمان يعقوب ورجائه ربه، وحسن ظنه بالله في أن يرد إليه يوسف وأخيه؛ لأمره أبناءه بالتحسس عنهما وعدم اليأس من روح الله؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾.

٢- وجوب التعلق بالله ورجائه وانتظار فرجه، والتفاؤل وحسن الظن بالله، وعدم القنوط من رحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾؛ لأن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد، واليأس يوجب له التثاقل والتباطؤ وقد يقطع به.

٣- أنه لا ييأس من روح الله، ويقنط من رحمته ويستبعد فرجه إلا القوم الكافرون، الذين ينكرون قدرته عز وجل على تبديل الأحوال من الشدة إلى الرخاء، ومن العسر إلى اليسر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ مما يوجب البعد عن هذه الصفة، وبقدر إيمان العبد يكون رجاؤه لروح الله ورحمته.

٤- تضرع إخوة يوسف، وتذللهم له، وتمسكنهم بين يديه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾.

٥- شدة فقر يعقوب عليه السلام، وما ابتلي به هو وأولاده من قلة ذات اليد.

٦- جواز عرض المحتاج حاجته على من يقدر على إزالتها، مع الاعتماد على الله تعالى والتعلق به وحده، وهذا من باب فعل السبب، وليس من باب الاعتماد على السبب، فإن المعطي المانع هو الله تعالى، وشكوى الحال إلى الغير التماسًا منه المساعدة مع

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٣٤٢، وابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢١٩٩.

الاعتماد على الله تعالى أمر لا بأس به، قال الشافعي[(١)] رحمه الله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال اعلم بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصي

ومن هذا قول الآخر:

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة ... يواسيك أو يسليك أو يتوجع[(٢)]

٧- الإرشاد إلى أدب جليل وهو تقديم الوسائل أمام ذكر الحاجات والمآرب؛ لأنه أنجع لها، كالثناء أولًا على المسؤول؛ لقولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾، أي: العزيز في ملكه ومكانته؛ كما قال الشاعر:

إذا أثنى عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرضه الثناء[(٣)]

وثانيًا: ذكر ضيق الحال وقلة ذات اليد؛ لقولهم: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾[القصص:٢٤].

٨- أن الأيام دول، والعاقبة للمتقين الصابرين، والنصر للمظلومين ولو بعد حين، فها هم إخوة يوسف يأتون إليه مستكينين متذللين، يسألونه أن يوفي لهم الكيل ولو كانت بضاعتهم مزجاة، وأن يتصدق عليهم بعد ما أذلوه وآذوه هو وأخاه.

٩- الترغيب في الصدقة ببيان مجازاة الله تعالى للمتصدقين وإثابته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾، أي: يجزيهم أضعاف ما قدموه.

١٠- انتهاز يوسف تضرع إخوته وتذللهم بين يديه؛ لتذكيرهم بفعلهم القبيح فيه وفي أخيه من التفريق بينهم وبين أبيهم وأذيتهم؛ توبيخًا لهم، وكيف يدعونه إلى الصدقة عليهم، وقد فعلوا فيه الأفاعيل وبأخيه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

---

(١) انظر: «ديوانه» (ص٧٩).

(٢) البيت لبشار بن برد. انظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب»(٣/ ٧٩).

(٣) البيت لأمية بن أبي الصلت. انظر: «ديوانه» (ص١٧).

١١- جمعه بين التوبيخ لهم والتلويح بعذرهم لجهلهم، والتعريض بصلاح حالهم بعد ذلك؛ لقوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾.

١٢- استشفاف إخوة يوسف واستنباطهم من قول العزيز: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾؛ لأن هذا الأمر لا يعلمه إلا يوسف؛ لقولهم: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾.

١٣- رقته عليه السلام لهم، وإخبارهم بأنه يوسف؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾.

١٤- اعتراف يوسف عليه السلام بعظيم منة الله تعالى وفضله عليه وعلى أخيه بحفظهما، وتخليصهما مما ابتليا به، وباجتماعهما بعد الفرقة، وحصول العزة لهما بعد الذلة، والأنس بعد الوحشة؛ لقوله عليه السلام: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾.

١٥- أن ما مَنَّ الله به على يوسف وأخيه إنما هو بسبب تقوى الله تعالى والصبر، فهما سلاح المؤمن للنصر والنجاة والسعادة في الدنيا والآخرة، بعد توفيق الله تعالى وعونه ورحمته وفضله؛ لقول يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

١٦- جواز التحدث بالنعمة دينية أو دنيوية؛ إظهارًا لنعمة الله تعالى وترغيبًا بتقوى الله والعمل الصالح؛ لقول يوسف عليه السلام: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١]، وقال ﷺ: «**والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له**»(١).

١٧- الترغيب في تقوى الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والصبر على ذلك، وعلى ما يصيب المرء من أقدار الله المؤلمة؛ لأن من التزم ذلك فهو من المحسنين الذين لا يضيع الله أجرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

١٨- فضيلة الصبر: فهو شطر الإيمان، وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام ١١٠٨، من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه.

قوام للدين إلا به: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

١٩- تكفله عز وجل بأجر المحسنين وثوابهم، وأنه لا يضيع أجر من أحسن عملًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٢٠- اعتراف إخوة يوسف بتفضيل الله تعالى له وإيثاره عليهم، وإقرارهم بخطئهم فيما ارتكبوا بحقه؛ لقولهم: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾.

٢١- كرم يوسف عليه السلام، ونبل خلقه، فلم يثرب على إخوته، ولم يعاتبهم، وعفا عنهم، وسأل الله المغفرة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

٢٢- فضيلة التجاوز عمن أساء، ومقابلته بالإحسان؛ لما له من أثر عظيم على المحسِن وعلى المحسَن إليه، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما كافأت من عصى الله فيك بأحسن من أن تطيع الله فيه»[1].

وقال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان[2]

٢٣- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله تعالى التي فاقت كل رحمة؛ لقوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

٢٤- أمر يوسف عليه السلام إخوته بالذهاب بقميصه وإلقائه على وجه أبيه؛ ليعود إليه بصره وهذا من آيات الله، ومن الأسرار والحكم التي أطلع الله تعالى عليها يوسف؛ لقوله: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾.

٢٥- طلبه منهم الإتيان بأهلهم أجمعين إليه في مصر؛ لقوله: ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾؛ ليلتئم شملهم وتصلح أحوالهم في دينهم ودنياهم.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتابه «الزهد» (ص٩٨)، والبيقي في «شعب الإيمان» (١٠/ ٥٥٩).

(٢) البيت لأبي الفتح علي بن محمد البستي. انظر: «حياة الحيوان الكبرى» (١/ ٢٥٠)، «مجاني الأدب» (٤/ ٩٤).

٢٦- شم يعقوب عليه السلام رائحة يوسف منذ فصلت العير وخرجت من مصر متجهة إلى فلسطين؛ حيث يقيم يعقوب عليه السلام؛ آية من آيات الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝٩٤﴾.

٢٧- إنكار من بحضرة يعقوب من أهل وأحفاد وغيرهم عليه قوله: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝٩٤﴾ وتسفيههم وتخطئتهم له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ۝٩٥﴾، وهو ما عناه يعقوب بقوله: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝٩٤﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٩٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۝٩٧ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩٨ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٠٠ ۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٩٦﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ﴾ الفاء عاطفة، و«أن» مزيدة للتأكيد.

﴿ٱلۡبَشِيرُ﴾، أي: المبشر ليعقوب، أي: المخبر له بما يسره، وهو قرب اجتماعه بيوسف وإخوته، قيل: إنه أخوه لأبيه يهوذا، والبشارة: المبادرة بالإخبار بالخبر السار بقصد إدخال السرور.

﴿أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾، أي: طرح قميص يوسف على وجه أبيه يعقوب.

﴿فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ﴾، أي: فرجع بصيرًا بعد إلقاء القميص على وجهه وشمه رائحة يوسف؛ كرامةً له وليوسف، وخارقًا للعادة.

﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾، أي: قال يعقوب لبنيه ومن بحضرته من أهله الذين كانوا يفندون رأيه وقوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ ۝٩٤﴾.

﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ يشير إلى قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨٦﴾ [يوسف: ٨٦].

يقول هذا مغتبطًا بنعمة الله تعالى عليه. أي: أعلم مما علمني الله ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، أي: الذي لا تعلمونه، أو الشيء الذي لا تعلمون من حياة يوسف؛ لهذا كنت مترجيًا للقائه، واثقًا بأن الله سيزيل هذا الهم والغم والحزن، ويجمع بيني وبينه.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨﴾.

سألوا أباهم الاستغفار لهم، وأقروا واعترفوا له بخطئهم؛ كما أقروا واعترفوا بذلك ليوسف بقولهم: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾.

قوله: ﴿قَالُواْ﴾، أي: قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا﴾، أي: اطلب من الله المغفرة لنا بستر ذنوبنا، والتجاوز عما فرط منا في حقك وفي حق يوسف.

﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾، أي: متعمدين للخطأ والذنب؛ حيث فعلنا معك ما فعلنا وآذيناك في نفسك وفي فلذة كبدك أخينا يوسف.

﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾هذا وعد منه عليه السلام بالاستغفار لهم، قيل: إنه أخر الاستغفار إلى وقت السحر؛ لفضيلة هذا الوقت، ولكونه أقرب لحضور القلب ومواطأته اللسان، وأرجى للإجابة؛ ولهذا امتدح الله المستغفرين فيه، فقال: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾ [آل عمران: ١٧].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليل لما قبله، لأنه عز وجل هو الغفور الرحيم، أي: ذو المغفرة الواسعة لذنوب عباده، وذو الرحمة الواسعة لهم، ولرحمته عز وجل بهم شرع التوبة لهم ووعدهم بالمغفرة.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، أي: فلما دخل أبوا يوسف وإخوته وأهله عليه في سكناه في أرض مصر.

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾، أي: ضم إليه أباه يعقوب وأمه راحيل، وقيل: أباه وخالته؛ لأن أمه قد توفيت، وقربهما إليه إحسانًا وبرًّا بهما، ومحبةً وتكريمًا وتبجيلًا لهما.

كما آوى إليه قبل ذلك أخاه بنيامين؛ شفقةً عليه وعناية به ورعاية له؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ [يوسف: ٦٩].

﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾، أي: وقال لجميع أهله: ادخلوا مصر، أي: ادخلوها دخول

استيطان واستقرار، وفي هذا ترحيب بهم وإشادة بسكنى مصر في ذلك العهد؛ لما فيها من الخيرات والعيش الهنيء.

﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، أي: بمشيئة الله تعالى آمنين من جميع المخاوف والمكاره، ومما كنتم فيه من الجدب والقحط، فدخلوا على هذه الحال السارة، وزال عنهم النصب والنكد والكدر.

قال ابن كثير(١): «ويقال والله أعلم: إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدبة ببركة قدوم يعقوب عليهم؛ كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة حين قال: «**اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»، ثم لما تضرعوا واستشفعوا لديه وأرسلوا أبا سفيان في ذلك، فدعا لهم، فرفع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه عليه السلام»(٢).

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، أي: على سرير الملك، أي: أجلسهما معه على سرير ملكه تكريمًا لهما.

﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ الخرور: الهوي إلى الأرض، أي: سجد له أبوه وأمه وإخوته؛ تحيةً له وتكريمًا وإجلالًا له وتبجيلًا، وليس على وجه العبادة، وكان هذا جائزًا في شرعهم.

قال ابن كثير(٣): «وقد كان هذا سائغًا في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة، فجعل السجود مختصًا بجناب الرب سبحانه وتعالى، هذا مضمون قول قتادة

---

(١) في تفسيره ٤/ ٣٣٥.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٢١، ومسلم في صفة القيامة ٢٧٩٨، والترمذي في التفسير ٣٢٥٤؛ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) في تفسيره ٤/ ٣٣٥- ٣٣٦.

وغيره»(١).

وفي الحديث: أن معاذًا قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ، فقال: «**ما هذا يا معاذ؟**» فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يسجد لك، فقال: «**لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها**»(٢).

وفي حديث آخر أن سلمان لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبي ﷺ، فقال: «**يا سلمان لا تسجد لي، واسجد للحي الذي لا يموت**»(٣).

﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾، أي: قال يوسف: يا أبي هذا السجود تعبير رؤياي من قبل التي رأيتها في صغري، وقصصتها عليك بقولي: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤﴾ [يوسف: ٤].

﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ «قد» حرف تحقيق، أي: قد صيرها ربي حقًّا، أي: حقيقة وأمرًا واقعًا صدقًا، فها أنتم سجدتم لي جميعًا، قيل: كان بين الرؤيا وتأويلها أربعون سنة، وإليه ينتهي أقصى الرؤيا، وقيل: بينهما نحو ثمانين سنة.

﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾، أي: وقد أحسن بي إحسانًا عظيمًا، وأحسن إلي، ولطف بي.

﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾، أي: حين أخرجني من السجن معززًا مكرمًا.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾، أي: من البادية وحياة الصحراء إلى حاضرة مصر، وكانوا أهل بادية وشاء وإبل، وفي الآية إشارة إلى أن الانتقال من البادية إلى الحاضرة نعمة؛ لما يلحق أهل البادية؛ كما في الحديث: «**من سكن البادية جفا**»(٤).

فذكر عليه السلام من نعم الله تعالى عليه إخراجه من السجن، والمجيء بأبويه

---

(١) انظر: «جامع البيان» ١٣/ ٣٥٥- ٣٥٦.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٣٨١، وابن ماجه في النكاح؛ حق الزوج على المرأة ١٨٥٣، من حديث معاذ رضي الله عنه.

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره ٤/ ٣٣٥.

(٤) أخرجه أبو داود في الصيد ٢٨٥٩، والنسائي في الصيد والذبائح ٤٣٠٩، والترمذي في الفتن ٢٢٥٦، وأحمد ٢/ ٣٧١؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقال الترمذي: حسن، صحيح، غريب.

وإخوته من البادية إليه، ولم يذكر إخراجه من الجب؛ لتمام عفوه عن إخوته، وترك اللوم والعتاب لهم؛ لقوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف: ٩٢].

﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، أي: من بعد أن أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي بوسوسته وإلقائه الحسد في قلوبهم.

ولم يقل: نزغ الشيطان إخوتي، بل قال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ فكأن الذنب والجهل صدر من الطرفين، وهذا من تمام عفوه وتواضعه، وليس هذا من التثريب عليهم، وإنما ذكره لأن النعمة بعد البلاء أحسن موقعًا.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾، أي: لطيف التدبير له والرفق به، يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، وإذا أراد أمرًا قيض له أسبابًا ويسره.

قال ابن القيم(١):

وهو اللطيف بعبده ولعبده ... واللطف في أوصافه نوعان

إدراك أسرار الأمور بحكمة ... واللطف عند مواقع الإحسان

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾، أي: ذو العلم الواسع لمصالح عباده ولكل شيء، الذي يعلم بواطن الأمور وظواهرها، وسرائر العباد وضمائرهم وغير ذلك.

﴿الْحَكِيمُ﴾، أي: ذو الحكم التام، والحكمة البالغة، الذي يضع الأمور مواضعها، خلقًا وشرعًا وتقديرًا، قولًا وفعلًا.

قوله تعالى: ﴿۞ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

لما أتم الله عز وجل على يوسف عليه السلام النعمة باجتماعه بأبويه وإخوته، مع ما منَّ الله به عليه من النبوة والملك وتأويل الرؤيا؛ دعا ربه بهذا الدعاء العظيم؛ مقرًا بنعمة الله تعالى عليه، شاكرًا لها، داعيًا بالثبات على الإسلام: ﴿۞ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا

---

(١) في «النونية» ص ١٤٩.

﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾.

قال ابن القيم: «جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد، والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غيره سبحانه، وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد، وطلب مرافقة السعداء»(١).

قوله: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾، أي: يا رب قد أعطيتني من الملك الشيء العظيم، وهو ملك مصر؛ حيث كان على خزائن الأرض وتدبيرها وزيرًا كبيرًا للملك.

﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، أي: من تعبير الرؤيا، وتأويل أحاديث الكتب المنزلة، وغير ذلك من العلم.

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: يا فاطر السموات والأرض، أي: مبدعها وخالقها.

﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾، أي: أنت وحدك ناصري ومتولي أموري في الدنيا والآخرة، وفي هذا تعظيم لله تعالى، وإقرار واعتراف أنه لا ولي له إلا الله في الدنيا والآخرة، ودعاء بأن يتولاه الله في الدنيا والآخرة، والولي: من يتولى دفع الضر عن العبد وجلب الخير له.

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾، أي: اقبضني إذا حانت وفاتي ﴿مُسْلِمًا﴾، أي: حال كوني مسلمًا والمعنى: وفقني للبقاء على الإسلام ما حييت، وتوفني عليه؛ ولهذا يقال في الدعاء: «اللهم أحينا مسلمين، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين».

وهذا ما تعبد اللهَ تعالى به الأنبياء وأتباعهم؛ ولهذا وصى بذلك إبراهيم بنيه ويعقوب؛ قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: ١٣٢].

وليس هذا من تمني الموت، وقد قال ﷺ: «**لا يتمنين أحدكم الموت لضرٍّ نزل به، فإن كان لا بد فاعلًا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي**»(٢).

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٧٦.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى- تمني المريض الموت ٥٦٧١و ومسلم في الذكر- كراهية تمني الموت ٢٦٨٠، وأبو

ولا يستثنى من هذا إلا عند حلول الفتن في الدين، وخوف الإنسان من الفتنة في دينه، كما قال سحرة فرعون: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وكما قالت مريم لما جاءها المخاض: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ [مريم: ٢٣].

وفي الحديث: «**والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدين إلا البلاء**»(١).

﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي: وألحقني بالصالحين من إخواني الأنبياء والمرسلين، الذين جمعوا بين الإخلاص لله تعالى واتباع شرعه، أي: مكني من اللحاق بهم وإدراكهم، واجعلني في عدادهم.

فسأل الله كما أتم عليه نعمته في الدنيا أن يحفظها عليه بقية عمره، حتى إذا حان أجله قبضه على الإسلام، وألحقه بالصالحين، وليس فيه تمني الموت.

وقد قيل: إن قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إنما قاله يوسف عليه السلام عند احتضاره؛ كما في حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت، ويقول: «**اللهم الرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى**»(٢).

الفوائد والأحكام:

١- مشروعية البشارة بالخير دينيًّا أو دنيويًّا، والسرور بحصوله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ﴾ الآية.

٢- رجوع بصر يعقوب عليه السلام إليه بعد إلقاء قميص يوسف على وجهه؛

داود في الجنائز ٣١٠٨، والنسائي في الجنائز ١٨٢٠، والترمذي في الجنائز ٩٧١، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٥؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ١٥٧، وابن ماجه في الفتن- شدة الزمان ٤٠٣٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي ٤٤٣٧، ومسلم في السلام- استحباب رقية المريض ٢٤٤٤.

لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًاۖ﴾ كرامة له وليوسف، وخارقًا للعادة.

٣- تذكير يعقوب عليه السلام لمن حوله من أهل وأولاد وأحفاد بقوله لهم: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾، أي: من أن يوسف حيٌّ، وأن الله سيجمع بيننا وبينه؛ لقوله عليه السلام: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ الآية.

٤- إطلاع الله تعالى أنبياءه ورسله على ما شاء أن يطلعهم عليه من علم الغيب، فإن يعقوب إنما علم بحياة يوسف، وأن الله سيجمع بينه وبينه من تعليم الله تعالى له من علم الغيب.

٥- ابتلاء الله تعالى وامتحانه لنبيه يعقوب بهذه المحنة العظيمة، والتفريق بينه وبين ابنه يوسف، الذي كان يحبه أشد الحب، ولا يصبر على فراقه ساعة واحدة أكثر من ثلاثين سنة، وحزنه وأسفه عليه حتى ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم.

ثم ازداد الأمر شدةً حين حصل الفراق بينه وبين ابنه الثاني «بنيامين» شقيق يوسف.

هذا وهو صابر لأمر الله محتسب الأجر، لا يشكو بثه وحزنه إلا إلى الله تعالى وحده، لا إلى أحد من الخلق، حتى كانت له العاقبة.

٦- أن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا، وأن الله عز وجل يبتلي أولياءه بالشدة والرخاء والعسر واليسر؛ ليمتحن بذلك صبرهم وشكرهم، ويزداد إيمانهم ويقينهم.

٧- استكانة أبناء يعقوب وخضوعهم له، وطلبهم منه الاستغفار لهم مما بدر منهم، واعترافهم بارتكابهم الخطأ عن عمد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾.

٨- وعده عليه السلام لهم بالاستغفار لهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓۖ﴾ قيل: إنه أجل ذلك إلى وقت السحر؛ لأنه أرجى للاستجابة.

٩- تحري الأوقات الفاضلة للدعاء، والتي هي أقرب لإجابة الدعاء والاستغفار وحضور القلب ومواطأته اللسان؛ ولهذا روي أن يعقوب أرجأ الاستغفار لأولاده إلى وقت السحر، وقيل: إلى ليلة الجمعة.

١٠- إثبات ربوبية الله الخاصة ليوسف عليه السلام؛ لقوله: ﴿رَبِّيٓ﴾ وقوله: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾.

١١- إثبات اسمين من أسماء الله تعالى، وهما: «الغفور»، و«الرحيم» وسعة مغفرته ورحمته.

١٢- إيواء يوسف لأبويه، وضمهما إليه لما دخلا عليه هما وإخوته وأهليهم؛ محبةً لهما، وشفقةً وبرًّا بهما؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾.

١٣- ترحيبه عليه السلام بأبويه وإخوته وأهليهم، وتهنئتهم بدخول مصر وسكناها، وزوال الخوف والقحط والجدب والنكد عنهم؛ لقوله: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

١٤- إثبات صفة المشيئة لله تعالى، وأنه لا يحصل شيء إلا بمشيئة الله عز وجل؛ لقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وقوله: ﴿لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ (١٠٠)﴾.

١٥- رفعه عليه السلام أبويه وإجلاسهما معه على سرير ملكه؛ تقديرًا واحترامًا لهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

١٦- سجود أبويه وإخوته؛ تحيةً له وإجلالًا وتكريمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ﴾، وكان هذا جائزًا في شرعهم والشرائع السابقة. أما في شرعنا فإنه لا يجوز السجود لغير الله، لا سجود عبادة، ولا سجود تحية وتكريم.

١٧- أن سجود أبويه وإخوته له تحقيق لرؤياه في صغره أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر له ساجدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ﴾.

١٨- ذكر يوسف إحسان ربه عز وجل به في إخراجه من السجن، والمجيء بأبويه وإخوته وأهلهم إليه من البدو؛ اعترافًا منه بعظيم إحسان الله تعالى وفضله عليه؛ لقوله عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾.

١٩- الإشارة إلى أنه عليه السلام إنما سجن ظلمًا لا بحق.

٢٠- أن سكنى الحاضرة أولى من سكنى البادية؛ لما في سكنى الحاضرة من رقة الطباع ولين الأخلاق، ولما في سكنى البادية من قسوة الطباع والجفاء.

٢١- نزغ الشيطان وإفساده بين الناس، حتى بين الإخوة؛ مما يوجب الحذر منه، والاستعاذة بالله من نزغاته ووساوسه؛ لقول يوسف عليه السلام: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾.

٢٢- تمام عفو يوسف عليه السلام وتواضعه؛ لقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ فكأن الذنب والجهل صدر من الطرفين، بل وكأنه من بدأ ذلك؛ لتقديمه قوله ﴿بَيۡنِي﴾.

٢٣- أن حصول النعمة بعد البلاء أشد أثرًا لها، وأعظم احتفاءً بها وتقديرًا لها؛ لقوله عليه السلام: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾.

فليس هذا من باب التثريب عليهم؛ لأنه قال لهم: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ﴾ [يوسف: ٩٢]، وإنما هذا من ذكر الشيء وضده، وكما قيل: «وبضدها تتميز الأشياء».

ولهذا قالوا: «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى».

٢٤- لطف الله تعالى لما يشاء، فهو يوصل بره وإحسانه إلى من يشاء بلطف ورفق به، ومن حيث لا يشعر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾.

ومن ذلك لطفه عز وجل بيوسف عليه السلام، وكيده له؛ حيث نقله الله بين تلك الأحوال، وابتلاه بما ابتلاه به؛ ليوصله إلى أعلى الغايات، وأعظم المقامات، ورفيع الدرجات.

قال ابن القيم: «فكاد الله له أحسن كيد وألطفه وأعدله؛ بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم؛ كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره، وكاد له عوض كيد المرأة بأن أخرجه من ضيق السجن إلى فضاء الملك، ومكنه في الأرض يتبوأ منها حيث شاء، وكاد له في تصديق النسوة اللاتي كذبنه وراودنه حتى شهدن ببراءته وعفته، وكاد له في تكذيب امرأة العزيز لنفسها، واعترافها بأنها هي التي راودته، وأنه من الصادقين، فهذه عاقبة من صبر على كيد الكائد له بغيًا وعدوانًا.

وكاد له بأن أوقف إخوته بين يديه موقف الذليل الخاضع المستجدي؛ فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [يوسف: ٨٨].

فهذا الذل والخضوع في مقابلة ذله وخضوعه لهم يوم إلقائه في الجب وبيعه بيع العبيد، وكاد له بأن هيأ له الأسباب التي سجدوا له هم وأبوه وخالته في مقابلة كيدهم له؛ حذرًا من وقوع ذلك، فإن الذي حملهم على إلقائه في الجب خشيتهم أن يرتفع عليهم حتى يسجدوا له كلهم، فكادوه خشية ذلك، فكاد الله تعالى له؛ حتى وقع ذلك كما رآه في منامه»(١).

٢٥- إثبات اسمين من أسماء الله تعالى وهما «العليم»، و«الحكيم» وإثبات صفة العلم الواسع له عز وجل والحكم التام، والحكمة البالغة له عز وجل.

٢٦- تحدث يوسف عليه السلام بنعم ربه عز وجل عليه؛ حيث آتاه الله من الملك، وعلمه من تأويل الأحاديث؛ ثناء منه على ربه عز وجل، واعترافًا بعظيم نعمه تعالى عليه، وحمدًا له وشكرًا؛ لقوله: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

٢٧- تعظيمه عليه السلام لربه عز وجل، واعتماده عليه، ودعاؤه إياه أن يتولاه في الدنيا والآخرة، وكما أتم عليه نعمه التي أعظمها نعمة الإسلام أن يحفظه بقية عمره على الإسلام ويتوفاه عليه، وأن يلحقه بالصالحين؛ لقوله: ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

٢٨- عظم قدرة الله تعالى في خلق السموات والأرض؛ لقوله ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: خالقهما على ما هما عليه من العظمة؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

٢٩- ولاية الله تعالى الخاصة ليوسف عليه السلام في الدنيا والآخرة؛ لقوله: ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

٣٠- إثبات الدار الآخرة؛ لقوله: ﴿وَالْآخِرَةِ﴾.

٣١- أن من أجل الدعاء وأفضله، ومما يندب الدعاء به أن يدعو المسلم ربه أن يثبته

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٢/ ٤٦١، ٤٧٢.

على دين الإسلام، وأن يحسن له الختام، ويتوفاه على الإسلام، وأن يلحقه بالصالحين.

٣٢- أن حياة الإنسان على الإسلام ووفاته عليه هي أعز وأجل مطلب؛ فهي النعمة الكبرى والمنحة العظمى؛ ولهذا جاء في الحديث: «**خيركم من طال عمره وحسن عمله**»(١).

٣٣- فضيلة الصالحين من الأنبياء والرسل وأتباعهم، وعلو منزلتهم، والترغيب في السير على خطاهم، واللحاق بهم، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم.

* * *

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٩- من حديث عبد الله بن بسر رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن غريب».

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ﴾ الإشارة لما قصه الله في هذه السورة العظيمة من خبر يوسف وأبيه وإخوته، وكيف رفع الله يوسف ونصره وآتاه النبوة والملك، وجعل العاقبة له، وحقق رجاء يعقوب؛ باجتماعه وأولاده وأهلهم بيوسف بعد غيبة طويلة، وخيب سعي إخوته ومكرهم السيئ به وبأبيه؛ لأن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ تجاه ما لقيه من قومه، بل من أقرب الأقربين إليه كبعض أعمامه وغيرهم، بما لقيه يعقوب عليه السلام من أبنائه، وما لقيه يوسف عليه السلام من إخوته؛ وكما قيل:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على النفس من وقع الحسام المهند[(١)]

﴿مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾، أي: من أخبار الغيب الهامة؛ لأن النبأ: الخبر الهام، والغيب: ما غاب عن الناس، ولم تدركه حواسهم، وهو مما اختص الله تعالى بعلمه، أي: ذلك من أخبار الغيب التي لا يعلمها إلا الله تعالى.

﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾، أي: نعلمك به؛ لما فيه من العبرة والعظة، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤].

قوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾، أي: وما كنت يا محمد حاضرًا عند إخوة يوسف.

---

(١) البيت لعنترة بن شداد. انظر: «ديوانه» (ص٢٧).

﴿إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ﴾، أي: حين عزموا ودبروا أمرهم، وتعاقدوا واتفقوا على التفريق بين يوسف وأبيه، وإلقاء يوسف في الجب؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾ [يوسف: ١٥].

﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ الجملة حالية، أي: وهم يدبرون السوء بخفية لأخيهم كيف يتخلصون منه؛ كما قال قائلهم: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾ [يوسف: ٩- ١٠].

ويمكرون للاحتيال على أبيهم لإرسال يوسف معهم؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾ [يوسف: ١١- ١٢].

والمراد: تهويل الأمر باستحضار صورة تداولهم له، وعزمهم وإجماعهم على هذا الأمر المشين في حق أخيهم وفي حق أبيهم.

أي: ما كنت حاضرًا عندهم؛ فتطلع على سوء ما أجمعوا عليه وعلى مكرهم، لكنا أوحينا إليك وأعلمناك بذلك، وفي هذا دلالة على أن ما جاء به ﷺ حق وصدق، وتعريض بالمشركين المكذبين للقرآن الكريم.

وخص- والله أعلم- بنفي حضوره لديهم حين أجمعوا أمرهم وهم يمكرون بالذكر دون بقية مشاهد القصة؛ لأن هذا هو أول القصة وأخفى أحوالها؛ كما ينبئ عنه قوله: ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾.

أشار عز وجل في الآية السابقة إلى أن ما قصه الله عليه ﷺ في هذه السورة من هذه القصة العظيمة من أنباء الغيب، مما فيه عظة وعبرة للمعتبرين وذكرى للذاكرين، ثم أتبع ذلك ببيان أن أكثر الناس مع هذا لا يؤمنون، وفي هذا تسلية له ﷺ وتقوية لقلبه.

قوله: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ «ما» نافية تعمل عمل «ليس»، و«أكثر» اسمها مرفوع، وجملة ﴿وَلَوۡ حَرَصۡتَ﴾ معترضة بين اسم «ما» وخبرها،

وقوله ﴿بِمُؤۡمِنِينَ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف في محل نصب خبر «ما»، أي: وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على إيمانهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ ۩ ٢٤﴾ [ص: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٦٧﴾ [الشعراء: ٦٧، ١٠٣، ١٢١، ١٣٩، ١٥٨، ١٧٤، ١٩٠].

والمعنى: وما أكثر الناس بمؤمنين ولو جهدت كل الجهد على إيمانهم، وبالغت في ذكر العبر والعظات، وفي إظهار الآيات القاطعات على صدقك؛ كما قال تعالى: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ٥﴾ [القمر: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس: ١٠١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾.

لما ذكر قلة المؤمن من الناس مع توارد العبر والعظات وظهور الآيات القاطعات، أتبع ذلك بنفي أن يكون هناك ثمة سبب يمنع من الإيمان: من مطالبتهم بالعوض والعزم على ذلك.

قوله: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ﴾، أي: وما تسأل الناس يا محمد على تبليغهم رسالة ربك، وما يوحيه الله إليك من أنباء الغيب ودعوتهم إلى الإيمان.

﴿مِنۡ أَجۡرٍۚ﴾ «من»: زائدة إعرابًا، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما تسألهم عليه من أيِّ أجر، لا قليل ولا كثير، بل تفعل ذلك ابتغاء وجه الله، ونصحًا لخلقه، وقيامًا بما أوجب الله عليك من إبلاغ رسالة ربك؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ «إنْ» نافية بمعنى «ما»، أي: ما هو، وضمير الفصل يعود إلى ما يوحيه الله تعالى إلى رسوله ﷺ من الكتاب والسنة، وما فيهما من القصص والعبر والعظات والآيات القاطعات، أي: ما هو إلا تذكير وعظة وعبرة للعالمين يتذكرون به ويهتدون به إلى ما يسعدهم وينجيهم في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

ذكر عز وجل عدم إيمان كثير من الناس مع أنهم لم يسألوا أجرًا على ذلك، ومع إنزال الآيات الشرعية تذكيرًا لهم، ثم أتبع ذلك بذكر كثرة الآيات الكونية التي يمرون عليها في السموات والأرض وهم عنها معرضون، وفي ذلك بيان قيام الحجة عليهم بالآيات الشرعية والكونية، وانتفاء عذرهم؛ إذ لم يطالبوا بغرم مقابل ذلك.

قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: وكثير من الآيات الكونية في السموات والأرض الدالة على عظمة الله تعالى وتمام قدرته، ووحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ووجوب الإيمان به، من كواكب وأفلاك، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وقفار شاسعات، وحيوان ونبات، وثمار مختلفات، وأحياء وأموات، وغير ذلك من سائر المخلوقات، فكلها دلائل وشواهد وآيات بينات.

قال الشاعر:

فوا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد[1]

﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾، أي: يمرون عليها ويشاهدونها في ذهابهم وإيابهم وتقلباتهم على مر الأوقات، ولا يستدلون بها على وجوب الإيمان بالله فاطر الأرض والسموات؛ ولهذا قال تعالى:

﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي: معرضون عن التأمل فيها، فلا ينظرون إليها بأبصارهم، ولا يتفكرون فيها بقلوبهم، بل هم عنها لاهون غافلون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

أخبر عز وجل فيما سبق بعدم إيمان أكثر الناس، ثم أخبر في هذه الآية أنه ما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون.

أي: وما يؤمن أكثر الناس ﴿بِٱللَّهِ﴾، أي: بوجوده وربوبيته.

---

(١) البيتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» (ص١٠٤).

﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ «إِلَّا» أداة حصر، والواو حالية، أي: إلا وهم مشركون في إلوهيته، يشركون معه غيره في المحبة والتعظيم والعبادة، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ (١٦٥)﴾ [البقرة: ١٦٥].

وكما حكى الله تعالى عن المشركين قولهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩٨)﴾ [الشعراء: ٩٧- ٩٨].

وكما يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك»(١).

وهو الشرك العظيم؛ كما قال لقمان: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان: ١٣].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي: الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وقد خلقك**»(٢).

ولهذا لا ينفعهم إيمانهم بربوبيته، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ (٥)﴾ [البينة: ٥].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(٣).

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧)﴾.

لما ذكر أن أكثر الناس لا يؤمنون، وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون توعدهم بالعقوبة في الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتهديد، أي: أفأمن هؤلاء المشركون؟

﴿أَن تَأْتِيَهُمْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أمنوا».

---

(١) أخرجه مسلم في الحج- التلبية وصفاتها ووقتها ١١٨٥؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة البقرة ٤٤٧٧، ومسلم في الإيمان- كون الشرك أقبح الذنوب ٨٦، وأبو داود في الطلاق ٢٣١٠، والنسائي في تحريم الدم ٤٠١٣، والترمذي في التفسير ٣١٨٢.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد؛ من أشرك في عمله غير الله ٢٩٨٥؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾، أي: عقوبة من عذاب الله تغشاهم وتغمرهم، وتحيط بهم جميعًا.

﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾، أي: أو تأتيهم القيامة وما فيها من الأهوال والعذاب.

﴿بَغْتَةً﴾، أي: فجأة.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: وهم لا يشعرون بذلك، أي: وهم لاهون غافلون.

كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ٤٥- ٤٧].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧- ٩٩].

الفوائد والأحكام:

١- أن ما ذكره الله تعالى في هذه السورة من هذه القصة العظيمة هو من أخبار الغيب التي يوحيها الله عز وجل إلى نبينا محمد ﷺ؛ لما فيها من التسلية له ﷺ، ولما فيها من العظة والعبرة؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.

٢- تشريفه ﷺ بخطاب الله تعالى له.

٣- اختصاص الله عز وجل بعلم الغيب؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦- ٢٧].

٤- الاستدلال على صدقه ﷺ وأن ما جاء به من الوحي حق وصدق، والتعريض بالمشركين المكذبين للقرآن، وتهويل ما أقدم عليه إخوة يوسف من الأذى والمكر في حق أخيهم يوسف وفي حق أبيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

٥- أنه ﷺ لم يكن حاضرًا عندهم حين أجمعوا على هذا الأمر المشين والمكر الكبَّار.

٦- أن أكثر الناس لا يؤمنون مهما حرص ﷺ على إيمانهم ومهما توافرت لهم الآيات والأدلة؛ حكمة بالغة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

٧- حرصه ﷺ على إيمان قومه وهدايتهم، وتسليته ﷺ؛ لعدم إيمان الكثير منهم.

٨- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الخلق، فأكثرهم على ضلال، قال بعض السلف: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين، ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين»(١).

٩- أنه ﷺ لم يسأل المشركين على تبليغهم رسالة ربه ودعوتهم إلى الإيمان أجرًا؛ فيعللون عدم إيمانهم بسبب هذا الغرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ ﴾.

١٠- ينبغي لمن تصدر للتعليم والدعوة والوعظ اجتناب ما يمنع من قبول كلامه.

١١- أن ما أوحاه الله للرسول ﷺ من القرآن والسنة ما هو إلا تذكير وعظة وعبرة للعالمين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

١٢- كثرة الآيات الكونية في السموات والأرض التي يمر بها المشركون ويشاهدونها، وهي دالة على عظمة الله وتمام قدرته، ووحدانيته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وهم عنها معرضون، فلا يتأملون فيها بالنظر بأبصارهم، ولا يتفكرون فيها بقلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

١٣- لا عذر لمن عدل عن الإيمان؛ لأنه لم يُسأل أجرًا وغرمًا مقابل ذلك، ولتوافر الآيات الدالة على وجوب الإيمان وقيام الحجة عليه.

١٤- أن أكثر الناس لا يؤمنون بالله إلا وهم مشركون، فيؤمنون بربوبية الله تعالى، ويشركون في إلوهيته؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

١٥- توبيخ المشركين وتهديدهم بالعقوبة العاجلة التي تحيط بهم في الدنيا، أو بإتيان الساعة بغتة وهم لا يشعرون بها؛ لقوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

١٦- خطر الشرك ووجوب الحذر منه كبيره وصغيره، جليه وخفيه، كالرياء، والحلف بغير الله، والطيرة، وتعليق التمائم، وغير ذلك.

قال ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» فسئل عنه فقال: «**الرياء**»(١).

وقال ﷺ: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**»(٢).

وفي حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه: «**من تعلق تميمة فقد أشرك**»(٣).

و قال ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»(٤).

و قال ﷺ: «**مَنْ رَدَّتْه الطيرة عن حاجته فقد أشرك**»(٥).

١٧- إثبات القيامة، وأنها لا تأتي إلا بغتة؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٠٧﴾ كما قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۝١٨٧﴾ [الأعراف: ١٨٧].

* * *

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٤٢٨- من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الطب تعليق التمائم ٣٨٨٣، وابن ماجه في الطب ٣٥٣٠، وأحمد ١/ ٣٨١، ٣٨٩؛ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ١٥٦.

(٤) أخرجه الترمذي في النذور والإيمان ١٥٣٥؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: «حديث حسن».

(٥) أخرجه أحمد ٢/ ٢٢٠؛ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾، أي: هذه السبيل سبيلي، أي: طريقتي ومنهجي ومسلكي وسنتي.

﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تفسير لسبيله ﷺ، أي: أدعو إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده، أي: سبيلي الدعوة إلى الله تعالى، وإلى الإيمان به وتوحيده لا شريك له، كما هي سبيل الرسل كلهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ جار ومجرور متعلق بـ «أدعو»، أو بمحذوف حال من فاعل «أدعو».

ويجوز أن يكون قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ خبرًا مقدمًا، و«أنا» مبتدأ مؤخرًا، ويكون الكلام قبله تم عند قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، فيكون الكلام على هذا جملتين، أخبر في أولاهما أنه يدعو إلى الله، وفي الثانية: أنه هو وأتباعه على بصيرة.

والمعنى: أنه هو وأتباعه على بصيرة في دعوتهم إلى الله.

ومعنى ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، أي: على علم ويقين وبرهان شرعي وعقلي.

وقوله: ﴿أَنَا۠﴾ ضمير منفصل مبني في محل رفع توكيد لفاعل «أدعو»، أو مبتدأ مؤخر، وخبره قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ مقدم.

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ الواو عاطفة، و«من» اسم موصول مبني في محل رفع معطوف على

الضمير المستتر فاعل «أدعو»، أو معطوف على المبتدأ المؤخر «أنا»، أي: والذي اتبعني يدعو إلى الله على بصيرة.

ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف، أي: والذي اتبعني داع إلى الله على بصيرة.

والمعنى: هذه سبيلي الدعوة إلى الله على بصيرة، وهي سبيل كل من اتبعني، وسلك سبيلي، وهي المتضمنة للعلم النافع والعمل الصالح،المؤدية إلى السعادة في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة والنجاة من النار، فأتباعه ﷺ حقًّا كلهم دعاة إلى الله تعالى، ولا يتحقق تمام اتباعه إلا بالدعوة إلى الله تعالى وتوحيده، ومجانبة الشرك.

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، أي: أُنزه الله وأُجله وأُقدسه وأُعظمه عما لا يليق بجلاله أو ينافي كماله، من الشريك والنظير، أو الصاحبة والولد، وغير ذلك: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

ويجوز حمل التسبيح في الآية على ما هو أعم من التنزيه، أي: على ما يشمل تنزيه الله عما لا يليق به، والتعبد له بأنواع العبادة.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: إنني بَراءٌ منهم ومن شركهم، كما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، قرأ حفص: ﴿نُّوحِىٓ﴾ بالنون وكسر الحاء، وقرأ الباقون: «يوحَى» بالياء وفتح الحاء.

والخطاب للنبي ﷺ، أي: وما أرسلنا من قبلك في الأمم السابقة ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾، «إلا» أداة حصر، أي: إلا رجالًا من بني، آدم ليس فيهم أنثى، وليسوا ملائكة، بل هم بشر من سائر البشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ

ﵟٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗﵞ [الفرقان: ٢٠].

وقال تعالى: ﵟوَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨ﵞ [الأنبياء: ٨].

وفي هذا الرد على المشركين في إنكارهم لرسالته ﷺ بدعوى أنه بشر؛ كما قال تعالى: ﵟوَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤ﵞ [الإسراء: ٩٤].

وقال تعالى: ﵟوَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧ﵞ [الفرقان: ٧].

فهو ﷺ بشر كغيره من الرسل؛ كما قال تعالى: ﵟقُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِﵞ [الأحقاف: ٩]. وقال تعالى: ﵟقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّﵞ [الكهف: ١١٠، فصلت: ٦].

ﵟمِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓﵞ، أي: من أهل المدن والحواضر، لا من أهل البوادي؛ لأن أهل الحاضرة أرق طباعًا وألين أخلاقًا، وأقرب إلى العلم وأهله، بخلاف أهل البادية، فإنهم أغلظ طباعًا، وأجفى أخلاقًا؛ لتأثرهم بحياة الصحراء، وهم أبعد عن التعلم؛ كما قال تعالى: ﵟٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗﵞ [التوبة: ٩٧].

قوله تعالى: ﵟأَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗﵞ الاستفهام للإنكار والتقريع، أي: لِمَ لم يسر هؤلاء المكذبون لك يا محمد في الأرض، فينظروا ويتأملوا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟ أو للتقرير، أي: أفليسوا يسيرون في الأرض وينظرون ويتأملون كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟

وقد يكون الاستفهام للتقرير، أي: أفليسوا يسيرون في الأرض وينظرون ويشاهدون كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كعاد وثمود لما كذبوا رسلهم؟ أي: كيف كانت عاقبتهم السيئة ونهايتهم المؤلمة؛ حيث حلت بهم المثلات، وأخذوا بأشد العقوبات؛ كما قال تعالى: ﵟفَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠ﵞ [العنكبوت: ٤٠].

فيحذروا أن يحل بهم ما حل بالمكذبين قبلهم، فتلك سنة الله تعالى في المكذبين فلن

تجد لسنة الله تحويلا، ولن تجد لسنة الله تبديلا، والسعيد من وعظ بغيره.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾ [الحج: ٤٦].

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته، واللام لام الابتداء للتوكيد، أي: ولدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم في الجنة.

﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ خير للذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وفي هذا تعريض بسلامة عاقبتهم في الدنيا، أي: ولدار الآخرة خير للمتقين من عاقبتهم في الدنيا، كما أن فيه تعريضًا بأن دار الآخرة أشد أيضًا على الذين من قبلهم من المكذبين من عاقبتهم في الدنيا، فحصل إيجاز بحذف الجملتين.

فنعيم الآخرة خير للمتقين مما أعطوا من التنعم في الدنيا، وعذاب الآخرة بالنار للمكذبين أشد مما عوقبوا به في الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢)﴾ [غافر: ٥١-٥٢].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ بتاء الخطاب على الالتفات، وقرأ الباقون بياء الغيبة: ﴿يعقلون﴾ على نسق ما قبله.

والاستفهام للإنكار والتقريع، أي: أفلا تنتفعون بعقولكم فتتفكرون بها في عاقبة الذين من قبلكم، وماذا حل بهم من العقوبات بسبب تكذيبهم، فتحذروا من سلوك سبيلهم بالتكذيب؛ لئلا يصيبكم ما أصابهم، وتعلموا أن الدار الآخرة خير للذين اتقوا؛ فتؤثرونها على الدنيا، ولا تؤثرون الذي هو أدنى على الذي هو خير.

قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)﴾.

قوله: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ «حَتَّى» حرف ابتداء، واستيأس مبالغة من «يئس»، أي: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان أقوامهم، مع كمال إيمان الرسل عليهم

السلام، وقوة يقينهم، وتمام تصديقهم بوعد الله.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ قرأ أبو جعفر، وحمزة، والكسائي، وعاصم بالتخفيف: ﴿كُذِبُواْ﴾، وقرأ الباقون بالتشديد: «كُذِّبوا»، أي: وظن الرسل وأيقنوا وعلموا أن أقوامهم كذبوهم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ خفيفة ذهب بها هناك، وتلا قوله: ﴿وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾ [البقرة: ٢١٤][(١)].

قال ابن أبي مليكة: «ذهب بها إلى أنهم ضعفوا فظنوا أنهم أخلفوا»[(٢)].

وفي رواية قال: «كانوا بشرًا فضعفوا ويئسوا»[(٣)].

وقيل: إن الضمير في «ظنوا» على قراءة التخفيف في «كُذِبوا» يعود إلى القوم، أي: وظن القوم أن الرسل قد كُذِبوا ما وعدوا من النصر.

قال ابن تيمية: «وقوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾، قد يكون مثل قوله: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الحج: ٥٢]، والظن لا يراد به في الكتاب والسنة: الاعتقاد الراجح؛ كما هو في اصطلاح طائفة من أهل الكلام في العلم، ويسمون الاعتقاد المرجوح «وَهْمًا». بل قد قال النبي ﷺ: «**إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذب الحديث**»[(٤)]، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ﴾ [يونس: ٣٦، النحم: ٢٨]. فالاعتقاد المرجوح هو ظن، وهو «وَهْمٌ»؛ وهذا الباب قد يكون من حديث النفس المعفو عنه؛ كما قال النبي ﷺ: «**إنَّ الله تجاوز لأمَّتي ما حدَّثتْ به أنفسَها، ما لم تكلَّمْ أو تَعملْ**»[(٥)].

وقد يكون من باب الوسوسة التي هي صريح الإيمان. كما جاء في الحديث: إن

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٥٢٥.

(٢) أخرج هذا الطبري في «جامع البيان» ١٣/ ٣٩٣ وغيره.

(٣) أخرجها الطبري ١٣/ ٣٩٣.

(٤) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في البر والصلة ٢٥٦٣، والترمذي في البر والصلة ١٩٨٨؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) سبق تخريجه.

أحدنا ليجد ما يتعاظم أن يتكلم به؟! قال: «الحمد لله الَّذي ردَّ كيدَه إلى الوسوسةِ»(١).

فهذه الأمور التي تعرض ثلاثة أقسام:

منها ما هو ذنب يضعف به الإيمان وإن كان لا يزيله. واليقين في القلب له مراتب.

ومنها ما هو عفو يعفى عن صاحبه.

ومنها ما يقترن به صريح الإيمان»(٢).

﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾، أي: جاءهم نصرنا بعد ضيق الحال وطول انتظار الفرج من الله في أحوج الأوقات؛ كما قال تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤].

﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ قرأ ابن عامر، ويعقوب، وعاصم بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء: ﴿فَنُجِّىَ﴾. وقرأ الباقون بنونين الثانية ساكنة وتخفيف الجيم وإسكان الياء: «فننْجيْ».

و«من»: موصولة، أي: فنخلص الذي نشاء من العذاب؛ وهم الرسل وأتباعهم المؤمنون.

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾، أي: ولا يمنع ولا يدفع عذابنا، ولا يرفع.

﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين ارتكبوا الجرائم، من تكذيب الرسل، وغير ذلك من الموبقات.

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

ختم الله عز وجل هذه السورة العظيمة بتعظيم ما ورد فيها من قصص يوسف وأبيه وإخوته، وما ورد من قصص الأنبياء، وما فيها من العبر والعظات لذوي الألباب، وتعظيم القرآن الكريم، ومصداقيته وتصديقه للكتب قبله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) دقائق التفسير ٣/ ٤/ ٣١٠.

﴿وَهُدَى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾ اللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، أي: والله لقد كان في قصص الأنبياء والرسل مع أقوامهم، وقصة يوسف مع إخوته وأبيه، وكيف كانت العاقبة للمتقين، والخيبة والخذلان والهلاك للكافرين.

﴿عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾، أي: عظة لأصحاب العقول السليمة الحية النيرة، يعتبرون بها ويتعظون، ويستدلون بها على عظمة الله تعالى وكماله ووحدانيته.

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾، أي: ما كان هذا القرآن وما جاء فيه من القصص وأنباء الغيب حديثًا يختلق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧]، أي: يختلق من دون الله، بل هو كلام الله عز وجل.

﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: ولكن تصديق الذي سبقه من الكتب السماوية بموافقته لها، وشهادته بصدقها وصحتها، وكونه مصداقَ ما أخبرت به، وكونه حاكمًا ومهيمنًا عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: وبيان كل ما يُحتاج إليه من أحكام الحلال والحرام، والأوامر والنواهي، والآداب والأخلاق، وأصول الدين وفروعه، ومن الأدلة والبراهين، وغير ذلك.

﴿وَهُدَى﴾، أي: وهدى هداية خاصة من الضلالة إلى الطريق المستقيم.

﴿وَرَحْمَةً﴾، أي: ورحمة خاصة، بها النجاة من النار والعذاب الأليم، والفوز بالجنة والثواب العظيم.

﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالله عز وجل، ويصدقون بالقرآن، ويعملون به، وإنما خص الذين يؤمنون؛ لأنهم هم الذين يصدقون بالقرآن ويعملون به، بخلاف الكافرين المكذبين؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤- ١٢٥].

أما من حيث الهداية العامة فالقرآن هداية لجميع الناس؛ كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم: ١].

الفوائد والأحكام:

١- أن النبي ﷺ مبلغ عن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾، وفي هذا رد على من يزعمون أنه افترى القرآن واختلقه من عند نفسه.

٢- أن سبيله ﷺ وسبيل أتباعه واضحة جلية، وهي الدعوة إلى الله تعالى والإيمان به، وتوحيده على بصيرة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴿١٠٨﴾﴾.

٣- تسبيح الله عز وجل وتنزيهه عن النقائص والعيوب وعما لا يليق به؛ لقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

٤- براءته ﷺ من الشرك وأهله؛ لقوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

٥- أنه لا يتم اتباعه ﷺ إلا بالدعوة إلى الله تعالى على بصيرة، والبراءة من الشرك وأهله.

٦- لا ينبغي أن يتصدر للدعوة إلى الله تعالى إلا من كان ذا علم ومعرفة وبصيرة بما يدعو إليه.

٧- إثبات الرسالات، وأن الرسل كلهم من البشر، ومن الذكور، ومن أهل الحواضر؛ ليسوا ملائكة، وليس فيهم أنثى، وليسوا من أهل البوادي؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ ﴿١٠٩﴾﴾.

٨- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له.

٩- حكمة الله تعالى في جعل الرسل للناس من البشر؛ إذ لو كانوا ملائكة ما استطاعوا الفهم منهم والأخذ عنهم.

١٠- أن مما خص الله تعالى به الرجال، وفضلهم به على النساء كون الرسل منهم، لما منحهم الله تعالى من خصائص عقلية وبدنية؛ ولهذا لم يكن في النساء رسل ولا نبيات، لكن منهن المصطفيات؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٤٢].

ومنهن المبشرات؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١].

ومنهن الصديقات؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

١١- أن الرسالة لا تثبت لأي أحد إلا بوحي الله تعالى إليه؛ لقوله تعالى: ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ قال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

١٢- أن الرسل كلهم من أهل المدن والحاضرة؛ لأنهم أقرب للعلم وأهله، وألين أخلاقًا، وأرق طباعًا من أهل البادية؛ لقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، أي: أهل المدن والحاضرة.

١٣- الرد على المشركين في إنكارهم لرسالته ﷺ وتكذيبهم له بدعوى أنه بشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾.

١٤- الإنكار على المشركين المكذبين وتقريعهم؛ لأنهم لم يسيروا في الأرض فينظروا ويتأملوا كيف كانت العاقبة السيئة المؤلمة للذين من قبلهم؛ لما كذبوا رسل الله؛ حيث أخذوا وأهلكوا بأشد العقوبات؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أو هو تقرير لهم، أي: أفليسوا يسيرون في الأرض وينظرون ويشاهدون كيف كان

عاقبة الذين من قبلهم؟

١٥- أن دار الآخرة خير من الدنيا للذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه مع سلامة عاقبتهم في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾.

١٦- إثبات الدار الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال.

١٧- الترغيب في تقوى الله عز وجل.

١٨- الإنكار على المكذبين في عدم انتفاعهم بعقولهم التي ميزهم الله بها عن البهائم، فلم ينظروا ويتأملوا كيف كانت نهاية المكذبين للرسل قبلهم، وما حل بهم من المثلات وشديد العقوبات، فيحذروا من ذلك، ويعلموا أن دار الآخرة خير للذين اتقوا، فيتقوا الله ويعملوا لها؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

١٩- أن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥-٦].

وفي الأثر: «لن يغلب عسر يسرين»[١].

٢٠- إمهال الله تعالى للمكذبين؛ ليرجعوا إلى الحق، إلى غاية أن ييأس الرسل من إيمانهم، ويتيقنوا من تكذيبهم لهم، ويشتد أذاهم لرسلهم.

٢١- يأس كثير من الرسل من إيمان قومهم، وتيقنهم تكذيبهم لهم؛ وكما قال ﷺ: «**يأتي النبي ومعه الرجل والرجلان، ويأتي النبي وليس معه أحد**»[٢]. وذهب ابن عباس- كما سبق- إلى أن الرسل يئسوا مما وعدوا به من النصر، وتلا قوله: ﴿وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ۝٢١٤﴾ [البقرة: ٢١٤].

٢٢- إنجاء الله تعالى الرسل وأتباعهم، وإهلاك المكذبين؛ لقوله تعالى: ﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

٢٣- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٤/ ٤٩٥- ٤٩٦ عن الحسن مرسلًا.

(٢) أخرجه البخاري في الطب ٥٧٥٢، ومسلم في الإيمان ٢٢٠؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٢٤- أن عذاب الله لا يرده راد، ولا يصده صاد عن القوم المجرمين المكذبين للرسل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد: ١١].

وفي هذا تحذير من الإجرام بالشرك، وتكذيب الرسل، وفعل الموبقات.

٢٥- أن في قصة يوسف وأبيه وإخوته وفي قصص الأنبياء كلهم عبرة وعظة لأصحاب العقول، يتعظون ويعتبرون بها؛ لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١١١﴾﴾.

٢٦- أن القرآن وما تضمنه من القصص والأخبار والمواعظ والحكم والأحكام وغير ذلك؛ ما كان حديثًا يختلق من دون الله، ولكنه كلام الله عز وجل.

٢٧- تصديق القرآن الكريم لما سبقه من الكتب السماوية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

٢٨- أن في القرآن تفصيل كل شيء مما تحتاجه الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

٢٩- أن القرآن الكريم هدى للمؤمنين هداية خاصة، به هدايتهم من الضلالة إلى الطريق المستقيم، ورحمة خاصة، بها سعادتهم في الدنيا والآخرة، ودخولهم الجنة، ونجاتهم من النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

٣٠- أنه إنما خص المؤمنين بكون القرآن هداية ورحمة لهم؛ لأنهم هم الذين يهتدون به ويعملون بمقتضاه.

٣١- الترغيب في الإيمان وتدبر القرآن، والاهتداء به.

* * *

فهرس الموضوعات

تفسير سورة يونس ٥
المقدمة ٧
أ- اسم السورة: ٧
ب- مكان نزولها: ٧
ج- موضوعاتها: ٧
تفسير قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ...﴾ الآيات [١-١٠] ١١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ...﴾ الآيات [١١-١٤] ٢٩
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ...﴾ الآيات [١٥-٢٠] ٣٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ...﴾ الآيات [٢١-٢٥] ٤٥
تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ...﴾ الآيات [٢٦-٣٠] ٥٥
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ الآيات [٣١-٣٦] ٦٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ الآيات [٣٧-٤٤] ٧٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ...﴾ الآيات [٤٥-٥٢] ٨١
تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ...﴾ الآيات [٥٣-٥٨] ٨٩
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ...﴾ الآيات [٥٩-٦٤] ٩٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ...﴾ الآيات [٦٥-٧٠]

.... ١٠٥

تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ ...﴾ الآيات [٧١-٧٤]........................ ١١٣

تفسير قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ ...﴾ الآيات [٧٥-٨٦].. ١٢٠

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا ...﴾ الآيات [٨٧-٩٣].. ١٣٢

تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ ...﴾ الآيات [٩٤-١٠٣].. ١٤٤

تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ الآيات [١٠٤-١٠٩].. ١٥٦

تفسير سورة هود.. ١٦٣

المقدمة.. ١٦٥

أ- اسم السورة:.. ١٦٥

ب- مكان نزولها:... ١٦٥

ج- موضوعاتها:.. ١٦٥

تفسير قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ ...﴾ الآيات [١-٥] ١٧٠

تفسير قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ ...﴾ الآيات [٦-١١].. ١٧٨

تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ ...﴾ الآيات [١٢-١٧].. ١٨٩

تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ ...﴾ الآيات [١٨-٢٤] ٢٠١

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ...﴾ الآيات [٢٥-٣٥].. ٢١١

تفسير قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ...﴾ الآيات [٣٦-٤٠] ٢٢٧

تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ...﴾ الآيات [٤١-٤٩] ٢٣٤

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ...﴾ الآيات [٥٠-٦٠] ٢٤٧

تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ...﴾ الآيات [٦١-٦٨] ٢٦٠

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ...﴾ الآيات [٦٩-٨٣] ٢٧٢

تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ...﴾ الآيات [٨٤-٩٥] ٢٨٩

تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ...﴾ الآيات [٩٦-١٠٩] ٣٠٤

تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ...﴾ الآيات [١١٠-١١٥] ... ٣١٧

تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ...﴾ الآيات [١١٦-١٢٣] ٣٢٦

تفسير سورة يوسف ٣٣٧

المقدمة ٣٣٩

أ- اسم السورة: ٣٣٩

ب- مكان نزولها: ٣٣٩

ج- موضوعاتها: ٣٣٩

تفسير قوله تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾...﴾ الآيات [١-٣] ٣٤٢

تفسير قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ...﴾ الآيات [٤-٦] ٣٤٦

تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ...﴾ الآيات [٧-١٥] ٣٥٤

تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ...﴾ الآيات [١٦-٢٢] ٣٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ...﴾ الآيات [٢٣-٢٩] ٣٧٤
تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ...﴾ الآيات [٣٠-٣٥] ٣٨٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ...﴾ الآيات [٣٦-٤٢]............ ٣٩٢
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ...﴾ الآيات [٤٣-٤٩] ٤٠٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ...﴾ الآيات [٥٠-٥٣].. ٤١٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ...﴾ الآيات [٥٤-٥٧] ٤٢١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ...﴾ الآيات [٥٨-٦٨] ٤٢٥
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ...﴾ الآيات [٦٩-٧٩] ٤٣٩
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ...﴾ الآيات [٨٠-٨٦] ٤٥٠
تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ...﴾ الآيات [٨٧-٩٥].. ٤٥٨
تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ...﴾ الآيات [٩٦-١٠١].. ٤٦٩
تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ...﴾ الآيات [١٠٢-١٠٧]..... ٤٨١
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ...﴾ الآيات [١٠٨-١١١] ٤٨٩
فهرس الموضوعات ٥٠١

* * *

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

دار ابن الجوزي 8428146
9 786038 274958